التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة النور

اعتنى به

أشرف بن كمال





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير

سورة الأنعام

سورة الكهف سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

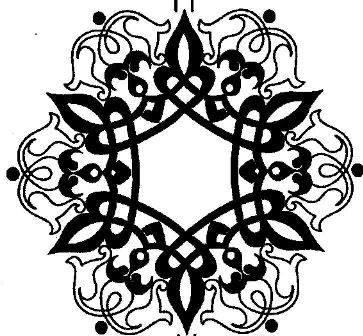


ALTABARI'S LIBERARY

سَنة الطَبْع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقم الطَبعة : الأولى



مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الأنعام

❁ **قال الله تعالى:**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]

❁ التفسير ❁

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، سبق أن شرحنا الكلام على البسملة، ثم نعيده على سبيل الاختصار: فقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ذكرنا أن هذا الاسم العظيم هو أصل الأسماء ولا يسمى به سوى الله عز وجل.

أما قوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ فالرحمن مشتق من الرحمة، ولكنه على صيغة فَعْلَان، وهذه الصيغة تدل على السعة والامتداد؛ فيكون معناه أنه ذو رحمة واسعة؛ ولهذا فسرها بعضهم بأن الرحمن ذو الرحمة العامة، ولكن الصواب أنه ذو الرحمة الواسعة يرحم من شاء عز وجل، فهي أدل على الوصف منها على الفعل؛ أي: أدل على وصف الله منها على الفعل.

أما ﴿الرَّحِيمِ﴾ فهي صيغة مبالغة من الرحمن، لكنها أدل على الفعل منها على الوصف فسبقت الرحمن، لأنها وصف، وأدركت الرحيم؛ لأنها فعل، فهو رحمن يرحم عز وجل، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه بالمؤمنين رحيمًا، والمراد: الرحمة الخاصة.

إذن الرحمن تدل على الوصف، والرحيم تدل على الفعل، أي على أنه يرحم.

وقد قسَّم العلماء رحمهم الله الرحمة إلى قسمين:

١- عامة.

٢- خاصة.

فأما العامة: فهي الشاملة لجميع الخلق: (المؤمن والكافر، البر والفاجر، الصغير والكبير، البهيم والعاقل).

فكل الخلق تحت رحمة الله عز وجل، لا يشذ أحد عن هذه الرحمة العامة.

وأما الرحمة الخاصة: فهي التي تختص بالمؤمنين فهي رحمة خاصة به.

والفرق بينهما أن الرحمة الخاصة تتصل برحمة الآخرة؛ فيكون لله عز وجل على المؤمنين رحمة في الدنيا ورحمة في الآخرة.

أما الرحمة العامة: فلا أثر لها إلا في الدنيا؛ ولذلك: الكُفَّار في الآخرة يعاملون بالعدل، لا يعاملون بالرحمة.

والبهائم وغير العاقل كذلك يعاملون بالعدل؛ لأن الله يقضي بينهم، ثم يأمرهن أن يكن ترابًا فيكن ترابًا ولا نعيم لها، فالرحمة إذن نوعان أو قسمان: عامة: تشمل جميع الخلق، وخاصة تتصل بالمؤمنين.

والفرق بينهما أن العامة إنما تكون في الدنيا فقط، والخاصة تكون في الدنيا والآخرة، فاللهم ارحمنا برحمتك!

وذكر هذين الاسمين الكريمين في البسملة التي تتقدم فعل العبد وقوله؛ إشارة إلى أن الله إذا لم يرحمك فلن تستفيد لا من هذا الفعل ولا من هذا القول؛ ولهذا قال النبي ﷺ وعلى آله: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ».

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (أل) هنا للاستغراق، إذن فالحمد من كل وجه ثابت لله عز وجل، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ إما للاختصاص وإما للاستحقاق، ولا تنافي بين المعنين وعلى هذا تكون للاستحقاق والاختصاص؛ لأن (أل) في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للعموم، ولا أحد يستحق الحمد على العموم إلا الله عز وجل فتكون اللام للاستحقاق وللاختصاص أيضًا.

ولكن ما هو الحمد؟ الحمد كثيرًا من الناس من يعرفه بالثناء على الجميل الاختياري، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأن الثناء يكون تكرار الحمد، والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي».

وهذا يدل على أن الثناء هو تكرار الوصف الكامل، والاشتقاق يدل عليه؛ لأن الثناء من الثني: وهو إعادة الشيء أو رد الشيء بعضه إلى بعض.

وأما قولهم: على الجميل الاختياري، فهو أيضًا بالنسبة إلى الله عز وجل غير صحيح؛ لأن الله يحمد على ما يفعله عز وجل، وهو يختار ما يشاء ويحمد على كمال صفاته اللازمة التي لا تتعدى إلهًا فهو محمود على كمال حياته ومحمود على كمال قيوميته، فالأول وصف لازم، والثاني وصف متعدٍّ، وهو لازم أيضًا كما سبق تفسيره.

إذن الصواب: أن حمد الله يكون على أفعاله التي يختارها وعلى صفاته الكاملة اللازمة له.

فبماذا نعرفه إذن؟

نقول: الحمد وصف المحمود بالكمال حبًّا وتعظيمًا، فالحمد وصف المحمود بالكمال اللازم والمتعدي حبًّا وتعظيمًا؛ لأن الوصف بالكمال فقط ناقص في حق الله، فقد تصف شخصًا ما بالكمال لا محبة له لكن رجاء لما سيجازيك به، وقد تمدحه لا على سبيل المحبة والتعظيم ولكن خوفًا من شره.

فالحمد إذن لابد أن يقيد بأنه على وجه المحبة والتعظيم، فإن لم يكن على وجه المحبة والتعظيم فهو مدح، وانظر إلى عمق اللغة العربية كيف فرقت بين حمد ومدح مع تساويهما في الحروف نوعًا وعددًا!

فالحروف ثلاثة - هذا العدد - والنوع هو نفس الحروف [ح - م - د] لكن اختلاف الترتيب في الحروف [حمد، ومدح] ولاختلافهما في الترتيب اختلف معناهما، والنسبية بينهما الخصوص والعموم، فكل حمد مدح وليس كل مدح حمدًا؛ لأن الحمد - كما قلنا - لا بد أن يكون على وجه المحبة والتعظيم، ولا مدح بخلاف ذلك، فقد يمدح الرجل سلطانًا أو وزيرًا أو ما أشبه ذلك لا محبة له ولا تعظيمًا له، ولكن يرجو نواله، أو يخاف منه، أما حمد الله عز وجل أو الحمد فلا.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ الفروق بينهما في كتابه: «**بدائع الفوائد**» الذي حثنا شيخنا عليه حين الطلب وقال: إنه كتاب عظيم، وهو كذلك، ويشبهه من بعض الوجوه «**صيد الخاطر**» لابن الجوزي، لكن من حيث العمق والمعنى والفائدة لا سواء ولا مقارنة، فهو رَحِمَهُ اللهُ بين بيانًا واضحًا الفروق بين الحمد والمدح، وبحث هذا المبحث حتى أنضجه طبخًا، وقال: إن شيخنا - يعني: ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - كان إذا بحث في مثل هذه الأمور أتى بالعجب العجاب رحمه الله، ولكنه كما قيل:

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ نَجْدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ ... إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنِّي عَنْكَ مَشْغُوْلُ

فينشغل الإنسان، وليس عنده التفرغ لأن يتلكم في مثل هذه الأمور، بل يتكلم بما هو أعظم.

إذنْ فالحمد هو وصف المحمود بالكمال على وجه المحبة والتعظيم لله، وقلنا: اللام للاستحقاق والاختصاص، ولا أحد يستحق الحمد كاملًا من كل وجه إلا الله عز وجل، وهذا الحمد المتبوع خاص بالله عز وجل، فهو جل وعلا المستحق لأن يحمد والحمد الكامل مختص به.

أما ﴿ٱللَّهِ﴾ فهي علم على الله عز وجل، والتعبير بها أحسن من التعبير بغيرها.

لكن نجد بعض الناس الآن يعبر فيقول قال الحق كذا وكذا، وهذا صحيح فإن الله هو الحق المبين، لكن اجعل عبارتك على عبارة السلف؛ فهم يقولون: قال الله، أو قال ربنا، أما قول القائل الحق أوكد للإنسان؛ لأجل فتح الأذهان؛ حيث يقول السامع: من هذا الحق؟ لكن نقول: قال الله التي بُنِيَتْ عليها الألوهية والعبادة أحسن، ولكن لا بأس أن نقول: قال ربنا، أو قال ربكم، كما

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لأصحابه أحيانًا: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

وقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ مُشتقة من الإله؛ لا مشتقة من الألوهية، وأَلِه بمعنى: تعَبَّد وليست بمعنى تَحَيَّر كما زعمه البعض؛ لأن الإنسان إذا قال: الله فليس هناك تحير، لأنه سيجد ربًّا معينًا، فلا حيرة فيه.

إذنْ يكون أصلها الإله، لكن حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وقالوا: إن نظيرها الناس وأصلها الأناس، ومثلها كلمة خير وشر وأصلهما أخير وأشير، إذن الله أصله الإله وهي من أَلِهَ له أو تعبد له.

فإن قيل: هل هو مشتق أو جامد؟

نقول: الصواب أنه مشتق، وأنه لا يوجد اسم من أسماء الله، ولا من أسماء الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا من أسماء القرآن يكون جامدًا أبدًا؛ لأن الجامد معناه ألَّا معنى له إلا الدلالة على المعين فقط؛ لأن العلم كما قال ابن مالك:

اسْمُ يُعَيِّنُ المُسَمَّى مُطْلَقَا ... عَلَمُهُ كَجَعْفَرٍ وَخِرْنَقَا

فلو قلنا: إن أسماء الله أو أسماء الرسول أو أسماء الكتاب العزيز جامدة، فمعناه أنها لا تدل إلا على تعيين المسمى فقط، ولكن نقول: هي مشتقة تدل على تعيين المسمى وعلى المعنى الذي اشتقت منه.

إذن الله مشتقة من الإِله؛ بمعنى التعبد لله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ وصف للفظ الجلالة.

وقوله: ﴿خَلَقَ﴾ أي: أوجدها على تقدير محكم؛ لأن الأصل في الخلق لغةً هو التقدير، كما قال الشاعر:

فَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ... ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

يفري: يعني يفصل، تفري ما خلقت: يعني ما قدرت ولا يمنعك أحد.

فالخلق إذن هو الإيجاد على وجه التقدير المحكم.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مفعول خلق، ولا مانع أن نقول: إنها مفعول خلافًا لمن قال: إنه لا يصح أن تكون مفعولًا؛ لأن المفعول لابد أن يرد الفعل عليه وهو موجود، وخلق السماوات والأرض ورد عليها قبل أن تُقسم، ولكن هذا تكلف والصواب الذي عليه أكثر المعربين أن السماوات مفعول به.

و ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: من سَمَى يَسْمُو إذا علا، وقد بيَّن رب العالمين أنها سبعٌ، وأنها طباق، وأنها شداد، وأنها مبنية بأيد؛ أي: بقوة.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوفة على السماوات وهي لفظ مفرد؛ لأنه لا يمنع التعدد إذا ثبت أنها

متعددة، ولو لم يثبت أنها متعددة نقول: بأنها واحدة، هذا مقتضى اللفظ، لكن نقول: إن المراد بها الجنس، وحينئذٍ لا ينافي التعدد، وهي متعددة بدلالة ظاهر القرآن وصريح السنة.

أما ظاهر القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي: في العدد.

ولا يمكن أن يقول قائل: إن هذا من العظمة لهن في الكيفية والصفة، ما أحد يقول بهذا؛ لأن الفرق بين السماء والأرض واضح، فيتعين أن يكون المراد: العدد، وهو كذلك.

أما السنة فصريحة، قال النبي ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ» فالمراد بالأرض الجنس، ولا يُنافي هذا التعدد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (جعل): بمعنى خلق، ولكن إذا كانت جعل بمعنى خلق، فما هي الحكمة في أن عُبِّر عن الخلق بالجَعْل؟

قيل: إن الحكمة هي: التضمن في العبارة، يعني: تغيير العبارة أو اللفظ مع اتحاد المعنى أحيانًا يكون من البلاغة، وقيل: إن الحكمة من ذلك أن النور لا يمكن أن يقوم إلا بغيره، أي: نور الشمس لا يمكن أن يتبين إلا أن يكون هناك جسم قابل له؛ ولذلك ما بيننا وبين الشمس ظلمة ليس هناك نور؛ لأن النور لا يمكن أن يظهر أثره إلا أن يكون مقابلًا بجسم.

إذن الآن الفرق موجود بين أن تقابل الشمس جسمًا قابلًا للحرارة وجسمًا غير قابل، وجسمًا قابلًا لنصاعة البياض وجسمًا غير قابل؛ لأن النور لا يمكن أن يكون قائمًا بنفسه، ولا يتبين إلا إذا كان منقلسًا على الجسم فهذا هو الحكمة من قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾.

وهناك حكمة أخرى هي: أن الظلمات والنور تكون حسِّية ومعنوية؛ فظلمة الليل حسية، وظلمة الجهل معنوية.

كذلك النور؛ فنور النهار يكون حسيًّا، ونور العلم والإيمان معنويًّا، ومن نور العلم والإيمان استنارة القلب بكلام الله عز وجل، وكلام الله تعالى غير مخلوق مع أن القرآن يسمى نورًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، فلذلك عبَّر الله عز وجل بالجعل؛ لأنه يتعلق بالمخلوق وغير المخلوق.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف معروف ويفيد العطف والتراخي وإن شئت فقل: يفيد الترتيب والتراخي؛ فيكون معنى الآية: ثم مع ظهور هذا الأمر - وهو خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور - الذين كفروا بربهم يعدلون؛ مع ظهور الآيات، ولا شك أن كفر الكافرين مع ظهور الآيات أشد في اللوم والتوبيخ ممن ليسوا كذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ هل نجعلها متعلقة بكفروا، أو

نجعلها متعلقة بـ﴿يَعۡدِلُونَ﴾؟ يحتمل الاثنان فمحتمل أن تكون كفروا بربهم يعدلون أي يعدلون به غيره، ويحتمل أن تكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منفصلة عن قوله: ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، ويكون الذين كفروا يعدلون بربهم؛ أي: يجعلون غير الله معادلًا لله تبارك وتعالى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: ثم بعد هذه الآيات العظيمة الظاهرة البينة الذين كفروا يعدلون بربهم أي: يعدلون به غيره؛ أي: يجعلونه عديلًا له وندًّا له.

في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ هل الجار والمجرور ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾ أو بـ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾؟

الجواب: الأولى أي: أن يكون متعلقًا بـ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾؛ لأن هذا هو المعنى المطابق، أما الذين كفروا فمعروف أن المراد: كفروا بربهم، وإنما قدم على عامله مراعاة لفواصل الآيات؛ لأن الفواصل إذا جاءت متناسقة فإن ذلك يكون ألذ على السمع وأقبل للنفس، وأتى بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على التراخي؛ ليدل على أنه بعد أن تأملوا ونظروا، وعلموا؛ كفروا ـ والعياذ بالله ـ وعدلوا به غيره، فجعلوا له أندادًا.

الفوائد:

١ - في هذه الآية الكريمة من الفوائد: ثناء الله على نفسه، بل حمد الله تعالى نفسه على أن خلق السماوات والأرض، وهذا حمد عند ابتداء الخلق ـ أي خلق السماوات والأرض ـ وهناك حمد آخر عند انتهاء الخلق، كما في آخر سورة الزمر حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. قيل: أي: قاله كل العالم: الحمد لله رب العالمين.

وحمد نفسه تبارك وتعالى على تنزُّهه من كل عيب ونقص وكبريائه وعظمته فقال تعالى: أي: قاله كل العالم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١].

وحمد نفسه تبارك وتعالى على تنزُّه من كل عيب ونقص وكبريائه وعظمته فقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

وحمد نفسه تبارك وتعالى على إنزال القرآن الكريم فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [الكهف: ١، ٢]، فالله تعالى يحمد نفسه عند الأمور العظيمة؛ لأن هذه الأمور العظيمة توجب للعبد المتأمل أن يحمد الله عز وجل على كمال صفاته، وعلى كمال إفضاله وإنعامه.

٢ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن خالق السماوات والأرض هو الله عز وجل، ولا أحد ادعى أنه خلق السماوات والأرض، والمشركون لو سُئلوا عن خالق السماوات والأرض

لقالوا: الله.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن السماوات مخلوقة وليست أزلية؛ لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فيكون في ذلك رد على الفلاسفة الذين قالوا بقدم هذا العالم وأنه أزلي، فإن قولهم هذا مردود بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السماوات جمع؛ لأنها جمعت، وعددها سبع سماوات بنص القرآن.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التفريق بين ذكر السماوات والأرض؛ حيث ذكر السماوات جمعًا، والأرض مفردة؛ وذلك لأن السماوات أعظم من الأرض بل أعظم بكثير، لا من جهة ارتفاعها ولا سعتها ولا شيء من هذا، بل لأن ما في السماوات هو أعظم مما في الأرض، قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

٦ - **ومن فوائد هذا الآية الكريمة:** أنه قد يعبر بالمفرد ويراد به الجنس فيعم ما كان زائدًا على المفرد؛ لقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ .

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ما قد يؤخذ منها؛ أن من ملك ظاهر الأرض فقد ملك أسفلها، حتى لا يقال: إنه ليس لك إلا أرض واحدة، فلا تملك الأرض التي تحكمها.

وقد قرر هذا العلماء رحمهم الله فقالوا: إن مالك الأرض يملكها إلى الأرض السابعة وعلى هذا دل الحديث أن النبي ﷺ قال: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ**».

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التعبير المختلف بين خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، فإن لقائل أن يقول: لماذا اختلف التعبير، هل هو مجرد اختلاف لفظ، أو هناك فرق؟

نقول: جعل: تأتي بمعنى خلق بلا شك، ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فدل ذلك على أن (خلق وجعل) معناهما واحد، وعلى هذا فيكون المراد التفريق هنا لمجرد اختلاف اللفظ فقط.

وقيل: بينهما فرق، فالخلق إنشاء لذات المخلوق وأصل المخلوق، والظلمات وصف في المخلوق، وكذلك النور؛ ولهذا لا تجد للنور جسمًا يشاهد أبدًا، انظر إلى النور لا يظهر إلا على سطح، أما في الفضاء فلا يظهر النور، وما نشاهده أحيانًا من السهم الأبيض إذا ضربنا بشيء له هوة من الضوء ليس هنا بنور، لكنه انعكاس ذرات صغيرة في الفضاء وليس هو النور، بل هو انعكاس.

فلما كان النور والظلمات ليسا شيئًا محسوسًا وإنما يظهران في غيرهما؛ عبر عنهما بكلمة (جعل)، وهذا لا شك أنه أبلغ من أن نقول: إنه ليس بينهما فرق، وإنما اختلف اللفظ فقط.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ما يحصل من جمع الظلمات وإفراد النور، قيل:إن النور أفرد؛ لأنه شيء واحد، والظلمات جمعت؛ لأنها تختلف اختلاف الجُرم، أي: الجرم الذي حصل فيه الظلمة، فمثلًا لو كان معك زجاجة مشمَّعة وجعلتها بين اللمبة وبين الأرض صار بها الظلمة لكنها خفيفة، وإذا جعلت شيئًا ثقيلًا صارت ظلمة سوداء بينة؛ ولذلك جمعت الظلمات من حيث إن الظلمة تختلف بحسب الجسم الذي أوجدها، أو الذي وجدت به، فجمعت.

وقيل: لأن الظلمات هي الأصل، والنور طارئ عليها، والظلمات معروف أنها تختلف، فمثلًا الظلمات في وقت تكون السماء فيه ملبدة بالغيوم ليس كما إذا كانت السماء صحوًا، والظلمات في قاع البحر ليست كالظلمات في سطح البحر، وهلمَّ جرًّا.

هذا إذا ما قلنا: إن المراد بالظلمات والنور ما كان حسيًّا منهما، أما إذا قلنا: ـ وهو الصحيح كما قررناه ـ إنه يشمل الظلمات الحسية والمعنوية وكذلك النور الحسي والمعنوي، فالأمر ظاهر؛ لأن شُعب الكفر كثيرة، والإيمان شيء واحد وفروعه مجرد فروع، وإلا فالأصل ثابت؛ وأن صراط الله تعالى واحد والطرق الأخرى متعددة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية:** سفه الكفار، وأنه لا عقول لهم، وجهه: أنه بعد ظهور هذه الآيات العظيمة عدلوا بالله عز وجل، أي: جعلوا له عديلًا وندًّا، وهذا يدل على سفههم وإن كانوا أذكياء.

ويؤيد هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وبأن الله تعالى دائمًا ينعى على الكفار فقدهم العقل فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] والآيات في هذا كثيرة.

وهذا هو الحق أن الكفار ليسوا عقلاء والمراد بنفي العقل هنا نفي عقل التصرف وليس عقل الإدراك؛ فهم عقلاء من جهة الإدراك؛ ولهذا تلزمهم الطاعات ويلزمهم الإسلام، لكنهم ليسوا عقلاء من حيث التصرف، بل هم سفهاء.

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ عن المتكلمين: إنهم أوتوا فهومًا ولم يؤتوا علومًا، وأوتوا ذكاء ولم يؤتوا زكاءً، وهم عندهم فهم لكن ما عندهم علم - يعني: بالشريعة - وعندهم إدراك لكن ما عندهم عقل.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ربوبية الله تعالى عامة للمؤمن والكافر، وذلك في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فجعل الله سبحانه وتعالى نفسه رَبًّا لهؤلاء، ولا

إشكال فيها.

هذه هي الربوبية العامة، لكن هناك ربوبية خاصة في المؤمنين تقتضي الكلاءة والعناية والحفظ والتربية، وقد اجتمع النوعان في قول سحرة فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ فالأولى عامة والثانية خاصة.



قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]

التفسير

إن الله عزَّ وجلَّ لما ذكر خلق السماوات والأرض ثنى بخلقنا نحن فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ والطين هو التراب المبلول بالماء أو المخلوط بالماء وهو معروف وذلك بخلق أصلنا، وهو آدم، أما الإنسان فقد خلق من ماء مهين أي: من النطفة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾، أي: قدَّر أجلًا انقضى وانتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ ﴿مُّسَمًّى﴾ يعني معلوم عند الله، وهنا الأفضل أن تقف ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ولا تَصِلْ؛ لأن الوصل قد يُشعر بالتناقض، وجهه: أن الأول مصروف، قال تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ والثاني مرفوع ﴿وَأَجَلٌ﴾.

والحكم أيضًا مختلف كما سيتبين إن شاء الله في الفوائد.

وقوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ أي: عند الله وهو قيام الساعة، فإن هذا مما يختص الله به عز وجل، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فهذا عند الله لا يعلمه أحد، ولا أحد يعلم عن انقضائه، أما الأجل الأول فنحن نعرف انقضائه، فإذا وجدنا الرجل أنشأه الله ثم أماته؛ فقد انقضى الأجل أي: قضى الله أجله وعرفناه، لكن الأجل المسمى المعلوم عند الله عز وجل يختص الله بعلمه.

وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد أن عرفتم أنكم خلقتم من طين، وأن الآجال تنقضي بعلم منكم، وأجل آخر غير معلوم بعد كل هذا ﴿تَمْتَرُونَ﴾، والامتراء: هو الشك؛ أي: تشكُّون في البعث.

فانظر الآن كيف ذكرت الآية الأولى شرك هؤلاء بربهم يعني: الكفار ثم ذكر نوعًا آخر وهو الكفر باليوم الآخر؛ لأن الشك مما يجب فيه اليقين كفر.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ابن آدم حادث بعد أن لم يكن، تؤخذ من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد، فمن عمره عشرون سنة هو قبل إحدى وعشرين لم يكن شيئًا مذكورًا فأوجده الله، ففيه دليل على حدوث بني آدم، وأنهم مخلوقون من العدم.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة** الإشارة إلى أصل بني آدم وأنهم من الطين، والطين من الأرض؛ وقد قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

فإن قال قائل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]؟

الجواب: الجمع بينهما سهل؛ وذلك أن أصل بني آدم تراب، صُب عليه الماء فصار طينًا، بقي زمنًا مدة طويلة فصار صلصالًا له صوت إذا ضربته بأصبعك، فلا خلاف ولا تناقض، واعلم أنه لا يمكن أن يقع التناقض بين دليلين قطعيِّين أبدًا؛ لأنه لو وجد تعارض بينهما لم يكونا قطعيِّين؛ لأن معنى القطعية أن غيره لا يمكن، فلا يمكن التعارض بين دليلين قطعيِّين أبدًا؛ لا في القرآن ولا في السنة، ولا فيما بين القرآن والسنة، ولا بين الأدلة العقلية والنقلية، فهذا لا يمكن؛ لأنه لو تصورنا هذا فأحدهما قطعًا غير صحيح؛ إذ إن الدليلين القطعيين النسبة بينهما التناقض، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فلابد من وجود أحدهما، ولا يمكن أن يجتمعا ولا أن يرتفعا، فإذا تراءى لك التعارض بين دليلين قطعيين؛ فاعلم أن الخطأ عند فهمك، وأنه يمكن الجمع بينهما، وإما أن يكون أحدهما ليس قطعيًّا، ويكون الحكم في قطعه.

أما إذا كانا ظنِّيين فيمكن - أي: يمكن التعارض - وحينئذ ينظر للترجيح.

فإذا كان في القرآن ما ظاهره التعارض على وجهٍ قطعي فاعلم أن هذا لا يمكن أبدًا، فإما أن تكون الدلالة غير قطعية، وإما أن يكون الحكم منسوخًا، أما أن يبقى الحكم والدلالة قطعية في الآيتين مثلًا فإن ذلك لا يمكن.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحكم لله عز وجل وحده؛ لقوله: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، ولا أحد يغيِّر في هذه الآجال.

٤ - **ومن فوائدها:** أن من مات مقتولًا فقد مات بأجله الذي قدره الله له؛ لأن الله قضى، فلا يقال: لولا أنه قتل لم يمت، هذا مستحيل؛ لأن الله قضى عليه أن يموت بالقتل، فهو مقتول بأجل.

فلو قال قائل: لولا أن هذا الرجل قتل مثلًا الساعة الثانية عشرة من النهار لأمكن أن يتردَّى حتى الساعة الواحدة؛ ماذا نقول؟

نقول: لا يمكن أبدًا؛ لأن الله قضى هكذا فلابد أن يقع، فكل ميت ميتٌ بأجل مقدر له، ما

يتقدم ولا يتأخر، لكن السبب قد يتقدم ويتأخر بحسب نظر الإنسان، كما أن طول العمر لصلة الرحم أيضًا مقضيٌّ، لا يمكن أن نقول: لو كان هذا عاقًّا لمات قبل أن يموت إذ كان واصلًا؛ لأنا قلنا: إن الله قدر أن يكون واصلًا وأن يتأخر عمره، فإذا قضى الله أجلًا لا يمكن أن يتغير.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأجل المعلوم عند الله ـ الذي هو الساعة ـ لا أحد يصل إلى العلم به، وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، حتى إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم سأله جبريل ـ وجبريل أفضل الملائكة ومحمد أفضل البشر ـ عن الساعة فقال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» فإذا كان هذان الرسولان الكريمان لا يعلمان متى الساعة؛ فَمَنْ دونهما من باب أولى.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: النداء بالبلاهة والغفلة لأولئك القوم الذي عرفوا أصلهم ومنشأهم فيمترون بما هو لأجل مسمى عند الله وهو يوم القيامة.

فإن قيل: في سورة الجاثية احتج الذين ينكرون البعث وقال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، فماذا تقولون في هذه الدعوى؟

نقول: إنها غير صحيحة؛ لأن الذين أخبروا بالقيامة ما قالوا: الآن يبعثون، حيث لم يأت الوقت بعد، لكن هذا من باب التشفيق الذي يقصد به إذلال الخلق.



قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣]

التفسير

قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿اللَّهُ﴾: علم على الرب عز وجل، لا يكون لغيره وهذا متفق عليه بين المسلمين، وهو علم مشتق من الألوهية، وأصله (الإله)، واعلم أن جميع أسماء الله مشتقة وليس فيها اسم جامد لله عز وجل أبدًا.

وقوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ متعلقة بالاسم؛ لأننا قلنا: إن هذا الاسم مشتق، والمشتق يجوز التعلق به حيث قال ناظم القواعد ـ قواعد الجمل ـ:

لَابُدَّ فِي الْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

إذن: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ متعلقة بلفظ الجلالة؛ لأنه مشتق والمشتق يجوز تعلق الجار والمجرور به، ولكن ما معنى ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾؟

نقول: المعنى: أنه على السماوات، وليس المراد أنه فيها، وأنها محيطة به؛ لأن هذا مستحيل والله

تعالى أكبر من كل شيء، أو نقول: إن المراد المعنى وليس الذات، والمعنى بأنه مألوه في السماوات، يتأله إليه أهل السماوات.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ الواو حرف عطف، والأرض معطوفة على السماوات فيكون المعنى: الله في السماوات وفي الأرض؛ أي: مألوه في السماوات وفي الأرض، فتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٤٨].

وعلى هذا التفسير لا إشكال في هذا الكلام أن الله تعالى إله في السماوات وفي الأرض أيضًا.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الآية فيها وقف على أسهل المواقف؛ وهذا على جعل الله علمًا على الذات دون المتعبد لله، يعني معناها: أن الله في السماوات كقوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦]، ثم استأنف فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فتكون ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلقة بما بعدها في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

أما على الوجه الأول فمعنى الآية ظاهر: أن الله مألوه في السماوات ومألوه في الأرض، كما أنه خالق السماوات والأرض فهو مألوه في السماوات والأرض ويراد بذلك إثبات الألوهية في السماوات والأرض كما ثبتت الربوبية؛ لأن الخلق من مقدرات الربوبية، وهذا لا إشكال فيه.

أو المناسبة على القول الثاني: أن المعنى أن الله ذاته في السماوات؛ فتكون المناسبة أنه ليس كونه بالسماوات مع بُعدها الشاسع بمانع عن علمه بكم وأنتم في الأرض، فهو في السماوات ومع ذلك في الأرض يعلم سركم وجهركم.

إذنْ فالمعنى الأول: في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أن ألوهيته ثابتة في السماوات وفي الأرض؛ بمعنى أن من في السماوات يتألَّهون، ومن في الأرض يتألهون، نظيرها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٤٨].

والمعنى الثاني: يقول: إن الله ـ نفسه ـ في السماوات؛ أي: عليها، ومع ذلك يعلم سركم وجهركم في الأرض، فليس بُعده بمانع من علم السر والجهر منكم في الأرض، إذن المعنى الثاني ما فيه ذكر للألوهية لكن فيه ذكر للإحاطة؛ أي: إحاطة الله بنا عز وجل وإن كان في السماوات.

وهذا يفسره قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة:١].

التحاور الذي وقع كان مكانه الأرض، والله تعالى في السماء، فتكون هذه الآية ـ آية النساء ـ كالتفسير لقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ أي: نفسه.

والإسرار نوعان:

١- إسرار في النفس.

٢- والإسرار مع الغير.

فمثلًا: إذا حدث الإنسان نفسه بشيء في نفسه؛ هذا إسرار مع النفس، وإذا حدث غيره سرًّا لا يسمعه من بجانبه؛ فهذا إسرار مع الغير.

ولهذا نسمي القراءة في الظهر والعصر مثلًا سرية، مع أن الإنسان ينطق ويسمع نفسه ومع ذلك نسميه سرًّا، ونسمي ما حدث به الإنسان نفسه سرًّا؛ إذنْ فالسر يشمل المعنيين جميعًا، فالله عز وجل يعلم ما نُسِرُّه في نفوسنا ولا نظهره لأحد، وما نخبر به الغير على وجه خفي لا يسمع الآخرون.

وقوله تعالى: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ أي: ما تجهرون به وتعلنونه.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يعني: يعلم كسبكم من خير وشر، ودين ودنيا، وعلم وغيره، فكل ما يكسب الإنسان فالله عالم به جل وعلا لا يخفى عليه، نسأل الله أن يعاملنا بعفوه.

مسألة: غالبًا ما يقال: إن الله موجود في كل مكان، والقائلون يستشهدون بمثل هذه الآية ومثل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وبقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»؛ بمثل هذه الأدلة يقولون: إن الله موجود في كل مكان فكيف نرد عليهم؟

الجواب: أولًا نقول: أنتم الآن اتبعتم المتشابه، يعني أن في الآيات احتمالًا لما قالوا، فهو متشابه. وتركتم الآيات المحكمات في أن الله تعالى بائن من خلقه، أي: فوقهم فأنتم من القسم الثاني: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧].

فإذا قالوا مثلًا: نحتج بهذه الآية: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، نقول: هي مثل قول الإنسان: (فلان أمير في مكة والمدينة) يعني: أن إمرته ثابتة في مكة والمدينة، وليس المعنى أن هو نفسه في مكة والمدينة؛ لأن هذا مستحيل.

إذنْ ألوهية الله في السماوات وفي الأرض، وليس هو في السماوات ولا في الأرض، أما المعية نقول: إنها لا تتنافى مع العلو، حتى المخلوقات لا تتنافى مع العلو، وفي اللغة العربية يقولون: (ما زلنا نسير والقمر معنا)، (أو ما زلنا نسير والقطب معنا) وهو كلام سائر رائج، فيكون معنى أن الله معنا: أنه مطَّلع علينا وإن كان بعيدًا، فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية في حق المخلوق فجمعهما في حق الخالق من باب أولى.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ألوهية الله ثابتة في السماوات والأرض، يألهه من في السماوات ومن في الأرض؛ لقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله تبارك وتعالى يعلم السر والجهر، أي يعلم ما يسر به الإنسان وما يجهر به، والإسرار تارة يكون إسرارًا في النفس، وتارة يكون إسرارًا مع الغير بصفة

خاصة، والجهر: هو الإعلان الذي لا يخفى، إذنْ فالله يعلم السر سواء مع النفس أو مع الغير بصفة خاصة ويعلم الجهر.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عموم علم الله تبارك وتعالى؛ لأن قوله: ﴿سِرَّكُمْ﴾ يشمل كل أحد، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومنها ما يترتب على إيماننا بأن الله يعلم السر والجهر، فمع إيماننا بهذا يقتضي ألَّا نخالف أمر الله عز وجل؛ بترك واجب أو فعل مصيبة؛ لأننا نعلم أن الله تعالى يعلمه، ولو لم يثمر العلم هذه الثمرة الجليلة، لكان علمنا لا فائدة منه، وانتبه لهذه المسألة: ألا وهي أن كثيرًا من الناس لا يعتني بالفوائد المسلكية المترتبة على أسماء الله وصفاته، وهذا أمر لابد منه؛ لأن هذا هو الثمرة.

فإذا علمت أن الله يعلم سرك وجهرك استحييتَ منه، فلم تترك ما وجب ولم تفعل ما يحرم.

٤ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: علم الله تبارك وتعالى بما نكسب؛ أي: بما نكسبه من الأعمال؛ سواء كان كسبًا دنيويًّا أو كسبًا أُخرويًّا، فإن الله تعالى يعلمه ولا يخفى عليه، ويترتب على هذه الفائدة ألَّا نكسب شيئًا حرَّمه الله علينا.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[الأنعام: ٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

(ما) نافية، وقوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من: زائدة إعرابًا، وليست زائدة معنى؛ لأن لها معنى وهو توكيد النفي، فإنها تحوِّل النفي الذي يحتمل العموم والخصوص إلى كونه للعموم فقط، فهي تحوِّل الجملة المنفية إلى نص في العموم، مثل لا النافية للجنس، فإنها نص في العموم فكيف نعربها إذا قلنا: إن ﴿مِّنْ﴾ زائدة إعرابًا؟

نقول: ﴿مِّنْ﴾ حرف جر زائد إعرابًا.

و﴿ءَايَةٍ﴾ فاعل (تأتي) مرفوع بضمة مقدَّرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] فإن (من) زائدة إعرابًا، و﴿بَشِيرٍ﴾ فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ الآية هي العلامة، لكنها أخص من العلامة، لكونها نصًّا في الدلالة، والعلامة قد تكون أقل من ذلك، ولكن الآية نص في أنها علامة على ما جاءت من أجله.

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

١- كونية.

٢- وشرعية.

وقوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿مِّنْ﴾ هنا لبيان الجنس وليست كالأولى، فهي لبيان الجنس لقوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾؛ لأن الآية قد تكون من عند الله وقد تكون من عند غيره، لكن هنا من آيات ربهم.

وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبرهم؛ لأن الربوبية تشمل هذه المعاني الثلاثة، وهي: (الخالق والمالك والمدبر) هذا الذي تقتضيه الربوبية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هذه إثبات للنفي؛ يعني: ما تأتيهم إلا كانوا عنها معرضين، أي: معرضين عند تدبرها وعما تدل عليه، فكأنهم لم يروا الآيات، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧].

إذن معرضين عنها بوجوههم أو بقلوبهم، فالجميع يشمل هذا وهذا.

وقد يقال له: انظر آية الله؛ فيعرض ولا ينظر، وقد يرى ولكن يعرض عن التأمل في القلب؛ لأنه ـ والعياذ بالله ـ محجوب عن الخير فلا يجب أن يصل إليه.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية من الفوائد: بيان عتوِّ هؤلاء المكذبين، وجه ذلك: أنه لا تأتيهم أي آية إلا كانوا عنها معرضين، وقد طلبت قريش من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم آية فأراهم انشقاق القمر، حيث أشار إلى القمر فانفلق فلقتين وشاهده الناس وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر: ١]، وهو انشقاق حسِّي.

والمراد بالقمر: القمر المشاهد المعروف، وقد أنكر الفلاسفة وعلماء الفلك أن القمر انشق وقالوا: لا يمكن؛ لأن الأجرام السماوية لا يمكن فيها التفكك، فهل نقبل قولهم ونرد الأحاديث الصحيحة المشهورة المستفيضة أو نرد قولهم؟ نقول: الواجب على المؤمن الثاني: أن يرد كل قول يخالف الكتاب والسنة مهما كان قائله.

فكيف نقول مستحيل أن تتغير الأجرام السماوية والذي يغيرها الله عز وجل خالقها الذي يفعل ما يشاء.

وهو انشقاق حسيٌّ للقمر المعلوم الحسي، وليس كما قال علماء الفلك وحرَّفوا من أجله الكتاب والسنة وقالوا: إن أخبار الانشقاق أخبار أحادية تحتمل التأويل أو الرد؛ حيث قالوا: أما القرآن: فمعنى:

﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي: بان نور النبوة، وهذا غلط، فإن قال قائل: قريش رأت هذه الآية، والله سبحانه وتعالى قضى في أن من أوتوا الآية التي يطلبونها ولم يؤمنوا أهلكهم، فكيف لم يهلك الله قريشًا؟

الجواب عن هذا: أن الذين يُهلكون هم الذين يطلبون آية معينة، فإذا أوتوا بها ثم كفروا بها أهلكهم الله؛ لأنهم يكونون متحدين لله عز وجل، وأما من يطلب آية عامة وتعين من قبل الله؛ فهؤلاء لا يُهلكون.

ويحتمل وجهًا آخر: بأن نقول: إن هذا العموم يجوز أن يخصص فيكون الله سبحانه وتعالى لم يهلكهم؛ لأن الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما جاءه ملك الجبال يقول له: إن شئت أطبقت الأخشبين عليهم وهما الجبلان العظيمان من حيطان مكة، ولكن النبي ﷺ قال: «**أَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، ويكون عدم إهلاك قريش لما يعلمه جل وعلا من أن هؤلاء سيكون من أصلابهم المخلصون لله المجاهدون في سبيل الله، وقد وقع بلا شك، فإما أن يكون الجواب الأول، وإما أن يكون الجواب ما ذكرناه(١).

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله سبحانه وتعالى حكيم رحيم؛ وذلك لكونه يأتي بالآيات للخلق، فإن هذا من الحكمة الواضحة؛ لأنه ليس من المعقول أن يأتي رجل ويقول للناس إنه رسول ويستبيح دماء من لم يؤمن به وأموالهم وذرياتهم ونسائهم بدون أن يكون هناك آية تدل على صدقه؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ - يعني بعثه الله - إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ**» هذا من جهة الحكمة، ومن جهة الرحمة؛ أن الله رحم الخلق بكونه إذا أرسل إليهم الرسل آتاهم الآيات الدالة على صدقهم، ولو شاء لأرسل الرسل بدون آيات ثم من كذب أخذه، لكن تأبى حكمته ورحمته أن يرسل رسلًا بلا آية.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الربوبية للكفار؛ لقوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وهذه الربوبية العامة.

وربوبية الله عز وجل تنقسم إلى عامة وخاصة: فربوبيته لأوليائه خاصة، ولأعدائه وأوليائه جميعًا عامة، بإزاء ذلك العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة.

العامة: كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

والخاصة: مثل قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] والأمثلة كثيرة.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: خطر الإعراض عن الآيات، وأنه يُخشى على من أعرض عن الآيات ألَّا يهتدي لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ويدل لهذا - أي لخطر

---

(١) ويحتمل أن يكون عدم إهلاكهم؛ لأن الله قال للرسول ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، والله أعلم.

الإعراض عن الآيات - قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وذلك بأن يجعلها نصب عينيه، فإذا كان يمشي على طريق معين وجاءت النصوص دالة على خلاف فإن بعض الناس قد يتلكأ ويحاول أن يحرف النصوص التي تخالف طريقه وهذا خطر عظيم، بل الواجب على المؤمن أن يستسلم للنصوص من حين أن تأتيه كما كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون هذا، فبمجرد ما يأمر الرسول بشيء يفعلونه، ومجرد ما ينهى عن شيء يتركونه، فكون الإنسان يتلكأ أول ما يأتيه الحق فهذا خطر عظيم.

والآية واضحة في سورة الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].



قال الله تعالى:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥].

التفسير

قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ الفاء عاطفة، و(قد): تفيد التحقيق في الفعل الماضي وهو الأغلب، وفي الفعل المضارع الأغلب أنها تفيد التقليل لقولهم: (قد يجود البخيل، وقد يصدق الكاذب)، لكنها قد تأتي للتوكيد حتى في المضارع، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٣] فقد هنا: للتوكيد بلا شك، لكنها تفيد الاستمرار؛ أي: قد يعلم هذا في الحاضر والمستقبل، قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ هنا للتحقيق.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ (الحق) ما جاءتهم به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فكله حق؛ لأنه من عند الله، والحق: هو الشيء الثابت إن كان خيرًا فبوقوعه، وإن كان حكمًا فبثبوته، وضده الباطل.

ففي الأخبار الباطل فيها الكذب، وفي الأحكام الباطل فيها ما خالف الشريعة، أما هنا: ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نقول: الحق ما جاءت به الرسل من أخبار صادقة وأحكام عادلة.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ﴿لَمَّا﴾ بمعنى حين؛ أي: حين جاءهم، واعلم أن لَمَّا لها معانٍ:

فتأتي بمعنى حين فتكون ظرفية كما في الآية، وتأتي شرطية فتشارك (إن) في الشرط مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٦٧] فهي شرطية، وتأتي بمعنى (إلا)، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] يعني: إلا عليها حافظ، وتأتي نافية

تجزم الفعل المضارع، كما في قول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٨]، بمعنى: لم، لكنها تفيد قرب مدخولها، وليست لم للنفي المطلق، أما (لمَّا) فإنها للنفي، لكنها تفيد قرب مدخولها، تقول مثلًا: (فلانٌ لم يقم)، وتقول: (لمَّا يقم فلان) هذا نفي، يعني: إلى الآن ما قام لكنه سيقوم عن قرب.

وفي الآية الكريمة التي نقرؤها الآن: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ماذا نُعربها؟

نقول: ظرف بمعنى (في)، وفي هذه الحال تكون مبنية؛ لأنها حرف في الواقع، غير مشابهة للحرف، وأصل البناء هو مشابهة الاسم للحرف، لكن هذه نفسها حرف، فتكون ظرفًا لكنها مبنية على السكون في محل نصب بمعنى حين.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ﴾ ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء عاطفة، ويحتمل أن تكون للسببية أيضًا.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: سوف يأتيهم المخبَر الذي أُخبروا به، والأنباء أتتهم من قبل، لكن المراد: يأتيهم عقوبة الأنباء التي كانوا يستهزءون بها.

وقوله: ﴿أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يتخذونه هزوًا ولعبًا وضحكًا، وكما نعلم جميعًا أن الكفار يتخذون الدين هزوًا وأنهم يتخذون أهل الدين هزوًا أيضًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣١].

وقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يشمل استهزاءهم بالدين، واستهزاءهم بالرسل وبأتباعهم، بل وبالله عز وجل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]



❁ التفسير ❁(١)

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المراد بالسماء هنا: المطر، وعُبر عنه بالسماء؛ لأنه ينزل من السماء،

(١) يلاحظ أن بداية تفسير الآية غير واضح في المادة المسموعة لدينا.

و﴿مِدْرَارًا﴾ حال من السماء؛ أي: حال كونه مدرارًا يجود عليهم كلما احتاجت أرضهم إلى الماء نزل الماء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾: يحتمل أنها أنهار الثلوج التي تتسرب من قمم الجبال، ويحتمل أنها الأودية التي تكون من المطر، وسواء هذا أو هذا، فلا شك أن الأرض ستكون خصبة، وستأكل منها أنعامهم وأنفسهم.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أتلفناهم بذنوبهم، والباء هنا للسببية؛ أي: بسبب ذنوبهم، والذنوب بمعنى المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، قوله: ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: خلقنا من جديد من بعدهم قومًا آخرين، فهل القوم الآخرون عصوا أم أطاعوا؟ نقول: منهم من عصى ومنهم من أطاع، ولكن الله قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** تهديد المكذبين لرسول الله ﷺ أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة؛ وجه ذلك: أن الله قرر أنهم قد رأوا الأمم التي أهلكت من قبل.

٢ - **ومن فوائدها:** الاستدلال بالأعلى على الأدنى؛ وجه ذلك: أنهم لما كانوا أقوى من هؤلاء أرسل الله عليهم السماء مدرارًا وجعل الأنهار تجري من تحتهم، ومع ذلك أهلكهم، فمن دونهم من باب أولى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عظمة الله سبحانه وتعالى وغيرته؛ حيث أهلك أولئك القوم مع ما عندهم من القوة والنعمة.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما يحل من النعم والدفاع عن النِّقم فإنه من الله عز وجل، كقوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الذنوب من أسباب الهلاك، ولكن هل المراد الهلاك الحسي؛ بمعنى أن يموت الناس أو ينتقم بالأموال أو ما أشبه ذلك، أو يشمل الهلاك الحسِّي والمعنوي الذي هو موت القلوب؟

الجواب: يعم كليهما، يعني: يشمل هذا وهذا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩]، فجعل تولِّيهم من أسباب الذنوب.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام قدرة الله تبارك وتعالى وسلطانه، حيث يُهلك

أقوامًا ويُنشيء آخرين؛ لأن الأمر أمره عز وجل والملك ملكه، والسلطان سلطانه، فهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء من إهلاك وإنشاء.

❁ ❁ ❁

❁ **ثم قال تعالى مبيِّنًا عُتو هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ فقال:**

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧]

❁ التفسير ❁

(لو) هنا شرطية، بدليل وجود فعل الشرط وجواب الشرط، وفعل الشرط ﴿نَزَّلْنَا﴾، وجواب الشرط: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ يعني: كتابًا عاديًّا يدركه الناس.

وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يعني: لم يتخيلوه من بُعد، بل هو بين أيديهم يلمسونه نازلًا من السماء إلى الرسول ﷺ، وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: إذا قال قائل: وهل هناك لمس بغير اليد؟

فالجواب: نعم؛ لأن الإنسان يمس بقدمه، ويمس بلسانه، ويمس بكل أجزاء جلده، وإن شئت فقل: إن اللمس يكون باليد، لكن ذكرت اليد هنا من باب التوكيد، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ومعلومٌ أن الطائر لا يطير إلا بجناحه.

وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، هذا الجواب: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، هنا إظهار في موضع الإضمار، هو ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، ولم يَقُل: لقالوا؛ إشارة إلى شيئين:

الشيء الأول: التسجيل على هؤلاء بالكفر، يعني: الحكم عليهم بالكفر.

الثاني: أن من قال مثل قولهم فهو كافر، ففيه فائدتان: فائدة متعدية، وفائدة لازمة.

الفائدة اللازمة: هي الحكم عليهم بالكفر.

والمتعدية: أن من قال قولهم فهو كافر.

وقوله تعالى: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، بدليل قوله: ﴿إِلَّا﴾، وهي إذا أتت بعدها إلا فهي للنفي، وقد تكون للنفي وإن لم تأتِ بعدها إلا، لكن إذا أتت بعدها إلا فهي للنفي.

(إنْ) تأتي نافية كما هناك، وتأتي شرطية مثل: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وتأتي مخففة من الثقيلة، كقوله: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ يعني: أصل إن هذان لساحران؛ أصلها: إنَّ هذان لساحران، وتأتي زائدة كما في قول الشاعر:

بنـي غُدَانَـةَ مـا إنْ أنـتمُ ذهـبٌ وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِـن أَنْتُمُ الخَـزَفُ

التقدير: ما أنتم ذهب، لكنها جاءت هنا زائدة، وهذا ليس بغريب بل هـذا ممـا يـدل عـلى أن اللغة العربية واسعة، خلافًا لمن قال: إنها ضيقة؛ لأن معانيها أكثر من ألفاظها.

نقول: كون الحرف الواحد أو الكلمة الواحدة تأتي بمعنى متعدد، هذا يدل على مرونة اللغة العربية، لا على قلة مواردها، ولا شك أنه إذا كانت اللغة مرنة؛ كان ذلك أوسع للمتخاطبين بها وأيسر عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، المشار إليه الكتاب في القرطاس.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، السِّحر: كل شيء خفي يسمى سحرًا، مأخوذ من السَّحَر الذي هو آخر الليل، والغالب أن آخر الليل يكون خفيًّا، والناس لا يخرجون من بيوتهم، فيكون هناك خفاء في الأمور التي تحدث، لكنه في الاصطلاح: هو عبارة عن عُقَدْ ورُقى وأدوية تصدر من الساحر بواسطة الشياطين، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢] يعني: ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل، ثم قال تعالى: ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ هذان اسمان للملكين، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢].

ولذلك كثيرًا ما يكون السحر مرتبطًا بالجن، حتى إنه يتكلم الجني ويقول: إني أنا لا أستطيع أن أخرج لأني مسحور لكن إذا أراد الله عز وجل عُثر على السحر وأُتْلِف، ثم برئ المريض.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: بيِّن ظاهر؛ وذلك لأن (بَانَ) و(أَبَانَ) يأتيان بمعنًى واحد، تقول: (بَانَ الصُّبح، وأَبَانَ الصُّبح) (أَبَانَ): رباعي، و(بَانَ) ثلاثي.

(بَانَ) يقال: بيِّن، و(أَبَان) يقال مبين، على أن (أَبَانَ) تأتي متعدية لا بمعنى (بَانَ)، مثل أن تقول: (أَبَانَ الحق ـ أَبَانَ الأمر لي) بمعنى أظهره.

الفوائد:

١ **- في هذه الآية:** بيان عناد المكذبين للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ وجه ذلك: أن الله ذكر أنه لو نزل عليهم كتابًا في قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا: هذا سحر.

وجه هذا الاستنتاج - مع أنه قد لا يكون من اللائق أن أقول استنتاج - أنه ذكره الله عنهم؛ لأنه أتاهم من الآيات ما يؤمن على مثله البشر

ومع ذلك: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢]، فعلم الله من حالهم أنهم لو وصلت بهم الحال إلى هذا؛ أي: كتاب في قرطاس كلما عهدوه ولمسوه بأيديهم قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:١٣]

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن الكتاب إذا كان في القرطاس؛ فهو أبين وأظهر، وإلا يمكن أن يُكتب على غير قرطاس في اللوح من الخشب، وفي اللوح من العظام، وفي اللوح من الأحجار، وفي اللوح من جريد النَّخل كما كان في أول الأمر، لكن القرطاس أثبت وأبيَن وأسهل.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هؤلاء المكذبين لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية؛ لأن من أعظم الآيات أن ينزل الكتاب ويشاهدونه في قرطاس ويلمسونه ثم ينكرون، ويفسر هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [القمر:٤ - ٦] وهنا انتبه، تقف على: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ولا تَصِلْ؛ لأنك لو وصلت فسد المعنى. صار المعنى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر:٦]، هذه واحدة، وفي الآية التي بعدها: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ قِفْ، لا تصل؛ لأنك لو وصلت ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ صار قوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ من قولهم، وليس كذلك، لكن وازدجر معطوفة على قالوا؛ أي: قالوا مجنون وازدجروه.

ومثل هذه الأشياء بواقع عقلنا يجب على الإنسان أن ينتبه لها؛ لأن القرآن الكريم ليس كالكلام الذي نكتبه نحن أو نقوله، نحن نحاول أن يكون الكلام نسقًا واحدًا، لكن في القرآن - سبحان الله - وهو من إعجازه أنك ترى أحيانًا كلمة ليس بينها وبين الأخرى صلة؛ من أجل أن ينتبه المخاطب أو القارئ ويتأمل ويتفكر، وهذه نقطة لا يُحس بها كثير من الناس، تجده يقرأ قراءة مرسلة ولا ينتبه للمواقف، ونحن تعلَّمنا هذا من شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، حيث كان يقف بنا في رمضان فتراه يقف، ويقف المواقف اللائقة فتعجب كيف هذا؟ وكنا في الأول نقرؤها، نقرأ قرآنًا مرسلًا ولا نلتفت للمعنى، حتى إن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤، ٥] هل تقف على ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾؟ نعم تقف؛ لأن الله جعلها موقفًا.

فإذا قلت - سبحان الله - إذا قلت: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، كيف؟

قال الشاعر الملحد:

مَا قَالَ رَبُّكَ: وَيْلٌ لِلأُلِى سَكِرُوا   بَلْ قَالَ رَبُّكَ: وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَا

نقول: نعم قاله ولكن هو ملحد، ما قرأ آخر الآية؛ أي: الآية الثانية.

الوقف على: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ فيه فائدة قد لا تظهر لبعض الناس؛ لأنه إذا سمع القارئ يقرأ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ثم وقف تجده يُشوِّش، كيف ويل للمصلين؟ ثم تأتي: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فتكون كأنها الغيث نزل على أرض يابسة، وهذا هو السر في أن الأولى اتباع الآيات إذا أمكن، فتقف على كل آية.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يَنْبغي الإظهار في موضع الإضمار إذا دعت الحاجة؛ لقوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وهذا يقع كثيرًا في القرآن الكريم - يعني في آيات متعددة - مثل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٩٨] ما قال عدو له، مع أن الآية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وذلك لمراعاة فواصل الآيات، فانظر كيف كان الإظهار في موضع الإضمار!

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** مكابرة أولئك المشركين الذين يكذبون النبي ﷺ يصرفهم من حق إلى باطل؛ الحق أنه قرآن من عند الله وهم ينسبونه إلى السِّحر، هذا السحر الذي قالوه، هل هو في بلاغة القرآن وفصاحة القرآن وبيان القرآن؛ أو في كونه أتى بكتاب نزل من السماء فَموَّه على أبصارهم؟

الظاهر: أنه يشمل الأمرين، يقولون: هذا ما هو حقيقة يا محمد، سحرتنا، أو يقولون: إنه لبيانه وفصاحته سحرهم، وأيًّا كان فالجاحد - والعياذ بالله - يتشبث بكل شيء.

٦ - **ومن فوائدها:** علم الله تبارك وتعالى بما سيكون لو كان؛ لأنه علم ماذا سيكون قول هؤلاء لو نزل عليهم كتاب في قرطاس.

٧ - **ومنها:** تأكيد المعلوم بالمحسوس، وإن شئت فقل: المعقول بالمحسوس؛ لقوله: ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾؛ لأن هذا تأكيد بشيء محسوس ينظر أنه في قرطاس ويُلمس باليد.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** الإظهار في موضع الإضمار؛ لقوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وكان يقتضي السياق أن يقول: (لقالوا) لكنه أظهر في موضع الإضمار.

والإظهار في موضع الإضمار له فوائد منها:

الحكم على مرجع الضمير بما يقتضيه الوصف الظاهر، أين الوصف الظاهر معنا؟ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ومرجع الضمير - لو كان ضميرًا - أولئك المكذبون.

- **الفائدة الثانية:** القياس؛ بمعنى: أن كل من قال قولهم فهو كافر؛ لأن الله لو قال: (لقالوا) ما

استفدنا أن من قال مثل قولهم يكون كافرًا بالنص، فإذا كان ظاهرًا هذا الوصف قسنا عليه كل ما مثله، أو كل ما اتصف بهذا الوصف.

٩ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن للسحر تأثير، فهل التأثير يكون بقلب الحقائق، أو بالتخييل على الحواس؟

الجواب: الثاني: وإلا فإنه لا يقلب الحقائق، فالعصا والحبال التي ألقاها سحرة فرعون لم تنقلب حيَّات، ولكن خُيِّل للرائين أنها حيَّات، وإلا فهي على حقيقتها عصى وحبال، وبهذا نجمع بين قول من قال: إنه لا يؤثر وقول من قال: إنه يؤثر، فيقال: إن تأثيره بقلب الحقائق فهذا لا يمكن؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، وأما تأثيره بالتخييل فإنه يمكن؛ لأن التخيل في الواقع مرض في الإدراك، والمرض ينتج من السحر؛ لأن السحرة أيضًا أحيانًا يسحرون الإنسان حتى يكون مريضًا أو يختل ذهنه، أو ما أشبه ذلك.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٨، ٩]

التفسير

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: المكذبون للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقوله: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلَّا أنزل عليه ملك ليكون ذلك مصدقًا له، وهذا الاقتراح اقتراح متعنت، وإلا فقد جاء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بآيات واضحة، ولا أعظم من أنهم لما طلبوا آية أراهم انشقاق القمر؛ حيث انشق القمر نصفين، وشاهدوه، وهذا تغير في الأفلاك، فلم يقبلوا الآيات، لكن قولهم هذا من باب التعنت والتحدي والإعجاز.

وقوله: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ والملك واحد الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، يعني: لو أنزلنا ملكًا لانتهى الأمر بنزول العقاب بهم؛ لأن الأمم السابقة إذا اقترحت آية معينة، ثم أعطوا الآية المعينة التي طلبوها، ثم لم يؤمنوا أخذوا بالعقاب بدون إمهال.

ولم تؤخذ قريش بآية انشقاق القمر؛ لأنها لم تطلب هذه الآية المعينة، بل قالوا: يا محمد أرنا آية فأراهم انشقاق القمر، هكذا قال أهل العلم، أما إذا اقترح المكذبون للرسل آية معينة ثم جاءت ولم يؤمنوا نزل بهم العذاب.

وقوله تعالى: ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: لقضي شأن هؤلاء، وذلك بإهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: ثم لا يُمهلون، بل يُعاجلون بالعقوبة ـ والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا﴾ يعني: لو جعلنا الرسول ملكًا ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾، حتى لو فرض أننا جعلناه ملكًا، فلابد أن نجعله بشرًا؛ لأنه لا يتلاءم الملك مع البشر؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾[الإسراء:٩٥]، لكن ليس بالأرض إلا بشرًا، ولا يمكن أن نرسل إليهم ملائكة؛ لأن ذلك لا يناسبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾، وحينئذٍ يبقى الإشكال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ أي: خلطنا عليهم الأمر كما خلطوه على أنفسهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تعنُّت المكذبين للمرسلين، وطلبهم آيات مع أن الآيات كانت موجودة، لكنهم متعنتون.

٢ ـ **ومنها:** أنهم يؤمنون بالملائكة ـ أعني: المكذبين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لقوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أنهم يعلمون أن الملائكة في السماء، فهي مقرُّهم ومسكنهم، والدليل: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

٤ ـ و من فوائد هذه الآية: أن الملك آية من آيات الله عز وجل إذا نزل مساعدًا للبشر؛ لأنهم هم أقروا بأنه آية تدل على صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٥ ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى يردُّ على المعاندين بمثل ما عاندوا به، ويحذرهم من اقتراح الآيات؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾.

٦ ـ **ومنها:** ما أشرنا إليه أن المكذبين للرسل إذا اقترحوا آية معينة ولم يؤمنوا بها؛ عُجِّلت لهم العقوبة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى لو أراد أن ينزل ملكًا لم ينزل ملكًا بصورته الملكية، ولجعله رجلًا من أجل التناسب، أي: تناسب المرسَل والمرسل إليه.

٢ ـ **ومنها:** حكمة الله تبارك وتعالى في إرسال الرسل من البشر من أجل الركون إليهم وقبولهم، بل إن الله تبارك وتعالى يجعل الرسل من أوساط الأقوام وأشرافهم وأفاضلهم؛ حتى يحتموا بهم، وهذا لا يضر أن يجعل الله تبارك وتعالى للرسل من يحميهم من أقوامهم، ويدل لذلك قوم شعيب له: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ [هود:٩١] مما يدل على أن الإنسان إذا كان من القوم

صار له شأن كبير وهيبة، ويدل لعكس هذا قول لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود:٨٠]؛ يعني: إلى قوم يكونون عمادًا لي.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: حسن المحاجة في القرآن الكريم، وهو أنه لو جاء الأمر على اقتراح هؤلاء لم يكن على ما اقترحوا؛ أي: لم يكن ملكًا؛ لأجل المناسبة؛ إذن لا بد من تناسب الرسول والمرسل إليه، فإذا كان رجلًا عاد اللبس والاقتراح الذي اقترحوه بقوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام:٩].



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[الأنعام:١٠]

التفسير

قوله: ﴿وَلَقَدِ﴾ (اللام) هنا موطئة للقسم، ومؤكدة له و(قد) للتحقيق، وهذا يردُ في القرآن كثيرًا، وعلى هذا فالجملة تكون مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

١- قسم مقدر.

٢- والثاني (اللام)

٣- والثالث (قد).

وقوله: ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: أي سُخر، بدليل قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ سخروا منهم وقالوا: (هذا رجل)، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦]، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾[هود:٣٨]؛ فقال: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[هود:٣٨].

وقوله: ﴿بِرُسُلٍ﴾ نكرة في سياق الإثبات، لا تدل على العموم؛ أي: لا تدل على أن جميع الرسل سُخر بهم، بل برسل.

واعلم أن النكرة في سياق الإثبات لا تدل على العموم إلا إذا قام الدليل على هذا، فإنها تكون للعموم مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[الانفطار:٥]، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤]. فهنا ﴿نَفْسٌ﴾ نكرة في سياق الإثبات، لكنها للعموم؛ إذ معنى الآية: علمت كل نفس.

وقوله: ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾أي: في الزمن.

وقوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ أي: نزل بهم.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: عقوبة ما كانوا به يستهزءون، أو جزاء ما كانوا به يستهزءون، وإنما عبر الله تعالى عن الجزاء بالفصل للإشارة إلى سببه من وجه؛ وليُعلم أن الجزاء بقدر العمل من وجه آخر، فالعقوبة سببها العمل الذي استحق به العامل أن يعاقب، فأطلق على العقوبة نفس العمل الذي هو السبب.

ثانيًا: إذا كان الإنسان يُجازى على عمله نفس العمل، فهذا يعني أن الجزاء والعقوبة بقدر العمل؛ ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ .

الفوائد:

١ ـ في الآية الكريمة فوائد منها: توكيد الجملة بأنواع المؤكدات، فإذا قال قائل: أليس خبر الله تعالى صدقًا سواء اقترن بالقسم وأدوات التوكيد أم لا؟

الجواب: بلى، لكن القرآن الكريم جاء باللسان العربي، واللسان العربي يستخدم التأكيد إذا اقتضت الحال ذلك، وإلا فمن المعلوم أن الله إذا أخبر بخبر ـ وإن لم يؤكد ـ فهو حق وصدق كما نشاهد الشمس، لكن القرآن جاء بلسان عربي مبين، هذه واحدة.

ثانيًا: تأكيد الله لهم بالقسم يدل على أهميته، وأنه من الأمور التي لابد أن يقبلها الإنسان ويصدِّق بها.

ثالثًا: أنه قد يُراد به دفع إنكار من أنكر مدلول الخبر، ككون الله عز وجل يؤكد قيام الساعة من مؤكدات كثيرة لرد إنكار المكذبين.

٢ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ليس بغريب أن يستهزئ المشركون بالنبي ﷺ؛ لأن هذا كالسابق من الأمم السابقة جزاء المكذبين للرسول؛ بأنواع متعددة فقد قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] كأنهم يقولون: محمد لا يستحق هذا، وكما في قولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء:٣٦] والاستفهام هنا: للتحقيق؛ يعني: من هذا الرجل الذي يذكر آلهتكم بالسوء، ليس بشيء وليس له قيمة؟! ومنها وصفه إياه بأنه مجنون مخرف وما أشبه ذلك.

٣ ـ ومن فوائد هذه الآية: عناية الله تبارك وتعالى بنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ حيث ينزل عليه من القرآن ما يُسَلِّيه به، ووجهه أن ذكر هذا ـ أعني استهزاء الأمم السابقة برسلها؛ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن كونه يعلم بأن الأمم السابقة كذبت رسلها يهون عليه الأمر، وهذا واضح، فإن الإنسان يتسلى بالمصائب إذا أصابت رجلًا غيره وتهون عليه مصيبته، وقد أشار الله إلى هذا بقوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩] مع أنه لو كانت الدنيا وصلت الناس للعذاب لهان عليهم ونفعهم وحملهم على الصبر لكن في القيامة لا ينفع.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تهديد المكذبين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم،من أين تؤخذ من قوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: فاحذروا أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم المستهزءون به.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه لا رسول بعد محمد، انتبهوا! هل يمكن أن تؤخذ من الآية أو لا؟ الواقع: أنه ليس بواضح، ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسلية الإنسان بما مضى، ولا يمنع لو كان ممكنًا أن يوجد رسل آخرون بعد الرسول صلى الله عيه وسلم، إذنْ ليست هناك أدلة على هذا.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السخرية والاستهزاء بالرسل موجب للعقاب؛ لقوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم هل هذا العقاب عقاب على كفر أو على فسوق؟ الجواب: الأول على كفر، فكل من سخر بالرسل أو استهزئ بهم فهو كافر؛ لا إشكال في هذا.

ولكن هل تقبل توبتهم؟ الجواب: نعم تُقبل توبتهم؛ لعموم قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣].

ودليل عقلي: أن سب النبي إنما كان كفرًا لنبوته لا لشخصيته، والنبوة والعمل بالشريعة التي جاءت بها من حقوق الله في الواقع، وحقوق الله تُقبل فيها التوبة بالاتفاق، فالصحيح أن من سخر بالنبي أو استهزئ به فإنه إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا ارتفع عنه واستُرِد، وصار مسلمًا وارتفع عنه القتل.

لكن إذا سَب الرسول، فهل إذا تاب وقبلنا توبته ارتفع عنه القتل أو لا؟

هناك خلاف، فمن العلماء من قال: إنها تُقبل توبته؛ وذلك لأن سبَّ الرسول ليس سبًّا شخصيًّا وإنما السبُّ منصبٌّ على ماذا؟ على النبوة والرسالة، والنبوة والرسالة من حق الله فتقبل، فلا يُقتل ما دمنا قبلنا توبته، واختلف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنها تقبل توبته ولكنه يُقتل حدًّا؛ وعلل ذلك بأن سبَّ النبي عليه الصلاة والسلام عدوان على شخصه وعلى رسالته؛ فعلى رسالته نقول: تقبل التوبة، وأما على شخصه فلا بد أن نثأر لنبينا ﷺ ونأخذ بالثأر ونقتله، فيتحتم قتل سابّ الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإن قبلنا توبة الساب.

فإن قيل: إذنْ ما الفائدة إذا قلنا: تقبل توبته ويُقتل؟

نقول: الفائدة:أنه يُقتل مسلمًا يغسَّل ويكفَّن ويُصلى عليه ويبدو أقاربه المسلمون، ويبقى على حكم الإسلام، بخلاف ما إذا قلنا إنه مرتد، فلا يكون له هذا الحكم.

فإن قال قائل: أليس قد ورد أن من سبّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حياته وتاب

وقبل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم توبته؟

فالجواب: بلى؛ لأن الحق له، فإذا عفى عنه فله الحق، هذا من جهة.

من جهة أخرى: ترغيبًا له في التوبة، رُفع عنه القتل.

من جهة ثالثة: أنه إذا تاب فسيكون من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين استُئذن في قتل المنافقين: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، أما بعد موته فكل هذه العلل منتفية، فيجب على أمته أن يقتلوا من سبه عليه الصلاة والسلام.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المعاصي سبب للعقوبة، لقوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأن العقوبة بقدر العمل؛ ولذلك عُبر به عنها، وهذا من عدل الله عز وجل أن العقوبة بقدر العمل، أما المثوبة فالحسنة بعشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]

التفسير

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: (في) بمعنى: على، وإنما أتت (في) بمعنى: (على) لبيان أنه ينبغي أن يكون السير عميقًا كأنما يسيرون في أجواف الأرض.

وهل السير هنا بالقلوب أو بالأقدام؟

الجواب: يحتمل هذا وهذا، فالسير بالقلوب: أن يتأمل الإنسان ما جرى للأمم السابقة بما صح من تاريخها، وأصح تاريخ للأمم السابقة ما جاء في القرآن أو صحَّت به السنة، أو بأقدامهم؛ أي: سيروا في الأرض بأقدامكم بأن ينظروا آثار المكذِّبين المهلكين، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] فصار السير هنا يشمل السير بالقلب، والسير بالقدم لأجل الاعتبار.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ انظرو بأعينكم أو ببصائركم يعني: بأبصاركم أو بصائركم، فإذا قلنا: السير بالقلب فالمراد: انظروا بالبصائر، وإذا قلنا بالقدم فالمراد: بالبصر، وينبني على ما سبق.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، (كيف) هذه خبر كان مقدم، ويتعين أن يكون مقدمًا؛ لأنه اسم استفهام واسم الاستفهام له صدر الكلام؛ لأنه هو المقصود بالجملة وإذا كان المقصود بالجملة كان حقه أن يقدم؛ ولهذا إذا قلت: (أين زيدٌ؟) تعين أن تكون أين خبرًا مقدمًا، ولا يجوز أن نقول: زيد أين، فكيف : في محل نصب خبر كان مقدم.

وعاقبة: اسمها مؤخر باعتبار تقديم الخبر وإلا فهو في مكانه.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، كانت أسوأ عاقبة والعياذ بالله؛ حيث دمَّرهم الله عز وجل، وجعلهم مثلًا للآخرين يعتبرون بهم.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** الأمر بالسير في الأرض للاعتبار، سواء كان بالبصائر أو بالبصر أو بالأبصار؛ لقوله: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويتفرع من هذه الفائدة أنه ينبغي أن نقرأ تاريخ الأمم السابقة، ولكن من أي مصدر؟ نقول: من القرآن وصحيح السنة؛ لأن من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة عن الأمم السابقة ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، والعبرة بالصحيح، وما أكثر الأحاديث التي فيها الأخبار عن الأمم السابقة.

٢ - **ومن فوائد هذا الآية الكريمة:** فضل الاعتبار وأنه أمر مطلوب؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، وسواء كان الاعتبار بمن انتقم الله منهم أو بمن أثابهم؛ إن كان بمن انتقم الله فالإنسان يحذر، وإن كان ممن أثابهم فالإنسان يرغب، وفي هذه الآية أي الاعتبارين؟ بمن انتقم الله منهم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الآثار تدل على المؤثر، وهذا أمر معلوم بالحس والواقع.

سُئِل أعرابيٌّ: بم عرفت ربك؟ قال: الأثر يدل على المسير - يعني: على السير - والبعر تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج. ألا تدل على السميع البصير؟!

الجواب: بلى والله، تدل على السميع البصير؛ فالآثار تدل على المؤثر.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عقوبة المكذب، والتكذيب أحد شِقي ما يحصل به الكفر؛ لأن الكفر يحصل بأمرين: إما بالتكذيب وإما بالاستكبار، مع أن التكذيب فرع عن الاستكبار؛ لأنه ما كذب إلا لأنه يرى أنه فوق المرسل.

فإن قال قائل: يُشكل عليه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن دخول ديار المعذبين أو المهلكين.

فالجواب: أنه عليه الصلاة والسلام لم ينهَ عنها مطلقًا، بل نهى عن أن ندخل فرحين بَطِرين معجبين بالآثار وما أشبه ذلك. أما أن ندخل معتبرين باكين خائفين فلا؛ ولهذا قال: «**لَا تَدْخُلُوا**

عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»، فهناك فرق بين إنسان يدخل هذه الديار ليعتبر ويخاف ويبكي وإنسان آخر يدخلها للبطر والأشر والنزهة والإعجاب بالآثار؛ الأول: محمود، والثاني: مذموم، وبذلك يزول الإشكال.



❁ قال الله تعالى:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: اسأل هؤلاء المكذبين المنكرين لتوحيد الألوهية: ﴿لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ألزيد أو لعمر أو لفلان أو لفلان؟

ثم أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يجيب عن هذا السؤال بنفسه، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾.

وهنا نقول: هل الجواب من الله أو من الرسول؟

الجواب: من الرسول بأمر الله، وعلى هذا يكون الجواب جواب الله عز وجل؛ لأن الله أمر الرسول أن يقول هكذا: ﴿قال لله﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ﴿كَتَبَ﴾ بمعنى: أوجب؛ لأن الكتابة بمعنى الإيجاب، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ فـ (كُتِبَ) بمعنى فُرض وأوجب.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣] أي: فريضة موقَّتة.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾: أي: على ذاته، ونفس الله هي ذاته وليست صدفة بل هي الذات، قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وليس المعنى يُحذِّركم صفة هي نفسه، بل المعنى يحذركم الله إياه؛ أي: ذات الله عز وجل، فليست صفة بل هي الذات، ومعنى ﴿يحذركم نفسه﴾ أي: يحذركم الله من عقابه؛ لأنه جل وعلا أمرنا أن نعلم علمًا مهمًّا فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]؛ فأمرنا أن نعلم هذا العلم المهم الذي فيه الترغيب والترهيب.

وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا تحذير، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا الترغيب،

فأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نعلم عن أفعاله وصفاته؛ تحذيرًا وترغيبًا.

وهنا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾؛ لأن المقام مقام تهديد وعقوبة؛ حيث يخاطب الله تعالى المشركين المكذبين.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ يعني: أن يرحم عباده عز وجل، فرض هذا على نفسه؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» فرحمة الله بالعباد فرضها الله على نفسه، ولسنا الذين فرضناها عليه بل هو الذي فرضها على نفسه.

فإن قال قائل: إننا نجد من الناس من أصابه البؤس والبلى، وفقد المال، وفقد الأولاد، وهو في غاية البؤس، فأين الرحمة؟

فالجواب: كل ما أصاب الإنسان من شيء من بَلاء وهو مؤمن فإنه رحمة؛ لأنه إن صَبر أُثِيبَ ثواب الصابرين، وإذا احتسب أثيب ثواب الشاكرين، فهو خير له، وكم من أناس لو أنهم رُزقوا صحة ومالًا وأولادًا لبطلوا وأفسدهم الغنى، وكم من أناس بالعكس، فكل شيء يصيب المؤمن والحمد لله فهو رحمة وكفارة له، حتى ولو أن الإنسان فزع من شيء قابله كُتب له بذلك أجر فاللهم لك الحمد!

حتى جاء في الحديث لو أن إنسانًا فقد شيئًا في جيبه مثلًا ثم فزع، خاف أن يكون ضاع مثلًا فله أجر، إلى هذا الحد؟!

إذن هذه رحمة، وما أحسن قول رابعة العدوية: (إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها).

والآلام والبؤس والتعب والهم والغم في الدنيا كله يزول، إما أن يزول إلى ضده، وإما أن يصل بصاحبه إلى الهلاك، ولابد أن يزول لكن الأجر باق، فإذا قال قائل: فماذا عن الكافر؟

فالجواب: أن نقول: إن الكافر هو الذي فوَّت الرحمة على نفسه، مع أن لله عليه رحمة؛ بما يسَّره له من الأكل والشرب والنكاح والمسكن، وما أشبه ذلك.

وقال تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، هذه أيضًا جملة مؤكدة بـالقسم المقدر ـ واللام الواقعة في جواب القسم ـ ونون التوكيد.

والتقدير: والله ليجمعنكم، الخطاب للخلق، أي: ليجمعنكم أيها الناس كلكم، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠] الله أكبر، نُجمع مع آباءنا وأجدادنا وأجداد أجدادنا إلى آدم، كلنا نُجمع، وكذلك ذرياتنا؛ الأولون والآخرون مجموعون كلهم إلى يوم القيامة.

ولما شَبَّه المكذبون بالبعث بقولهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الدخان:٣٦] قيل لهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الجاثية:٢٦].

أنتم ما قيل لكم أنكم الآن تُبعثون، حتى تحتجُّوا وتقولوا هاتوا آباءنا، بل قيل لكم: إنكم

مجموعون ليوم القيامة لا ريب فيه.

وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هو اليوم الآخر، وسمي بهذا لأمور ثلاثة ـ هذا الذي علمناه والله أعلم إن كان وراءها شيء ـ وهي:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وهذا القيام قيام عظيم فكل العالم بصيحة واحدة يُحضرون جميعًا، لا يتخلف أحد، وهذا قيام عظيم جدًّا جدًّا، حتى الذي أكلته السباع، والذي أحرقته النار، والذي أغرقه الماء ـ لابد أن يحضروا.

والثاني: سُمي أيضًا بالقيامة؛ لأنه يقام فيه العدل، ويُقتص حتى للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

الثالث: تُقام فيه الأشهاد الذين يشهدون، فهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة، والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكون شهيدًا على هذه الأمة؛ فلهذه الأمور الثلاثة سُمي يوم القيامة.

فإذا قيل: ما هو الدليل؟

قلنا: أما الأول: فدليله قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

وأما الثاني: فقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧] أي: لليوم الذي يُقام فيه العدل.

وأما الثالث: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، هذا نفي يُراد به تأكيد الإثبات السابق، والإثبات وهو ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي: جمعًا مؤكدًا لا ريب فيه، والنفي هنا ليس نفيًا محضًا، بل لكمال الإثبات أو لبيان كمال الإثبات أنه أمر لا ريب فيه، وعلى هذا التقدير يكون النفي على بابه وقيل: إن النفي بمعنى النهي؛ أي: لا ترتاب فيه، والأول أبلغ؛ لأنه إذا قيل: لا ريب فيه، فإذا ارتاب إنسان فلِخلل في عقله؛ لأن ما نفي فيه الريب مطلقًا لا يمكن أن يرتاب فيه عاقل، فشأنها للنفي على بابها أبلغ وأولى.

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ مبتدأ والخبر يكون محذوفًا، والتقدير: الذين خسروا أنفسهم خاسرون.

كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:١٥] من؟ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:١٥] فيكون المعنى: الذين خسروا أنفسهم هم الخاسرون حقًّا.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ توكيد أو بيان للسبب الذي كان به الخسران، ويحتمل أن تكون جملة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء لأن ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول، وهو مفيد للعموم،

والاسم الموصول يشبه الشرط في عمومه فكان اقتران الفاء في خبرهم.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** أن جميع من في السماوات والأرض لله عز وجل، بدليل: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾.

فإن قال قائل: كيف أخذتم العموم مع أن (من) للعاقل، و(ما) لغير العاقل؟

فالجواب: أن هذين الاسمين يتناوبان؛ بمعنى: أن أحدهما يقع مكان الآخر، والدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة:١]، وفي آية أخرى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [آل عمران:٨٣] وهذا يدل على أن (من وما) يتناوبان.

وإن كان الأكثر استعمالًا أن (ما) في غير العاقل، و(من) في العاقل، وعليه فنقول: إن (من) هنا تشمل العاقل وغير العاقل، أو نقول: من للعاقل، لكن عبر به - أي بالعاقل - لأنه إذا كان الله تعالى يملك العاقل وهو مختار مريد فغيره من باب أولى.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات السماوات والأرض، وهنا متكرر كثيرًا علينا، ومعلوم أن السماوات سبع والأراضين سبع.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أننا متى آمنا بهذا، وأن من في السماوات والأرض لله؛ فإننا لن نلجأ إلا لله ولن نخاف إلا من الله عز وجل؛ لأنه مالك من في السماوات والأرض وليتنا نتوكل على الله حق توكله؛ لأننا لو توكلنا على الله حق توكله لكان الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «**لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»، تغدو خماصًا: أي تطير في أول النهار وهي جائعة، وترجع في آخر النهار وهي ممتلئة البطون، سبحان الله!

وهذا شيء مشاهد، تجد الطيور في أول الصباح تطير في الجو وقد أعطاها الله تعالى قوة النظر؛ من رحمة الله عز وجل تنظر للحَب وهي في جوِّ السماء فتنزل عليه، وتنظر للحبة الصغيرة التي لا يدركها الإنسان إلا بالمشقة وهي تنظر لها بسهولة، وتجد أنها تأخذ الحبة الصغيرة جدًّا في وسط القطيفة المفروشة من بين الخمل الذي فيها، لكن الله عز وجل أعطاها قوة بصر حتى تعيش.

المهم: أنك متى علمت أن من في السماوات والأرض لله فإنك ستتوكل عليه وتخافه وترجوه.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز إجابة السائل نفسه إذا كان الأمر واضحًا؛ لقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ مع أنه أمره أن يسأل ثم أمره أن يجيب، فإذا كان الأمر واضحًا لا نزاع فيه فأجب أنت؛ لأن المسئول قد يمنعه من الإجابة استكباره وكبريائه.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لله تعالى أن يكتب على نفسه ما شاء؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فإذا قال قائل: كيف يكون الشيء لازمًا على الله؟

فالجواب: أن الله ألزم نفسه به، وله أن يفعل ما يشاء، فنحن لا نلزم الله بشيء، لكن الله له أن

يلزم نفسه بشيء، فكتابة الله على نفسه الرحمة لا تنافي كماله، بل هي من كماله عز وجل أن يفرض على نفسه الرحمة، لكن نحن لا يسَع لنا على الله حق إلا ما أوجبه على نفسه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «النونية»:

مَـا للعِبَـادِ عليـهِ حَـقٌّ واجـبٌ هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

هو أوجب، وليس نحن.

إن عُـذِّبُوا فَبِعَدلِـهِ، أَوْ نُعِّمُـوا فَبِفَـضْلِهِ، والفَـضْلُ للمَنَّـانِ

لأن الذنب ذنبهم.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله يعبر عنه بالنفس؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، ولها نظائر:

قال الله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

وليست نفس الله كنفس الإنسان، والإنسان يطلق على نفسه نفسًا وله نفس، قال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، فهنا يتوفى الأنفس يعني: الروح التي في البدن، وليست الجسم؛ لأنه عند الموت الجسم ما يُقبض فهو باق في الأرض ويتولاه أهل الأرض، والذي يُقبض هو الروح.

فالإنسان له نفس وهي الروح، ويعبر عن ذاته بالنفس فيقول: (كلمتك بنفسي) وتقول: (جاء الرجل نفسه)، أما الله عز وجل فليس له نفس، بل نفسه هي ذاته عز وجل.

٧ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثباتُ البعث؛ لقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء:٨٧].

٨ - ومن فوائدها: تأكيد الشيء بالقسم وغيره من المؤكدات إذا دعت الحاجة إليه، لكن متى تدعو الحاجة؟

نقول: تدعو الحاجة في مواطن منها: إذا كان المخاطب منكرًا فهنا يجب أن يؤكد الكلام، يجب حسب البلاغة.

ومنها: إذا كان الأمر بعيدًا مستغربًا فإنه يؤكد، لكن ليس كالأول؛ لأن الأول يؤكد وجوبًا، وهذا يؤكد له استحبابًا؛ يعني: توكيده أحسن من عدمه ونقول استحسانًا، فكلما دعت الحاجة إلى توكيد الكلام أكِّد، ولا يُعد هذا تطويلًا ولا إخلالًا بالبلاغة.

٩ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة الله عز وجل في جمع الأولين والآخرين؛ حتى

يكون هذا اليوم يومًا مشهودًا، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[البروج:٢، ٣] أي يشهده الأولون والآخرون، فنحن سوف نشاهد هابيل وقابيل، ونشاهد آخر واحد من هذه الأمة، فكل العالم سيكون مشهودًا بل كل شيء سيكون مشهودًا؛ الجن، والبهائم، والوحوش، وكل شيء، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨]، وقال: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ فوق الأرض.

لو تصوَّر الإنسان هذا اليوم لرأى مشهدًا عظيمًا عظيمًا، ما يستطيع أن يدركه الآن، لكن نفهم معناه ولا ندرك حقيقته، فحقيقته أبلغ مما نتصوره. اللهم اجعله علينا يسيرًا!

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تسمية يوم البعث بيوم القيامة للوجوه التي ذكرناها في التفسير.

١١ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا ريب في هذا اليوم شرعًا وعقلًا؛ شرعًا لأن الله أخبر به وأكده وضرب له الأمثال، وعقلًا لأنه ليس من المعقول أن الله تعالى يوجد هذه الخليقة ويأمرها وينهاها ويرسل إليها الرسل وتُستباح الأنفس والأموال والذرية في القتال في سبيل الله، ثم تكون النتيجة أن الأرض تبلعهم فقط، فهذا ينافي الحكمة؛ فالعقل يوجب أن يكون هناك بعث، حتى وإن لم يكن نص. فكيف والنصوص كثيرة!!

ومن رحمة الله عز وجل - وله الحمد والفضل والمنَّة - أنه يكثر من إثبات يوم القيامة ويضرب له الأمثال؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يجعل الإنسان حقيقة على الإيمان؛ إذ لولا اعتقاد المؤمن أنه سيُبعث ويجازى إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ما عمل أبدًا، ولصار صراط الأمة ما عُدِّل للسلب والنهب والأخذ والعدوان.

١٢ - ومن فوائد هذه الآية: أن هؤلاء المكذبين خسروا أنفسهم يعني: كأن لم يوجدوا على الأرض؛ لأنهم لم يستفيدوا من حياتهم؛ ولذلك لما لم يستفيدوا من الحياة الدنيا لم يستفيدوا من الحياة الآخرة، فكانوا مخلدين في نار جهنم والعياذ بالله.

١٣ - ومن فوائد الآية: أنه من الفصاحة أن يُذكر السبب بعد المُسبَّب، فإذا جعلنا جملة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرًا، وجه ذلك: أن سبب خسرانهم هو عدم الإيمان، فأخر السبب وقدم المُسبِّب، هذا إذا جعلنا ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرًا لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أما إذا جعلناها جملة مستقلَّة لله فلا تأتي هذه الفائدة؛ لأنها على الترتيب.



قال الله تعالى:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنعام:١٣]

التفسير

قوله: ﴿وَلَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله عز وجل.

وقوله: ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ (سكن) يصح أن تكون من السكنى، ويصح أن تكون من السكون الذي هو ضد الحركة، فإن كانت من السكون بقي أن يقال: وأين المتحرك؟ لأن الأشياء إما ساكنة وإما متحركة وهنا قال الله: ﴿مَا سَكَنَ﴾ والجواب عن هذا الإشكال أن يقال: إن هذا من باب الاستغناء بذكر أحد الضدين عن الآخر، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾[النحل:٨١].

السرابيل: تقي الحر والبرد، لكن ذكر الحر والبأس؛ لأن اللباسين متفقان، هذا يلبس عند حرارة الجو، والثاني يلبس عند حرارة القتال، فقال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾.

المهم: أنه استغنى بضيق الحرِّ عن ضيق البرد.

أما إذا جعلناها من السُكنى، ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ فالمعنى: أن له كل شيء؛ لأن كل المخلوقات ساكنة في مقابرها، إذن اللفظ صالح لهذا وهذا، فهل نستعمله بالمعنيين؟ نقول: نعم، بشرط ألا يقع بينهما منافاة، فإن وقع بينهما منافاة، أُخذ بما يُرجحه الدليل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، تأمّل قوله: ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تجد أنه عامٌّ في الزمان، والتي قبلها: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عامٌّ في المكان، فذكر الله تبارك وتعالى عموم المكان وعموم الزمان؛ عموم المكان لقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾، عموم الزمان؛ لقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، ذكر السمع لكل صوت، والعليم لكل حال، ولا بأس أن نُعيد أقسام السمع التي وصف الله بها نفسه وهم قسمان:

١- سمع إجابة.

٢- سمع صوتي.

أما سمع الإجابة: ففي مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[إبراهيم:٣٩] هذا يشمل سمع الإجابة وسمع الصوت، ومنه قول المصلي: (سمع الله لمن حمده).

وأما سمع الصوت فهو أنواع:

النوع الأول: المقصود به التأييد والنصر.

والثاني: المراد به التهديد.

والثالث: المراد به الإحاطة.

مثال الأول: الذي يقصد به التأييد قول الله تبارك وتعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

ومثال الثاني: المراد به التهديد قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف:٨٠] نقول: بلى.

ومثال الثالث: قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة العظيمة:** ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ اختصاص الله تبارك وتعالى بأنه يملك كل شيء، وجه الاختصاص: تقديم الخبر (وله)؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ ولهذا قلنا إن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] توحيد خالص بمعنى: لا نعبد إلا إياك، وكذلك نقول في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن السكون والحركة بيد الله عز وجل؛ لأن مالك من يسكن ويتحرك هو مالك للحركة والسكون، فيكون في هذا دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وهذا هو مذهب السلف وأهل السنة، وهو وسط بين مذهب الجبرية والقدرية.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات هذين الاسمين (السميع، والعليم)، وإثبات ما تضمناه من صفة؛ صفة السمع في السميع والعلم في العليم.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤]

التفسير

قوله: ﴿أَتَّخِذُ﴾ هذه تنصب مفعولين؛ المفعول الأول: (غير) مقدمًا، والثاني: ﴿وَلِيًّا﴾، ولو أردنا أن نرتب حسب العمل لكانت الآية: قل أتخذ غير الله وليًّا.

المهم: أن الله أمر نبيه ﷺ أن يقول معلنًا: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ استنصر به ويتولى أمري وأتولى شرعه، والاستفهام هنا للنفي.

وقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما على غير مثال سبق، والسماوات والأرض: تقدم الكلام عليهما مرارًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، هو - أي: الله عز وجل - يُطعم، أي: ما من طاعمٍ يطعم إلا والله الذي أطعمه يسوق له الطعام ولولا ذلك ما وصل إليه الطعام.

قال الله عز وجل مبينًا هذا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣، ٦٤] الجواب: بل أنت يا ربنا، ثم قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٥ - ٦٧] ولو جعله الله حطامًا ما طعمنا، ثم ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨، ٦٩] الجواب: بل أنت يا ربنا. وهذا هو الزرع: الطعام، والماء: الشراب، ثم ما يَصلُح به الطعام والشراب وهو الطبخ والطهي الذي يكون بالنار، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة:٧١، ٧٢].

إذنْ الذي يُطعم هو الله عز وجل، ثم لو شاء الله تعالى ما طعمنا حتى لو وجد الطعام، ولو شاء الله لم يخلق لنا أفواهًا ولا أمعاءً ولا معدات فلا نطعم.

إذنْ ﴿يُطْعِمُ﴾ أي: يوجد الطعام من مأكول ومشروب وما يصلح به الطعام والشراب، وكذلك توجد الآلات في بني آدم التي تقبل الطعام وتستنفع به، لكن ذكر بعض أهل العلم رحمهم الله: أنه لن يصل إليك الطعام إلا بعد أن يعمل به أكثر من ثلاث مائة واحد؛ لأنها تبدأ من الحرث والسقي وتصريف الماء وغير ذلك، والشراء والطحن، والعجن وغير ذلك، تجد أشياء كثيرة لا يصل إليك الطعام إلا بعد أن يتجاوز هذه الأشياء.

وقوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ إذنْ غيره محتاج إليه، وهو لا يحتاج لأحد، فهو لا يُطعم لغناه عن كل أحد، ثم هو جل وعلا لا يطعم؛ لأنه أحد صمد ولو طَعم لكان محتاجًا للطعام وهذا مستحيل على الله عز وجل، وهو يُطعم ولا يَطْعَم.

وقوله تعالى: إعلان آخر - ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، الأمر الأول بتحقيق توحيد الربوبية، والثاني بتحقيق توحيد العبادة، ﴿قُلْ﴾ أي: للناس معلنًا ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أول من أسلم من هذه الأمة لا من جميع الأمم، ومعنى ﴿أَسْلَمَ﴾ هنا أي: استسلم لله ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الإسلام يطلق على هذا، وإذا كان الإسلام بمعنى هذا دخل فيه الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ معطوفة على قوله: ﴿قُلْ﴾

يعني: قل هذا ولا تكونن من المشركين، بل أخلص العبادة والإسلام لله عز وجل.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية الكريمة:** أمر الله النبي ﷺ أن يُعلن أنه لن يتخذ وليًّا من دون الله وهذا واجب عليه؛ لأنه رسول وإمام مقتدى به، فلابد أن يعلن تحقيق الربوبية.

٢ ـ **ومن فوائدها:** ألَّا يلجأ العبد إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله هو الولي، ثم ولاية الله عز وجل ولاية مبنية على الحمد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[الشورى:٢٨].

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله وحده خالق السماوات والأرض على غير مثال؛ يعني: أنه سبحانه وتعالى لم يخلق سماوات وأراضين من قبل ثم أعادها مرة أخرى، بل هي على ما هي عليه.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** تمام قدرة الله تبارك وتعالى، حيث فطر السماوات والأرض، وبقيت السماوات والأرض على حسب ما أراد الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨]، ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[يس:٣٩] فلم تختلف.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله تبارك وتعالى هو المُطعِم، ولا مُطعِم سواه.

ونبني على هذه الفائدة: ألَّا نسأل أحدًا طعامًا إلا الله تبارك وتعالى، ونستغفر الله ونتوب إليه.

ولو أننا تمسكنا بهذا مع التوكل على الله والاستعانة به، لكان رزقنا مضمونًا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، لكن غلبت علينا الأمور المادية الحسية فصار الإنسان ـ مع الأسف ـ يعتمد على الأسباب أكثر مما يعتمد على المسبب عز وجل، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»، أي: تذهب في أول النهار جائعة، وتروح بطانًا أي: ترجع في آخر النهار مملوءة البطن.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى لا يُطعمه أحد؛ لعدم حاجته إلى الطعام وعدم حاجته إلى غيره، فهو لا يُطعَم؛ لأنه لا يحتاج للطعام، ولو يُطعم لما احتاج إلى أحد أيضًا؛ لأنه لا يحتاج إلى غيره، فهو غني عن كل من سواه وكل من سواه مفتقر إليه.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب إعلان النبي ﷺ عن نفسه أنه أول من أسلم؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ يعني: من هذه الأمة، وهذا هو الذي صار.

٨ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم محتاج إلى الإسلام وليس له حق في الربوبية، كما صرح بذلك هو عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا عشيرته الأقربين وجعل يناديهم بأسمائهم يا فلان بن فلان إلى أن وصل إلى ابنته فاطمة فقال: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** صحة النهي عما لا يمكن أن يقع؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فشرك النبي ﷺ لا يمكن أن يقع شرعًا ومع ذلك نُهي عنه.

إذا قال قائل: ما هي الحكمة مع أنه لا يمكن أن يقع؟

قلنا: الحكمة - فيما نعلمه - وجهان:

الوجه الأول: دعوته إلى الثبات على الإخلاص حتى لا يشرك في المستقبل.

والثاني: تطمين أمته إذا نهوا عن الشرك أن ذلك ليس بالمستنكر وليس به بأس؛ لأنه أُمر إمامهم ﷺ ألَّا يكون من المشركين.

مسألة: هل يؤخذ من هذا أننا نقول للشخص: أنت مشرك إذا فعل ما يكون به مشركًا؟

الجواب: نعم يمكن أن نقول هذا، وهو على حسب الحال، إن كنا نظن أنه إذا قلنا: أنت مشرك أخذته الحميَّة الجاهلية واستكبروا واستنكر؛ فإننا لا نخاطبه بهذا الأسلوب، وإن كان نعلم أنه ممن يتقي الله وأنه إذا قلنا: هذا شرك فإن فعلت فأنت مشرك، وإن قلت فأنت مشرك؛ أخذه خوف الله عز وجل فأبعد عن ذلك إبعادًا كاملًا، فإننا لا بأس أن نقول له: إنك مشرك على حسب ما يقتضيه الحال.



❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:١٥]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿قُلْ﴾ أي لهؤلاء وغيرهم معلنًا هذا الإعلان المهم، وفي قوله: ﴿إِنِّىٓ﴾ قراءتان:

(إِنِّيَ)، و(إِنِّيْ) وهما سبعيتان. أيضًا: أعلن أنك إن عصيت الله فإنك ستُعَذَّب، لكن كلمة ﴿عَذَابَ﴾ مفعول؟ ﴿أَخَافُ﴾ أم ﴿عَصَيْتُ﴾؟

الجواب: ﴿أَخَافُ﴾؛ يعني: إني أخاف عذاب يوم عظيم إن عصيت ربي.

إذنْ فما هو اليوم العظيم؟

نقول: اليوم العظيم هو يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يجب على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يعلن الجزاء يوم القيامة وأنه يخاف إن عصى ربه.

٢ - **ومن فوائدها:** أن المعاصي سبب للعذاب، ولكن المعاصي على نوعين:

١- معاصٍ لا يغفرها الله، وهي الشرك.

٢- ومعاصٍ تدخل تحت مشيئة الله، وهي الكبائر.

وهناك معاصٍ أخرى تكفرها الأعمال الصالحة وهي الصغائر.

هذا فيما يتعلق بينك وبين الله عز وجل، أما حقوق الآدميين فلابد من إصالهم حقهم، إما باستحباب منهم في الدنيا، وإما بأعمال صالحة تؤخذ من أعمال هذه الظالم.

وسبق لنا أن قلنا: إن الإنسان إذا تاب من ذنب فيه جناية على غيره هل يسقط حق الغير أو لا؟ ذكرنا أن ظاهر النصوص أنه يسقط إذا كان غير مال، كالذي يزني: بامرأة إنسان ثم يتوب فإن الله يتوب عليه.



❁ قال الله تعالى:

﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ﴾ فيها أيضًا قراءتان: ﴿من يَصْرِف﴾، و﴿مَّن يُصۡرَفۡ﴾.

وقوله: ﴿عَنۡهُ﴾ يعني: عنه العذاب، ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ أي: رَحِمَهُ اللهُ عز وجل، والضمير في قوله: ﴿رَحِمَهُۥ﴾ قد يقول قائل: كيف نعرف أنه عاد إلى الله عز وجل؟ فيقال: لأنه تقدم ذكره ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾. يعني: يصرف عنه ربي هذا العذاب ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾، أو يُصرف عنه هذا العذاب فقد رحمه أي: ربي.

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾، المشار إليه: ذلك يعني الصرف المفهوم من قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ﴾.

وقوله: ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ هذه هي خبر المبتدأ، ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ صفة لقوله: ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية دليل على:** أن الفوز الحقيقي هو الذي يحصل بصرف الله العذاب عن الإنسان يوم القيامة؛ لأن الفوز لبيان الحقيقة التي هي الفوز الأعظم؛ لأن غير هذا الفوز فوز زائل، حتى من وُفق في الدنيا فإن فوزه ناقص إلا أن يكون فوزه في الدنيا سببًا للأعمال الصالحة التي يفوز بها في الآخرة، فذلك الفوز المبين: أي: البيِّن، وهي اسم فاعل من (أَبَانَ)، وأبانَ يصح أن تكون لازمة ويصح أن تكون متعدية، فإذا قلت: (أبان المعلم للطالب معنى الكتاب) هذه

متعدية، وإذا قلت: (أبان الصبح) بمعنى انجلى، فهذه لازمة، إذنْ المبين هنا بمعنى: البيِّن.

٢ ـ **وفي الآية فوائد منها:** فوز من يُصرف عنه العذاب يوم القيامة.

٣ ـ **ومنها:** إثبات الرحمة لله عز وجل بلفظ الفعل، لقوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾.

ورحمة الله تبارك وتعالى من الصفات الذاتية الفعلية، فباعتبار المفهوم تكون فعلية، وباعتبار كونها وصفًا ثابتًا لله تكون من الصفات الذاتية.

والرحمة يكون بها حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فإذا قال قائل: هل رحمة الله حقيقية أو هي عبارة عن الثواب أو إرادة الثواب؟

فالجواب: هي حقيقية، ولكنها ليست كرحمة المخلوق التي يكون فيها نوع من الضعف، ولكنها رحمة الخالق الذي هو فوق عباده عز وجل، وقد أنكر قوم الرحمة وقالوا: إن الله لا يوصف برحمة حقيقية؛ لأنها تدل على الرقة واللين وهذا لا يليق بالله عز وجل، فإذا قلنا لهم، فسروها لنا؛ قالوا: الرحمة هنا عبارة عن آثار الرحمة وهي إما الإرادة، وإما الثواب، فالفعل هو الذي حصل برحمة الله.

فإذا قيل لهم: ما الذي حملكم على صرف الكلام عن ظاهره؟ قالوا: لأن الرحمة على الوجه الذي ذكرنا تدل على الضعف.

فنقول لهم: هذه الرحمة التي ادعيتم أنها تدل على الضعف إنما هي رحمة المخلوق، أما رحمة الخالق فإنها لا تدل على الضعف هنا بوجه من الوجوه، بل تدل على كمال فضله وكرمه عز وجل، ثم إن لنا أن ننازعكم في دعواكم أن اللين والرقة يدل على الضعف، فكم من ذي سلطان قوي يكون رحيمًا، وهو ذو سلطان قوي يستطيع أن يبطش برعيته كما يشاء، ويكون رحيمًا بمن يستحق الرحمة.

فتمنع أولًا دعوة، ثم لو سلمنا جدلًا بأن الرحمة تدل على اللين والرقة فهذه رحمة المخلوق.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الفوز الحقيقيَّ البيِّن الظاهر هو: الفوز من نجاة العذاب يوم القيامة .

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم ذلك!.



قال الله تعالى مسليًا رسوله ﷺ ومبينًا له ومقويًا عزيمته:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧]

التفسير

الضُّر هنا يشمل: الضر في البدن والعقل والمال، وكل ما يكون به الضرر على الإنسان، وكلمة

(ضر) كما تشاهدون نكرة في سياق الشرط والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، أيُّ ضر يمسسك الله به يعني: يصيبك فلا كاشف له؛ أي: لا مزيل له إلا الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

والخير هنا المراد به: ضد الضرر من الصحة والعقل والمال والأهل والأمن وشرح الصدر وغير ذلك، فهو على كل شيء قدير، قادر على أن يزيل الضرر الذي أصابك إلى خير[1].

الفوائد:

١ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يعلق رجاءه بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنه إذا علم مضمون هذه الآية فسوف يعتمد في أموره كلها على الله.

٢ - **ومنها:** تقوية النبي ﷺ في الدعوة إلى الله، وأنه مهما حاول هؤلاء أن يصيبوه بضرر؛ فإنهم لا يملكون ذلك إذا لم يكن الله أراده.

٣ - **ومنها:** الحث على الصبر؛ لأنك إذا علمت أن الذي أصابك بالضُّر هو الله، فلابد أن تصبر لأنك عبده يفعل بك ما شاء فتصبر على ما يصيبك من الضرر.

٤ - **ومنها:** قوة رجاء العبد بالله عزَّ وجلَّ إذا أصابه الضرر أن يزول عنه وجه ذلك قوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وكم من أضرارٍ حدثت للإنسان حتى أوصلت إلى اليأس والقنوط فكشفها الله عزَّ وجلَّ.

وكم من إنسان أُصِيبَ بمرض حتى وصل إلى حافة القبر ثم شفاه الله عزَّ وجلَّ.

وكم من إنسان أُصِيبَ بالفقر حتى وصل إلى ألَّا يجد قوت يومه ولا عياله، ثم أغناه الله.

وكم من إنسان كان وحيدًا فرزقه الله، وهلم جرًّا؛ لأن الله على كل شيء قدير.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام سلطان الله عزَّ وجلَّ وأنه سبحانه وتعالى هو المتصرف كما يشاء بعباده؛ لقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ بكذا ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ بكذا.

٦ - **ومنها:** عموم قدرة الله؛ لقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقابل القدرة : العجز، وهنا صفتان متشابهتان أو متقاربتان (القوة ـ القدرة) والفرق بينهما يحصل بالتعري:

القدرة: التمكن من الفعل بلا عجز، والقوة: التمكن من الفعل بلا ضعف، والدليل قول الله تبارك وتعالى في القدرة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا

---

(١) هذا ما تيسر من سماع لتفسير الآية.

﴿قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، والدليل في القوة قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤].

أيهما أكمل، أو أيهما أعم؟

نقول: أما القوة فهي أعم؛ لأنها تكون في ذي الشعور وغيره، في الشعور يعني في الإرادة وغيره، فنقول: (فلان قوي)، وتقول: (الحديد قوي).

وأما القدرة: فإنها لا تكون إلا من ذي الإرادة، إذ لا يصح أن تقول: الباب قادر؛ لأنه ليس له إرادة.

أيهما أكمل؟ القوة أكمل؛ لأنه يلزم من وجود القوة القدرة ولا عكس، ونضرب مثلاً لهذا: رجل قيل له: احمل هذا الحجر، فحمله لكن حمله بمشقة، بماذا نصف هذا الرجل؟

الجواب: نصفه بأنه قادر غير قوي.

وإنسان آخر قلنا له: احمل هذا الحجر، أراد أن يحمله فعجز، نقول هذا عاجز غير قادر.

ورجل ثالث قلنا له: احمل هذا الحجر، فأخذه وكأنه ريشة، هذا قوي، وهو قادر من باب أولى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء فالله قادر عليه، كل شيء حتى وإن بَعُدَ في ذهنك فالله قادر عليه؛ ولهذا نبه الله تبارك وتعالى زكريا عليه السلام حين قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨] قال تعالى له: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩] فالذي خلقك من قبل ولم تك شيئًا قادر على أن يخلق لك ولدًا.

وهذا قياس أولوية واضح، أو على الأقل قياس شيء واضح؛ فالقادر على العدم قادر على الإيجاد، والقادر على الإيجاد قادر على العدم، إذنْ لا تستكثر أن تسأل الله تبارك وتعالى شيئًا لا تكون فيه معتديًا في الدعاء ولو كان في نظرك بعيدًا؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير.



قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ

﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[الأنعام:١٨-١٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ هو: الضمير يعود على الله عزَّ وجلَّ، ومرجعه ما ثبت من الآية، وقوله: ﴿ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ القهر هو الغلب مع السلطان؛ يعني السلطة؛ لأن الغالب المطلق قد لا يكون له سلطة، لكن قهر الله عزَّ وجلَّ غلبة مع سلطة تامة.

وقوله: ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ هل المراد بالفوقية: المكانة أو فوقية المكان أو هما جميعًا؟! الجواب: هما جميعًا؛ فوقية المكان وفوقية المكانة، وعليه فيكون المعنى: هو القاهر فوق عباده - من حيث المعنى - لا يمكن أن تغلبه قوة، ومن حيث المكان أنه فوق كل شيء.

وقوله: ﴿عِبَادِهِۦ﴾: (عباده) جمع عبد، والمراد به هنا: العبودية العامة التي تشمل المؤمن والكافر، لأن العبودية ثلاثة أقسام:

١ ـ عامة. ٢ ـ خاصة. ٣ ـ أخص.

العامة: هذه العبودية: أن جميع المخلوقات كلها ذليلة أمام الله عزَّ وجلَّ فهي عابدة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣].

الخاصة: هي عبودية المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣].

الأخص: هي عبودية الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، فهنا ثلاثة أقسام.

وقوله: ﴿ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ المقصود بها: العبودية العامة.

واعلم أن الخاصة تدخل في العامة؛ بمعنى أنهم عباد الله أي: العبودية القدرية، والعبودية الشرعية.

إذنْ: ﴿ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ المراد: عبودية القدر، كل خاضع لله عزَّ وجلَّ، لو كان من أقسى عباد الله فهو عبد لله، ففرعون مثلًا عبد لله بالمعنى العام، وموسى عبد لله بالمعنى العام والخاص.

فالعبودية الشرعية: خاصة، والعبودية القدرية الكونية: عامة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ الحكيم تصح أن تكون بمعنى: (مُحكِم)، ومن الشواهد على مجيء

فعيل بمعنى مُفعِل، قول الشاعر[1]:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُـؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُـوعُ

فسميع هنا بمعنى: مُسمِع.

وحكيم أيضًا بمعنى: حاكم، إذنْ هي مشتقة من الحكمة ومن الحُكْم، والدليل على هذا - أي على أنها من الحكم - قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

وأما من الحكمة: فكما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] والجواب: بلى.

إذنْ (الحكيم): مُشتقة من الإحكام والحُكم، فإذا كانت مشتقة من الإحكام فهي بمعنى: مُحكِم وإذا كانت من الحكم فهي بمعنى: حاكم.

والله تبارك وتعالى موصوف بهذا وهذا، ثم اعلم أن الحكم: كوني وشرعي.

من الكوني قول الله تعالى عن أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠] أي يُقدِّر لي، هذا حكم قدري، وأما الشرعي: فمنه قول الله تبارك وتعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

إذنْ الحكم نوعان: كوني وشرعي.

فإن قال قائل: ما الفرق بينهما؟

قلنا: الفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن الحكم القدري لا بد أن يقع، إذا حكم الله تعالى بشيء حُكمًا قدريًّا فلا بد أن يقع، فإن حكم سبحانه وتعالى بالخوف فلا بد أن يقع الخوف، وإن حكم بالجدب فلا بد أن يقع الجدب، وإن حكم بالرخاء فلا بد أن يقع الرخاء، وهلم جرًّا.

أما الحكم الشرعي: إذا حكم بشيء فقد ينفذ وقد لا يُنفذ، فإذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة:١٧٣] فهل نقول: إن هذه الآية تدل على أنه لا يمكن أن يأكل الميتة أحد؟ الجواب: لا، قد يأكل وقد لا يأكل.

الفرق الثاني: أن الحكم الشرعي سواء كان إيجابًا أو تحريمًا لا يكون إلا فيما يرضي الله عزَّ وجلَّ، فلا يمكن أن يأمر الله عباده بما يكرهه، ولا أن ينهاهم عما يحبه، أما الحكم الكوني: فيكون فيما يحبه

---

(١) ينسب هذا البيت إلى: عمرو الزبيدي، عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي. فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة ٩هـ، في عشرة من بني زبير، فأسلم وأسلموا وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ، ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية.

ويرضاه، وفيما يكرهه ويسخطه سبحانه وتعالى.

والحكمة نوعان:

حكمة صورية: وهي أن يكون الشيء على هذه الصورة المعينة.

وحكمة أخرى غائية: أن يكون هذا الشيء لغاية محمودة.

فإذا تأملت المخلوقات كلها وجدت أنها في غاية الحكمة؛ فالشمس والقمر والنجوم، والرياح والأمطار، وهلم جرا. كلها من غاية الحكمة، وإذا ما نظرت للغاية منها: وجدتها غاية حميدة مطابقة للحكمة، كذلك أيضًا الشرع، إذا تأملت الشرائع وجدت كون هذا الشيء على صورة معينة: حكمة، وكونه لغاية حميدة: حكمة.

ففي الزكاة مثلًا: نجد الزروع ما سُقي بمؤونة كان فيها نصف العشر، وما سقي بلا مؤونة كان فيها العشر، لماذا الاختلاف؟ لأن الواقع يقتضي ذلك، ما سقي بمؤونة، أي: تعب عليه صاحبه وأنفق مالًا كثيرًا في استخراج الماء، أما الآخر لم يفعل، كذلك إذا تأملت الحكمة في الزكاة أيضًا وجدت أن المال القليل لا تجب فيه الزكاة؛ لأنه لا يحتمل المواساة بخلاف الكثير، ووجدت ما يشق فيه إخراج الزكاة ما لا تجب به إخراج الزكاة كالثياب، والمراكب، والبيوت وما أشبه ذلك.

ما الحكمة من الزكاة؟

الآن عرفنا أن الزكاة على صورة معينة: حكمة، لكن ما الحكمة من الزكاة؟ الجواب: قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] هذا أفضل شيء، تطهِّرهم من الذنوب؛ لأن الصدقة تُذهب الخطيئة.

تزكيهم بها: أي تزكي أخلاقهم ودينهم، تزكي دينهم؛ لأنه يجعلك تبذل كل ما يحبه الله عزَّ وجلَّ، ولا يمكن أن يبذل الإنسان محبوبًا إلا لما هو أحب، كذلك تزكي أخلاقهم بالكرم والسخاء والرخاء.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن من أسباب انشراح الصدر: الصدقة والبذل، وهذا معنى خفيٌّ، كلما كان الإنسان أشد بذلًا للمال كان أوسع صدرًا، لا سيما إذا كان يؤمن بأنه يقرب إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنه يكفِّر سيئاته، وما أشبه ذلك.

فالحكم: كوني وشرعي.

والإحكام: صوري وغائي.

وتكون الحكمة أيضًا في المشروعات وفي المخلوقات.

وقوله تعالى: ﴿الْخَبِيرُ﴾: الخبير يعني ذا الخبرة، قال أهل العلم والخبرة: هي العلم ببواطن الأمور، وهي مشتقة من (خبير الزرع) الذي يدفن في الأرض ويكون خفيًّا؛ ولهذا يمر عليهم

الحديث أن النبي ﷺ نَهَى عَنْ الـمُخَابَرَةِ[1]، يعني المزارعة التي تشتمل على الفرق.

إذنْ الخبير يعني العليم ببواطن الأمور جل وعلا، حتى أن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] الذي يحدِّث به نفسه يعلمه الله عزَّ وجلَّ؛ قبل أن يحدث به الإنسان وقبل أن يعلم به إخوانه.

إذنْ الخبرة هي: العلم ببواطن الأمور، فبالتالي لزم من اسمه الخبير أن يكون عليمًا، وقرن الله تعالى هنا بين الحكيم والخبير، ليعلم الناس أن حكمة الله عزَّ وجلَّ عن خبرة وعلم ببواطن الأمور، وعلى هذا فقد تكون خفية على كثير من الناس؛ لأنه لا يدرك الحكمة إلا من كان خبيرًا.

ففي قرن هذين الاسمين فائدة: وهي أن الخبرة قد تكون خفية لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ.

ومن ثم قلنا: إن جميع أوامر الشرع ونواهيه حكمة، ولا حاجة أن نعرف العلة؛ لأننا نعلم أن الله حكيم عزَّ وجلَّ، وأنه ما شرع إلا الحكمة.

وما موقفنا من الأوامر والنواهي إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا.

إن تيسَّر لنا معرفة الحكمة فهذا منَّة من الله عزَّ وجلَّ ومساعدة ومعونة من الله؛ حتى يطمئن القلب ويقوى الإيمان، وإن لم تتبين فالمؤمن يكفيه أن هذا حكم الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك ربما تكون العبادة التي تخفى حكمتها أبلغ من التعبُّد؛ لأن الشيء إذا علمت علته قد يكون عقلك يأمرك به، لكن إذا كنت لا تعرف العلة فإن تذلُّلك لله به وعبادتك إياه أبلغ في التذلل.

مثلًا: رمي الجمرات؛ حصًى تأخذها من الأرض وترمي بها في مكان معين، الإنسان قد يعلم العلة وقد لا يعلم، أكبر علة فيها: أنها ذكر لله عزَّ وجلَّ، كما جاء في الحديث: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَبِالصَّفَا وَالْـمَرْوَةَ، وَرَمْيُ الْـجِمَارِ، لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ»[2].

فهنا كمال التعبد، إنسان عاقل مؤمن فاهم ذكي، يأخذ حصوات ويرميها في مكان معين، ولولا أنه مشروع لقيل: إنه عبث، لكنه في وقته ومكانه مشروع؛ لأن فيه كمال التعبُّد والتذلل لله، وأن المؤمن عليه أن يقول: سمعنا وأطعنا، مع أن فيه ذكرًا لله في القلب وهو كمال التذلل والتعبُّد، وفيه ذكرًا لله باللسان؛ لأنه يُشرع في كل حصاة ترميها أن تقول: (الله أكبر).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ قيل: إن هذا الآية لها سبب، وهو أن المشركين قالوا للنبي ﷺ من يشهد لك بأنك حق، اليهود والنصارى أنكروا، فمن يشهد لك؟ فأنزل الله هذه الآية، وسواء كان هذا هو السبب أو لم يكن هذا هو السبب لأن في قلوب المشركين - لا شك - أن الشيطان يلقي في قلوبهم ويقول: محمد ما عنده من الآيات، إنما هو من الشعر.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨١)، ومسلم (١٥٣٦/ ٨١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: رواه أبوداود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢)، وأحمد في مسنده (٢٤٣٩٦) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٥٦).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي شيء؟ الجواب واضح؛ ولهذا أمر الله نبيه أن يجيب قبل أن يجيب هؤلاء؛ لئلا يكابروا ويعاندوا، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وكان يتبادر أن يكون الله جوابًا لهم لو قالوا: مَنْ الشاهد؟ لكن الرسول يسألهم يقول: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ربما يكابرون ويقولون: لا شاهد لك، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

وإعراب هذه الآية فيها أوجه:

الوجه الأول: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾: أن يكون الاسم الكريم مبتدأ، والخبر محذوف، والتقدير: قل الله أكبر شهادة، وعلى هذا التقدير يكون قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو شهيد بيني وبينكم.

الوجه الثاني: أن الاسم الكريم خبر لمحذوف تقديره: هو الله، وعلى هذا التقدير: يكون قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ يجوز فيها وجهان:

الوجه الأول: أن تكون خبرًا ثانيًا للمبتدأ المحذوف، ويكون التقدير هو الله شهيد خبر ثانٍ.

الوجه الثاني: أن تقول: شهيد خبر المبتدأ المحذوف، يعني هو الله هو شهيد بيني وبينكم.

هذه هي أوجه الإعراب، يتوقف عليها الوقوف، نقف على كلمة؛ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ نقف على هذا.

وفيه وجه آخر منفصل عن هذه الوجوه:

أن يكون الاسم الكريم مبتدأ خبره شهيد ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وإذا كان الله شهيدًا بينه وبين أعدائه؛ فما الأكبر من الله؟ لا أحد أكبر، كل هذه الأوجه مهما تنوعت لا تعدو أن يكون المعنى: الله أكبر شهادة من كل شيء، ولا شك في هذا.

وبماذا شهد الله للرسول عليه الصلاة والسلام؟

الجواب: شهد الله للرسول ﷺ بصدقه في اللفظ وفي الفعل؛ اللفظ قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون:١] فهذه شهادة قولية من الله على أن رسول الله ﷺ حق، أما الفعل: فالآيات التي يظهرها الله، هذه شهادة فعلية من الله: التمكين له في الأرض، تمكينه من أن يضرب الأعناق ويسبي الأموال والذرية، تمكينه من أن يتلو القرآن على الناس ويقول هذا كلام الله، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] شهادة الله الفعلية كثيرة، شهد الله لرسوله ﷺ بأنه حق.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أوحي: أبهم الفاعل لأنه معروف، فالموحِي هو الله عزَّ وجلَّ، والوحي في اللغة العربية في الأصل: الإعلام بسرعة وخفاء، أن تُعلم صاحبك بسرعة، تعطيه كلمات يفهمها بسرعة وخفاء؛ لئلا يطَّلع عليها أحد.

فأصله السر، أصل الوحي السر، لكنه في الاصطلاح: هو عبارة عن تكليم الله عزَّ وجلَّ بواسطة أو بغير واسطة لأحد من عباده بشريعة يبلغها الناس، هذا هو الوحي.

وسمي بذلك لأن الوحي خفي، فتارة يكون في روع الرسول ﷺ، وتارة يكون في تكليم الله للرسول من وراء حجاب، وتارة يكون في إرسال رسول يرسله الله عزَّ وجلَّ فيوحي من عنده ما يشاء.

وقوله: ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ القرآن: مصدر كالغفران والشكران، وهل هذا المصدر بمعنى اسم المفعول أو بمعنى اسم الفاعل؟ فالمصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل ويأتي بمعنى اسم المفعول، تقول: هذا عدل رضي؛ أي: عادلٌ راضٍ، وفي الحديث: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي مردود، فهل هنا هذا المصدر بمعنى اسم الفاعل أو بمعنى اسم المفعول؟

الجواب: يكون لهما جميعًا؛ فهو بمعنى اسم الفاعل أي: قارئ؛ لأنه جامع آياته وكلماته وما يحتاج الناس إليه، وبمعنى مفعول، أي: مقروء، وكلا الوصفين ثابت للقرآن الكريم.

وقوله تعالى:(﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ اللام هنا متعلقة بـ(أوحي) أي: أوحي إلي لأكون منذرًا، وهذا هو الحكم من الوحي، أن الله سبحانه وتعالى يوحي للرسول لينذر به، وإذا أورث الله تبارك وتعالى رجلًا هذا الوحي فإنما أورثه الله لينذر ويقول الحق كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (من) هذه اسم موصول معطوف على كاف ينذر، يعني وأُنذر من بلغ، والفاعل يعود على القرآن، والمعنى: ومن بلغه القرآن ـ بأي واسطة ـ فقد أُنذر.

ولكن من بلغه القرآن بغير اللغة العربية ولم يفهم منه شيء؛ فلا تقوم عليه الحجة، ومن بلغه باللغة العربية وهو لا يفهمها فإنه لا تقوم عليه الحجة، لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣] جعلناه: يعني صيرناه باللغة العربية.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فمن بلغه هذا القرآن فكأنما خاطبه النبي ﷺ إلى يوم القيامة، لأنه قال: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ أيها المخاطبون ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ هذا الاستفهام للإنكار، وهو استفهام داخل على جملة مؤكدة بـ (إن) و(اللام) فهي كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠] همزة داخلة على جملة مؤكدة بـ(إن) و(اللام)، قوله: ﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ يؤكد أنهم شهدوا أن مع الله آلهة أخرى، وينكر عليهم هذه الشهادة؛ لأن هذه أكذب شهادة، ولقد قال هؤلاء: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، ﴿وَٱنطَلَقَ

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨)، وأحمد في مسنده (٢٥١٧١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

﴿ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ [ص:٦] أي الأشراف ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ دعوا هذه الدعوة لا تغرنكم ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٦، ٧] وقوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ يعني فإن شهدتم فأنا بريء منكم، لا أشهد أن مع الله آلهة أخرى، ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كرر الأمر بالقول لأهمية الموضوع، فأمر أولًا: بنفي شهادتهم ثم أمر ثانيًا: بإثبات شهادته أن الله إله واحد.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ﴿بَرِىٓءٌ﴾ البراءة بمعنى: الخلو، ومنه: أبرأ الرجل غريمه أي: أخلاه من الدين الذي عليه، فمعنى بريء مما تشركون أي: أني خليٌّ مما تشركون فأنبذه ولا أقر به، وقوله: ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني: كل ما يشركون به.

فإن قال قائل: هل هو بريء من عيسى؟ الجواب: أن نقول: إن عيسى - عليه السلام - لا يتبرأ منه الرسول عليه الصلاة والسلام، وبناء على هذا فإما أن نجعل (ما) مصدرية ويكون المعنى بريئًا من شرككم، وإما أن نجعلها موصولة ويستثنى من ذلك من يعبد من دون الله وهو صالح، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠] لما نزلت هذه الآية احتج المشركون على النبي ﷺ وقالوا: إذن عيسى من أهل النار؛ لأنه يعبد من دون الله.

فأنزل الله ردًّا لهذه الشبهة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] فبيَّن أن عيسى عليه السلام مستثنى من [البراءة منه].

وهنا كذلك نقول: فصار المخرج أحد أمرين: إما أن نجعل (ما) مصدرية فيكون المعنى: بريء من شرككم أو نجعلها موصولة، ويستثنى من ذلك من جعل شريكًا مع الله وهو لا يرضى بذلك من الأنبياء والملائكة والصالحين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾:

١ - إثبات اسم القاهر لله عزَّ وجلَّ؛ لأنه قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ وجاءت بصيغة أخرى (القهار) كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] فيستفاد من إثبات الاسم إثبات الصفة، وهي القهر؛ لأن كل أسماء الله كلها دالة على معنى واحد أو أكثر؛ لأنها أسماء وأوصاف، فهي باعتبار تعيين الذات أسماء، وباعتبار دلالتها على المعنى أوصاف.

ولهذا نقول: أسماء الله عزَّ وجلَّ ليست كأسماء بني آدم مثلًا، فإن بني آدم قد يُسَمَّى الإنسان باسم وهو أبعد الناس عن وصفه، بخلاف أسماء الله.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات الفوقية لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وكما سبق أنها فوقية مكان وفوقية مكانة، أما فوقية المكانة فما أحد من المسلمين ينازع فيها، وهو الفوقية المعنوية، أما فوقية المكان: فقد تنازع المسلمون فيها على طرفين ووسط:

الطرف الأول: يقول: إن الله سبحانه وتعالى في كل مكان، في السماء، وفي الأرض، وفي الأسواق، وفي المساجد، وفي المدارس، وفي كل مكان، ولا يخفى ما يلزم على هذا القول الباطل من اللوازم الفاسدة ـ كمخالفة النصوص، ومخالفة الفِطَر، ومخالفة العقول ـ من وصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله.

الطرف الآخر: على العكس من هذا قال: لا يجوز أبدًا أن نثبت أن الله بمكان؛ لا فوق ولا تحت، ولا في اليمين، ولا في الشمال، ومعلوم أن هذا القول يعني العدم، فإذا قلت: إن الله ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل ولا منفصل، فهذا هو العدم تمامًا؛ ولهذا قال محمود بن سبكتكين رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من أقوى الأمراء والسلاطين في المشرق ـ قال لمحمد بن فورك لما سأله عن الله وقال: إنه لا نقول فوق ولا تحت ... إلخ. قال: بيِّن لي الفرق بين إلهك والعدم[١]؟! أو كلمة نحوها، وصدق رحمه الله.

الوسط: الذي هدى الله إليه سلف الأمة، وأهل السنة ـ أن الله تعالى في مكان فوق كل شيء، لكن ليس معنى ذلك أنه في مكان يحيط به؛ كالمسجد مثلًا: يحيط بمن فيه، بل في مكان فوق فضاء؛ لأن ما فوق المخلوقات عدم، ما فوقها شيء حتى نقول إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته، فهو فضاء عدم، والله تعالى فوق كل شيء، وهذه الفوقية ـ فوقية المكان ـ دلَّ عليها الكتاب والسنة، من الكتاب قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [المُلك:١٦] وقوله سبحانه وتعالى في الآيات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ومن السنة: قوله ﷺ للجارية لما سألها أين الله فقالت: في السماء، فقال: «**اعتقها فإنها مؤمنة**»[٢]، ومن السنة الفعلية عندما كان النبي ﷺ في حجة الوداع كان يقول: «**اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ**»[٣] يرفع أصبعه إلى السماء ثم ينكتها إلى الناس، يردُّها إليهم.

كذلك أيضًا من أدلة علو الله الدليل العقلي: وهو أن العلو أفضل من السفل، وهو صفة كمال، والله تعالى موصوف بصفة الكمال، فلزم أن يكون عاليًا، ولأن ضد العلو السفل لأنهما متقابلان؛ فإذا انعدم علوه لزم ثبوت سفوله، وهذا مستحيل على الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ٢١٠).

(٢) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبوداود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨)، وأحمد في مسنده (٢٣٨١٣) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٤٤٠٣)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

كما أن الإنسان كلما دعا يجد من نفسه ضرورة بطلب العلو، ما قال: يا الله إلا يجد قلبه يرتفع إلى السماء وبدون أي دراسة، وبدون أي تعليم، فهو دليل فطري.

حتى قيل: إن البهائم تقر بذلك، وفي الحديث الضعيف: أن سليمان بن داود عليهما السلام خرج مرة يستسقي - أي يطلب نزول المطر - فوجد نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تقول: اللهم إنا خلق من خلقك فلا تمنع عنا رزقك، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

هذا الأثر ضعيف، لكن لا يُستبعد أن البهائم العجمى تعترف بعلو الله عزَّ وجلَّ، فتبين الآن أن دلالة الأدلة كلها؛ الكتاب والسنة والعقل والفطرة، وهناك إجماع على هذا - متفق على علو الله تبارك وتعالى علو مكانة، وليس فيه أي نقص.

وأما تدجيل المنكرين على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ والصحابة والنبي والصحابة بأنه يلزم من ذلك أن يكون جسمًا.

فنقول: إذا لزم هذا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فليكن، وما يضرنا إذا لزم، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى له ذات مخالفة لذوات المخلوقين من كل وجه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

حتى في الوجود والحدوث مخالفة، فإن الله لم يزل ولا يزال موجودًا، بخلاف غيره من المخلوقات، فهو حادث بعد أن لم يكن.

لكن إياك أن تتصور هذه الذات العلية؛ لأنك لا تستطيع أن تتصورها بصورة مطابقة إطلاقًا، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العبودية لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وهذه العبودية: العبودية الكونية، كل الخلق عباد الله عزَّ وجلَّ يفعل فيهم ما يشاء، ولا يصح لأي واحد - بر أو فاجر، مؤمن أو كافر - أن يستعصي على ربه عزَّ وجلَّ من هذه الناحية.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات اسم الله، بل إثبات اسمي الله: (الحكيم)، و(الخبير)، وما تضمناه من صفات.

فالذي تضمنه الحكيم صفتان: الإحكام، والحُكم، وإن شئت فقل: الحكمة والحكم.

وقد سبق في التفسير أن الحكمة هي: وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، قال بعضهم: (إن الشرع ما أمر بأمر فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم ينهَ عنه)؛ لأن أوامر الشرع ونواهيه مطابقة تمامًا للحكمة.

كذلك الأمور الكونية كلها مطابقة للحكمة كما سبق في التفسير.

وبالنسبة للحكم أيضًا حكم الله نوعان: شرعي وقدري، أو إن شئت قل كوني، وهي أيضًا

موافقة للحكمة، وذكرنا أن الحكمة في التفسير نوعان: حكمة غاية وحكمة صورة، الغاية أن كل ما قضاه الله كونًا أو شرعًا فإنه على وفق الحكمة، والغاية منه حكمة أيضًا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات وصف الخبرة لله عزَّ وجلَّ وهي: العلم ببواطن الأمور، ويترتب على إيماننا بهذا: أولًا: أن نستسلم لحكم الله الشرعي كما أننا مستسلمون بحكمه القدري، وألا نكلف أنفسنا بالاطلاع على الحكمة فيما لا تدركه العقول، بل نؤمن ونسلم، وكذلك يقال في الأحكام القدرية: نؤمن بالله ونسلم لقضائه؛ إذن يستلزم من جهة المنهج والمسلك أن الإنسان يرضي بحكم الشرع، لا يقول: ليته لم يحرم أو ليته لم يوجد، وكذلك القدر يستسلم له.

٦ - وكذلك من الفوائد المسلكية أو المنهجية: أنك تستلزم أو تلتزم بأحكام الله الشرعية؛ لأن الحكم له والحكمة فيما شرع، فلا مناص لك عن أحكام الله الشرعية، وهل هذا يمنع من أن نسأل عن الحكمة؟ الجواب: لا يمنع، لكن بشرط أن نستسلم تمامًا قبل معرفة الحكمة، أما ألا نستسلم إلا إذا عرفنا الحكمة فهذا غلط عظيم.

وبالنسبة للخبير، متى علمت أن الله سبحانه وتعالى خبير بكل شيء يقع منك فإنك سوف تخاف من مخالفة الله عزَّ وجلَّ، وسوف ترغب للقيام بأمر الله؛ لأنك تعلم أنك لم تعمل عملًا إلا علم الله بك، وهذه نتيجة مهمة جدًّا. فمن يترك الزنا مثلًا في مكان لا يطلع عليه إلا الله، وبدون معارضة من المرأة، والنفس تدعو لذلك، ومن يترك هذا في مثل هذه الحال إلا مؤمن يعلم أن الله يراقبه! وتأمل في قصة يوسف عليه السلام؛ دعته سيدته إلى نفسها في مكان خالٍ ولا يمكن الوصول إليه؛ لأنها غلقت الأبواب وهي امرأة العزيز، ستكون على جانب كبير من الجمال أو التجمل، ولما همت به وهم بها رأى برهان الله عزَّ وجلَّ، أي: ما في قلبه من الإيمان فانصرف عنها وتركها خوفًا من الله تبارك وتعالى، وقال الله في ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] أي: كان الأمر كذلك.

وتأمل قول النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله: منهم: «**رَجُلٌ دَعَتْهُ**[١] **امْرَأَةٌ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**[٢]»[٣] فالمهم أنك متى آمنت بعلم الله عزَّ وجلَّ بجميع

---

(١) أي دعته إلى الزنا بها، هذا هو الصواب في معناه. وذكر القاضي فيه احتمالين أصحهما هذا، والثاني: أنه يحتمل أنها دعته لنكاحها فخاف العجز عن القيام بحقها أو أن الخوف من الله تعالى شغله عن لذات الدنيا وشهواتها.

(٢) وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها، وهي جامعة للمنصب والجمال لاسيما وهي داعية إلى نفسها، طالبة لذلك قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها، فالصبر عنها لخوف الله تعالى - وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال - من أكمل المراتب وأعظم الطاعات، فرتب الله تعالى عليه أن يظله في ظله، وذات المنصب، هي: ذات الحسب والنسب الشريف.

(٣) رواه البخاري (٦٦٠، ١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أحوالك وبما في قلبك فإنك لن تخالفه فتعصيه، كيف تخالف الله عزَّ وجلَّ وتعصيه وهو يعلم؟ هذا لا يقع إلا ممن أزاغ الله قلبه ـ نسأل الله العافية.

الفوائد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية:** إطلاق اسم الشيء على الله لقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾؛ لأن اسم الاستفهام إذا أضيف إلى كلمة صارت هذه الكلمة صادقة على جواب الاستفهام، وهنا جواب الاستفهام لفظ الجلالة (الله)، فيكون الله تعالى (شيء) يعني: يصدق أن نسميه شيئًا، وقد قال البخاري رحمه الله: وقد سمى الله نفسه شيئًا، ولكن يجب أن نعلم أنه يخبر بكلمة شيء عن الله، ولكن لا يسمى به، دليل هذا أن الله تعالى له الأسماء الحسنى، وكلمة شيء لا تدل على هذا المعنى، فيخبر بها عنه ولكنه لا يسمى بها؛ إذن يخبر عن الله بأنه شيء ولكن لا يسمى به.

مسألة: وهل يطلق على القرآن بأنه شيء؟

الجواب: نعم، هو شيء لا شك، قالت الجهمية: إذا أطلقتم على القرآن بأنه شيء فقد أقررتم بأنه مخلوق؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] والجواب على هذا أن نقول: القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ وكلام الله وصفه، ووصف الخالق غير مخلوق؛ لأن الوصف تابع للذات، فكما أن الذات غير مخلوقة فكذلك الوصف، ثم لا يمنع أن يكون المراد ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] أن يكون المراد بهذا العموم المخصوص أي: خالق كل شيء من المخلوقات، والعموم قد يراد به الخصوص كما في قول الله تعالى عن ريح عاد ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥] ومعلوم أنها لم تدمر السماء ولا الأرض، بل ولا المساكن كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن شهادة الله أكبر شهادة، لأنها مبنية على علم ويقين، وعدل، والخلل في الشهادة أن تكون مبنية على ظن أو على جهل، أو على جور؛ لأن الشاهد إما أن يبني على أشياء ظنية أو يشهد عن جهل تام، أو يشهد عن جور، فكل هذا يخل بالشهادة.

وشهادة الله عزَّ وجلَّ منزهة عن هذا فهي صادرة عن علم يقيني، وعن عدل، لا يمكن أن يجير في الشهادة جل وعلا، ولا يمكن أن يشهد إلا عن علم؛ إذن هو أكبر شهادة، يدل لذلك القرآن قال الله تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦] يكفي لشهادة الله، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة:٤٤] ﴿بَعْضَ﴾ هذه مضافة للأقاويل، يعني: قولًا من أقاويل كثيرة، يعني مثلًا: أوحينا إليه ألف قول فتقوَّل واحدًا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] كلام الله عزَّ وجلَّ، فهل قطع من الرسول ﷺ الوتين؟ الجواب: لا بل بقي حيًّا إلى الأجل المحتوم له، ونصره الله، فدل هذا على أنه حق ﷺ، وشهادة الله التي ذكرنا في التفسير أنها نوعان: قولية وفعلية، فالقولية: كما سبق ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٦] والفعلية: نصره إياه وتمكينه إياه.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله تبارك وتعالى حاكم بين النبي ﷺ وخصومه لقوله ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

فإن قال قائل: وهل يُطلَق الشاهد على الحاكم؟

فالجواب: نعم، اقرأ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة يوسف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٢٧] (شهد شاهد) يعني: حكم حاكم، يعني: ما شهد، إذ إنه يقول إن كان وإن كان لكنه حاكم هنا.

نقول: الحاكم في الواقع شاهد من وجوه ثلاث: الوجه الأول: أنه يشهد بأن الحكم كذا وكذا، الوجه الثاني: أنه يشهد على المحكوم عليه بأن الحق عليه، الوجه الثالث: أنه يشهد للمحكوم له بأن الحق له فالحكم متضمن للشهادة بلا شك، فيصح أن يطلق على الحاكم أنه شاهد.

٤ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن موحًى إلى الرسول ﷺ كله، ما فيه ولا كلمة ولا حرف غير موحى إليه، وأبهم الفاعل فمن قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾؛ لأنه معلوم؛ لأن الرسول ﷺ أُمر أن يقول: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ:٥٠].

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عظمة هذا القرآن حيث أوحي من الله إلى رسوله ﷺ ولا شك في هذا.

وآثار تعظيمه وعظمته كثيرة، منها: أنه لا يقرؤه جنب حتى يغتسل، ومنها: لا يمسه المحدث حتى يتوضأ، ومنها: أنه لا يجوز أن تدخل به في الأماكن القذرة، ومنها: أنه لا تجوز إهانته، بأن يوضع بين القدمين مثلًا، ومنها: أنه لا يسافر به إلى العدو إذا كان يخشى عليه من الإهانة، ومنها: أنه لا يجوز بيع المصحف، نعم، بعض العلماء يقول: لا يجوز بيعه، وعللوا ذلك بأن ذلك ابتذال له حتى قال ابن عمر رضي الله عنهما: (وددت أن الأيدي تُقطع في بيعه) [1]؛ لأنه واجب على من يستغني عنه أن يهديه إلى غيره.

فالمهم: أن تعظيم القرآن واجب، وله صور، ذكرنا منها ما شاء الله.

(١) ضعيف: انظر إرواء الغليل (١٢٩٩).

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم كافٍ في الإنذار، لقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ فمن لم يتعظ بالقرآن فلا وعظه الله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة لقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ ولكن هل من بلغه القرآن وهو لا يعرف اللغة العربية هل يقال إنه قامت عليه الحجة؟ الجواب: لا، والدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

٨ - **ومنها:** أنه يجب على علماء المسلمين أن يبلغوا القرآن كل أحد؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ولكن من لم يكن لسانه عربيًّا فإنه يبلغ معنى القرآن بلسانه ثم يعطي القرآن فيقرأه باللفظ العربي، ولهذا نرى بعض الذين لا ينطقون العربية يقرءون القرآن بالعربية وهم لا يعرفون معناها، وهذه من آيات الله أن الله تعالى يسَّر القرآن لهم حتى كانوا ينطقون به بالعربي، مع أنك لو أعطيتهم قطعة من سطرين فقط لا يستطيعون قراءتها، لكن هذا من آيات الله، وربما نقول أنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧].

هناك أيضًا مسألة أخرى:

إذا بلغ القرآن قومًا يعرفون اللغة العربية كأن عاشوا في أحضان أئمة الضلال ولا يدرون عنه شيئًا؛ إذ أن أئمة الضلال عندهم هم المبلغون عن الله ورسوله فهل هؤلاء معذورون أو غير معذورين؟

الذي أرى أنهم معذورون، لكن إذا نُبهوا للحق فلا بد أن يبحثوا عنه، فإن أصروا مع التنبيه، وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، فهم كفار، وهذا هو الذي تجتمع به الأدلة عندي، أنه إن بقوا على جهلهم ولم ينبهوا للحق فهم معذورون، وإلا فهم غير معذورين وهذا فيمن يدين بدين الإسلام، وأما من عرف أنه على غير الإسلام يتبع أئمته أئمة الضلال وهو يعرف أنه غير مسلم كالنصارى مثلًا واليهود فهؤلاء كفرهم ظاهر حتى هم أنفسهم يعرفون أنهم من أمة الكفر ولا ينتسبون للإسلام.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإنكار على من يشهدون أن مع الله آلهة أخرى، الإنكار الشديد لقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ وتأمل كيف أتت الجملة مؤكدة حتى لا يستطيعوا أن ينكروا ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ يعني: أؤكد أنكم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى، وأنا أنكر عليكم، قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، والجملة التي دخل عليها الاستفهام مؤكدة بإن واللام حتى لا ينكروا، يعني: أؤكد أنكم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى وأنكر عليكم.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** سفه أولئك المشركين الذين يشهدون أن مع الله آلهة

أخرى ولو سُئِلُوا عنها: أتخلقُ شيئًا؟ لقالوا: لا، وهذا من سفههم أن يعبدوا من لا يخلق.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب التبرؤ من أهل الباطل وما هم عليه، لقوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ يعني: أؤكد أنكم تشهدون ولكن أنا لا أشهد، وهذا واجب أن يتبرأ الإنسان من كل ما يُعْبَد من دون الله، فإن لم يشهد ببطلان وآلهة سوى الله فإنه لم يخلص ولم يوحد إذ أن التوحيد مبني على النفي والإثبات.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب البراءة مما عليه المشركون لقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، يجب أن يتبرأ الإنسان مما يشرك به هؤلاء من المعبودات أو من عملهم الشركي، ولا تجوز المداهنة في هذا، ولا تجوز الموافقة، بل تجب البراءة.

والعجب أن بعض الناس يداهن هؤلاء الكفار ويقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥] يعني: فنحن مؤمنون بعيسى نقوله أمام النصارى، وأمام اليهود نحن مؤمنون بموسى، المسألة ما هي الإيمان بموسى وعيسى، ونحن نؤمن بهذا، المسألة الكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام، هؤلاء الكافرون بمحمد فهم غير مؤمنين لا بموسى ولا بعيسى، وقد سبق لنا أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل، واستدللنا لذلك بقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].



❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٢٠]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ مبتدأ وخبر، الذين: مبتدأ، ويعرفونه: خبر الجملة، والمقصود بهم: اليهود والنصارى؛ لأنهم آخر أمة كان عندها أصل كتابها فهم الذين أوتوا الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: يعرفون هذا الكتاب، ويحتمل أن يكون المراد: النبي ﷺ، والثاني أقرب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فإن الأبناء بشر،

والنبي ﷺ بشر يعني أن الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى يعرفون النبي ﷺ كما يعرف الرجل ابنه، وخص الأبناء؛ لأن تعلق الرجل بالأبناء أكثر من تعلقه بالبنات، فتكون معرفته للأبناء أكثر من معرفته بالبنات، هذا وجه، وجه آخر: أن النبي ﷺ ذكر فهو من الأبناء يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم الذين خسروا أنفسهم، ويحتمل أن تكون (الذين) مبتدأ وخبره جملة. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء دخلت على الخبر لمشابهة المبتدأ الشرط في العموم؛ لأن الاسم الموصول يشبه الشرط في العموم ويكون تقدير الكلام بدون الفاء: الذين خسروا أنفسهم هم لا يؤمنون ومدى الاحتمالين واحد والمعنى: أن الذين خسروا أنفسهم هم الذين لا يؤمنون أي: الذين اختاروا الخسارة هم الذين لا يؤمنون ومنهم الذين آتاهم الله الكتاب.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الحجة قائمة على اليهود والنصارى في صحة بعثة النبي ﷺ لقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] فإن قال قائل: هذا كلام الله عزَّ وجلَّ فهل له من دليل؟ قلنا: سبحان الله أن يطلب الدليل على صدق خبر الله، خبر الله تعالى هو الدليل ومدلوله هو المدلول ولا حاجة أن نقول: هل هناك شاهد يدل على أن الذين أوتوا الكتاب يعرفون محمدًا كما يعرفون أبناءهم؟ لأن كلام الله أقوى شاهد ولكن مع ذلك لا مانع أن نقيم الحجة عليهم من كتبهم، فقد قال الله تعالى في سورة الأعراف عن النبي ﷺ إنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ومكتوبًا وصفه عليه الصلاة والسلام يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم يعرفون هذا تمامًا، وقد نقل الشيخ السيد محمد رشيد رضا في تفسيره: النصوص من الإنجيل على هذا القول، بل على إقامة الحُجة عليهم وأن هذا مكتوب عندهم في كتبهم.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي أن يُضرب المثل بأقرب شيء مطابق للمثل لقوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ لأن هذا أقرب إلى التصوّر وإلى الصدق.

٣ - **ومنها:** المنة والتوبيخ على اليهود والنصارى، كيف هذا؟ المنة: أن الله آتاهم الكتاب وبيَّن لهم وصف النبي ﷺ الذي سيرسل للناس كافة، وهذه نعمة أن يُبيِّن الله للعبد طريق الهُدى.

والتوبيخ: أنهم كانوا كافرين به مع نُصوعِ الدليل، فتكون الآية جامعة بين بيان المنة عليهم من الله وتوبيخهم على الكفر بمحمد ﷺ.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من لم يؤمن فقد خسر نفسه لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهل خسر أهله؟ نعم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر:١٥] خسروا أيضًا (عمرهم) أعمارهم خسروها، مضت في غير فائدة؛ لأن شخصًا مآله نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ بعد أن عُمِّر في الدنيا ما عُمِّر قد خسر وقته وزمنه، كما قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧].



قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١]

التفسير

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

(من): اسم استفهام، والمراد به النفي أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، وإذا جاء بصيغة الاستفهام صار أبلغ، لماذا؟ لأنه يكون مشربًا معنى التحدي، كأن المتكلم يقول: بيِّن لي إن كنت صادقًا أنَّ أحدًا أظلم ممن افترى على الله كذبًا، فيكون مجيء النفي بصيغة الاستفهام أبلغ في النفي، والظلم في الأصل النقص، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تنقص، لكنه تعدى إلى نقص الإنسان فيما يجب عليه من فعل الأوامر وترك النواهي، فإنه نقص حق نفسه بذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، افترى: بمعنى اختلق على الله الكذب؛ لأن الكذب على الله عزَّ وجلَّ أعظم الكذب، ويليه الكذب على الرسول ﷺ كما قال ﷺ: «إنَّ كَذِبًا عليَّ ليس كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدِكُم[1]»[2] بل هو أعظم، يلي ذلك الكذب على علماء الشريعة، إذا كذب عليهم بأنهم أُفتوا بكذا فهذا كذب؛ لأنه كذب على الشرع، إذ إن علماء الشريعة هم الذين يبلِّغون الشريعة، فإذا كذب عليهم فقد كذب على الشرع.

وقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أو هنا للتنويع يعني: افترى أو كذب، وإن جمع بين الأمرين صار أشد، إذا طبقنا هذه الآية على واقع المشركين من قريش نجد أنها منطبقة عليهم تمامًا، فقد افتروا على الله الكذب بأن أشركوا معه ما لم ينزِّل به سلطانًا افتروا على الله الكذب فقالوا: هذا حلال وهذا حرام، قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ

---

(١) فهو كذب في التشريع وأثره عام على الأمة فإثمه أكبر وعقابه أشد.

(٢) رواه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة رضي الله عنه.

﴿أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:١٣٩] هم أيضًا كذَّبوا بآيات الله كذبوا بالآيات الشرعيَّة التي جاءت على لسان محمد ﷺ، أما الآيات الكونية فهم لا يكذبون بها.

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢]، أليس انتفاء الإيمان قبل الخسران؟ كيف قدم الخسران على ترتب الحكم؟ نتيجة عليه يعني: الذين قضى الله أنهم خاسرون فلن يؤمنوا ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذَّب بآياته فهذان صنفان: الأول: كذب على الله، والثاني: كذَّب آيات الله، لا أحد أظلم منهم، ومن جمع بينهما فهو أشد.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال: إن لله ولدًا، هذا افترى على الله كذبًا، أو قال: إن لله شريكًا، هذا افترى على الله كذبًا، أو قال: هذا الكون لم يخلقه الله، افترى على الله كذبًا، إذ قال خلقته الطبيعة أو ما أشبه ذلك.

قوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: كَذَّب بالآيات الدالة على أن الله حق ـ الكونية والشرعية كليهما ـ التكذيب بالآيات الكونية أن ينفي كون الله عزَّ وجلَّ خلقه أو ينفي أن الله تعالى انفرد بخلقها.

والشرعيَّة: أن ينفي إرسال الرسل بما جاءت به من الوحي.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٥]؛ لأنَّ هذا الحكم على من افترى على الله كذبًا، أو كذب بآياته، ولكن لم (يقل): إنهم بل أظهر في موضع الإضمار للعموم ليعمهم وغيرهم، والفلاح هو: النجاح وحصول المطلوب، فالظالم لن ينجح ولن يفلح.

الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الظلم يختلف، بعضه أشد من بعض، وذلك لأن المعاصي تختلف، بعضها أعظم من بعض، هناك كبائر وهناك صغائر، والكبائر نفسها تختلف، ففيها أكبر الكبائر، وما دونها، والصغائر كذلك تختلف، فمن أين نعرف أن الذنوب أو الأعمال المحرمة تختلف لاختلاف الظلم؛ لأن كل فعل محرم أو ترك واجب ظلم، وإذا كان يتفاوت لزم من ذلك تفاوت الأعمال.

٢ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من أن يفتري الإنسان على الله كذبًا؛ لأنه بيَّن أنه في المرتبة العليا من الظلم ومن ذلك أي: الافتراء على الله كذبًا: أن يكذب الإنسان على ربه عزَّ وجلَّ في مدلول آياته فيقول: أراد الله بكذا كذا وكذا، هذا كذب على الله.

ومن ذلك أن يفتري على الله كذبًا في أحكامه، فيقول: هذا حلال وهذا حرام، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦] وعلى هذا فمن قال المراد بقوله: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩] استولى على

العرش، يدخل في الآية؛ لأنه افترى على الله كذبًا، ومن قال هذا الشيء حرام وهو حلال، فقد افترى على الله كذبًا، ومن قال: هذا حلال وهو حرام فقد افترى على الله كذبًا، فالقاعدة إذنْ في الافتراء على الله كذبًا: أن يحرف آياته إلى معانٍ لا يريدها الله عزَّ وجلَّ، أو يقول بأحكام لم يحكم الله بها.

ومن ذلك: التكفير، إذا قال هذا كفر وليس بكفر فقد افترى على الله كذبًا؛ لأن التكفير حكم شرعي، يستدل عليه بالكتاب والسنة، ليس التكفير إلى الناس، من شاء كفر ومن شاء لم يكفر، بل التكفير إلى الله ورسوله فمن كفره الله ورسوله وجب علينا أن نكفره ومن نفى الله ورسوله الكفر عنه وجب علينا أن ننفي عنه الكفر، فإن قال قائل: هناك إطلاقات في بعض الأحكام بالكفر يعني: يطلق عليها الكفر، فكيف نعرف أنه كفر أكبر أو أصغر؟ نعرف ذلك بقواعد الشريعة العامة، وينزل الحكم بالكفر على هذه القواعد، وبذلك يتبين أنه أكبر أو أصغر، ولما كان تكفير ولاة الأمور من أشد الأشياء خطرًا منع النبي ﷺ من الخروج عليهم إلا أن نرى كفرًا بواحًا ظاهرًا بيِّنًا عندنا فيه من الله برهان [٢].

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عظم ظلم من كذب بآيات الله؛ لأنه دخل في الطبقة العليا من الظلم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

٤ - ومنها: أنه لا يحكم بظلمه أو بكونه في المرتبة العليا إلا إذا تبينت له الآيات، ثم كذب بآيات الله، قد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥] فإذا بيَّن لهم ما يتقون، حكم بضلالهم سبحانه وتعالى، وإلا فهم في عذر.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب التصديق بكل آيات الله الكونيّة والشرعيّة، وجه ذلك أن (آيات) مضافة، والجمع إذا أضيف يفيد العموم، ويتفرع على هذه الفائدة: أن من آمن ببعض وكفر ببعض فقد كفر بالجميع، فلا يعد مؤمنًا؛ لأنه يوجد بعض الناس يؤمن ويصدق بما يرى عقله أنه حق ويكذب بما يرى أنه ليس بحق أو يؤمن بما يرى أنه مناسب ويكفر بضد ذلك، وهؤلاء بيَّن الله حكمهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١] وقال تعالى منكرًا على بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥] وبيَّن الله عزَّ وجلَّ أن من كفر برسول واحد فهو كافر بالجميع، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] مع أن قوم نوح هم أول من أرسلت إليهم الرسل، لا يمكن لإنسان أن يجزِّئ الشريعة، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض؛ لأننا نعلم أن مثل هذا متبع لهواه فقط.

---

(١) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل.

(٢) رواه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** نفي الفلاح عن الظالم أي: لا يمكن أن يحصل له مقصوده بل بالعكس، فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية الكريمة وبين نصوص أخرى تدل على أن هذا الفعل أظلم شيء مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤] وهنا يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي(١)»(٢) في المصورين، فكيف نجمع بين هذه النصوص؟

الجواب: من أحد وجهين: إما أن نقول: اشتركت هذه الأشياء في المرتبة العليا من الظلم، فكلها في مقام الأظلمية، وإما أن يقال: إن الأظلمية أظلمية نسبية، فمثلًا هنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ من الذين يفترون على غيرهم كذبًا، الوجه الأخير: أن نقول إن هذه أظلمية نسبية، المعنى: أن الذين يفترون على غيرهم الكذب أقل ظلمًا ممن افترى على الله الكذب، ولذلك جاء الاستفهام من أظلم ممن افترى على الله؟ لا أحد، يعني: افترى مثلًا زيد على فلان، هذا حرام ولا شك، لكن أظلم شيء أن يفتري على الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤] هذه أظلمية نسبية، يعني: أي إنسان يمنع الناس من حق لهم، فمن أظلم ممن منع حقهم في المساجد، يعني: مثلًا قد تمنع هذا الرجل أن يدخل المدرسة، لكن هل هذا أشد أو منعه من دخول المسجد؟ الثاني.

قد تمنعه من دخول السوق، هذا ظلم، لكن أيهما أظلم، هذا أو من منع مساجد الله؟ الثاني، في مسألة التصوير: «مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي» أي: الذين يُقَلِّدون غيرهم في التصوير إذا كان على وجه الظلم، فمن أظلم ممن ذهب يخلق كخلق الله؟ لا أحد، هذا وجه،

الوجه الأول: أن كلها اشتركت في الأظلمية، أي: في المرتبة العُلْيا من الظلم، أيضًا إشكال آخر إنه لا يفلح الظالمون، ذكرنا أن الظالم لن يفلح، وهذه الفائدة تتضمن بشرى للمظلومين أن الظالم لن يفلح، فيبشر المظلومون بالنصر، ويبشر من ظلم بأخذ ماله أو جحد ماله بأن هذا الظالم لن يفلح، لكن لو قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية والواقع؟ لأننا نرى أن الظالم قد يفلح؟ الجمع بينها وبين الواقع أن يُقال: الفلاح نوعان: فلاح مطلق هذا لا يمكن للظالم أبدًا، ودليل هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي(٣) لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ(٤)»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ(٥) أَخْذُ

---

(١) يصنع ويقدر كخلقي في الصورة.

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ليمهل.

(٤) لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه.

(٥) أي كما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب.

رَبِّكَ (١) إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ (٢) وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٣) [هود:١٠٢] فلا بد أن يخسر الظالم طالت الدنيا أم قصرت، هذا الفلاح المطلق لا يمكن، مطلق الفلاح بمعنى: أن يفلح في زمن معين أو مكان معين أو قضية معينة فهذا يمكن أن يقع ولا يخالف الآية؛ لأن الله تعالى قد يعطي الظالم فلاحًا حتى يغتر بهذا الفلاح فيتمادى في طغيانه ثم يقصم الله ظهره، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في سورة آل عمران: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١] يمحصهم بكفارات الذنوب، على ما حصل من هزيمة، ويمحصهم ألا يعودوا للمعصية مرة ثانية ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كيف يمحق الكافرين وهم منتصرون؟ لأن الكافر إذا انتصر تجرَّأ وافتخر واعتز، فالظالم قد يفلح لكن فلاحًا مقيدًا لحكم أو لحكمة لا نعلمها نحن ولكن يعلمها الله عزَّ وجلَّ، وما موقفنا إذا سلَّط الظالم علينا؟ موقفنا أن نصبر وألا نيأس، وأن ننتظر الفرج من فاطر السموات، فإن الصبر مفتاح الفرج كما قال النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»(٤).

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الظلم وأن عاقبته الخسارة والدمار لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أعاذنا الله وإيَّاكم من الظلم وجعلنا من المفلحين المتقين المحسنين.

سؤال: أحيانًا يقع من بعض الناس خاصة طلبة العلم ممن هم ملتزمون ويريدون إظهار غَيْرَتِهِم على الإسلام كيف يتكلمون عن ولاة الأمور ويظهرون أنهم على خلل، وأنهم يتمنون زوالهم، وما أشبه ذلك من هذه الأمور التي مما درسنا تخالف الأدلة وتخالف أيضًا مقتضى العقل، فما هو الموقف السليم لطلبة العلم؟ لأنهم أيضًا يتكلمون عن طلبة العلم وبعضهم يقرهم، بل قد يشجعهم، ما هو الواجب على طالب العلم في هذا الموقف؟

الواجب على طالب العلم أن يُبيِّن ما يقتضيه الدليل من السمع والطاعة لولاة الأمور إلا إذا أمر بمعصية، وما تقتضيه الأدلة عن وجوب الكف عن مساوئهم، ومن أراد النصيحة فطريقها مفتوح.

مسألة: هل يجوز أن نخبر بمعنى الآية؟

الجواب: لا يجوز خاصة القرآن، القرآن أنت إذا أخبرت بمعنى آية فقد شهدت على الله أنه أراد هذا، هذه صعبة.

سبحانه وتعالى: ما يطابق المناصرة، مناصرة الكفار حتى تكون ناقدة لما هم بصدده؟

---

(١) إهلاكه وعذابه.

(٢) أخذ أهلها.

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) صحيح: رواه أحمد في مسنده (٢٨٠٤)، وعبد بن حميد في مسنده (٦٣٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦).

المناصرة: أن يناصرهم على الكفر هذه مناصرة.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٢٢]

❁ التفسير ❁

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم: ظرف، والمعروف أن الظرف والجار والمجرور لا بد لهما من متعلق، كما قال ناظم القواعد(١):

لَا بُـدَّ لِلْجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ ... بِفِعْـلٍ أَوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوَ مُرْتَقِـي

وَاسْـتَثْنِ كُـلَّ زَائِـدٍ لَـهُ عَمَـلْ ... كَالْبَـا وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَـل

إذنْ أين متعلق (يوم) : محذوف، والتقدير: اذكر يوم نحشرهم اذكر لهم، ويجوز أن نقول: اذكر في نفسك حتى تتسلَّى بهذه الذكرى ويهون عليك أمرهم.

وقوله: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: نجمعهم ﴿جَمِيعًا﴾: لا يفلت منهم أحد ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ نقول للذين أشركوا أي: بالله عزَّ وجلَّ في الدنيا ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والتبكيت وإلا فمن المعلوم أنهم لم يأتوا، لكن توبيخًا لهم وتبكيتًا لهم، وتنديمًا لهم أنهم لن ينتفعوا بهم شركائكم أي: ما أشركتم بهم في الله عزَّ وجلَّ، ونعلم أن المشركين كانوا أنواعًا، وأصنافًا، منهم من يشرك مع الله حجرًا أو شجرًا، أو قمرًا أو نجمًا، المهم أنهم مختلفون فيقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم آلهة، والإله ينفع من تألهه فأين هو؟

الجواب: بيَّنه الله عزَّ وجلَّ ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد هذا السؤال ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الفتنة هنا بمعنى الحجة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، أقسموا بالله أنهم لم يكونوا مشركين، وهل هم صادقون في هذا القسم؟! لا، ولهذا قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ انظر أيها المخاطب كيف كذبوا على أنفسهم، وهنا إشكال: كيف كذبوا على أنفسهم وأمرنا أن ننظر والنظر هنا نظر اعتبار لكن كيف يقول كذبوا على أنفسهم والأمر لم يأتِ بعد؛ لأن

(١) هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري، في «ملحة الإعراب»، ت: ٥١٦ هـ.

هذا يكون يوم القيامة؟

والجواب: أن هذا على حكاية الحال، والله عزَّ وجلَّ دائمًا يجري الأشياء المستقبلة حتى يتصورها الإنسان وكأنها واقعة، وإنما يكون ذلك؛ لأن الشيء المستقبل المحقق يكون كالواقع تمامًا، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، مع أنه ما أتى، بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ فيكون التعبير بالماضي على حكاية الحال، حتى يتصور الإنسان وكأن الشيء بين يديه.

كذبوا على أنفسهم بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ ثم قال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ (ضلَّ) بمعنى ضاع كالرجل الذي ضاع عنه المال فلم يجده هؤلاء، ضاعت عنهم الآلهة فلم يجدوها وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يفترونه من دعواهم أن هذه آلهة مع الله، فإن هذا من أعظم الافتراء كما سبق فيما قبل آيتين، نعود إلى القراءات في هذه الآية ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ القراءات: (ثم لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا) والقراءة التي في المصحف ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ الخلاف في الفعل وفي اسم كان وفي خبر كان، الفعل: بدل (تكن) (يكن)، لماذا؟ لأن اسم كان على هذه القراءة مذكر وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ لأن المعنى: لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا. الثاني: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ يعني: والله يا رب ما كنا مشركين، هذا الاختلاف في القراءات لا يضر؛ لأنه فيما سبق في العهد الأول كانوا لا يحركون الكلمات ولا الحروف ولا يعجمونها يعني: لا يجعلون نقطة ولا نقطتين لا فوق ولا تحت، فتكون القراءتان في الرسم واحدة، إنما تختلف في النطق وفي الإعجام والإعراب بعد أن أُعجم القرآن وأُعرب.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية النبي ﷺ حيث ذكر له قول المكذبين له.

٢ - **ومن فوائدها:** التحذير من الشرك؛ لأن المشرك سوف يوبَّخ في يومٍ لا يستطيع الخلاص فيه.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة يوم الحشر.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الحشر عام شامل لا يخرج عنه أحد لا مؤمن ولا كافر ولا بر ولا فاجر، حيث أكَّده الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿جميعًا﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات القول لله؛ لقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ قد ينازع منازع ويقول: إن القائل هم الملائكة وأضاف الله قولهم إلى نفسه لأنهم رسله القائمون بأمره فهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨] مع أن القارئ جبريل، نقول: هذا وارد بلا شك، أنه يحتمل أن يكون الذي يقول لهؤلاء المشركين ملائكة، وأضاف الله ذلك إليه؛ لأنهم يقومون بأمره، ولكن ما هو ظاهر القرآن؟ أن القائل هو الله عزَّ وجلَّ، وإذا كان هذا ظاهر القرآن فليس لنا مندوحة عنه؛ لأن الله سوف يحاسبنا يوم القيامة فيقول الكلام ثم نقول:

فكيف يصرف بأن المراد الملائكة، ولا يصرف الملائكة إلا بدليل؟! فالواجب الأخذ بظاهر القرآن ما لم يوجد دليل، فإذا وجد دليل ينقل الكلام عن ظاهره فعلى العين والرأس، المهم في ذلك إثبات أن الله يقول.

فإن قال قائل: أيقول بالحروف المسموعة المعقولة أو بحروف أخرى؟

الجواب: الأول بلا شك، فإن قال قائل: وهل يشبه صوته صوت المخلوقين؟ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولأن الله عزَّ وجلَّ إذا تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة وصعق الملائكة، ومثل هذا لا يقع في كلام الآدميين أبدًا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** توبيخ أولئك المشركين حيث يقال لهم في هذا المجمع العظيم: أين شركاؤكم؟

٧ - **ومن فوائدها:** أن هذه الآية تدل على أن الأصنام لا تنفع عابديها؛ لأنها لا تنصرهم في هذا الموقف، بل قد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] تحصبون بها في وسطها، ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:٩٩] هذه الآية فرح بها المشركون وانتهزوا الفرصة وقالوا: هذا محمد يقول إن المعبودات في النار، وعيسى معبود، فيقتضي أن يكون عيسى في النار، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١].

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أولئك العابدين لهذه الأصنام ليس عندهم حجة ولا برهان، وإنما هي مجرد دعوى، تؤخذ من قوله: ﴿تَزْعُمُونَ﴾ والزعم في الغالب يكون في قوله لا دليل له.



قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤].

التفسير[1]

الفوائد:

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أولئك القوم فتنوا بهذا الجواب واستحسنوه وظنوه

(١) تفسير هاتين الآيتين غير واضح سماعًا في المادة العلمية التي بين أيدينا.

مفيدًا وهو ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة: أن الإنسان قد يفتن بالشيء فيرى الحق باطلًا والباطل حقًّا، فاسلم من هذه الفتنة وحاسب نفسك عليها واستعذ بالله أن تكون من أهلها.

٢ - **ومن فوائدها:** إقرار هؤلاء المشركين بألوهية الله وربوبيته، بألوهيته في قوله: ﴿وَاللَّهِ﴾ وربوبيته في قولهم: ﴿رَبِّنَا﴾ لكن هل ينفع هذا في ذلك الوقت؟ ما ينفع، بل لا ينفعهم لو أنهم وحدوا الله حين نزل بهم الموت، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء:١٨].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما افتروه من الشريك لله عزَّ وجلَّ سوف يضل عنهم مع شدة طلبهم له، كما تضل الضالة عن صاحبها، لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية الكريمة وهم يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] صرَّح الله في هذه الآية أنهم لا يكتمون حديثًا، وهنا كتموا قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ؟

فالجواب: أولًا: يجب أن نعلم ونؤمن ونتيقن أنه لا تناقض في القرآن أبدًا، التناقض في فهم الإنسان لقصوره، أما القرآن فلا تناقض فيه ولا يمكن أن يتناقض وقد ألف العلماء - رحمهم الله - في هذه المسألة العظيمة مؤلفات، ومنها: تأليف الشيخ محمد الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ المفسر والأصولي المشهور: (دفع إيهام الاضطراب في آي الكتاب) لا يمكن أبدًا التناقض، فإن رأيت تناقضًا فالخلل من عندك، إما لقصور في الفهم أو تقصير في الطلب، أو سوء نية، تريد أن تبحث عن الأشياء التي ظاهرها التعارض لتطعن في القرآن أو قصور في العلم وإلا فلا تناقض هنا نقول: يوم القيامة خمسون ألف سنة وللناس فيه أحوال، ففي حال ينكرون أنهم مشركون وفي حال يقرون إذا رأوا أن أهل التوحيد نجوا قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإذا خُتِم على أفواههم وشهدت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون حينئذ أقروا؛ لأنه لا يمكن أن ينكروا مع وجود الشهود من أنفسهم.



قال الله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ﴿مَّن﴾ هذه تبعيضية، وعلامتها أن يحل محلها بعض، أي: بعضهم الذي يستمع إليك، ويستمع هنا: جاءت بصيغة الإفراد مراعاة للفظ (من)؛ لأن (من) الموصولة يجوز أن يُراعى معناها وأن يراعى لفظها، فإذا روعي معناها جعل العائد عليها حسب ما يراد به المعنى، وإذا روعي اللفظ صار مفردًا.

وقوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من يحضر ويستمع لقراءتك ولكن لا ينتفعون، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ جعلنا أي: صيَّرنا على قلوبهم أكنة، والأكنة جمع كنان، كزمام وأزمة، وهو ما يغطي الشيء ويستره، وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: إرادة أن يفقهوه، فهو على تقدير مضاف أي: إرادة أن يفقهوه يعني: لا نريد أن يفقهوه وإن شئت فقل: كراهة أن يفقهوه، وبعضهم قال: إنه على تقدير لا، والمعنى: ألا يفقهوه والمعنى واحد، لكن كوننا نفسرها بـ (كراهة) أولى من كوننا نفسرها بـ (لا)؛ لأننا إذا فسرناها (بلا) فسرنا المثبت بالمنفي وهذا بعيد وإذا فسرناها (بكراهة) فهذا مطرد، مثل قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦] أي: كراهة أن تضلوا، وقوله: ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ الفقه في اللغة: الفهم، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] أي: لا تفهمونه والمعنى: أن الله جعل على قلوبهم سِترًا واقيًا من فقههم له فلا يصل معناه إلى قلوبهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٦] أي: وجعلنا في آذانهم وقرًا، أي: حملًا وصممًا بحيث لا ينتفعون بما سمعوا، ومن لا ينتفع بما سمع فهو كمن لم يسمع، فنفى الله عزَّ وجلَّ عنهم الفقه ومحله القلب، والسمع، ومحله الأذن، وقوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهذا كقوله تبارك: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥] يعني: لم يفهمها ولم يفقهها، وإنما يظنها أساطير سالفة ليست ذات معنًى مصلح للخلق.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ إن يروا بأبصارهم أو يروا بقلوبهم كل آية؛ فإنهم لا يؤمنون بها، والآية هي: العلامة الدالة على صدق النبي ﷺ، كما قال عزَّ وجلَّ في سورة القمر: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢]، نسأل الله الهداية، الإنسان إذا طبع على قلبه ـ نعوذ بالله ـ لا يؤمن بأي آية تأتيه الآيات بها مثل الشمس، ولكن لا يؤمن؛ لأن القلب مغلق عليه، لا يصل إليه الهدى، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، فهنا نفى الله عنهم الفقه ومحله القلب، والسمع ومحله الأذن، والإيمان بالآيات ومحله القلب مع مشاهدة العين.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا للغاية، ويحتمل أن تكون: للابتداء، والفرق بينهما: أننا إذا جعلناها للغاية صار ما قبلها مغيًّا بها أي: أنهم لا ينتفعون بالآيات حتى

إنهم إذا جاءوك جادلوك، ويحتمل أن تكون: ابتدائية، والابتدائية هي: مثل الواو الاستئنافية.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ المجادلة هي: المخاصمة، وسميت مجادلة؛ لأن كل واحد من الخصمين يجدل الحجة لتقوم على صاحبه، مأخوذة من جدل الحبل، وهو فتله حتى يشتد ويقوى فهم يجادلون النبي ﷺ بما يوردون عليه من الشبهات، ولكن الله تعالى يجيب عنه، قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من الواو في قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: حال كونهم مجادلين لك.

وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هذا جواب إذا، ولم تجزم؛ لأن إذا الشرطية ليست جازمة، تقول: إذا قدم زيد يقدم عمرو ولا تجزم، وأما قول الشاعر:

وَإِذَا تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ فَتَحَمَّلِ ....

فهذا يعتبر شاذًّا لا يعتد به.

وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يعني: ما هذا، ويدل على أنّ (إنْ) هنا نافية أنه أتى بعدها إلا، وإذا أتى بعدها إلا فهي نافية، وقد تأتي نافية بدون إلا، وهي - أعني ﴿إِنْ﴾ - لها معانٍ: تأتي شرطية، وتأتي نافية، وتأتي زائدة، وتأتي مخففة من الثقيلة، أربع معاني، تأتي شرطية، وهذا كثير ومثاله قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [التوبة:٥٠]، وتأتي نافية ومثاله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدّثر:٢٥]، أي ما هذا إلا قول البشر، وتأتي مخففة من الثقيلة، مثاله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم:٥١]، الرابعة الزائدة، ومثاله قول الشاعر:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمْ ذَهَبُ وَلَا صَرِيْفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

وقوله: ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ أساطير جمع أسطورة، والأسطورة: ما يتحدث الناس به في المجالس من أجل قتل الوقت، ليس لها معانٍ، وتسمى عند العامة السالفة، ما لها معنى لكن يريد بها الإنسان أن يزيل عنه الملل وقتل الوقت.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي السابقين.

الفوائد:

١ - **من فوائدها:** أنه ليس كل مستمع ينتفع، لقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٤٢]، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ آنفًا لا يدرون ماذا قال.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الاستماع بلا انتفاع، وأن هذا دأب الكفار، ويتفرع على هذا أنه ينبغي للإنسان إذا استمع أن يتأمل ويتفكر في (مستمعه) لا سيما إذا كان الكتاب والسنة، حتى يعرف معناه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الفقه مَحِلّه القلب لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً

أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء:٤٦] فإن قال قائل: ما سبب هذه الأكنة التي تحجب الحق عن القلب، فالجواب: أن سببها المعاصي كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٣ - ١٤] فالمعاصي تحول بين الإنسان وبين الفقه في دين الله، ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي لمن استفتي أن يستغفر الله قبل الإجابة حتى يمحو الاستغفار ما كان على القلب من الرين، واستدل بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٦] وهذا استنباط جيد لا سيما إذا اشتبهت عليك المسألة وحيل بينك وبين معرفة الصواب فيها، فعليك بالاستغفار والدعاء.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عدم الانتفاع بالسماع كالصمم تمامًا، لقوله: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بل صاحب الصمم معذور، والذي لا ينتفع بما سمع غير معذور؛ لأن صاحب الصمم لم يسمع هذا من آفة حلت به.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هؤلاء الكفار لا ينتفعون بما سمعوا ولا ينتفعون بما شاهدوا لقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف:١٤٦] والآيات نوعان: آيات قدرية، وآيات شرعية، فمن الآيات القدرية: ما يحدثه الله عزَّ وجلَّ في الكون، كانشقاق القمر، وهبوب الرياح التي أرسلها الله عزَّ جلَّ على الأحزاب، وكذلك نزول المطر، وامتناع المطر، أشياء كثيرة لا تحصى، ثم الشمس والقمر والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، كلها من آيات الله الكونية، وأما آيات الله الشرعية فهي الوحي، إذا تأملت الوحي وأشرفه القرآن عرفت ما فيه من الآيات العظيمة في الأخبار والأحكام، فالمؤمن ينتفع وغير المؤمن لا ينتفع حتى قال الله عزَّ جلَّ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] لا يصدقون بأنه عذاب، ومن ذلك ما يحدث في زمننا الآن العواصف والقواصم والفيضانات والزلازل هي عند قوم من الأمور الطبيعية التي لا تدل على التهديد والتخويف وذلك من رين القلوب نسأل الله العافية، ومن مشابهة الكفار في أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها .

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله عزَّ وجلَّ يرسل الآيات تأييدًا للرسل وتخويفًا لمخالفيهم كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩] فالآيات التي يرسلها الله عزَّ وجلَّ هي تأييد للرسول وتخويف لمخالفيهم، ولكن كما قلنا إن هؤلاء المخالفين لا ينتفعون بالآيات فلا يؤمنون بها.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكفار يجادلون المسلمين، يجادلون النبي ﷺ ويجادلون من اتبع النبي، لكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ولكن ليبشر صاحب الحق الذي هو أهله أن النصر له لقول الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨] لكن هذا يحتاج إلى أمرين: إلى نيَّة صادقة، وإلى علم يدفع به شبهة المحتج ولا يجوز للإنسان أن يدخل مع صاحب باطل يجادله وليس عنده علم؛ لأنه لو فعل لكانت الهزيمة على الحق، فلا تدخل مع شخص في مجادلة إلا وأنت تعرف كيف تصيبه مع إحسان النية، أما أن تدخل بمجادلة مع شخص ذي بيان فصيح وشبه قوية فلا تدخل، لأنك إن فعلت هزمت وصارت هزيمتك هزيمة للحق الذي تجادل عنه.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق الجدل، لقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فتعلم يا أخي طرق الجدل من أجل أن تجادل بها لنصرة الحق، وربما يتفرع على هذا ما بثَّه بعض الناس من قولهم: إنه لا حاجة إلى أن يراجع جدل المتكلمين من الأشعرية والمعتزلة وأشباههم؛ لأن زمانهم انقضى، فإن هذا توهم واضح، وذلك لأمور منها:

أولًا: أن هؤلاء لم ينته زمنهم، ما زالوا موجودين: معتزلة، جهمية، أشعرية، خوارج، شيعة، موجودون.

ثانيًا: أن طرق الجدل مع هؤلاء تفيد في مجادلة آخرين؛ لأنها تفتح للإنسان أبواب الجدل ويعرف كيف يقضي على صاحبه بما يجادل به، ثم إننا بالنسبة لبلادنا هنا في السعودية كنا لا نعرف عن هذه الطوائف شيئًا كثيرًا، لكن بما أننا اندمجنا مع الناس فذهبنا إليهم وأتوا إلينا وجد هذا الشيء، وجد شيء من البدع وإلا كان الناس لا يعرفون شيئًا من هذا إلا من طالع الكفر، لذلك نقول: إن مطالعة الجدل مع المتكلمين فيه فائدة بلا شك، ولكن احذر أن تطالع وأنت ضعيف في العلم؛ لأنك لو فعلت لضللت، لا بد أن يكون عندك حماية تحمي بها نفسك.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المجادل بالباطل يلجأ إلى المكابرة أو إلى التهديد إذا كان له سوء نية، والمكابرة في هذه الآية ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ هذه مكابرة؛ لأن دعواهم أن هذه أساطير الأولين مكابرة بلا شك، وكل أحد يعرف أن القرآن الكريم ليس قول البشر فضلًا أن يكون أساطير الأولين، أما اللجوء إلى القوة فانظر إلى مجادلة فرعون وموسى حيث قال له فرعون: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩] فلجأ إلى القوة والإرهاب، وتأمل قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقل لأسجننك، إشارة إلى أنه يريد أن يظهر بمظهر القوة الذي يسجن الناس وعنده مساجين فيهدد موسى بأنه سيكون منهم.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من جادل بالباطل لإدحاض الحق فهو كافر، لقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فأظهر في موضع الإضمار وكان مقتضى السياق أن يقول (حتى إذا

جاءوك يجادلونك يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين)، والإظهار في موضع الإضمار من فوائده: أن هذا المظهر إذا كان معنى من المعاني فإنه يكون شاملًا محيطًا بكل ما ينطبق عليه. فمن جادل بالباطل لإدحاض الحق فهو كافر، ثم إما أن يكون كافرًا كفرًا أصغر أو كفرًا أكبر.



قال الله تعالى:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[الأنعام: ٢٦]

التفسير

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: (هم) الضمير يعود على الكفار المجادلين.

﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: عما جئت به من الوحي.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يبعدوه، وقدم النهي على النأي مع أنه كان المتوقع أن يبدأ بالنأي الذي هو فعلهم بأنفسهم دون فعلهم بغيرهم، إشارة إلى شدة كراهتهم لما جاء به الرسول ﷺ حتى أنهم يبدأون بنهي الناس قبل أن يبتعدوا عنه.

وقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ (إن) هنا بمعنى ما، أي ما يهلكون إلا أنفسهم، كما في آية أخرى قوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء:١١٣] فمجادلتهم ونهيهم الناس لا يضر النبي ﷺ شيئًا، وإنما هو هلاك أنفسهم، وهل المراد هنا: الهلاك الحسي أو المعنوي؟ الجواب: المعنوي؛ لأن هذا الكافر المجادل لا يموت بجداله بل يبقى، لكنه حقيقة من الناحية المعنوية قد هلك.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يشعر هؤلاء بأنهم بهذا النهي عما جاء به الرسول ﷺ والبعد عنه لا يشعرون أنهم بذلك أهلكوا أنفسهم ولذلك تجدهم يفتخرون بما هم عليه من الكفر، حتى إن أبا سفيان قال في يوم أحد: اعلُ هُبَل، يفتخر بالصنم الذي يعبده، ويقول: إنه علا على محمد ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: «أَجِيبُوْا» قالوا: بماذا نجيب؟ قال: «قُوْلُوْا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلّ»[1] فالشاهد أن هؤلاء الكفار المجادلين لا يشعرون أنهم على ضلال ـ نسأل الله العافية ـ وهذا غاية ما يكون من الابتلاء، أن يرى الإنسان أنه على حق مع أنه على باطل، وكان من دعاء النبي ﷺ : «اللَّهُمَّ أَرِنَا الحَقَّ حَقًّا وارْزُقْنَا اتِبَاعَهُ، وَأَرِنَا البَاطِلَ بَاطِلًا وارْزُقْنَا اجْتِنَابَه، وَلَا تَجْعَلْه مُلْتَبِسًا عَلَيْنَا فَنَضِلّ».

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٣)، والطيالسي في مسنده (٧٢٥)، وأحمد في مسنده (١٨٦١٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة:

أن هؤلاء جمعوا بين الضلال والإضلال، وهذا أشد ما يكون من العدوان والظلم.

٢ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن كل من حاول إبطال الحق وإبعاد الناس عنه فإنما جَنَى على نفسه، لقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ حتى لو برقت له الدنيا وظهر له النصر الظاهري، فإنه في الحقيقة هالك، من ذلك مثلًا: أبو سفيان قال في غزوة أحد: اعلُ هبل، وقال: لنا العزى ولا عزى لكم، فافتخر وشمخ بأنفه، ولكن هل هذا الأمر سيبقى أو ستكون العاقبة عليه؟! الثاني هو المتعين سواء في الدنيا أو في الآخرة.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من سلوك الإنسان سُبُلَ الهلاك وهو لا يشعر، وقد بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر:٨].

ولكن إذا قال قائل: ما الذي يدل الإنسان على كونه على صواب أم لا؟

الجواب: أن يرجع إلى الكتاب والسنة وإلى هدي السلف الصالح، ومن هديهم يعرف أنه على صواب أو على خطأ.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

أولًا: (لو) شرطية، وهي حرف وجود لامتناع، ننظر (لو ترى) لرأيت، الجواب محذوف، تقديره: لو ترى إذ وقفوا على النار لرأيت أمرًا فظيعًا عظيمًا جسيمًا، فالجواب محذوف.

إذا قلت: لو جاء زيد لجاء عمرو، هنا حرف امتناع لامتناع، لو قلت: لما جاء زيد جاء عمرو، هذا حرف وجود لوجود، ولو قلت: لولا زيد لجاء عمرو، امتناع لوجود، إذنْ تقاسمت هذه الثلاث؛ الوجود والعدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يتأتى خطابه، أي: لو ترى أيها الرائي إذ وقفوا على النار وقفوا عليها: أي أوقفتهم الملائكة؛ لأنهم هم أنفسهم لا يريدون النار، لكن يوقفون عليها اضطرارًا، توقفهم الملائكة كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ

نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:٨].

وقوله: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ والنار هي الدار التي أعدها الله عزَّ وجلَّ للكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١].

فقالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ قالوا بألسنتهم أو بقلوبهم، الأصل أن القول باللسان بصوت وحرف.

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا﴾ (يا) هذه للتنبيه وليس حرف نداء، وإنما قلنا ذلك لأن (ليت) حرف، لا يصح أن يُنادى.

هذا هو الأسهل والأقرب، وقيل إن (يا) حرف نداء والمنادى محذوف، ويُقدر بحسب ما يقتضيه السياق، فهنا يقدر بقول: يا ربنا ليتنا نرد، لكن ما قلناه أولًا أصح؛ لأنه أيسر ولا يحتاج إلى تقدير، وإذا دار الكلام بين أن يكون فيه شيء مقدر أو لا، فإننا نأخذ بالثاني؛ لأنه الأصوب.

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ ليت: للتمنى، والتمني يكون في المُحال وفي الصعب، في المحال كقول الشاعر:

أَلَا لَيْـتَ الـشَّبَابَ يَعُـوْدُ يَوْمًـا فَـأُخْبِرَهُ بِمَـا فَعَـلَ المَـشِيْبُ[١]

هذا محال، وفي العسير قول الشاعر[٢]:

قَالَـتْ أَلَا لَيْتَمَـا هَـذَا الحَمَـامُ لَنَـا إِلَـى حَمَامَتِنَـا وَنِـصْفَهُ فَقَـدْ

هذا عسير، وكقول الفقير: (ليت لي مالًا فأتصدق منه) هذا ليس بمحال، لكنه عسير.

هنا (يا ليتنا) تمني محال؛ لأنه لا يمكن أن يُرد إلى الدنيا، مع أنهم لو ردوا لكان الأمر خلاف ما قالوه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ هذه داخلة في ضمن التمني، وقوله تعالى: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك في ضمن التمني.

تمنوا ثلاثة أشياء:

الأول: الرد إلى الدنيا.

الثاني: ألا يكذبوا بآيات الله.

الثالث: أن يكونوا من المؤمنين.

ولهذا جاءت ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ بالنصب؛ لأن الواو هنا واو المعية، فالثاني مع الأول.

---

(١) ينسب هذا البيت إلى أبى العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي، أبو إسحاق.

(٢) ينسب هذا البيت إلى النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة.

وكذلك ﴿وَنَكُونَ﴾ جاءت بالنصب لأن الواو واو المعية، فالثاني مع الأول.

تمنُّوا هذا كله ـ ثلاثة أشياء ـ ولكنهم كاذبون فيما قالوا، لذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾:

قلنا في قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ قراءتان: قراءة بالرفع، وقراءة بالنصب، فعلى قراءة النصب تكون الواو واو المعية، يعني: أنهم تمنوا أن يُردوا ولا يكذبوا بآيات الله، وعلى قراءة الرفع تكون داخلة في قوله: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي: نقول فقول: والمعنى: يقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا. فتكون الواو عاطفة على الجملة السابقة؛ فقالوا لا نكذب بآيات ربنا، والأول أبلغ، وهو قراءة النصب.

وقوله تعالى: ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف عليها.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** شدة ندم الكافرين إذا وُقِفوا على نار جهنم، لكونهم يتمنون أمرًا لا يمكن أن يكون.

٢ - **ومن هذه الفوائد:** إثبات النار؛ وهي الدار التي أعدَّها الله عزَّ وجلَّ للكافرين، وقد جاء في الكتاب والسنة من أصناف العذاب فيها ما هو معلوم لكثير من الناس.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثبات القول للناس بعد البعث، وأن الإنسان بعد البعث يقول ويفعل كما يقول في الدنيا ويفعل.

٤ - **ومن هذه الفوائد:** إقرار هؤلاء بآيات الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾.

٥ - **ومن هذه الفوائد:** إقرارهم بأنهم ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم تمنوا أن يكونوا مؤمنين، ولكن هذا لا ينفع؛ إذ قد انتهى كل شيء.

٦ - **ومنها:** جواز حذف المعلوم، والمعنى: جوازه لغة، وفي هذا يقول ابن مالك رحمه الله:

وَحَذْفُ مَا يُعلَمُ جَائِزٌ كَمَا ... تَقُولُ زَيْدٌ عِنْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا[1]

وحذف ما يعلم جائز ليس في المبتدأ والخبر فقط، بل في المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، وفي كل كلام، فما هو المقدر؟ الجواب: لرأيت أمرًا عظيمًا.



(١) شرح ابن عقيل (١/ ٢٤٣)، البيت رقم (١٣٦) من الألفية.

قال الله تعالى:

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٨، ٢٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾:

﴿بَلْ﴾ إضراب لإبطال ما سبق من قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بل لن يؤمنوا ولو ردُّوا، ﴿بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر لهم ما كانوا يخفون من قبل.

فما الذي يخفونه من قبل؟ هل هو تصديق الرسل بما جاءوا به ولكن يجحدون؟ أو ما كانوا يخفون من قبل من الكفر الذي كانوا يكتمونه؟ فعلى الأول: يكون السياق في الكافرين، وعلى الثاني: يكون السياق في المنافقين.

فهل ممكن أن نقول: إن الآية شاملة للمعنيين؟

الجواب: نعم؛ لأنه لا منافاة، لكن يُشْكِلُ على كونها في المنافقين أن السورة مكيَّة؛ لأن سورة الأنعام مكيَّة، نزلت في مكة جملة واحدة، فكيف يكون فيها إشارة للمنافقين؟

والجواب عن هذا الإشكال، أن لا إشكال؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبر عما يكون يوم القيامة، ويوم القيامة قد حصل النفاق، أليس كذلك؟

وأيضًا يذكر الله المنافقين في السور المكيَّة تحسُّبًا لما يقع واستعدادًا له، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١] وهي مكيَّة، وعليه فلا إشكال. وتكون الآية شاملة للمعنيين والقرآن الكريم عظيم، تأتي فيه الآيات والجمل والكلمات تحتمل معاني متعددة، لكن القرآن لعظمته يتسع لكل هذه المعاني، ما لم يكن بعضها منافيًا لبعض، فإن كان بعضها منافيًا لبعض، طلب الترجيح.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾: أي: ظهر لهم ما كانوا يخفون من قبل

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ يعني: إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، إذنْ قولهم كذب، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: من تكذيب الرسل ومن النفاق، وإنهم لكاذبون في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾.

الفوائد:

١- **في الآية الكريمة:** أنه تظهر الحقائق يوم القيامة وتبين، واقرأ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة يس حيث قال في آخر السورة عند ذكر نفخ الصور: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢] فيقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]، أو يُقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

فيتبين الأمر جليًّا في ذلك الوقت، ولكنه لا ينفع من لم يؤمن به في حياته.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تعلُّق علم الله بالمستحيل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

فإذا قال قائل: هذا ليس بمستحيل؛ لأن الله قادر على أن يعيدهم إلى الدنيا، فيقال: إنه مستحيل حسب وعد الله عزَّ وجلَّ، فإن الله قد قضى أن الناس لا يرجعون إلى الدنيا؛ ولهذا إذا تمنى الشهداء ـ الذين قتلوا في سبيل الله ـ تمنوا أن يرجعوا إلى الدنيا فيقتلوا مرة ثانية كما فعل عبد الله بن حرام حين قال له الله عزَّ وجلَّ: «تَمَنَّ» قال: أتمنى أن أعود إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى، قال: «**إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُم إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُوْنَ**»[1] هذا قضاء كوني قدري، فيكون مستحيلًا؛ أي: حسب وعد الله، كالظلم بالنسبة لله عزَّ وجلَّ مستحيل، حسب وعد الله عزَّ وجلَّ، لكنه قادر على أن يظلم، فهناك شيء مستحيل لذاته وشيء مستحيل لغيره.

إذن قوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ فيها دليل على تعلق علم الله تعالى بالمستحيل.

فإذا قال إنسان: وهل يمكن أن يستحيل الشيء ولذاته ويعلمه الله عزَّ وجلَّ؟

فالجواب: نعم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] وهذا مستحيل عقلًا، لا يمكن، ومع ذلك علم الله عزَّ وجلَّ أنه لو كان في السموات والأرض آلهة سوى الله لفسدتا، إذنْ علم الله متعلق بالمستحيل، ومتعلق بالممكن، مثل: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] ومتعلق بالواجب مثل: علم الله تبارك وتعالى بما له من الصفات الكاملة؛ ولهذا نقول: أوسع الصفات في صفات الله عزَّ وجلَّ هو: العلم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكافرين لا يستندمون من الكذب حتى في الآخرة، وكذلك المنافقون؛ لأن الله تعالى كذَّبهم وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تأكيد الشيء إذا دعت الحاجة إليه؛ إما لأهميته، وإما لكون المخاطب مترددًا فيه، أو لغير ذلك من الأسباب.

(١) حسن: رواه ابن ماجه (١٩٠) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٥٨).

المهم: أن من الفصاحة والبلاغة أن يؤكد الخبر إذا دعت الحاجة إلى تأكيده.

التأكيد في الآية في أي جملة؟ الجواب: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فهنا مؤكد بـ (إنَّ) و(اللام).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي: المنكرون للبعث، ﴿إِنْ هِىَ﴾: أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا؛ لأن ما في حياة أخرى، ما في إلا الحياة الدنيا، ثم أكَّدوا هذه الجملة بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وهذا إنكار صريح للبعث، مع أن البعث قد دل عليه الكتاب والسنة والعقل والإجماع، وسيأتي في الفوائد.

قوله تعالى: ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ هل هي من الدُّنوّ - رتبة ومنزلة - أو من الدُّنوّ وقتًا وزمنًا؟ أو منهما جميعًا؟

فهي بالنسبة للآخرة قبل الآخرة، وقد تكون دنيا، وهي بالنسبة للمرتبة أيضًا دنيا، دون الآخرة.

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧]؟ ولهذا تجد في الدنيا سرورًا دائمًا أبدًا؛ يعني: سرورًا للبدن، سرورًا للقلب، هذا لا تجده؛ أي: نعيمًا للبدن والقلب لا يمكن دائمًا، فإما نعيم في البدن، وهو الرفاهية التي يدعو إليها الناس الآن، فهذا نعيم بدن، لكنه يولد في القلب حسرة عظيمة وضيق صدر.

وإما نعيم في القلب، وهذا للمؤمنين كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] ولكن مع ذلك لا بد للإنسان من وجود ما يُسَرُّ به، وما لا يُسَرُّ به، فلا يمكن أن تجد من الدنيا شيئًا كاملًا من كل وجه؛ ولهذا انطبق الوصف تمامًا عليها، نسأل الله أن يرزقنا وإيَّاكم الزهادة فيها والرغبة في الآخرة!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: بمخرجين من القبور، وليس عندهم دليل على هذا الإنكار إلا مجرد الأهواء والمكابرة، وإلا ما المانع؟! وقد أقام الله الدلائل العقلية والحِسِّيَّة والشرعية على وجوب البعث أو على إنكار البعث، وأنه ليس بمنكر، لكن هم - والعياذ بالله - أنكروا هذا، ومن أجل إنكارهم له لم يعملوا للآخرة، عملهم كله للدنيا - نسأل الله السلامة.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكافرين ينكرون البعث، لأن قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ معطوف على النَّسب، وقد صرَّح الله عزَّ وجلَّ بهذا في قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى دنوِّ الحياة الدنيا، وأنها ليست بتلك الحياة التي ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها وينسى الآخرة، لقوله: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ وقد جاء في الحديث:

«لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ(١) لَمْ يَسْقِ اللهُ مِنْهَا(٢) كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ(٣)»(٤) وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله:

لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الكُفْرَانِ

لَكِنَّهَا والله أَحْقَرُ عِنْدَهُ ... مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِرِ الطَّيَرَانِ(٥)

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن إنكار هؤلاء للبعث إنكار مكابرة، نأخذها من أنه لو صدق ما قالوا؛ لأصبح خلق الخلق عبثًا لا فائدة منه، أمم تحيا وتموت وتتقاتل وتتناحر، ثم لا يكون بعث يجازى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، هذا غير ممكن.

❀❀❀

❀ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٣٠]



❀ التفسير ❀

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هذا موقف آخر، والخطاب في قوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾ إما للنبي ﷺ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾: أي: حين وقفوا على ربهم، وفي الآية التي سبقت قد يقول قائل: كيف عبَّر عن المستقبل بالماضي ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾ ولم يقل: (إذ يقفون)؟ فيقال: الشيء المحقق يعبَّر عنه بالماضي لتحقق وقوعه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] فيكون هذا تصوير للحال المستقبلة، كأنها شيء حاضر ماضٍ.

وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وهو الله عزَّ وجلَّ، وإنما أضاف ربوبيته إليهم مع أنهم من أراذل عباد الله إشارة إلى أنه عزَّ وجلَّ هو الخالق المالك المقدِّر لهم، فكان عليهم أن يقوموا بعبادته، فيكون إضافة الربوبية إليهم للإشارة إلى أن السلطان له عليهم عزَّ وجلَّ، ومع ذلك لم يؤمنوا به ولا برسله ولا

---

(١) هو مثل للقِلّة والحقارة. والمعنى أنه لو كان لها أدنى قدر.

(٢) أي من مياه الدنيا.

(٣) أي يمتع الكافر منها أدنى تمتع، فإن الكافر عدو الله والعدو لا يعطى شيئًا مما له قدر عند المعطي، فمن حقارتها عنده لا يعطيها لأوليائه.

(٤) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٠)، والحاكم في المستدرك (٧٨٤٧) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٢).

(٥) متن القصيدة النونية (ص٣٠٨).

عملوا لهذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ ﴿قَالَ﴾: جملة استئنافية لبيان ما حصل عند الوقوف، ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ الحق المشار إليه البعث الذي كانوا ينكرونه، وفي هذه الجملة حرف جر زائد: (الباء) في قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾.

زيادة الحروف: يقول أهل العلم في البلاغة: إنها تدل على التوكيد، فعلى هذا تكون هذه الجملة مؤكدة بالباء الزائدة إعرابًا.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الثابت الذي لا مرية فيه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فأجابوا بالجواب مع الإقسام، وكانوا في الأول يقولون: لا نُبعث، وهنا أقسموا على أن هذا البعث حق، ولكن لو سألهم سائل: هل ينفعهم هذا الإقسام؟ لا ينفعهم؛ لأن الدار الآخرة دار جزاء، وليست دار عمل.

وقولهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ الواو هذه حرف قسم، والقسم كما مر كثيرًا هو تأكيد الشيء بذكر معظَّم بأداة مخصوصة وهو (الواو، والباء، والتاء).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني: قال الله عزَّ وجلَّ لما أقروا بأن هذا هو الحق، تبين أن إنكارهم الأول كان كفرًا بإقرارهم، وقال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الأمر هنا للإهانة وليس للتكريم؛ لأنه لا أحد يُكرَّم بالعذاب، لكنه الإهانة، وأطلق الذوق على العذاب لتحقُّق وقوعه، فإن ذوق الإنسان الشيء يعني أنه تيقنه تمامًا، فلو قلت لك مثلًا: (في جيبي لك تفاحة)؟ تُصدِّق، فإذا رأيتها ازداد يقينك، فإذا أكلتها إزداد أكثر، ويسمى الأول: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، وما مصدرية، وعليه فيقدَّر ما بعدها للمصدر، ويكون التقدير: بكونكم تكفرون، أي تكفرون باليوم الآخر وبمن أخبركم بأنه الآخر وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبمن أرسلهم.

أين جواب لو؟ محذوف تقديره: لرأيت أمرًا عظيمًا، وحذفه جائز، ولكن هل حذفه جائز على مستوى الطرفين، أو حذفه أبلغ؟ الجواب : الثاني، من أجل أن يذهب الذهن كل مذهب؛ لأنه لو ذكر الجواب تحدث بما ذكر، لكن إذا حذف صار الإنسان يتصور هذا الشيء المحذوف شيئًا عظيمًا أكثر مما يوصف، فيكون حذف مثل هذا الشيء من باب البلاغة، إلا أنه مطابق لمقتضى الحال.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات ربوبية الله عزَّ وجلَّ لهؤلاء الكفار، لقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن لله ملائكة يأتون بالناس إليه عزَّ وجلَّ، بدليل قوله: ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ ولم

يقل: (إذ وَقَفُوا)، فهم يؤتى بهم ويقفون.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات القول لله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن قول الله بالحرف والصوت؛ الحرف: لأن ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ حرف، وبالصوت: لأنهم سمعوا وأجابوا فقالوا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن هذا القسم منهم يشعر بشدة الندم على إنكارهم الأول، فكأنهم كذبوا أنفسهم تكذيبًا مقرونًا بالقسم، ولا يخفى أن مثل هذا لا يخرج إلا من قلب متحسِّر، ولكن فات الأوان.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وإثبات الأسباب هو المطابق للواقع، واعلم أن الناس من أمة محمد ﷺ في إثبات الأسباب انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

الأول: من أنكر الأسباب نهائيًا، وقال: إن الأشياء تأتي بمجرد الصُّدفة، وبمجرد أن الله خلقها.

الثاني: ومنهم من أثبت الأسباب على أنها مؤثِّرة بذاتها، وهؤلاء هم الماديون الذين يعتقدون أن الكون يتفاعل بنفسه، وأن ينتسبوا للأمة مثل بعض الفلاسفة أو المتفلسفة.

الثالث: من أثبت الأسباب، لكن بما أَوْدَعَ الله فيها من القوة لا بنفسها، تؤثر بما وضع الله فيها من القوة لا بنفسها، وهذا القول هو الوسط الـمُتَعيِّن، ولذلك نجد أن الأشياء تتغير مسبباتُها بتقدير الله عزَّ وجلَّ.

فالنار التي أوقدت لإبراهيم ماذا كانت؟ كانت بردًا وسلامًا، مع أننا لو رجعنا إلى السبب نفسه لكانت محرقة، لكن هي لا تكون محرقة له إلا بإرادة الله عزَّ وجلَّ، ونجد أن الله تبارك وتعالى يُحدث أشياء لا نعلم أسبابها، مما يدل على أن السبب ليس هو الفاعل ولكن الفاعل هو الله، ولكنه لحكمته جعل لكل شيء سببًا.

٦ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** حذف ما كان معلومًا، كالآية التي قبلها.



قال الله تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا
يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا

سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣١، ٣٢]

۞ التَّفْسِيرُ ۞

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ الجملة هذه مؤكدة بـ ﴿قَدْ﴾، والحروف المؤكِّدة كثيرة، منها ما يسبق، ومنها ما يتأخر، فاللام في قولك: (إن زيدًا لقائم) هذه مؤكدة لكنها متأخرة.

وقد ذكرها علماء أهل البلاغة حينما تكلموا عن الخبر وأقسامه وأنه: (ابتدائي - طلبي - إنكاري) تكلموا على حروف التوكيد، فمن أراد استيعابها فليرجع إليها.

هذه آية مبتدأة بمؤكد واحد وهي: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

خسروا ماذا؟ أطلق الله عزَّ وجلَّ الخسارة، فلم يقل خسروا أنفسهم، ولا أهليهم، ولا شيئًا، فيكون ذلك خُسرانًا مطلقًا.

وصدق الله عزَّ وجلَّ، فما أخسر الذين كذبوا بلقاء الله؛ لأن هؤلاء لن يعملوا للقاء الله ويكون وجودهم في الدنيا خسرانًا لا فائدة منه، بل فيه مضرَّة؛ لأن وجود الإنسان في الدنيا مع كفره بالله عزَّ وجلَّ شرٌّ من كونه لم يوجد أصلًا، وشرٌّ من وجود البهائم؛ لأن البهائم توجد في الدنيا ثم تفنى ثم تبعث يوم القيامة ولا حساب عليها، وهذا عليه حساب؛ ولهذا تمنَّى بعض الصحابة رضي الله عنهم - ومنهم عمر بن الخطاب - أنه شجرة تعضد - أي تُقطع - وقال: (وددت أن أخرج منها - أي من الدنيا - كفافًا لا علي ولا لي)[1] هذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما بالك بمن دونه؟!

فكل من لم يعمُر أوقاته بطاعة الله عزَّ وجلَّ فإنه خسران، فاته الربح.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي: باللقاء معه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] لا بد أن هذا الذي أمرك ونهاك، وأرسل إليك الرسل، وأعطاك العقل لا بد أن تلاقيه فيحاسبك، والمراد: أنهم كذبوا بالبعث الذي يكون فيه لقاء الله.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى: هذه ابتدائية تفيد فصل ما بعدها عما قبلها، ﴿إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهي ساعة القيامة، وقد يراد بالساعة: ساعة فراقهم الدنيا؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، وانتقل من دار العمل إلى دار الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: من غير احتساب لها، والساعة الكبرى تكون بغتة، تأتي الناس

(١) رواه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

والإنسان قد جهز حوض إبله ليسقيها فلا يتمكن، وقد رفع اللقمة إلى فمه فلا يتمكن، والرجلان قد نشرا الثوب بينهما ليبيعه أحدهما إلى الآخر فلا يتمكن من إتمام العقد، تأتي بغتة.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ قالوا: جواب (إذا)، (يا): هنا لا يمكن أن نجعلها للنداء؛ لأن الحسرة لا تُنادى، والحسرة هي الندم على الشيء الذي فات، وعليه تكون (يا) للتنبيه، كأنهم قالوا: ما أعظم حسرتنا! وقيل: إن (يا) للنداء، وأن الحسرة تُخيَّل كأنها شيء عاقل يتوجَّه إليه النداء، وعلى هذا القول يكون المعنى: يا حسرتنا احضري، فهذا أوانك، والمعنى لا يختلف بين هذا وهذا؛ غاية ما هنالك التقدير وعدم التقدير.

والحسرة: هي الندم والتحسر على شيء فائت.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ التفريط: هو التقصير، و﴿فِيهَا﴾: الضمير يعود على الساعة، أي: فرطنا في الاستعداد لها؛ لأنهم أضاعوا أعمارهم بما لا فائدة فيه، بل بما فيه مضرَّة أحيانًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ يعني: يوم القيامة يحملون أوزارهم على ظهورهم، أي: جزاء أعمالهم، على ظهورهم.

والله تعالى دائمًا يعبر عن الجزاء بالعمل، وذلك لفائدتين:

الفائدة الأولى: أن يُصلح الإنسان عمله.

الفائدة الثانية: أن يُعلم أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن الجزاء على العمل دائرٌ بين أمرين لا ثالث لهما: الأول: الفضل، والثاني: العدل.

ولا ظلم، فإن كان العمل حسنات فبالفضل، وإن كان سيئات فبالعدل، وربما يكون بالفضل حيث يعفو الله عنه عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ أي: جزاء الأعمال على ظهورهم حملًا حقيقيًّا، هذا هو الواجب أن نحمل الآيات على ظاهرها.

ولو قال قائل: كيف يحمل الجزاء على الظهر؟!

قلنا: يوم القيامة لا يُقاس بأيام الدنيا؛ لأن الحال تختلف اختلافًا عظيمًا، فمن الجائز الممكن أن الله تعالى يخلق هذه الجزاءات حتى تكون أجسامًا تُحمل على الظهور، وما المانع؟!

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت:١٣] ولا يجوز أبدًا أن نقيس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا؛ لأنك إذا قرأت القرآن وعلمت ما جاء في السنة من أحوال يوم القيامة تجزم أنه ليس هناك اتفاق، ولا يمكن أن يقاس بعضها على بعض.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿سَاءَ﴾ بمعنى: بئس، و﴿أَلَا﴾: أداة استفتاح وتنبيه، وربما نقول في هذا الموضع زيادة أخرى وهي: التحذير من الأعمال السيئة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾: هنا ﴿مَا﴾: إن جعلتها اسمًا موصولًا احتجت إلى العائد، وإن جعلتها مصدرية لم تحتج إلى عائد، فما هو التقدير إذا جعلناها اسمًا موصولًا؟

التقدير يكون ألا ساء ما يزرونه.

أما إذا جعلناها مصدرية: فلا تحتاج إلى ضمير ولكن تحتاج إلى سبب، بمعنى: إلى تحويل الفعل مصدرًا، وعليه يكون التقدير: ألا ساء وزرهم، ولكن المعنى لا يختلف: وهو أن الله تعالى ذم هذا الذي يحملونه على ظهورهم من الأوزار.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان خسران الكافرين المكذِّبين بالبعث، وأنهم مهما ظنوا أنهم ربحوا فهم خاسرون، ولكن متى يعلمون أنهم خاسرون؟ إذا جاء الأجل، أما الآن فهم في سكرة لا يدرون؛ ولهذا لو انتصروا اقتصاديًّا أو عسكريًا أو فكريًّا لظنوا أنهم رابحون، ولكنهم خاسرون.

٢ - **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بلقاء الله، بدليل ثبوت الخُسران لمن كذب به، ومعلوم أنه لا يحل لإنسان أن يوقع نفسه في الخسران.

مسألة: هل من لقاء الله عزَّ وجلَّ النظر إليه؟

الجواب: استدل بعض العلماء رحمهم الله على النظر إلى الله عزَّ وجلَّ بهذه الآية، وبقوله: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] وقالوا: إن اللقاء لا يكون إلا مواجهة.

وعلى هذا فيكون في الآية دليل على ثبوت رؤية الله عزَّ وجلَّ، وثبوت رؤية الله ثابتة بالنصِّ والإجماع ـ النصِّ القرآني والنبوي ـ والإجماع من الصحابة رضي الله عنهم وأئمة الهدى من بعدهم:

ومن أدلة النظر إلى الله في القرآن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، ولو قال قائل: إن المقصود هنا ناظرة إلى ثواب ربها، قلنا له لو أراد الله ذلك لقاله، فكونه عزَّ وجلَّ يريد ثواب الله ثم يأتي ويقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ هذا تعمية على الخلق، وليس بيانًا، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، ويقول تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦]، ثم ما الدليل على إقحام هذه الكلمة في القرآن؟!

ومن السنة قال النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**»[1]، وهذا التشبيه للتحقيق، أي: كما أنكم في أماكنكم المتباعدة ترون القمر ليلة البدر بدون إلتمام بعضكم إلى بعض، فإنكم سترون الله عزَّ وجلَّ، ولما سأل أبو رزين العقيلي النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، كيف

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

يحاسبنا الله في يوم واحد ونحن جميع وهو واحد؟! قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ آلَاءِ الله، تَرَى القَمَرَ، كُلُّكُمْ يَرَاهُ فِي مَكَانِهِ وَهُوَ وَاحِدٌ وَأَنْتُم جَمَاعَةٌ». فهذا حديث يدل على ثبوت رؤية الله بالعين.

والإجماع: قد أجمع الصحابة والتابعون على رؤية الله سبحانه وتعالى، واستُدِل على هذا الإجماع بأن الصحابة قرءوا القرآن وسمعوا الأحاديث من الرسول ﷺ، ولم يأتِ عن أحد منهم أنه قال بخلاف ظاهرها، فيكون هذا إجماع منهم إجماعًا سكوتيًّا إقراريًّا، وهذه حجة لا إشكال فيها، وهاتِ واحدًا من الخلفاء الراشدين أو غيرهم من الصحابة يقول أن الرؤية لما أعد الله لهم من الجنة والثواب وليس رؤية الله، ما تقدر على ذلك. وأئمة الهدى من بعدهم تبعوهم.

وعلى كل حالٍ الآية التي معنا هنا استدل بها بعض العلماء على ثبوت رؤية الله سبحانه وتعالى محتجًّا بأن الملاقاة لا بد أن تكون مواجهة، فإن صحَّ هذا الاستدلال وإلا فنحن في غنًى عنه، إذنْ إذا صح هذا الاستدلال فالمراد بلقاء الله البعث بعد الموت؛ لأن الكافر لن يرى الله سبحانه وتعالى، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٥].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الساعة تأتي بغتة، سواء كانت الساعة الكبرى أو الساعة الصغرى، ألم تكن الساعة الصغرى تأتي بغتة؟! بلى، تأتي الزلازل بغتة، تأتي العواصف والقواصف بغتة، وقد حذَّر الله عزَّ وجلَّ من هذا فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف:٩٧] لا يفكرون في عذاب فيأتيهم وهم نائمون. ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٨] لاهون ما فكروا أن يأتيهم العذاب، فيأتيهم العذاب، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩] بما أنعم عليهم من الأمن والرغد والرَّخاء، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** شدة تحسُّر هؤلاء الذين كذَّبوا بلقاء الله، وإقرارهم على أنفسهم بأنهم فرَّطوا، ولكن هذا لا ينفعهم فقد انتهى العمل، شيء فات لا يمكن رده، ولهذا أقروا بأنهم مفرطون.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أهل الأوزار يحملون أوزارهم على ظهورهم يوم القيامة حقيقة لا مجازًا؛ لأن هذا هو الواجب أن نجري النصوص القرآنية والنبوية على ظاهرها، فإذا قال قائل: كيف يحملونها؟ فالجواب: أن هذا سؤال في غير محله؛ لأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأعمال محل الثناء والقدح، لقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ هذا قدح، ومحل الثناء مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَٰنِ إِلَّا الْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

إذا ثبت القدح في العمل أو المدح، فهل يستلزم المدح في العامل أو القدح له؟ نعم، هذا هو الأصل، لا سيما في أمور الدنيا، فإنه ليس لنا إلا الظاهر، أما أمور الآخرة فعند الله، ولهذا لو أننا رأينا شخصًا يسجد لصنم قلنا كافر، مع أنه يحتمل أن يكون جاهلًا، لكن نقول: كافر، فإن استقام ووحد الله، ارتفع عنه هذا الوصف، وإلا فهو باقٍ.

وليعلم أن بعض الناس توسعوا في مسألة التعيين والتعميم، حتى إن بعضهم شك: هل يجوز لمن سجد للصنم أنه كافر؟! نقول: قل ولا تبالي، هل يجوز أن نقول لمن ترك الصلاة أنه كافر؟ نقول: قل ولا تبالي، إذا لم تقل فمتى يكون كفر ومتى يكون شرك، نعم إذا وجد مانع من التكفير فحينئذ يكون لكل شيء حكمه، وأما الأصل فإننا نحكم على كل من فعل ما يُكفِّر أو قال ما يُكفِّر بأنه كافر بعينه حتى نقيم عليه الحجة، فإن ادعى مانعًا نظرنا هل هذا صحيح أو غير صحيح، ونحكم لكل قضية بما تقتضيه الحال.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ما نافية، والحياة مبتدأ وما بعد إلا هو الخبر، وهذا طريق من طرق الحصر، وهو أقوى طرق الحصر، أعني: النفي والإثبات، والحياة الدنيا هي حياتنا هذه، ووصفت بالدنيا لوجهين: الأول: دنو زمنها، والوجه الثاني: دنو مرتبتها، أما الأول فظاهر، فإن الدنيا قبل الآخرة، وأما الثاني فظاهر أيضًا لمن كان ذا عقل، فإن هذه الدنيا دنية ليس فيها خير وغاية ما فيها أن ينعم البدن دون القلب، فأهل الدنيا محرومون من نعيم القلب، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] فالحياة الطيبة لما جمع بين هذين الوصفين: الأول العمل الصالح، والثاني: الإيمان.

حتى إن النبي ﷺ قال فيما رواه الإمام أحمد عن المستورد بن شداد: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُم فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١) من الدنيا كلها من أوَّلها إلى آخرها وما فيها، وهو موضع سوط، فكيف والإنسان في الجنة ـ اللهم اجعلنا منهم ـ ينظر إلى أقصى ملكه كما ينظر إلى أدناه مسيرة ألفي عام؟!

وقوله: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي لعب بالأبدان، ولهو بالقلوب، كل عمل الدنيا لعب، وكل عمل الدنيا لهو، لكنه لهوٌ بشيء عن شيء، لهو بأعمال الدنيا عن أعمال الآخرة، لعب بالنسبة إلى أنه لا يحصل فاعله على شيء، فأدنى ما يقال أنه ليس له ولا عليه في هذا العمل، مع أنه قد يكون عليه، فإذا كان لا له ولا عليه فهل هو جد أم لعب؟ لعب ولا شك، وهكذا نقول في معنى قوله لعب:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٢٨٤٩) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

إذا قال قائل: كيف يكون لعبًا وأهل الدنيا عندهم جد وعزيمة ونشاط في أعمالهم؟! قلنا: لكنه بالنسبة للثواب والأجر لعب لا خير فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ اللام هنا لام الابتداء، وتفيد التوكيد، والدار الآخرة فيها قراءتان، هذه القراءة: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، والثانية: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ بالإضافة، الدار الآخرة هي عديلة الدنيا وضرة الدنيا، وهي ما يكون بعد البعث وسماها الله آخرة؛ لأنها آخر المراحل، فإن بني آدم لهم أربع مراحل: المرحلة الأولى: في بطون الأمهات، والثانية: في هذه الحياة، والثالثة: في البرزخ بين البعث والممات، والرابعة: في البعث بعد الممات إذا قامت الساعة، ولذلك سميت آخرة.

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾: من المعلوم أن سياق الكلام يقتضي أنها خير من الدنيا ولعبها ولهوها وحذف المفضل عليه للعلم به، ومن قواعد البلاغة: أن المعلوم الذي لا يُحتاج إلى تكلف في تقديره حذفه أولى مما في ذلك من الاختصار، وقد يكون الأمر بالعكس، حين تقتضي البلاغة أن يُبسط في القول.

وقوله: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله عزَّ وجلَّ، وتقوى الله علينا كثيرًا، ويجمعها: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي على علم وبصيرة، وبعضهم يتفنن في تعريفها، كقول بعضهم(١):

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

وبعضهم يقول: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله(٢).

لكن الأول أجمع، وأوضح لأنه يعرف به اشتقاق التقوى.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، والمعنى: اعقلوا هذه الحقيقة، واعرفوا قدر

---

(١) وهو ابن المُعتَز، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس. الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلوا على ابن المعتز، فلقبوه (المرتضى بالله)، وبايعوه للخلافة، فأقام يوماً وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه، وعاد المقتدر، فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٣٥٦)، والقائل هو طلق بن حبيب.

الدنيا وقدر الآخرة، والمراد بالعقل هنا عقل الرشد لا عقل التكليف، لأن هؤلاء يعقلون لكنها عقول ليست عقول رشد.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية:** التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وفي ذلك أنه وصف الدنيا بما ذكرنا، ووصف الآخرة بما ذكرنا.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الدنيا كلها لعب ولهو، لعب في الجوارح، ولهو في القلوب.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا حال للدُّنيا سوى ذلك، ووجه الدلالة: الحصر ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

٤ - **ومن هذه الفوائد:** أن الدار الآخرة خير للمتقين، للذين يتقون، خير من الدنيا، وعلى هذا فما يصيبهم في الدنيا من الأذى في الله عزَّ وجلَّ أو في أمراض تصيبهم أو فقد حبيب أو ما أشبه ذلك فإنه في الآخرة ينسى وكأنه لم يكن؛ لأن الدار الآخرة تمحو كل شيء سبق، كأن لم يكن.

٥ - **ومن هذه الفوائد:** إثبات الدار الآخرة؛ لأن إثبات وصفها يدل على وجود أصلها.

٦ - **ومن هذه الفوائد:** أن الآخرة خير لهؤلاء المتَّصفين بالتقوى، ولغيرهم ليست خيرًا بل هي شر، ولهذا جاء في الحديث أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهي بالنسبة للمؤمن سجن؛ لأنه لو نسب نعيم الدنيا كلها إلى الآخرة لم يكن شيئًا، أما الكافر فهي جنته؛ لأنه في الدنيا كان في أهله مسرورًا، لكن في الآخرة على العكس من ذلك، وقد سبق أن ذكرنا ما جرى للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ وكان رئيس القضاة في مصر ومر به يهودي زيَّات فقير وابن حجر رَحِمَهُ اللهُ تجره الخيول على العربة؛ لأنه كان قاضي القضاة في مصر، فاستوقفه هذا اليهوديّ وقال له: كيف تكون أنت في هذه الحال وأنا في هذه الحال والحديث عندكم: «**إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**[1]»[2] فأجابه على البديهة قال: (ما المؤمن فيه من النعيم بالنسبة للآخرة إلا سجن، وما الشقاء الذي أنت فيه بالنسبة للآخرة إلا جنة) فعلم اليهودي الحقيقة وأسلم.

ذكر الله تعالى في تفضيل الآخرة على الدنيا ثلاث آيات، الآية الأولى: تتعلق بشخص معين،

---

(١) معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من المنغصات وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد.

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣)، وأحمد في مسنده (٨٢٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والثانية: معين بوصف، والثالثة: إطلاق، فالأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضُّحى:٤] وهو الرسول ﷺ، والمعينة بوصف: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، والمطلقة قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧].



قال الله تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٣، ٣٤]

التفسير

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ قد للتحقيق، لكن قال النحويون: إنها مع الماضي للتحقيق، ومع المضارع للتقليل، هذا هو الغالب، للتحقيق كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق:٤]، وفي المضارع يقولون: إنها للتقليل، ومنه قولهم: (قد يجود البخيل)، فقد هنا للتقليل، لكنها وردت في القرآن مقرونة بالمضارع وهي للتحقيق، مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤]، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾، ولها أمثلة فهل نقول: إنها للتقليل أو نقول: إنها للتحقيق؟ الجواب: للتحقيق ولا شك، لكن عبَّر عن الماضي بالمضارع إشارة إلى أن الله عزَّ وجلَّ علم ويعلم ما يكون، فتكون دالة على الاستمرار، بخلاف علم الماضي فإنها دالة على شيء مضى وانتهى، لكن إذا كان الشيء مستمرًّا جاءت بلفظ المضارع.

والثانية: ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ مع أنها واقعة بعد العلم، وإذا وقعت بعد العلم وجب أن تكون مفتوحة الهمزة، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٥] لماذا كسرت الهمزة هنا؟ كسرت لوجود لام التوكيد، وإذا وجدت لام التوكيد وجب كسر إن على كل حال، إذا اقترن خبرها أو اسمها باللام وجب أن تكسر على كل حال، لولا اللام لكان سياق الآية (قد نعلم أنه يحزنك) لكن اللام تكسر الهمزة.

وفيها قراءتان: (لَيُحْزِنُكَ)، و(لَيَحْزُنُكَ) الأولى: من الرباعي من أَحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ، ليحزنك من الثلاثي: حزنه يحزنه، والحزن ضد السرور، وهو معنى قائم بالنفس يستلزم الانكسار والندم.

ما الذي يقولون؟ يقولون قولًا منكرًا عظيمًا، يقولون: لله البنات، يقولون: نعبد الأصنام لتقرِّبنا إلى الله عزَّ وجلَّ، يقولون على الرسول عليه الصلاة والسلام إنه ساحر، إنه مجنون، إنه كاهن، فكل ما يقولونه مما ينافي التوحيد والرسالة لا شك أنه يحزن النبي ﷺ.

وهل هذا انتصار لنفسه أو حزن لله عز وجل؟ الثاني بلا شك، قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، يقولها: عالم السر وأخفى - عزَّ وجلَّ - الذي يعلم ما في القلوب، قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ يعني: في قلوبهم، وأما بألسنتهم فإنهم يقولون: إنه ساحر كذاب، لكن في قلوبهم يعلمون أنه صادق، أنه أمين، وكانوا يسمُّونه قبل الرسالة: الأمين، ويَرْضَوْنَه، ويُحَكِّمُوْنَه، لكن لما جاء بالحق أنكروه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ المراد بالظالمين: المكذِّبين للرَّسول ﷺ فهو ظلم كفري، قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَجْحَدُونَ﴾، وقُدِّم عليه لإفادة الحصر، ولتناسب رؤوس الآيات؛ لأن تناسب رؤوس الآيات من البلاغة بلا شك، ولهذا تأمَّل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] فقدم هارون مع أن موسى مقدم في جميع المواضع، لكن من أجل تناسب رؤوس الآيات، ففيها إذن فائدتان: معنوية ولفظية، المعنوية: هي إفادة الحصر، كأن المعنى: ولكن الظالمين لا يجحدون إلا بآيات الله؛ لأنهم يعترفون بأشياء كثيرة، إلا آيات الله عزَّ وجلَّ فإنهم لا يعترفون بها.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات علم الله عزَّ وجلَّ بكل ما يقوله هؤلاء المكذِّبون، لقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** تسلية النبي ﷺ وتقوية روحه المعنوية، فإن في هذه الآية من تسليته وتقوية روحه المعنوية ما هو ظاهر، وهكذا ينبغي للإنسان أن يسلِّي أخاه بما يقع لمثله حتى يهون عليه الأمر؛ لأن الإنسان بطبيعته إذا وجد مشاركًا هان عليه الأمر.

ألم تر قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣٩] في الدنيا إذا اشتركوا في العذاب هان عليهم، لكن في الآخرة لن ينفعهم.

وانظر إلى قول المرأة (الخنساء):

وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ البَـاكِيْنَ حَـوْلِيْ ... عَلَـى إِخْـوَانِهِم لَقَتَلْـتُ نَفْـسِيْ
وَمَـا يَبْكُـوْنَ مِثْـلَ أَخِـيْ وَلَكِـنْ ... أُسَـلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّأَسِـيْ

فإذا ذكر الله عزَّ وجلَّ لنبيه ما يسليه ويقوي معنويته ويذهب عنه الحزن، فإن هذا من فضل الله عليه تبارك وتعالى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، وأنه يحزنه إعراض الناس عن دين الله عزَّ وجلَّ.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** علم الله تعالى بما في القلوب في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، ونظير هذه الآية قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] ﴿ظُلْمًا﴾ هذه مفعول لأجله عامله قوله:

(وجحدوا) أي جحدوا بذلك ظلمًا، ﴿وَعُلُوًّا﴾.

وانظر إلى قول موسى ـ عليه السلام ـ وهو يجادل فرعون، يقول له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] قال: قد علمت، ولم يكذبه فرعون في هذه المحاورة، ما قال: لم أعلم، بينما لما كان يشرح لقومه يقول لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، والظاهر لي ـ والله أعلم ـ أن فرعون لم يقل لموسى إنني لا أعلم خوفًا من نزول العقوبة العاجلة، أو خوفًا من أن ينزل كتاب يكذبه، على كل حال فقد أقرّ، وطريق إقراره السكوت.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للدعاة أن يتسلَّوْا برسول الله ﷺ، فيما إذا سمعوا ما يكرهون من هؤلاء المكذبين المعاندين، ويقولوا في أنفسهم وفي ألسنتهم: إن الله تعالى عالم ما تقولون وسيجازيكم.

٦ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الجحد بآيات الله كفر ولو استيقنها الإنسان، ما دام جحدها وإن كان مؤمنًا بها في قلبه؛ لأن أحكام الدنيا تُجرى على الظاهر، فنحن نكفر من أظهر الكفر وإن كان مؤمنًا بقلبه، ونسكت عمن أظهر الإسلام ولو كان كافرًا بقلبه؛ لأن هذا أحكام الدنيا التي أوجبها الله عزَّ وجلَّ إذ إننا لا نعلم ما في قلوب الناس، ومن ثم أنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد حيث قتل المشرك بعد أن قال: لا إله إلا الله، واحتج أسامة بأنه قالها تعوُّذًا أي: خوفًا من القتل لا عن يقين، فقال له النبي ﷺ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أَشَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ**[1]»[2] فأمور الدنيا على الظاهر، لكن في الآخرة ـ نسأل الله أن يستر علينا ـ على الباطن، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

إذا قيل: هل هنا وصف آخر يكفر به الإنسان؟

فالجواب: نعم، بالاستكبار، فالردة لها أصلان فقط: الجحود، والثاني: الاستكبار، الجحود ولو عمل ولم يستكبر ظاهرًا فإنه يكفر، كما لو قال: الصلاة خمس مفروضة لكني أفعلها تورعًا واحتياطًا نقول: إنه كافر لأنه جحد، والاستكبار: أن يستكبر عن فعل ما تركه كفر، على أن الإنسان لو ترك الطاعة استكبارًا حتى ولو كانت نافلة فإننا في شك من إيمانه؛ لأن جنس الاستكبار علوٌّ على الله عزَّ وجلَّ وعلى أوامره ونواهيه، فيخشى إذا ترك المسنون استكبارًا

---

(١) معناه: إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه فأنكر عليه من العمل بما ظهر باللسان وقال أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب واعتقدها وكانت فيه أم لم تكن فيه بل جرت على اللسان فحسب.

(٢) رواه مسلم (٤٢٦٩)، وأبو داود (٢٦٤٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

واستنكافًا أن يكون كافرًا، لا إذا تركه عمدًا متهاونًا به، وهنا فرق يعرفه الإنسان من نفسه، فرق بين شخص يقول: أنا لا أصلي الراتبة استكبارًا، وآخر يقول: أنا لا أصلي الراتبة لأنها لا تجب علي؛ فالثاني: لا يكفر ولا يفسق، وأما الأول: فإن الإنسان يكون في شك من إيمانه.

ثم سلَّاه الله عزَّ وجلَّ بطريقة أخرى، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وما أكثرهم! حتى إن النبي ﷺ رأى في المنام أن النبي لا يتبعه إلا رجلان أو رجل واحد، والنبي ليس معه أحد، نوح عليه السلام بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يذكرهم بآيات الله، ويجهر لهم بالدعوة ويُسِرُّ بها، ولكن لم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وهو صابر ألف سنة على الأذى والسُّخرية، وهو يصنع السفينة: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [هود:٣٨] وتأمل (ملأ) والملأ الأشراف، وسخرية الأشراف غير سخرية آحاد الناس، فهي أشد في قمع الإنسان واستهانته.

كذبوا وأوذوا، ﴿فَصَبَرُواْ﴾ أي: تحملوا الرسالة وأدوها على ما فيها من مصادمات وأذى، ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾ ﴿وَأُوذُواْ﴾ يحتمل أن تكون معطوفة على كذبوا يعني: صبروا على ما كذبوا، وعلى ما أوذوا، ويحتمل أن تكون معطوفة على كذبت، يعني: ولقد كذبت رسل من قبلك وأوذوا، والمعنيان لا يختلفان كثيرًا.

أوذوا بالقول والفعل، حتى إن بعضهم قتل، يسخرون بهم خلقة وخلقًا وغير ذلك، حتى إنَّ اليهود قالوا لموسى إنه رجل آدر، أي: كبير الخصيتين، وهذا عيب عند الناس، وكان موسى عليه السلام لا يبدي عورته فلما كان ذات يوم خلع ثوبه، ليغتسل ووضعه على حجر، هرب الحجر بثوبه، فجعل يسعى وراءه يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، لكن الحجر لم يقف إلا في الملأ من بني إسرائيل، حتى شاهدوا أن موسى بريء مما قيل فيه، فأظهر الله كذبهم علنًا(١).

المهم: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أوذوا إيذاءً لا يصبر عليه إلا أمثالهم، وقد قال الله لنبيه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] بل لما ذكر أنه أنزل عليه الكتاب قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٤] لم يقل: فاشكر نعمة الله، إشارة إلى أنه سيناله ما يناله من الأذى من أجل هذا الكتاب الذي نزل عليه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ حتى هذه للغاية، أن الله تبارك وتعالى نصره؛ لأن الله أخذ على نفسه أن ينصر رُسُلَه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١] ولا ينافي هذا ما يحصل لبعض الأنبياء من عدم النصر وذلك لأنا نقول: هؤلاء الذين لم ينصروا إما ألا يكونوا أمروا بالقتال أصلًا حتى يكون نصر، وإما أن نقول: إن النصر نوعان: نصر عاجل للنبي يجده في حياته، ونصر آجل لدعوته يكون له انتصار من بعده، وآجل أيضًا يكون في الآخرة.

---

(١) كما رواه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد يستطيع أن يبدل كلمات الله عزَّ وجلَّ، لا يبدل كلمات الله إلا الله وحده، كما أنه لا مبدل لحكمه فلا مبدل لكلماته، وكلماته هي وحيه الذي أنزله على رسله، وكذلك هي كلماته القدرية التي يكون بها النصر لأنبيائه والخذلان لأعدائه ولا يرد على هذا ما جاء به النسخ؛ لأن مبدل الحكم المنسوخ هو الله، والآية تدل على أن لا أحد يبدل كلمات الله، أما الله تبارك وتعالى فله أن يبدل، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:١٠١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم المقدر، واللام وقد، والخطاب للنبي ﷺ، أي لقد جاءك أيها الرسول من نبأ المرسلين، أي: من النبأ الذي يأتيهم وهو الوحي، هذا المعنى هو المتبادر، المعنى الثاني: لقد جاءك من قصصهم وأخبارهم كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] وعلى هذا فتكون للآية معنيان: المعنى الأول: أنه قد جاءك من أنباء الوحي الذي آتى الرسل من قبل، والمعنى الثاني: أنه قد جاءتك أخبارهم وتبيَّن لك ما حصل للرُّسُل من أتباعهم وما حصل لأتباعهم.

الفوائد:

١ - **من هذه الفوائد:** بيان أن تكليف الأنبياء ليس وليد عهدهم بل هو سابق، لقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟﴾ فإن قال قائل: ما الحكمة في إرسال الرسل مع تكذيبهم؟ فالجواب: أن هذا لإقامة الحجة على المكذبين؛ لأن هؤلاء المكذبين لو لم يأتهم رسول لقالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه:١٣٤] لو لم يأتهم رسول لكان لهم حجة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** عتوّ بعض بني آدم حيث تأتيهم الآيات فيكذبون؛ لأنه ما من رسول بعثه الله إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهذا أمر لا بد منه. فإذا كذب الرسل مع هذه الآيات صار هذا دليلًا على عظم عتوّ هؤلاء المكذبين.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تسلية الله لنبيه ﷺ؛ لأن الإنسان إذا علم أن غيره قد أصابه ما أصابه هان عليه الأمر، وقد ذكرنا أمثلة لذلك، من القرآن ومن كلام العرب.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بالصبر على ما كذبوا وعلى ما أوذوا.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب علينا أن نتأسَّى وأن نتسلَّى أيضًا بما جرى للرسل - عليهم الصلاة والسلام - فنصبر على أذى من يقوم أمام دعوتنا، نصبر والعاقبة للمتقين لقوله: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أعداء الرسل لا يقتصرون على مجرد التكذيب، بل يؤذون الرسل وأتباعهم، والأذيَّة قد تكون جسديَّة، وقد تكون مالية، وقد تكون فكريَّة، وقد تكون عسكرية، أنواع متعددة، والكافر يرى أقرب وسيلة تحصل بها الأذية للمسلم، لا شك في هذا، ولو حصل له أن يبيد الأمم الإسلامية في ليلة بين عشية وضحاها لفعل ذلك.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن فرج الله عزَّ وجلَّ يأتي مع شدة الكرب، كلما اشتد الكرب فاعلم أنه دنا الفرج، ويؤيد ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح:٦] فجعل الله مقابل العسر الواحد يسرين، وقال النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»(١)، وهذا كلام الله وكلام رسوله، حق وصدق. لكن النفوس قد تبوء بالفشل فلا تصبر.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ألا يُرجى النصر إلا من عند الله، لقوله: ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ لم يقل: حتى نصرهم فلان أو فلان، وإذا علمنا أن النصر لا يكون إلا من عند الله فممن نطلب النصر؟ من الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا اختصر النبي ﷺ في عريش له يوم بدر يناشد ربه تبارك وتعالى النصر حتى نصره الله والحمد لله.

فلا تطلب النصر إلَّا من الله، حتى في المجادلة العلميَّة، لا تطلب النصر من فلان يوفقك أو لا يوفقك، اطلب النصر من الله إذا كنت وصلت إلى الحق فاطلب من الله أن ينصرك، أو اطلب من الله أن يهديك الصراط المستقيم.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا مبدل لكلمات الله، أي: لا أحد يبدلها، إذا قدر الله النصر لا أحد يمنعه، وإذا قدر الخذلان لا أحد يمنعه، أما الكلمات الكونية فعدم المبدل لها ظاهر، الكلمات الكونية لا بد أن تقع، كن فيكون، قال الله تعالى كن لنزول المطر، لا أحد يمنعه، قال لامتناع المطر يمتنع، لا أحد ينزله، فالكلمات الكونية مفروغ منها أنه لا أحد يستطيع أن يبدِّلها.

أما الكلمات الشرعيَّة: فمن الناس من يبدلها، لكن تبديله هذا باطل، والباطل لا وجود له شرعًا، وهل هناك من بدل الكلمات الشرعية أم لا؟ نعم، في الأمم السابقة وفي هذه الأمة، لكن هل هذا التبديل غيَّر من خصائص هذه الكلمات؟ أبدًا لا يستطيعون مهما حاولوا، هم لو بدلوها ظاهرًا فما بدلوا فإنه باطل والباطل لا حكم لوجوده.

---

(١) تقدم تخريجه.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: قوة عظمة الله وسلطانه عزَّ وجلَّ، حيث إنه لا مبدِّل لكلماته، وغير الله عزَّ وجلَّ مهما بلغ من السلطان والقدرة والقوة والجنود فإن كلماته تبدل.

فإن قال قائل: ما تقولون في النسخ؟ أليس فيه تبديل؟!

بلى؛ فيه تبديل، لكن مَن بدله؟ الله عزَّ وجلَّ، وكلماته الناسخة لا مبدل لها، يعني: لا يمكن أن نلغي الناسخ؛ لأنها كلمات الله عزَّ وجلَّ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥].

١١- ومن فوائد الآية أيضًا: إثبات أن الله يتكلم، وهذا قد ملئ منه القرآن وقد جاءت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] مؤكدة ذلك؛ لأن تكليمًا مصدر مؤكِّد، والمصدر المؤكِّد ينفي احتمال المجاز.

وكلمات الله عزَّ وجلَّ بحروف أم بدون حروف؟ بحروف، وإلا لم تكن كلامًا، وكذلك هي بصوت، يتكلم الله بصوت مسموع، ولا يمكن أن يكون الكلام معنىً قائمًا في النفس؛ لأن هذا المعنى القائم في النفس لا يسمى كلامًا، بل يسمى حديث نفس، فالكلام ما نطق به اللسان وليس ما حل في الجنان، ولهذا إذا أراد الله عزَّ وجلَّ حديث النفس عبَّر عنه كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨].

وخالف في الكلام طوائف مرت علينا في كتاب النونية، من أبينها وأبرزها:

الأول: مذهب المعتزلة: يقولون: إن كلام الله أصواتٌ مخلوقة، خلق الله أصواتًا كما خلق أصوات الرعد والصواعق، فهي مخلوقة تمامًا بائنة عن الله، وإنما نسبت إلى الله تشريفًا لها كما في قوله: (ناقة الله) و(بيت الله) و(مساجد الله) وما أشبه ذلك.

الطائفة الثانية: الأشاعرة: الذين يدعون أنهم هم الذين جادلوا المعتزلة، قالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، لا يُسمع وليس له صوت ولا حروف، ولكنه خلق أصواتًا وحروفًا لتعبِّر عما في نفسه.

إذن هل هناك فرق بين مذهبهم ومذهب المعتزلة؟! لا فرق، كما قاله بعض علمائهم أنه لا فرق بينه وبين المعتزلة؛ لأننا متفقون على أن ما في هذا المصحف مخلوق، لكن المعتزلة قالوا هو مخلوق حقيقة، وهو كلام الله حقيقة، وهؤلاء الأشعرية قالوا: ليس كلام الله حقيقة، كلام الله هو الكلام القائم بنفسه وهذا عبارة عن كلام الله.

فأيهم أقرب إلى الصواب من حيث القواعد؟

المعتزلة أقرب إلى الصواب.

أما أهل الحق ـ السلف وأتباعهم ـ من الأئمة فقالوا: إن الله عزَّ وجلَّ يتكلم بكلام مسموع بحرف مرتب، ولا يعقل الكلام إلا على هذا الوجه.

فإذا قال قائل: هل كل ما خلقه الله قليلًا أو كثيرًا يكون بكلمة كن؟

الجواب: ظاهر النصوص هكذا، كل ما خلقه الله يقول له كن، ولهذا كانت كلمات الله لا نفاد لها ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩] ويحتمل أنه عزَّ وجلَّ قال: (كن) في أول الأمر وصار المخاطب يقوم بما أمر به، كما قال للوح المحفوظ: «اكتب ما هو كائن»[1] فكتب ما هو كائن.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات رسالة النبي ﷺ كما ثبتت رسالات من قبله، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تأكيد رسالة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وذلك بالقسم واللام وقد.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم يراعَى فيه فواصل الآيات، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] ومراعاة الفواصل ظاهر في القرآن الكريم، انظر إلى سورة طه، انظر إلى سورة اقتربت الساعة، حتى قال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣] ودسر جمع دسار وهو المسمار، كل ذلك لأجل أن تتناسب السورة في فواصل الآيات، وذلك لأن هذا من البلاغة؛ ولأن هذا مما تصغي له الأسماع؛ ولأن ذلك مما تطرب له القلوب، فهذه ثلاث فوائد لتناسب الآيات الكريمة.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه قد يكون فيها إشارة إلى أن محمدًا خاتم الرسل، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: الذين أرسلوا، فإن صحَّ أخذ هذه الفائدة من الآية وإلا فكونه خاتم النبيين أمر مجمع عليه، ونصَّ عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] اللهم صلِّ وسلم عليه.



قال الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥]

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢١٥٥)، وأحمد في مسنده (٢٢٧٥٧) من حديث عبادة بن الصامت ﵁، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧).

التَّفْسِيرُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾: لا شك أنَّ ﴿كَانَ﴾ تحتاج إلى اسم وخبر، وكبر تحتاج إلى فاعل، فهل نقول: إن كان اسمها ضمير الشأن مستتر، وكبر عليك إعراضهم خبرها؟ أو نقول: إن إعراضهم تنازع فيه كان تطلبه اسمًا، وكبر تطلبه فاعلًا؟ يحتمل هذه وهذا لكن الأول أوجه، يعني: فإن كان الشأن في هذا الأمر أنه كبر عليك إعراضهم، أي عظم عليك إعراضهم وذلك بما كان في نفسك من الحزن والأسى فحاول أن يهتدوا على يدك.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ يعني: فافعل، ولكن ليس عليك إلا الصبر.

وهذه الجملة قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أتى بعدها جملة شرطية أخرى ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ وهذا من تداخل الجملتين الشرطيتين، فتكون الجملة الثانية في محل جزم جواب الجملة الأولى، وهذا يوجد في القرآن وفي كلام العرب، أما في القرآن فهذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] هذا شرط داخل شرط.

ومنه في قول العرب:

إن تستغيثوا بنا إن تُذعروا تجدوا[1]

فعل الشرط الأول ثم الثاني، قَيْدٌ فيه و(تجدوا) هي جواب الشرط.

المهم: قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ هذه الجملة الأولى شرطيَّة، والثانية: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ جواب الجملة الثانية محذوف والتقدير (فافعل) ولن يمكنك ذلك، فإذا كان لا يمكنك؛ فإنه لا يمكنك أن تأتي بالآيات التي اقترحوها وإذا كان لا يمكنك فلا تحزن عليهم؛ لأن الإنسان لا يحزن إلا على شيء يمكنه أن يفعله ولم يفعله.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عَظُم عليك، وشُقَّ عليك، ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ أي: قدرت على ﴿أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تطلب نفقًا في الأرض، والنفق هو: السرداب الذي يحفر في الأرض ويدخل الإنسان فيه ليصل إلى أعماق الأرض، فتأتيهم بآية، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مصعدًا تصعد به إلى الجو فتأتيهم بآية، فبيَّن الله عزَّ وجلَّ لهم النزول والارتفاع، لا يستطيع أن ينزل في نفق في الأرض فيستخرج الآيات، ولا أن يصعد إلى السماء فيأتي بالآيات، وهذا المعنى واضح. فإذا كان لا يمكنك هذا وهو معلوم للجميع، فإنه لا يمكنك أن تأتي بما اقترحوه من الآيات، كما قال

(١) خزانة الأدب (١١/ ٣٨٢).

الله عزَّ وجلَّ في آية أخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:٥٠].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ لو شرطية، فعل الشرط ﴿شَآءَ﴾ جوابه: (لجمع) لكن أين المفعول في شاء؟ هل نقدره مطابقًا للفظ الجواب، أو نقدره بمعنى آخر؟ قدره بعضهم بقوله: ولو شاء الله هدايتهم لجمعهم على الهدى، وقدره آخرون بقوله: ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم على الهدى، والأنسب الثاني، أن نقدر المحذوف مطابقًا للموجود، وجمعهم على الهدى أعظم من مجرد الهداية؛ لأنهم قد يهتدون ولا يجتمعون، وهذا ينبغي أن نطرده في كل ما كان متشابهًا مثل قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ [البقرة:٢٥٣] ماذا نقدر؟ ولو شاء الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا، فتقدير الشيء مطابقًا للموجود أولى من تقدير شيء غير مطابق ولا نعلم هل الله أراده أم لا، فما بين أيدينا هو المتعين.

إذن ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم؛ لأن القلوب بيد الله عزَّ وجلَّ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:١١٨] أي: على دين الإسلام، ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] لأن الأمر كله بيده عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ نهي مؤكد بنون التوكيد، يعني: ينهاه الله عزَّ وجلَّ نهيًا مؤكدًا ألا يكونن من الجاهلين، والجهل نوعان: جهل سفاهة، وجهل انتفاء علم، والمراد الثاني بلا شك.

مثال الجهل الذي هو السفاهة: قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧] أي: بسفاهة. وليس المراد بالجهالة انتفاء العلم؛ لأن انتفاء العلم يرتفع به الحرج والإثم.

إذن فلا تكونن من الجاهلين بأي شيء؟ أي: من الذين لا يعلمون سنن الله عزَّ وجلَّ في خلقه.

فإن قال قائل: هل يلزم من نهيه تبارك وتعالى نبيه عن أن يكون من الجاهلين أن يكون النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فَعَلَ فِعْلَ الجاهلين؟

الجواب: لا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] فلا يلزم من هذا الشرط أن يقع المشروط.

إذن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: من ذوي الجهل الذين لا يعرفون سنن الله في خلقه، فأنت يا محمد لست جاهلًا حتى يكبر عليك إعراضهم وحتى تحزن لعدم إيمانهم؛ لأن ذلك من

حكمة الله عزَّ وجلَّ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قد عظم عليه إعراض المدعوين إلى الإسلام، وهذا رغبة في هداية عباد الله، وهذا من تمام نصحه للأمة عليه الصلاة والسلام.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان ينبغي له ألا يهون عليه إعراض الناس، بل يكون كبيرًا في نفسه، لكن لا تعصبًا لما هو عليه ولكن من أجل مصلحة الآخرين.

إذا رأينا مثلًا رجلًا عالمًا عابدًا كريمًا لكنه في الأسماء والصفات على غير ما يرام، فهل يشق علينا هذا أو لا يشق؟ لا شك أنه يشق علينا، وإذا نظرنا إليه بعين القدر رحمناه وقلنا: سبحان الله كيف يكون هذا الرجل الفاضل على عقيدة غير سليمة؟! نرحمه لأنه محروم. لكن إذا نظرنا إليه بعين الشرع، فإننا نجادله فإن رجع إلى الحق فهذا المطلوب، وإن لم يرجع فإننا نفعل به كما قال الشافعي رحمه الله: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام).

رجل زانٍ زنى وهو من علية القوم ومن أهل الخير، إذا نظرنا إليه بعين القدر رحمناه ورققنا له، كيف يصدر الزنا من هذا؟ لكن إذا نظرنا إليه بعين الشرع: أقمنا عليه الحد ولا نرأف به، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢] ما قال في قدر الله، قال: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث ـ وإن كان فيه نظر ـ: «أَقِيلُوا لِذَوِي الهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِم إِلَّا الحُدُودَ»(١).

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى قد يُبيِّن الشيء المستحيل بضرب مثل له دون أن يذكره بعينه، وجهه أن الله قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام:٣٥] يعني: فافعل، بدلًا من أن يقول: وإن كان كبر عليك إعراضهم فإنهم لن يؤمنوا؛ لأن هذا هو المتوقع، لكن الله تعالى ضرب مثلًا حتى يكون مقنعًا للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ولغيره أيضًا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن نقول: الملاجئ قسمان: إما نفق في الأرض وإما صعود في السماء، هل يستقيم هذا؟ أو نقول: طلب الشواهد قد يكون من الأرض وقد يكون من السماء، طلب الشواهد بالصحة، صحة ما يقوله الإنسان، الظاهر أن الثاني أولى؛ لأن الله إنما قال له ذلك لا من أجل أن يلجأ ولكن من أجل أن يأتي بما يشهد له، ولهذا قال: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٧٥)، وأحمد في مسنده (٢٥٥١٣) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا بد لكل نبي من آية، وهذا من حكمة الله عزَّ وجلَّ، أرأيتم لو جاء رجل في غير هذه الأمة وادَّعى أنه رسول، وقال أنا رسول، ومنهجي كذا وعقيدتي كذا، وعبادتي كذا، فأطيعوني، بدون أي آية، هل يكون هذا من الحكمة أم لا؟ ليس من الحكمة، ومن كذبه فهو مأجور، وإلا لكان كل كاذب دجَّال يدَّعي أنه نبي أو ربما يدَّعي أنه رب.

إذن الآيات فيها نصر للرسل ورحمة بالمرسل إليهم، حتى يؤمنوا عن يقين.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الهداية والضلالة بيد الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات مرتبة من مراتب الإيمان بالقدر، وهي: المشيئة، أن الله تعالى قد شاء جميع العباد، ومراتب القدر مرت علينا كثيرًا، وهي أربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، مجموعة في قول الشاعر:

عِلْـــمٌ كتابـــةُ مَوْلَانَـــا مَـــشِيئَتُهُ ... وَخَلْقُـــهُ وهْـــوَ إِيْجَـــادٌ وَتَكْـــوِينُ

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: حكمة الله عزَّ وجلَّ في جعل الناس صنفين: مؤمنين وكافرين، وهذا أمر لا بد منه؛ لأنه لولا الكفر لم يعرف قدر الإيمان، ولولا الإيمان لم يعرف قبح الكفر، كما أنه لولا الحلو ما عرف المر، وهذا واضح، يعني: إذا لم يكن هناك أشياء مضادة ما عُرف قدر الأشياء المحمودة.

ثم إنه لولا اختلاف الناس في الإيمان والكفر ما قامت راية الجهاد؛ لأنهم كلهم إما مؤمنون وإما كافرون، فمن يُجاهَد؟! لولا هذا الاختلاف ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس سيكونون كلهم إما على مُنكَر وإما على معروف، لولا هذا الاختلاف ما قامت الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنهم إن كانوا مؤمنين كلهم لم يحتاجوا إلى دعوة، وإن كانوا كافرين ما دعوا، إذن من الحكمة أن الله جعل الخلق صنفين.

لكن قد يقول قائل: إذا كان أحد الناس من الصنف الآخر الكافر أفلا يكون في هذا ظلم له؟ وهذا قد يرد على النفس ما دمنا نقول: إن الكفر بمشيئة الله، وأن الله عزَّ وجلَّ بحكمته قسم الناس إلى قسمين أفلا يقول الكافر: إن هذا ظلم لي؟!

فالجواب: لا كما قال بعض أهل السنة وهو يجادل معتزليًّا لما قال: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عليَّ بالشقاء، فهل أساء إليَّ أم لم يسئ إليَّ؟

فقال له السنيُّ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو فضله فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ ويجيب معناهما واحد، والجملة فيها حصر، طريقه: إنما، يعني: ما يستجيب لدعوتك يا محمد إلا الذين يسمعون، والمراد بالسماع هنا: سماع الانقياد والقبول، وليس سماع الإدراك؛ لأن سماع الإدراك يدخل فيه البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ويدل على ذلك - أي على التفريق بين سماع القبول والإذعان وسماع الإدراك - قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] أي لا يستجيبون وينقادون.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الذين إعرابها: فاعل، ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ هذه جملة مستأنَفَة لا يصح أن تعطف على ما سبق، والموتى: جمع ميت، وهل المراد موتى القلوب أو موتى الأجساد؟ في ذلك قولان للعلماء:

بعضهم قال: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: موتى القلوب وهم الكفار، يبعثهم الله فيجازيهم، وبعضهم قال: الموتى موتى الأجساد، يبعثهم الله ردًّا على الذين ينكرون البعث.

وإذا كانت الآية تحتمل معنيين ليس أحدهما أظهر من الآخر ولا منافاة بينهما، فالقاعدة أن تحمل عليهما جميعًا، فالموتى من هؤلاء الكفار سيبعثهم الله ويجازيهم، والموتى موتى الأجساد الذين فارقت أرواحهم أجسادهم سوف يبعثهم الله، فيكون في الآية تهديد ووعيد ورد على من ينكرون البعث.

وقوله: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يخرجهم من قبورهم يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ثم بعد البعث يُرجعون إلى الله عزَّ وجلَّ ويكون أمرهم إلى الله تعالى، وفي ذلك الوقت ليس هناك مخاصم ولا مجادل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** حصر الاستجابة لدعوة الرسل بالذين يسمعون سماع القبول والإذعان.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كُلَّما صار الإنسان أسمع لكلام الله ورسوله صارت استجابته أقوى، مأخوذ من القاعدة المعروفة: (أن ما عُلِّق على وصف فإنه يزداد قوة بحسب هذا

الوصف الذي عُلِّق عليه الحكم)، ومثال ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦] فكلما كان أقوى كان أخير، وأنفع، وكذلك الأمانة، كلما كان آمن فهو أخير، وهذه القاعدة مفيدة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات البعث وهو - أعني الإيمان بالبعث - أحد أركان الإيمان الستة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبريل حينما قال: «**أخبرني عن الإيمان**». قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

٤ - **ومن هذه الفوائد**: أن هؤلاء الكفار بمنزلة الموتى، وذلك لأنهم لا ينتفعون بما يسمعون، كما أن الميت لا ينتفع بما يسمع، فكذلك هؤلاء الكفار.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تهديد أولئك الكفار الذين لا يسمعون بأن الله سيبعثهم ثم يجازيهم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: قدرة الله عزَّ وجلَّ الكاملة، وذلك بالبعث، والبعث الذي يكون ليس يأتي كالإحياء شيئًا فشيئًا، فتجد البشر وغير البشر يخرج صغيرًا ثم ينمو حتى يتكامل، البعث يبعثون كلهم في لحظة واحدة، اقرأ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٤] ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المرجع في النهاية إلى الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا الرجوع فيه حصر، طريقه تقديم المعمول في قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وفائدة هذا التقديم - أعني تقديم المعمول في هذه الآية - لفظية ومعنوية:

أما المعنوية: فهي إفادة الحصر وأنه لا مرجع إلا إلى الله.

وأما اللفظية: فلتتناسب رءوس الآيات؛ لأن تناسب رءوس الآيات من البلاغة، انظر إلى سورة طه، كلها آخرها الألف إلا قليلًا، لما جاء ذكر موسى وهارون قُدِّم هارون على موسى لتتناسب الآيات، وإلا فمن المعلوم أن موسى أفضل من هارون.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧]

❁ التفسير ❁

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي: المعاندون المكذبون للرسول، المتعنتون، قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهم يريدون بذلك الآيات التي اقترحوها، مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء:٩٣] ومع ذلك يقولون: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣] وغير ذلك من الآيات التي اقترحوها.

ولكن من حكمة الله عزَّ وجلَّ أنه قطع هذا الباب وسدَّه، أعني: باب الاقتراح على الله عزَّ وجلَّ، فإنما الآيات عند الله سبحانه وتعالى، هو الذي يأتي بها وليس اقتراح الخلق، والخلق إذا اقترحوا آية معينة ثم أتوا بها فلم يؤمنوا هلكوا، هذه سنة الله عزَّ وجلَّ، ولا يرد على هذا أن قريشًا قالوا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أرنا آية يا محمد فأشار إلى القمر فانشق نصفين[1]، قال أهل العلم: إنما لم يهلكوا؛ لأنهم لم يقترحوا آية معينة، ولو اقترحوا آية معينة ثم جاءت ولم يؤمنوا لهلكوا، هكذا قرر أهل العلم رحمهم الله.

وقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ آية: أي: علامة تدل على صدقه وصحة رسالته.

وهنا نقف لنبين أن بعض العلماء وما أكثرهم! يعبرون عن آيات الرسل بالمعجزات، وهذا نقص عظيم؛ لأننا لو سَّميناها المعجزات لورد علينا ما يفعله السحرة، فإن السحرة يفعلون ما يعجز عنه البشر، لكن آية تحدد المعنى وهو: العلامة على صدقه وصحة رسالته، ولذلك لا تجد في القرآن أن الله عبَّر عن آيات الرسل بالمعجزات، أبدًا، إنما يعبر عنها بالآيات.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعنون بذلك: الله عزَّ وجلَّ، وفي هذا التعبير تكبُّر وتعالٍ، حيث قالوا: من ربه، ولم يقولوا: من الله، كأنهم في شق والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع الله في شق آخر، ما قالوا: من ربنا، ولا: من الله.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ ليس بعاجز على أن ينزل آية، بل هو قادر، لما طلب الحواريون من عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء، هل قدر الله عليها؟ نعم، قدر الله عليها - على قول من يقول إنها نزلت -، وكذلك آيات الرسل الحِسِّية والمعنويَّة، كلها من عند الله، فهو قادر على أن ينزلها عليهم، لكنه لا يريد أن يأتي بما يطلبه هؤلاء؛ لأنه لو جاءت الآيات حسب الاقتراح لكان كل واحد يقترح ما يرى أنه آية، وقد يقترح ما يرى أنه آية وليس بآية، لذلك نقول:

---

(١) تقدم تخريجه.

الآيات عند الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ ولكنه سبحانه لا يريد، وإذا لم يرد لم يكن.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١] أي لا يعلمون أن الله عزَّ وجلَّ هو الذي ينزل الآيات، وهو قادر على أن يأتي بآية، وقادر على ألا يأتي بآية، فهم جهلة، ولو كان عندهم علم لعلموا أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يمكن أن يأتي بآية، بل الذي يأتي بها هو الله.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** تعنت هؤلاء المكذبين حيث احتجوا بهذا، أن الله لا يُنَزِّل عليهم آية، ولكن هل هذه الدعوة حق أو باطل؟ والله إنها باطل، آيات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشاهدة معلومة، من آياته العظيمة: هذا القرآن الذي جعل كبار قريش يتسللون لِوَاذًا في الليل ليستمعوا قراءة النَّبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأنها سحرت ألبابهم، وأعجبتهم إعجابًا كثيرًا، لكنهم معاندون.

كذلك آيات كثيرة حِسيَّة مثل ما حصل لعمه أبي طالب من البركات في أهله وماله بسبب حضانته للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كذلك أيضًا صد أعدائه عنه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدًّا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدًّا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس:٩]، والآيات كثيرة يعرفونها لكنهم مستكبرون.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** استكبار هؤلاء وترفعهم حيث قالوا: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لم يقولوا: من ربنا، ولم يقولوا: من الله، كأنهم في جانب والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم والله في جانب آخر.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** انتصار الله عزَّ وجلَّ للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث يدافع عنه، لما قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لا شك أن هذا يوجب ضغطًا على الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم فالله تعالى يجيب عنه انتصارًا له: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات قدرة الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ وهذه القدرة قدرة كاملة، لا يلحقها شيء من العجز، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] فلكمال علمه وقدرته لا يعجزه شيء؛ لأن العجز عن الشيء سببه إما الجهل وإما الضعف، فالله عليم قدير.

وهذه القدرة تتعلق بكل شيء، فهو على كل شيء قدير، ولا تبحث كما بحث المتكلمون، المتعمقون، المتنطعون، هل تتعلق بالممكن والواجب والمستحيل، أو بالممكن والواجب فقط دون المستحيل، هذا كلام فارغ، الله عزَّ وجلَّ أطلق قدرته ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ﴾.

هناك عبارة لبعضهم يقولون: خصَّ العقلَ ذَاتَهُ فَلَيْسِ عليها بِقَادِر!! وهذا كلام باطل، يعني: إن العقل دلَّ على أن الله لا يقدر على نفسه، وهذا يعني: تعطيل الله عزَّ وجلَّ عن كل فعل، يعني: ما يقدر أن يفعل أي شيء فيما يتعلق بنفسه، ونحن نقول: إن الله على كل شيء قدير، فإذا قال قائل: هل تقول إن الله يقدر على أن يهلك نفسه؟

فالجواب: إن الله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه الكمال من كل وجه، والهلاك نقص، فلا يمكن، وهذا السؤال غير وارد، ولكن المتكلمين يوردونه حتى يصلوا إلى أن القدرة لا تتعلق بالمستحيل، يذكر أن الشيطان يضع كرسيه على البحر، ويرسل جنوده، يضلون الناس، فإذا مات العابد لم يكترث بذلك، وإذا مات العالم فإنه يفرح فرحًا عظيمًا، فقال له جنوده: كيف تفرح هذا الفرح بموت العالم، والعابد لا تكترث به؟! قال: لأن العالم أضر علي من العابد، العابد إذا مات لم يفقده إلا نفسه، والعالم تفقده الأمة، العالم إذا اهتدى هدى الله به الأمة، والعابد في مسجده، وإن شئتم ضربت لكم مثلًا.. ويقال إنه أرسل إلى العابد وقال له يا فلان: هل يستطيع الله عزَّ وجلَّ أن يجعل السموات والأرض كلها في بيضة؟ العابد قال: لا. وذهب إلى العالم فقال له: هل يقدر الله أن يجعل السموات والأرض في بيضة؟ قال: نعم، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون! فجاء المندوب وهو يقول: انظروا إلى هذا العابد كفر وهو لا يعلم، أنكر قدرة الله عزَّ وجلَّ، وذاك العالم آمن قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

على كل حال: قصدي من هذه المسائل أن التعمق فيها خطأ، أثبت ما أثبته الله لنفسه، وهو أن الله على كل شيء قدير، وأعرض عما سوى ذلك.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن أفعال الله عزَّ وجلَّ مقرونة بمشيئته، بمعنى: أن ما لم يشأه لم يكن وإن كان قادرًا عليه، لقوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ ولكنه لم يشأ.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن أكثر هؤلاء المنكرين المكذبين لا يعلمون حقيقة الأمر؛ لأنهم لم يتفكروا، ولو تفكروا لعلموا، لكنهم معرضون.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]

التفسير

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ المراد بالدابة: كل ما يدب

على الأرض، بأرجل متعددة، أو أربع، أو ثنتين، أو يزحف على بطنه، أي: دابة في الأرض، وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ فذكر المخلوقات الأرضية والمخلوقات الهوائية، التي تسبح في الجو، ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ إلا أمم أمثالكم.

الطيور على اختلاف أنواعها، وكذلك الدواب على الأرض باختلاف أنواعها كلها أمم مثلنا، تختلف في أجناسها وألوانها، وقدراتها، وأرزاقها، ولغاتها، كما أننا كذلك.

وقوله: ﴿طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ هذا من باب التوكيد؛ لأنه من المعروف أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه كما إذا قلت: يمشي برجليه، أو ينظر بعينيه، أو يسمع بأذنيه، وما أشبه ذلك فهو من باب التوكيد، وأما دعوى بعضهم أن هذا قيد تخرج به الطائرات، فإن الطائرات تطير لكن ليس بجناحين فهذا خطأ؛ لأنه شيئًا لم يكن معروفًا في ذلك الوقت لا يصح الاحتراز منه؛ لأنه غير وارد أصلًا، فالصواب أن قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ من باب التوكيد.

على أني أقول: إن الطائرة مركبة على الطير، فيها جناح يمين ويسار يمنعها من التأرجح، فيها أيضًا هواء، والطير يطير بالهواء، وفيها أيضًا انخفاض العجل عند النزول وارتفاع عند الطلوع، المهم أن الذي سمعنا وقرأنا ورأينا في الصورة أن هذه الطائرات مركبة على حسب الطيور.

وقوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ هذه الأمم ـ سبحان الله ـ متنوعة، متفرقة، مختلفة في الأحجام والألوان، والقوى، وفي كل شيء. أيضًا مختلفة في اللغات والألسن، هل تعرف البقرة ما تقول به الهرة من الصوت؟! لا تعرف، وكذلك العكس، لكن البقرة تعرف لغة البقرة، وهرة مع هرة تعرف، وتأمل ـ سبحان الله ـ تجد الهرة لها أصوات مختلفة، إذا كانت تريد الفحل فلها صوت خاص، إذا كانت تريد أن تدعو أولادها الصغار لها صوت خاص، قد تدخل على المكان ثم تنعق لأطفالها فإذا هم مجتمعون عليها ـ سبحان الله ـ كذلك غيرها مثلها، كل واحد من هذه الأمم لا يعرف لغة الأمم الأخرين، ثم إن الله عزَّ وجلَّ أعطى كل نوع من هذه الأمم هداية يهتدي بها كيف يعيش، ويُقال: إن أذكى ما يكون النمل، أعطاه الله ذكاءً عجيبًا، هو من الحيوان الذي ينظر إلى المستقبل، فإذا جاء وقت الحب جمع الحب في جحوره، وماذا يصنع؟ يأكل رأس الحب من أجل ألا تنبت؛ لأنها لو نبتت فسدت عليه، ثم إذا جاءت الأمطار ووصل المطر إلى الحب خرج به من مكانه، ينشره لئلا يفسد، ولاتقاء رائحته، وهذا مُشاهد ـ سبحان الله ـ.

وسأل سائل يقول: هل يجوز إذا رأيت هذا الحب الذي يخرجه النمل أن آخذه؟

الجواب: هل نقول: يجوز أخذه عند الضرورة فقط؛ لأن حرمة الآدمي أعظم من حرمة النمل، ثم نقول أيضًا: يجوز، إذا كان النمل يمكن أن يتغذى بغيره؛ لأن النمل في أيام الشتاء ما تخرج، تبقى في جحرها، فهي محتاجة، فنقول: الذي أراه في هذه المسألة: إذا كان الآدمي مضطرًا لذلك فهو مقدم، وإذا لم يكن مضطرًّا نظرنا: إذا كان يمكن أن تجلب طعامًا غيره فلا بأس أن يأخذه،

وإلا فيبقيه له، لأني أخشى أن يكون هذا من جنس حبس الهرة التي دخلت النار امرأة بها، لا هي أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض[1].

نظير ذلك أيضًا: وجدت مع هرة لحم جاءت بها من الجيران، هل لك أن تأخذه من هذه الهرة؟ يؤخذ من الهرة ويرد إلى صاحبه، لاسيما إذا كانت دجاجة وهي حية، أنقذها وأعطها للجيران.

المهم أن هذه الدواب أمم أمثالكم ولها عجائب، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «مفتاح دار السعادة» العجب العجاب من هذه الأمم.

وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ فرطنا يعني: أهملنا، والمراد بالكتاب: اللَّوح المحفوظ، وليس الكتاب العزيز، الكتاب العزيز قال الله فيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] فالمراد بالكتاب هنا: اللوح المحفوظ، يعني: ما أهمل الله شيئًا إلا كتبه في اللوح المحفوظ.

ولا يشكل عليك أن تقول: كيف يكتب كل شيء حتى أصناف الدواب؛ لأننا نقول: الواجب على الإنسان أن يؤمن بما أخبر الله به سواء أدركه عقله أم لم يدركه، ولو كان الإنسان لا يؤمن إلا بما أدركه عقله لم يكن مؤمنًا حقًّا، فكل ما أخبر الله به من هذا وغيره فالواجب علينا أن نؤمن به ولا نعترض ولا نورد سواء أدركناه بعقولنا أم لم ندركه.

على أنه وجد الآن من صنع البشر أشياء صغيرة تحتمل كلمات كثيرة جدًّا وهي من صنع البشر، هذه الأقراص المدمجة تحمل كثيرًا جدًّا من الكلمات، وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (مِنْ) هذه: زائدة للتوكيد، وليعلم أنه ليس في كتاب الله تعالى شيء زائد لغير معنى أبدًا؛ لأن القرآن لفظ ومعنى، لكن قولنا زائد بمعنى الزيادة الإعرابية، يعني: زائد إعرابًا، أما معنى فلا.

يعني: كل شيء، فإن الله تعالى كتبه في هذا اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ سبحان الله، يعني: ثم بعد أن تنتهي الدنيا إلى ربهم - الذي خلقهم عزَّ وجلَّ وكتبهم في اللوح المحفوظ - يحشرون أي: يجمعون.

ولا تتعجب أيضًا تقول: كيف تحشر هذه الدواب والسباع والبهائم والطيور وغيرها، لا تستغرب، الواجب عليك أن تصدق، والمسألة فوق ما يطيقه العقل، كلهم يحشرون إلى الله، كلهم يقتص للمجني عليه من الجاني، حتى الشاة التي ليس لها قرون تقتص من الشاة التي لها قرون إذا نطحتها في الدنيا - سبحان الله - كمال العدل، ولهذا يظهر يوم القيامة من تمام عدل الله عزَّ وجلَّ ورحمته وغضبه أيضًا ما لم يكن سابقًا، حتى يظهر تمام العدل بين الخلائق جميعًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يجمعون بعد الحياة.

---

(١) رواه البخاري (٣٣١٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أنه ما من حيوان يدبُّ على الأرض أو يطير في السماء إلا وهو مكتوب عند الله عزَّ وجلَّ.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم جاء بالأسلوب العربي، بمعنى: أنه جرى على ما ينطق به العرب في لغتهم، فإذا كان من عادة العرب مثلًا أن يؤكدوا شيئًا - بما يزيده قوة - جاء به القرآن.

ولذلك تجدون في القرآن الكريم كثيرًا من الإقسامات على الشيء ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج:١] وما أشبه ذلك، هل هذا لشك فيما أخبر الله به؟ لا؛ لأن الله تعالى صادق سواء أقسم أم لا، لكن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فجرى في التعبير على ما كان العرب يعبرون به.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه، فهو بالنسبة لعظمة الله عزَّ وجلَّ كالنملة، أمم أمثالكم، إذن لا ترفع، ولا تتعالى، ما أنت إلا مثل هذه الدواب، بالنسبة لعظمة الله عزَّ وجلَّ، وإن كان الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠] لم يُفضِّل بني آدم على كل ما خلق الله بل على كثير مما خلق الله، وما يتوهمه بعض الناس من أن بني آدم هم أعظم المخلوقات فخطأ، لماذا؟ لقوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ ما قال على ما خلقنا!

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله عزَّ وجلَّ لم يهمل شيئًا في اللوح المحفوظ، كل شيء كتبه، لقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾؛ ولأن الله تعالى أمر القلم أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[1].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مآل هذه المخلوقات الطائرة والزاحفة إلى الله عزَّ وجلَّ، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]

التفسير

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ الجملة هذه معطوفة عطف جمل، قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

(١) تقدم تخريجه.

بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي قالوا: إنها كذب، ولم يصدقوا بها، جاءوا للآيات الكونية وقالوا: هذه سحر، كما قال فرعون حين رأي آيات موسى قال: هذه سحر، وكما قال الله عزَّ وجلَّ عن قريش: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢] فكذبوا بالآيات الكونية.

وكذبوا كذلك بالآيات الشرعية، ووصفوا الرسل بالكذبة، بالشعراء، بالكهنة، بالمجانين، بالمسحورين، وما أشبه ذلك، وهذا التكذيب بالآيات الشرعية.

هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ثلاث أحوال لهم:

الأولى: صمٌ في آذانهم لا يسمعون الكتاب سماع انتفاع، فانسد طريق الحق عنهم من جهة السماع.

الثانية: بكم جمع أبكم وهو الذي لا ينطق، فلا ينطقون بالحق، ولكنهم ينطقون بالباطل.

الثالثة: في الظلمات لا يبصرون، الظلمات محيطة بهم من كل جانب؛ لأن في تدل على الظرفية، والظرف محيط بمظروفه، فانسدت عليهم أبواب العلم والمعرفة: السمع، والبصر، والنطق - والعياذ بالله -.

وفي هذا قال الله عزَّ وجلَّ في سورة البقرة: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

وقوله: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ الجملة شرطية، فعل الشرط: يشأ، وجوابه: يضلله، أي: من يشأ الله إضلاله يضلله؛ لأن الأمر أمره عزَّ وجلَّ، لا معقب لحكمه، ولا اعتراض عليه، ولا يسأل عما يفعل، فنسأل الله أن يهدينا فيمن هدى.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ فيعمى عن الحق ولا يصل إليه، ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ونقدر هنا: ومن يشأ هدايته، ﴿يَجْعَلْهُ﴾ أي: يصيره ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي على طريق مستقيم لا عوج فيه، وهو الإسلام .

الفوائد:

١ - **من هذه الفوائد:** بيان حال الذين كذبوا بآيات الله، وأنه لا سبيل إلى هدايتهم؛ لأنهم صم لا يسمعون الحق سماع انتفاع، وكذلك في الظلمات، وأنهم لا ينطقون بالحق.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من شاء الله هدايته اهتدى، ومن شاء إضلاله ضل، ويتفرع على هذه الفائدة: أن يلجأ الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى بطلب الهداية والاستعاذة من الغواية؛ لأن الأمر بيد الله.

فإن قال قائل: هل هذه المشيئة مشيئة مجردة، بمعنى: أنه من شاء أن يهديه هداه، ومن شاء أن يضله أضله، بدون أي حكمة أو أنها مشيئة مقرونة بالحكمة؟

فالجواب: الثاني، أنها مشيئة مقرونة بحكمة، وهذا هو المتعين؛ لأن جميع أفعال الله تبارك

وتعالى وأحكام الله كلها مقرونة بالحكمة، انظر في أحكام الله: قال الله تعالى في المواريث: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١]، وقال تعالى في الأمور القدرية: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠] فلا مشيئة مجردة في أفعال الله ولا في أحكامه، بل هي مقرونة بالحكمة.

ولكن: هل هذه الحكمة معلومة للخلق؟

الجواب: قد تكون معلومة، وهذا - والحمد لله - هو الأكثر، وقد تكون مجهولة لبعض الناس دون بعض، وقد تكون مجهولة لكل الناس، لا يحيطون بالله علمًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الصراط المستقيم هو دين الإسلام، لا اعوجاج فيه ولا انحراف فيه، ولا شقاء فيه، مستقيم، ويضاف إلى ذلك: ولا تناقض فيه، لأنه لو كان فيه تناقض لم يكن مستقيمًا، إذا قال قائل: هل للإنسان حجة على الله إذا أضله وهدى آخرين؟ فالجواب: لا؛ لأن الهداية فضل من الله عزَّ وجلَّ، وفضل الله يؤتيه من يشاء، وأيضًا الإضلال لا بد أن يكون مبنيًا على حال العبد، لقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] ولقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩] فالحاصل أن الله تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء لحكمة، ولا بد أن يكون الإضلال من جرَّاء فعل العبد.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠]

التفسير

قوله: ﴿قُلْ﴾: أي: يا محمد، وإن شئت فقل: إن الخطاب عامٌّ لكل من يصح خطابه، ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ قال بعض العلماء: أرأيت بمعنى: أخبرني، والتاء للخطاب فاعل، والكاف للخطاب توكيدًا وليس لها محل من الأعراب، والميم علامة الجمع، وأرأيت تحتاج إلى مفعول أول ومفعول ثاني، لأن الرؤية هنا علمية، قالوا: المفعول الأول: محذوف، والمفعول الثاني: الجملة الاستفهامية: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ في محل نصب، وهذا المحذوف يقدر بما يناسب الحال، فيكون التقدير هنا: (أرأيتكم حالكم عند الشدة) أغير الله تدعون؟ من غير الله تدعون عند الشدة؟ الجواب: لا ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:٤١]، إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين، فإذا وقعوا في الشدة عرفوا الله.

والعجب أن المشركين إذا وقعوا في الشدة دعوا الله، وأن بعض طوائف هذه الأمة إذا وقعوا في الشدة دعوا غير الله، دعوا عبد القادر الجيلاني، دعوا علي بن أبي طالب، دعوا الحسين، وما أشبه ذلك، فصار حال المشركين خيرًا من حال هؤلاء.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أن غير الله يجيبكم، ولكن إذا كانوا يدعون الله عن الشدة صاروا كاذبين في دعواهم أن هذه الآلهة تنجيهم.



❁ قال الله تعالى:

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٤١]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، إبطال أنهم يدعون غير الله، وإياه: مفعول مقدم لتدعون، وتقديم المعمول يفيد الحصر، المعنى: بل لا تدعون إلا الله، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ يكشف بمعنى: يزيل، كما تكشف المستور فتزيل ستره حتى يبدو ويظهر، ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما دعوتم به إلى الله عزَّ وجلَّ، أي: يكشف الدعاء الذي أنهيتموه إلى الله عزَّ وجلَّ، وقوله: ﴿إِن شَاءَ﴾ وإنما قال: إن شاء لِئَلَّا يطمع هؤلاء في كشف الكربة، فإذا لم تكشف احتجوا على الله، فإذا قال إن شاء، صارت المسألة تحت مشيئة الله، قد يشاء الله عزَّ وجلَّ كشف هذه الكربة، وقد لا يشاء حسب ما تقتضيه حكمته تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (تنسون) بمعنى: تذهلون عنه، لشدة ما وقع بكم، تنسى كل شيء، وقيل: إن النسيان هنا بمعنى: الترك، أي: أنهم يدعون الله عزَّ وجلَّ بحضور قلب، وذكر، وهما متلازمان في الظاهر؛ لأن الإنسان عند الدهشة ينسى معبوداته؛ ولأنه أيضًا عند الشدة يعتقد أن معبوداته هؤلاء لا ينفعون، فهي صالحة للأمرين، وفسرها كثير من المفسرين بأن النسيان هنا بمعنى الترك، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة:١٤] وقال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] والنسيان المضاف إلى الله هو الترك في مثل هذا، أما في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] فالمراد بالنسيان هنا: أن يغيب عنه ما كان ذاكرًا له من قبل، لكننا نريد النسيان المثبت لله يجب أن يكون بمعنى: الترك لا بمعنى الذهول عن المعلوم، أما المنفي عن الله فهو الذي يكون بمعنى الذهول عن المعلوم.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تقرير الإنسان بما لا يمكنه دفعه، أن يُقرر بشيء يُقِرُّ به لا يمكنه دفعه، وذلك في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾؛ لأنهم في هذه الحال لا يدعون إلا الله، فإذا كان كذلك، فلماذا يُخلصون في الشدة، ويشركون في الرخاء؟!

وقوله: ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ المراد: أن الله قد لا يُعذِّب هؤلاء المكذبين ويؤخِّر ذلك إلى قيام الساعة، يعني: لا بد إما أن يصيبهم العذاب في الدنيا وإما أن يصيبهم في يوم القيامة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المكذبين عند الضرَّاء لا يلجئون إلا إلى الله، لقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا، بل ويعلم عزَّ وجلَّ أنه سيكفر إذا نجا؛ لأن الله ينجيه من الكرب وهو يعلم أنهم إذا نجوا سوف يشركون، لكن وقوعهم في الشدة تقتضي رحمة الله عزَّ وجلَّ أن يجيب دعاءهم.

ومثل ذلك المظلوم، فإن الله يجيب دعوته ولو كان كافرًا، فهذان صنفان تجاب دعوتهما: المضطر، والثاني: المظلوم، يجيب الله تعالى دعوته، أما المضطر فلأن رحمة الله سبقت غضبه، فيحمي المضطر ويجيب دعوته، وأما المظلوم: فلكمال عدل الله عزَّ وجلَّ أن يجيب المظلوم انتصارًا له على الظالم.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يصرف السوء إلا الله عزَّ وجلَّ، ويتفرَّع على هذا أنه إذا أصابك السوء فلا تلجأ إلا إلى الله عزَّ وجلَّ.

وهل هذا اللجوء فطري أم هو شرعي عقلي؟

الظاهر: الثاني؛ لأن بعض الذين يصيبهم الضُرّ لا يلجئون إلى الله، كالرافضة مثلًا إذا أصابهم الضر يلجئون إلى أئمتهم، علي بن أبي طالب أو الحسين أو غيرهما من أئمتهم، ونحن لا ننكر أن لأئمتهم الحقيقيين درجة عند الله عزَّ وجلَّ على حسب عملهم، ولكننا ننكر أن يدعى هؤلاء من دون الله عزَّ وجلَّ.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحذر من ممارسة السيئات، فإن الإنسان ربما يتوب إلى الله عزَّ وجلَّ ثم يعود، ولهذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتنسون هنا بمعنى: تتركون يعني: أن الآلهة التي كنتم تشركون بها تتركونها، وقد ذكرنا في التفسير أن المعنى يحتمل الترك أو الذهول لشدة ما نزل بهم.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ما أكثر ما يرد في القرآن الكريم مثل هذا التعبير، لقد قال أهل العلم: واللام موطئة للقسم يعني: أنها تمهد للقسم فيكون قبلها قسم مقدر، واللام موطئة للقسم مؤكدة له، وقد مؤكدة أيضًا، فيكون في هذا مؤكدات ثلاثة.

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: أرسلنا رسلًا إلى أمم من قبلك، وأمم جمع أمة، والأمة في القرآن الكريم ترد على معانٍ متعددة، ترد بمعنى: الإمام، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل:١٢٠] أي: إمامًا، وترد بمعنى: الوقت، مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] أي: بعد زمن، وترد بمعنى: الطائفة كما هنا، أي: طائفة وشعب، وما أشبه ذلك.

وهل ترد بغير هذا؟ ترد بمعنى رابع وهو: الدين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخرُف:٢٢] أي: على ملة.

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لأن كل الأمم التي أرسلت إليها الرسل كلها قبل الرسول ﷺ؛ لأنه خاتمهم.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أخذناهم بالبأساء، الفاء: عاطفة، وهل هي عاطفة على إرسال الرسل بمعنى: أن الرسل أرسلوا ليؤخذ هؤلاء بالبأساء والضراء؟ لا، لكن في الآية حذفًا تقديره: فكذبوا أو كفروا أو ما أشبه ذلك، وهذا يُسمى إيجاز حذف؛ لأن الإيجاز عند البلاغيين نوعان: إيجاز قَصْر: وهو أن تكون الكلمات القليلة تحمل معاني كثيرة، وإيجاز حذف: وهو أن يكون في الكلام القليل شيء محذوف يدل عليه السياق، وهنا لا شك أن في هذا الكلام شيئًا محذوفًا والتقدير: (فكذبوا).

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ البأساء : يعني الشدة، والضراء: التضرر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ لعل هنا: للتعليل، أي لأجل أن يتضرَّعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، ولكن هل حصل هذا؟



❁ **قال الله تعالى:**

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ ولولا هنا بمعنى: (هلَّا) يعني: فهلا إذ جاءهم البأس تضرعوا، الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: صَلُبت ولم تَلِنْ، وبقوا على ما هم عليه، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ زين بمعنى: حَسَّنَ لهم ما كانوا يعملون يعني: من المعاصي والكفر والشرك، ولم يقتصر على تهوين الأمر في قلوبهم، بل زينه لهم، وزين لهم السيئات، والشيطان المراد به: الجنس، وليس المراد: شيطانًا واحدًا معينًا بل الجنس، كما تقول: الإنسان يراد به الجنس.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]

❁ التفسير ❁

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ﴿نَسُواْ﴾ بمعنى: تركوا، وأعرضوا عما ذكروا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني: من نعيم الدنيا، فتح الله لهم أبواب كل شيء من نعيم الدنيا، من الرزق والأمن والرخاء وغير ذلك من أنواع الترف.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: فرح بطر ومرح، ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: بما أعطوا مما فتح الله عليهم ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أخذناهم بالعذاب، ﴿بَغْتَةً﴾ أي: شيئًا مباغتًا لم يطرأ لهم على بال لأنهم انغمسوا في الترف ونسوا العذاب.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ إذا هذه: فجائية، والمعنى: فاجأهم الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

فوائد الآيات الثلاث:

١ - **من فوائد الآية الأولى:** إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل، وهذا كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

ومن تمام الحجة بإرسال الرسل أن الرسل أتوا بلسان قومهم أي: بلغة قومهم الذين أرسلوا إليهم، وذلك من أجل أن يفهموا الحجة، فيتفرع على هذا أنه لا تقوم الحجة بمجرد البلاغ حتى يفهمها المرسل إليهم، وإلا فما الفائدة؟ إلا أنه يجب على من بلغه ولم يفهم أن يبحث، وهذه النقطة الأخيرة ربما تكون سدًّا لعذرهم، إذا قالوا: ما فهمنا، نقول: يجب عليكم أن تبحثوا، لكن أحيانًا يتعذر البحث لكونهم لا يجدون من يثقون به فيبقون جاهلين.

٢ - **ومن فوائدها:** رحمة الله تبارك وتعالى بالخلق، حيث أرسل إليهم الرسل لإقامة الحجة ولبيان المحجة أي: الطريق، فلولا الرسل ما عرفنا، لولا أن النبي ﷺ بين لنا كيف نتوضأ ما عرفنا، كيف نصلي، ما عرفنا ... إلخ، فإرسال الرسل من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

٣ - **ومن فوائدها:** حذف السبب وذكر المُسَبَّب والنتيجة ليكون ذلك أشد وقعًا وهيبة في قلب المخاطب؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ ولم يذكر التكذيب، حتى يكون أشد ويبحث الذهن: لماذا أخذوا؟

٤ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يبتلي بالبأساء والضراء لكن لحكمة، لا لمجرد إلحاق الضرر بالخلق، ما هي الحكمة؟ بيَّنها في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وإلا فإن الله لا يمكن أن يريد مجرد الإضرار، بل كل ما ضر الناس من تقديرات الله فالمراد به مصلحة الخلق.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الأخذ قد يكون بالبأساء وقد يكون بالضراء، قد يكون بالشدة التي يتأذى بها الإنسان بدون ضرر، وقد يكون بالضرر، فمثلًا: الخوف والجوع وما أشبه ذلك هذا شدة، المرض المباشر للشخص: هذا ضرر، فالأخذ إما هذا وإما هذا.

٦ - **ومن فوائدها:** إثبات الحكمة في أفعال الله، تؤخذ من قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وثبوت الحكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعاله وفي شرعه أمر معلوم لكل ذي عقل؛ لأن كون الأفعال والأحكام تصدر عن حكمة يدل على كمال الفاعل والمشرِّع، ولكن هل كل فعل أو حكم جاء من عند الله يكون معلومًا لنا حكمته؟ الجواب: لا؛ لأن عقولنا أقصر من أن تحيط بحكمة الله عزَّ وجلَّ، لكن نعلم علم اليقين أن ذلك لحكمة، ولهذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة: ما بال الحائض تقضي الصوم

ولا تقضي الصلاة؟ ما ذهبت تعلل فتقول الصوم لا يأتي في السنة إلا مرة وقضاؤه سهل، والصلاة تأتي في اليوم والليلة خمس مرات فقضاؤها صعب، والصوم لا نظير له في السنة، يقوم مقامه، والصلاة لها نظير، إذا لم تصلِّ اليوم صلت غدًا... إلخ. ما قالت هذا، بل قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة[1]. فجعلت مجرد الحكمة هو أمر رسول الله ﷺ بذلك، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يؤمن بأن جميع أفعال الله وجميع شرائعه كلها لحكمة، لكن قد نعلم وقد لا نعلم.

الفقهاء رحمهم الله يعبرون عن الشيء الذي لا تُعلم حكمته بأنه تعبُّدي، بمعنى أنه ليس علينا إلا أن نتعبد به لا أن نعلم حكمته، وأحيانًا يقولون على الشيء تعبدي وهو معلوم الحكمة، وأحيانًا يكون القول صوابًا.

ومن هذه الأمة من أنكر الحكمة وقال: إن الله عزَّ وجلَّ يفعل ما يشاء لمجرد المشيئة ويحكم ما يشاء بمجرد المشيئة!! وهذا غلط، ونقص، قالوا: لأنه لو فعل لحكمة لكان ذلك لغرض، وكونه يفعل لغرض نقص، ولهذا من عباراتهم الفاسدة الحسنة منظرًا أو مسمعًا: إن الله مُنَزَّه عن الأعراض، والأبعاض، والأغراض!! أما الأعراض: فمرادهم بذلك ما يعرض للفعال من فعل أو ترك أو نحو ذلك، ولهذا ينكرون الاستواء على العرش، وينكرون النزول إلى السماء الدنيا، والأبعاض: يقصدون بها الوجه واليدين وما أشبهها، والأغراض: يريدون بها الحكمة، فيقولون: لو كانت أفعاله لحكمة أو شرائعه لحكمة لكان له غرض، والله تعالى مُنَزَّه عن الأغراض، والجواب عن هذا سهل: هل الغرض الذي تتطلبه الحكمة هل هو لمصلحة الله أو لمصلحة الخلق؟ الثانية قطعًا، وإلا فإن الله يقول: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمَر:٧] فهذه الحكمة التي تضمنها الفعل أو الشرع أو الحكم هذه لمصلحة الخلق، وحينئذ تكون كمالًا.

٧ - ومن فوائد الآية الثانية: وجوب التضرع إلى الله عزَّ وجلَّ، والتضرع: بمعنى اللجوء والإنابة إلى الله تعالى والقيام بما يجب له من عقيدة أو قول أو عمل.

٨ - ومن فوائدها: بيان شدة قسوة هؤلاء المعذَّبين، أنهم لما جاءهم العذاب ليتضرعوا صار أمرهم العكس، بل زاد ذلك قسوة لقلوبهم، وكان الذي ينبغي أن يتضرعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا قد يقع من الإنسان، ألَّا تزيده البأساء والضراء إلا قسوة في القلب، وسخطًا على الله عزَّ وجلَّ والعياذ بالله، وشعورًا بما لا ينبغي فإن بعض الناس إذا ابتلوا ببلاء قالوا: لماذا يظلمني؟ لماذا يصيبني بما لم يصب به غيري؟! ثم يقسو قلبه، والعياذ بالله، ومن ثم وجب الصبر على من أصيب

(١) رواه البخاري (٣٢١) ومسلم (٣٣٥)، وأبو داود (٢٦٣)، والترمذي (٧٨٧)، والنسائي (٢٣١٨)، وابن ماجه (٦٣١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

بمصيبة، حتى لا يقسو قلبه، فيقال: أنت عبد لله، أليس كذلك؟ والعبد خاضع لفعل السيد، والله عزَّ وجلَّ يفعل بعبده ما يشاء، كما أنه يفعل مثلًا في السماء ما يشاء، وفي الأرض ما يشاء، وفي الرياح ما يشاء، كذلك أنت، أنت خلق من المخلوقات، يفعل بك ما يشاء، لكن عليك الصبر عند الضراء والشكر عند السراء.

ومع ذلك ـ والحمد لله ـ الضراء التي تصيب الإنسان تكون تكفيرًا لسيئاته، وما أكثر السيئات، أي شيء يصيبك حتى الشوكة إذا أصابتك فإنها تكفر السيئات[1]، فإن احتسبت أثبت ثواب الصابرين، فلم يفرط الله تبارك وتعالى بشيء فيما ينفع الخلق.

٩ - ومن فوائدها: إثبات قسوة القلب بعد لينه، لقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وكما في آية البقرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٧٤] فقسوة القلب تحدث، ولين القلب يحدث أيضًا، فكلاهما حدثان، والواجب على الإنسان أن يلاحظ دائمًا قلبه، ألين هو أم لا؟ أمخبت إلى الله أم لا؟ أمخلص لله أم لا؟ الأعمال الظاهرة كل إنسان يستطيع أن يأتي بها على أحسن وجه، حتى المنافق يمكن أن يأتي بالصلاة على أحسن وجه، يمكن أن يتصدق، لكن أعمال القلوب هي والله الصعبة، حرر قلبك من رق المعاصي حتى تتحرر.

فإذا قال قائل: ما دواء قسوة القلب؟

وهذا سؤال يرد كثيرًا من بعض المستقيمين الذين من الله عليهم بالاستقامة ثم يحصل لهم هزة فيقسو القلب، **فالجواب:** أن من أسباب إزالة القسوة:

أولًا: كثرة قراءة القرآن بتدبر، وأن تشعر وأنت تقرأ أن هذا كلام الله عزَّ وجلَّ، لا كلام البشر، كلام الله خالق السموات والأرض، وحينئذ تعظم هذا الكلام وتنتفع به.

ثانيًا: كثرة الذكر، ذكر الله عزَّ وجلَّ، أكثر من ذكر الله، وذكر الله عزَّ وجلَّ ليس فيه صعوبة؛ لأن الذي يتحرك هو اللسان والشفتان، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

ثالثًا: مصاحبة الأخيار، فإن مصاحبة الأخيار تكسب الإنسان خيرًا كثيرًا، وفي الحديث: «**أن الجليس الصالح كحامل المسك إما أن يحذيك ـ يعطيك تبرعًا ـ وإما أن يبيعك، وإما أن تجد منه رائحة طيبة**»[2]، فاحرص على مصاحبة الأخيار، ولكن انتفع بهم وانفعهم؛ لأنه ما من أحد معصوم.

رابعًا: رحمة الصغار، لاسيما اليتامى، فإنها توجب رقة القلب، وجرب تجد، ولقد قال النبي

(١) رواه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ[1] يَرْحَمْكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2].

وهناك أسباب أخرى تظهر للمتأمل في دواء قسوة القلب، أسأل الله تعالى أن يلين قلوبنا جميعًا لذكره، ولطاعته إنه على كل شيء قدير.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات قسوة القلب وهي صلابته وعدم لينه للحق، لقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** أن الشيطان يزيِّن لبني آدم سوء العمل، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

١٢- **ومن فوائدها:** أن الله تبارك وتعالى قد يسلط على العبد مَن هو عدو له، ولا يعد هذا ظلمًا من الله عزَّ وجلَّ، كلا؛ لأن الله قد بين لنا هذا العدو وحذَّرنا من اتباع خطواته، فلا عذر لنا.

١٣- **ومن فوائدها:** أن الرجل إذا سلط عليه الشيطان صار السيء في نظره حسنًا وصار الحسن سيئًا، لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ومن المعلوم أنهم يعملون بالمعاصي.

١٤- **ومن فوائد الآية الثالثة:** أن الله تعالى عجل لهم العقوبة، لكن على وجه الاستدراج لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤].

١٥- **ومن فوائدها:** أن يحذر الإنسان عقوبة الله عزَّ وجلَّ، إذا منَّ الله عليه بتيسير أمور الدنيا من مأكل ومشرب ونكاح ومركب ومسكن، فلا يغترّ بهذا؛ لأنه قد يكون استدراجًا، ولهذا قال بعض السلف: (إذا رأيت الله عزَّ وجلَّ ينعم على الإنسان مع تماديه في العصيان، فاعلم أن ذلك استدراج)، وصدقوا، فلا تغترَّ أيها الإنسان، فقد تبتلى بالنعم كما تبتلى بالنقم، وقد تكون البلوى بالنعم أشد من البلوى بالنقم.

١٦- **ومن فوائدها:** أن الذي بيده الرخاء والشدة هو الله، لقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

١٧- **ومن فوائدها:** أنه يجب الحذر من الفرح الذي هو فرح البطر بنعم الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ أي فرح بطر، أما إذا فرح الإنسان بما يسره من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة فرح سرور وانبساط بنعمة الله فإن هذا لا بأس به، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ

---

(١) قال الطيبي: أتى بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق فيرحم البر والفاجر، والناطق والبهم، والوحوش والطير انتهى.

(٢) صحيح: رواه أبوداود (٤٩٤١)، و الترمذي (١٩٢٤)، والبيهقي في الكبرى (١٧٦٨٣) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٣٥).

فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨].

١٨- ومن فوائدها: أن الإنسان قد يأتيه العذاب بغتة، فبينا هو في نعيمه وسروره في الدنيا منغمسًا في معاصي الله، إذا بالعذاب يأتيه بغتة، وسواء كان هذا العذاب عامًّا شاملًا، أو كان خاصًّا، قد يُبتلى بمرض، أو بحوادث تكسِّره وتحطمه، أو بموت عاجل، ولهذا قال: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: أخذ بغتة أي مباغت، والمباغت: هو الشيء الذي لا يتوقعه الإنسان فيقع في غير توقع له.

١٩- ومن فوائدها: أن هذا الأخذ الذي توعد الله به عزَّ وجلَّ أخذ مُدمِّر، لقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من كل خير.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥]

❁ التفسير ❁



قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُطِعَ﴾ الفاء عاطفة، وتدل على الترتيب والتعقيب، قطع دابر القوم أي: هلكوا عن آخرهم؛ لأنه إذا قطع الدابر وهو الآخر، فما سبقه من باب أولى، ولم يفصح جل وعلا بالقاطع لأنه معلوم، وهو الله عزَّ وجلَّ، لكنه تبارك وتعالى في الأمور التي تسوء يأتي بها بصيغة ما لم يسمَّ فاعله، وهو كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] الجن يؤمنون بأن مريد الشر هو الله عزَّ وجلَّ، يعرفون أن الشر والخير بيد الله عزَّ وجلَّ، هو الذي يدبر، لكن كرهوا أن يضيفوا الشر إلى الله فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠].

الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأن هذه العقوبة مرتبة على قوم اتصفوا بالظلم، فيكون الظلم سببًا للعقوبة، وهذا من كمال الله تبارك وتعالى، أن تكون أفعاله لحكمة، وأحكامه الشرعية لحكمة.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الظلم سبب للعقوبة والهلاك، لأن الحكم إذا علق على وصف صار ذلك الوصف علة له، يزداد الحكم قوة بقوته، وينقص بنقصه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله محمود على قطع دابر الظالمين، وهو كذلك محمود على جلب النعم وعلى دفع النقم، والظالم إذا أهلكه الله فإن ذلك من تمام عدله ورحمته، لأنه يكون نكالًا لما بين يديه وما خلفه، أما المعنى فلا إشكال فيه.

والمراد بالذين ظلموا: الكفار، لأن كل إنسان كافر هو ظالم في حق نفسه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧] وهو بحق الله معتد، حيث لم يقم بالحق الواجب عليه.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:٤٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: قل يا محمد: أخبروني: إن أخذ الله سمعكم بحيث لا تسمعون الكلام، وأبصاركم بحيث لا ترون الأفعال، وختم على قلوبكم بحيث لا يكون لديكم وعي ولا عقل، من إله غير الله يأتيكم به؟! سيكون جوابهم : لا أحد، لأنهم يقرون ويعترفون بربوبية الله عزَّ وجلَّ وبما يترتب عليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ﴾ أي: نظر اعتبار وبصيرة، ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نَنوعها، والآيات: جمع آية وهي العلامة التي يحصل بها الطمأنينة لاشتمالها على الدليل، يعني: أن الآية ليست مجرد علامة، بل هي العلامة التي تكون دليلًا على الشيء، فهي أخص من مطلق العلامة.

ومعنى ﴿نُصَرِّفُ﴾: ننوع الآيات، الشمس والقمر، ليل، نهار، رخاء، شدة، حر، برد... إلخ، آيات منوعة.

وقوله: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: ينصرفون عن الحق وعن الآيات، وتأمل قوله: ﴿ثُمَّ﴾ الدال على التراخي، يعني: ثم بعد أن بان لهم الأمر واتضح ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: لا ينتفعون.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** تحدي هؤلاء الذين أشركوا بالله بهذه المسألة اليسيرة، وهي أن الله إذا أخذ سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم من يأتيهم بها؟

الجواب: لا ينصرف هذا إلا لله عزَّ وجلَّ، وهذا تحدٍ لهم.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان إذا أصيب في سمعه أو بصره أو قلبه أو سائر جسده فليلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ، لأنه لا أحد ينفعه إلا الله.

فإن قال قائل: إذن لا نذهب إلى الأطباء، ولا إلى الرقاة، ولا نستعمل الأدوية.

فالجواب: لا، بل اذهب إلى الأطباء، واستعمل الأدوية، واذهب إلى القراء، ولكن الذين

يسترقون تنقص درجتهم بالنسبة إلى الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب[1]، فالإنسان مأمور بفعل الأسباب، بل جاء الأمر بالتداوي، ألَّا نتداوى بحرام.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: خطورة انسداد هذه الأمور الثلاثة، وهي: السمع بحيث لا يسمع الآيات، والبصر بحيث لا يراها، والقلب بحيث لا يعيها، فعلى الإنسان أن يراعي هذه الأمور الثلاثة.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: رحمة الله عزَّ وجلَّ حيث صرَّف الآيات للعباد، ولو شاء لتركها، لترك التصريف، وجعل الناس يتخبطون عشوائيًا، لكن من نعمة الله أن الله يري الآيات ويصرِّفُها وينوِّعُها، فهذا من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

يعني: إذا لم يؤمن بهذه الآية آمن بالآية الأخرى وحصل المقصود، وكم من إنسان تفوته آيات كثيرة لا يعتبر بها، ثم يصاب بآية واحدة فيعتبر، حتى إن بعض المستقيمين حكوا لي عن أنفسهم أنهم كانوا منزلقين في الشهوات، والتلهي، فلما مات قريبهم استقاموا، كل الآيات السابقة لم ينتفعوا بها، لكن لما مات القريب استقاموا وعرفوا أن مآلهم كمآل هذا، فعادوا إلى الله عزَّ وجلَّ.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: التشنيع على هؤلاء الذين صُرِفَت لهم الآيات فأعرضوا، لقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: ينصرفون عنها ولا يعتبرون بها، فيكون فيه الحذر من تولي الإنسان بعد ظهور الآيات، لأنه إذا تولى بعد ظهور الآيات صار من قسم المغضوب عليهم، لأنه عَلِمَ الحق لكنه تمرد عليه.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]

التفسير

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ يعني: أخبروني - وسبق القول في إعراب هذه الجملة - ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة الله، ﴿بَغْتَةً﴾ كما لو أتتكم وأنتم نيام، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ كما لو أتتكم وأنتم أيقاظ، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، الأول: ﴿بَغْتَةً﴾، والثاني: ﴿جَهْرَةً﴾.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ يعني: إن أتتكم، فهل أنتم مظلومون إذا أتاكم عذاب الله على الوجهين؟ الجواب: لا، فالجملة في قوله: (هل يهلك إلا القوم الظالمون؟) تقرير لأخذ العذاب وأنهم لم يؤخذوا ظلمًا بل لعملهم السيئ.

وفي هذه الآية تحذير من نزول العذاب إما بغتة وإما جهرة، فلا يأمن الإنسان إذا كان عاصيًا أن ينزل به العذاب.

ولكن هل العذاب هو عقوبة الجسد؟

لا، فعقوبة الجسد لا شك أنها عذاب، لكن أكبر من ذلك الإعراض عن دين الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] ولهذا قال العلماء رحمهم الله : إن المعاصي بريد الكفر، ينزلها الإنسان مرحلة مرحلة كما ينزل البريد المسافة مرحلة مرحلة حتى يصل إلى الكفر والعياذ بالله.

وهو كذلك ظاهر، لأن المعاصي تقسي القلب، وتسوده، وتوبسه، حتى يُصبح ميتًا، وتحل الكارثة، ولكن الحمد الله جعل الله لكل داءٍ دواء، المعصية قارنها بالتوبة، وإذا تبت فالتوبة تهدم ما قبلها، تكون كأنك لم تذنب، بل إن الإنسان إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا ربما تكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل المعصية، انظر إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] فارتفعت منزلته حين تاب من المعصية.

وهذا شيء مشاهد، لأن الإنسان إذا بقي مستمرًا على حاله في طاعة الله بقي قلبه لا يتحرك، يفعل العبادات وكأنها غريزة، فإذا أذنب خجل من الله عزَّ وجلَّ، واستحيا منه، وأخبت إليه، وصار يتذكر هذا الذنب في كل لحظة، ولهذا قال بعض السلف: إن المعصية بالنسبة للفاسق كَذُبَابٍ وقع على أنفه فطرده، فهي خفيفة عنده، وأما أهل القلوب الحية فالمعصية كأنها جبل يخاف منها(١) حتى يتوب إلى الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، فهل بمعنى: ما، وقد ذكرنا فيما سبق أن الاستفهام إذا كان بمعنى النفي صار أشد من النفي المجرد، لأنه يتضمن النفي والتحدي، كأن المتكلم يقول للمخاطب: أثبت لي هذا الشيء، فيكون الاستفهام بمعنى النفي أشد من النفي المجرد.

الظلم ينقسم إلى قسمين:

ظلم في حق الله، وظلم في حق العباد.

أما الظلم في حق الله: فدواؤه التوبة، مهما عظم، حتى لو كان شركًا بالله تبارك وتعالى، بل حتى

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

لو كان سبًّا لله على القول الراجح، فإنه يزول بالتوبة.

حق الآدمي: لا يزول إلا برده إليه أو استحلاله منه، وإلا مهما كان الإنسان إذا تاب وأخلص لله وندم، فإنه لا يكفيه حتى يرده، بل إن رد المظالم لأهلها من شروط التوبة.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]

التفسير

(ما) نافية و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والإرسال هو: تحميل الغير إبلاغ رسالة ممن أرسله، ولهذا كان القول الراجح في المسألة أن الرسل أوحي إليهم بالشرع وأمروا بتبليغه.

وقوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ مبشرين لمن اتبعهم بالخير، بالجنة، ومنذرين من خالفهم بالنار، هذه وظيفتهم، والبشارة: هي الإخبار بما يسر، والإنذار: هو التخويف بما يسوء.

فإذا قال قائل: كيف تقول إن البشارة بما يسر، مع أن الله تعالى جعلها إخبارًا بما يسوء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]؟

فالجواب: أن الإنذار يؤثر في البشر كما يؤثر التبشير، وأصل التسمية تبشيرًا لأنه تتأثر به البشرة، فتجد الرجل يستنير وجهه وينشرح صدره.

أو يقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] على سبيل التهكم، حيث جعل الإنذار بلفظ البشارة، ونظير هذا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] ﴿ذُقْ﴾ أمر إهانة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قال بعض المفسرين: إن هذا من باب التهكم به، حتى يزداد غمًّا إلى غم.

وقيل المعنى: إنك أنت العزيز الكريم في الدنيا، وليس في الآخرة إلا الإهانة.

قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ لماذا حصر هذا في البشارة والإنذار؟ حتى لا يدعي مدعٍ أن وظيفة الرسل تتعلق بالربوبية، وأن لهم نصيبًا من تدبير الخلق، وهذا واضح، فالرسل ليس لهم إلا أن يبشروا الناس وينذروهم فقط، أما أن يهدوهم أو يرزقوهم، أو يدفعوا

عنهم السوء فليس من وظائفهم.

والتفريق بين الرسول والنبي: أن النبي من النبأ وهو الخبر، أُخْبِر بالوحي ولكن لم يكلف بتبليغه، وإنما يتعبد به هو نفسه، ومن اتبعه فعلى هدى، لكن الرسول مكلف أن يبلغ ما أُرْسِلَ به، وهذا الذي عليه جمهور العلماء وهو ظاهر، لأن آدم نبي وليس مكملًا لشريعة من قبله، بل شريعته مستقلة، فدل هذا على أن القول بأن النبي هو من تعبد بشريعة من سبقه: قول ضعيف، وأن قول الجمهور أصح.

وقوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ فمن آمن بقلبه، وأصلح العمل فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وآمن: مطلق لم يقيد بشيء، إلا أن النصوص قيدت ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وكما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في جوابه لجبريل لما سأل عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: أصلح العمل، وإصلاح العمل لا يتم إلا بأمرين:

الأول: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، فمن أشرك مع الله في العبادة فإنه لم يصلح العمل حتى ولو كان الشرك أصغر، لقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢).

الثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فمن لم يتابع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم في العبادة فعبادته غير صحيحة، وهو غير مصلح، حتى لو خشع، ورق قلبه، ودمعت عينه، فإن ذلك لا ينفعه، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٣) أي مردود عليه.

والمتابعة لا تتحقق إلا إذا وافق العمل الشريعة في الأمور الستة التي مرت علينا كثيرًا، وهي: الموافقة في السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والزمان، والمكان.

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لما مضى، فلا يحزنون على ما مضى من الدنيا لأنهم استغرقوها في طاعة الله، ولا يخافون العذاب لأنهم ناجون من العذاب.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:٣٦] هذا القسم الثاني من الذين أرسل إليهم الرسل.

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، وابن حبان في صحيحه (١٧٣) من حديث عبدالله بن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وأبو يعلى في مسنده (٦٥٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه.

فالقسم الأول: الذي آمن وأصلح.

والثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ردوها ولم يقبلوها، ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ يمسهم أي: يصيبهم إصابة مباشرة، كمس الجسم للجسم، ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ أي عقوبة الله عزَّ وجلَّ ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بما كانوا يخرجون عن طاعة الله، والباء هنا للسببية، وما مصدرية، وَيُقَدَّرُ الكلام (بكونهم يفسقون).

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: منة الله عزَّ وجلَّ بإرسال الرسل، ولا بد من إرسال الرسل، يعني أن حكمة الله عزَّ وجلَّ تقضي بإرسال الرسل، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ما يجب لله من الأسماء والصفات والأحكام، ولا يمكن أن يستقل بمعرفة العبادات، فالناس مضطرون غاية الضرورة إلى الرسل، كان الناس أمة واحدة على دين واحد، فلما كَثُرُوا تفرقوا واختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن رسالة الرسل تتضمن هذين الشيئين وهما: البشارة والإنذار، وتكون البشارة لمن أطاع، واتبع الرسل، والإنذار: لمن كذب بالعقوبة، بمعنى ينذر بعقوبة الله عزَّ وجلَّ.

يتفرع على هذا فائدة أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لم يأتوا بمجرد الأحكام، أي: بمجرد أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، بل قرنوا ذلك بالبشارة والإنذار، لأن البشارة تحمل الإنسان على فعل المأمور، لأنك إذا بشرته بأنه سيحصل على كنز في المكان الفلاني تجده يسابق إليه، ويفعل ما يوصله إليه، الإنذار: يحصل به البعد عن المعاصي، وعلى هذا تترتب دعوة الرسل.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الناس انقسموا في تقبل وقبول دعوة الرسل إلى قسمين: مؤمن ومكذب.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: حكمة الله عزَّ وجلَّ في انقسام الناس بالنسبة لقبول دعوة الرسل إلى قسمين: مؤمن عمل صالحًا، ومكذب، وهذا من الحكمة، بل ومن الرحمة.. لماذا؟ لأنه لو لم يكن كفرٌ لم يُعْرَف قدر الإسلام، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما يروى عنه: إنه لا ينقض الإسلام عروة عروة إلا من لم يعرف الكفر. فمن عرف الكفر لا يمكن أن ينقض الإسلام.

فمن رحمة الله وحكمة الله أن ينقسم الناس إلى قسمين، لولا هذا الانقسام لما حصل جهاد ولا أُمِرَ بالمعروف ولا نُهِيَ عن المنكر، ولا امتحان واختبار، لأن الناس كلهم على وتيرة واحدة، لكن إذا انقسموا إلى مؤمن وكافر حصل الامتحان والاختبار، للمؤمن والكافر، فلا تظن أن الله عزَّ وجلَّ إذا أزاغ قلوب الكافرين لا تظن أن في ذلك لغوًا، بل هو عين الحكمة.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من جمع بين هذين الوصفين: الإيمان والإصلاح

فليبشر، أنه لا خوف عليه ولا حزن عليه، لقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥].

فإن قال قائل: أليس المؤمنين المصلحين ينالهم خوف من الأعداء؟

فالجواب: بلى، ينالهم خوف من الأعداء، لكن ليس هذا هو الخوف المنفي في الآية، لأن هذا الخوف بعده أمنٌ ومع قوة الإيمان لا يرى المؤمن أن في هذا خوفًا، ولهذا نجد الصحابة رضي الله عنهم في جهادهم وقتالهم مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبعده أيضًا هم بأنفسهم يتلقون الموت بكل رحب وسعة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تشجيع الإنسان على الإيمان والعمل الصالح والحث على ذلك بذكر عاقبة هذا المؤمن المصلح، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان وحده لا يكفي، لا بد من إصلاح، ولكن هل نقول: إن مجرد الإفساد أو مجرد ترك العمل الصالح يكون الإنسان كافرًا؟ نقول: نحن لا نستطيع أن نحكم على شخص بأنه كافر أو مؤمن إلا بدليل من الكتاب والسنة، ولذلك نعتب على أولئك الذين يرددون الأسئلة: هل الأعمال شرط في كمال الإيمان أو شرط في أصل الإيمان؟ أو ما أشبه ذلك من العبارات. نقول: كل هذا لا حاجة إليه، لأن لدينا أدلة واضحة كفر من القرآن والسنة، إيمان من القرآن والسنة، وإذا دار الأمر بين أن يكون هذا الرجل كافرًا أو مؤمنًا وهو من المسلمين فالأصل بقاء إسلامه، ولا يحل لنا أن نكفره، هل يمكن أن نجعل الأبيض أسود أو الأسود أبيض؟ لا يمكن، كذلك الأحكام الشرعية، ما لنا حق أن نكفر أحدًا إلا بدليل، ولا نقول إن هذا مؤمن إلا بدليل، وبهذا نستريح من الخوض واللعب في آراء الناس وعقول الناس.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** القول بالمفهوم وهو أن من آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن لم يكن كذلك فعليه الخوف والحزن.

٩ - ومن فوائد الآية التي بعدها: أن التكذيب بآيات الله سبب للعقوبة، لقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

ولتعلم أن الآيات ـ آيات الله عزَّ وجلَّ ـ تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية، الآيات الشرعية: ما جاءت به الرسل من شرائع الله، لأنك لو تأملت هذه الأحكام سواء في الأمة الإسلامية أو في الأمم السابقة لوجدتها مطابقة تمامًا للحكمة والمصلحة، وأنه لو اجتمع كل أهل الأرض على أن يأتوا بمثل ذلك ما أتوا، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] فلا تظن أن أي نظام أو قانون يصلح من الخلق ما تصلحه الشريعة الإسلامية، ولذلك ظل أولئك القوم الذين ذهبوا إلى تحكيم القوانين الوضعية التي وضعها بشر، هذا البشر الذي وضعها: أهو معرض للخطأ أم لا؟ معرض للخطأ. ثانيًا: أهو محيط بجميع مصالح الخلق في جميع أقطار الدنيا؟ لا. أهو محيط بمصالح الخلق في جميع الأزمان المقبلة؟

لا، الأمر تتغير، إذن؛ فلا يجوز الاعتماد على هذه القوانين، يجب أن تؤخذ القوانين من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأن الله تعالى أعلم بالخلق حالِـهم ومستقبلِهم، ولأنه أرحم بالخلق، ولأنه أحكم الحاكمين، وهذه الآيات الشرعية.

أما الآيات القدرية: الليل والنهار، والشمس، والقمر، إحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك، كيف يكون التكذيب بهذا وهذا؟

نقول: أما التكذيب بالشرائع فهو إما أن يكذب الأخبار فيقول: هذا غير صحيح، ما يدخل العقل ولا يمكن، وإما بتحريف النصوص، يحرف النص، مثل قول بعضهم: المراد باستوى: استولى، والمراد باليد: القدرة، أو القوة، أو النعمة، وما أشبه ذلك.

الثالث: الاستكبار عنها، لا يعمل بها.

أما آيات الله الكونية: فإما أن ينسبها لغير الله كما يفعل السببيون، الملحدون، الذين ينسبون الأشياء لأسبابها المحضة، ويرون أن السبب فاعل بنفسه، أو يقول: هي من الله ومعه غيره، هذا أيضًا تكذيب بآيات الله الكونية لأنه شرك، أو يقول: هي لله وحده لكن له معين، فهذا أيضًا كفر بالآيات الكونية.

فصارت الآيات الكونية هي المخلوقات كلها، والشرعية ما جاءت به الرسل من الوحي.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المكذبين سيصيبهم العذاب مباشرة، لقوله: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وإن أفلتوا من العذاب في الدنيا لن يفلتوا منه في الآخرة.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ الباء للسببية، وإثبات الأسباب دل عليه العقل، والسمع، ولا ينكره إلا أحمق، والقرآن مملوء من هذا، وقد قيل إن في القرآن أكثر من ألف دليل يدل على إثبات الأسباب، وهذا حقيقة، نفس القرآن سبب، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦].

وقد انقسم الناس في الأسباب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جعلها مؤثرة بنفسها، وأنه متى وجد السبب لزم وجود المسبب، وهؤلاء هم الطبائعيون، الذين لا يعترفون بالله عزَّ وجلَّ، ولا يخفى حُكْمُهُم، أنهم كفرة.

القسم الثاني: أنكر الأسباب، أنكر تأثير الأسباب في مسبباتها، وقال إن هذه الأسباب مجرد علامات فقط، وأن المسبب حصل عند السبب لا بالسبب، وهؤلاء ضلوا سمعًا وعقلًا، حتى لو أنه إنسان رمى زجاجة بحجر، ثم تكسَّرت فيقول: إن الحجر ما كسر الزجاجة، ما يجوز نقول كسر الزجاجة، لو قلت هذا لكنت مشركًا! لكن لو قلت هذا لكنت موحدًا في الواقع، مثبتًا لله الحكمة، هل يمكن لو تأتي صبيًا والصبي ضرب الزجاجة وكسرها هل يمكن أن يقول هذا: ما كسرتها؟!! حصل

كسر عند فعلي وليس بفعلي؟! هذا ما يمكن. ولكن أناس كبار ذوي عقول ـ عقول إدراك لا عقول رشد ـ يقولون الأسباب ما تؤثر، وإنما حصل الشيء عند السبب لا بالسبب.

القسم الثالث: أثبتوا الأسباب، لكن جعلوا تأثيرها في مسبباتها بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة، وجعلوا الخالق أولًا وآخرًا هو الله عزَّ وجلَّ، قالوا: لو شاء الله لم تؤثر هذه الأسباب، فمثلًا: النار محرقة ـ ولا إشكال ـ ولما أُلْقِيَ فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال الله لها: كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، فكانت بردًا وسلامًا. هل أثر هذا السبب في مسببه؟ لا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء:٦٩] وهذا القول هو المتعين، ولا أقول الراجح فقط، بل هو المتعين، وما سواه فهو ضلال باطل.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الفسق يطلق على الكفر، لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهم كفار لا إشكال، فالتكذيب بالآيات كفر.

واقرأ قول الله تعالى في تنزيل السجدة، ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠] الفسق هنا: كفر، وقد يطلق الفسق على ما دون الكفر، وهذا هو المراد من كلام الفقهاء رحمهم الله، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحُجُرات:٧] فهنا الفسوق ما دون الكفر، يتعين، ووجه التعين: العطف على الكفر، والعطف يقتضي المغايرة.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: تمام عدل الله عزَّ وجلَّ، حيث إنه لم يعذب هؤلاء إلا لأنهم استحقوا العذاب بفسقهم، جزاء وفاقًا.

فإن قال قائل: جاء في الحديث الصحيح أن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم(١).

فالجواب: لا إشكال في هذا، يعني أنه لو وقع تعذيب أهل الأرض والسموات لكان هذا العذاب مستحق عليهم، وهو غير ظالم لهم، وليس المعنى: أنه لو عذبهم بدون جرم لم يكن ظالمًا، لأن تعذيبهم بغير جرم قد أحاله الله عزَّ وجلَّ ومنع منه نفسه، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦]، لكن لو عذبهم لكانوا مستحقين للعذاب، وبهذا يزول الإشكال في هذا الحديث.



---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد في مسنده (٢١٦٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٤).

قال الله تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٥٠]

التفسير

قوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أمر من الله إليه، أي: إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا أمر لإبلاغ خاص، وإلا فكل القرآن قد أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يبلغه، لكن تأتي بعض الأحكام مصدرة بـ ﴿ قُلْ ﴾ إشارة إلى أهميتها، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠]، ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ [النور:٣١]، ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم:٣١] والأمثلة على هذا كثيرة، فيكون في هذا الحكم المذكور وصية خاصة بإبلاغه، وإلا فكل القرآن قد أُمِرَ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يبلغه، كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل:٤٤].

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ الخطاب في قوله ﴿لَكُمْ﴾ للمشركين، المكذبين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ هذه مقول القول، أي: لا أقول عندي خزائن الله، أي: خزائن رزقه فأرزقكم، وأحرم من أشاء، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ يعني: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب.

والغيب: ما غاب، وهو نوعان: غيب نسبي، وهذا قد يعلم، فمثلًا: الشارع الآن فيه أناس، أنا لا أعلمهم، والذي يشاهدهم يعلمهم، هذا غيب نسبي، وغيب مطلق حقيقي: وهو ما غاب عن الناس كلهم، فهذا لا يعلمه أحد، كالعلم بما سيحدث في المستقبل، هذا لا يمكن أن يعلمه أحد لا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا غيره.

إذن الغيب كل ما غاب، وهو نوعان: نسبي وحقيقي، فالنسبي: ما غاب عن بعض الناس دون بعض، والحقيقي: ما غاب عن جميع الناس.

والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعلم الغيب لا النسبي ولا الحقيقي، لكن في النسبي ما شاهده علم به، ولذلك لما انخنس منه أبو هريرة رضي الله عنه وكان جنبًا، قال له أين كنت[1]؟ فهو لا يعلم. وكذلك لما دخل بيته وطلب الطعام وأتوا إليه بتمر فطلب اللحم، فقال: ألم أر البرمة على

---

(١) كما رواه البخاري (٢٨٥)، ومسلم (٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النار، وهو لم يجزم بأن فيها لحم، مع أنها عنده في البيت، لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعلم الغيب.

وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ خاطبهم مخاطبة غير الأولى، يعني كرر المخاطبة، لأن المقام هنا ـ وهو نفي أن يكون ملكًا ـ أبلغ وأشد، والإتيان بكاف الخطاب يدل على شدة توجيه الخطاب إلى المخاطب، ولهذا في سورة الكهف قول الخضر لموسى في الأول قال: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا﴾ [الكهف:٧٢] وفي الثانية قال: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا﴾ [الكهف:٧٥].

قوله: ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ واحد من الملائكة، إذن هو بشر من بني آدم، ثم ذكر الله تعالى وظيفته التي يقولها: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ﴿إِنۡ﴾ بمعنى ما، فهي نافية.

و(إِنْ) في اللغة العربية لها معانٍ حسب السياق، فتأتي نافية، وتأتي: شرطية، مثالها: (إن اجتهدت نجحت)، وتأتي مخففة من الثقيلة، مثل: و﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢] أي: إنهم كانوا. وتأتي زائدة لا معنى لها إلا التوكيد، كقول الشاعر:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمْ ذَهَـبٌ وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الْخزَ○فُ

والصريف: الفضة.

والشاهد في قوله: (مَا إِنْ أَنْتُمْ ذَهَبٌ) فإن زائدة، ولهذا لو قال الشاعر: (ما أنتم ذهب) صحّ، والذي يعين هذه المعاني السياق، فدل ذلك على أن الألفاظ يتعين معناها بالسياق، وهو ما يؤيد قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ألّا مجاز في اللغة، لأن الكلمة يتعين معناها بالسياق، حتى وإن استعملت لمعنى آخر في غير هذا السياق.

كذلك يعين المعنى القرينة الحالية، لأن السياق قرينة لفظية، والقرينة الحالية: أن يدل حال المتحدث عنه على المعنى، مثل قوله: (وإن مالك كانت كرام المعادن) هنا لا يمكن أن تكون نافية، لأنه كان يفتخر بقومه، فيتعين أن تكون مخففة من الثقيلة.

وقوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يعني: إلا ما أوحاه الله إليّ، والوحي هو إعلام الله تبارك وتعالى لأحد أنبيائه بالشرع، وسمي ذلك من الإيحاء وهو السر والإخفاء، لأن الوحي يقع خفيًّا ما كل أحد يدري عنه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ لم يبين الموحِي، وذلك للعلم به، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ:٥٠] فالموحي هو الله عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ هذه وظيفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذه ما لا يختص بها، ولا تقع منه، ﴿قُلۡ﴾ يعني: يا محمد بعد أن تبين هذا ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ هل بمعنى: ما، وجاءت أداة الاستفهام بمعنى النفي لأنها مشربة معنى التحدي، يعني: لا يستوي الأعمى والبصير، ولو كنتم صادقين فبينوا لي، الأعمى: صفة مشبهة، والبصير: من يبصر، ومن

المعلوم أنه لا أحد يقول إن الأعمى والبصير سواء، فما المراد بالأعمى هنا، وما المراد بالبصير؟ المراد بالأعمى الكافر، كما قال تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨] والمراد بالبصير: المؤمن، بصير من البصيرة، وبصير من البصر.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، يعني: أبعد هذا تعرضون فلا تتفكرون!

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** منها: أنه يجب على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يعلن للأمة ما أمره الله به ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾.

٢ - **ومنها:** أن ما صدر بـ ﴿ قُلْ ﴾ بالنسبة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان ذلك دليلًا على أهميته، وأن الله تعالى أوصى نبيه أن يبلغه خاصة مما يدل على العناية به.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يملك خزائن الله عزَّ وجلَّ أي خزائن الرزق، ولذلك يعيش صلى الله عليه وعلى آله وسلم الشهرين والثلاثة لا يوقد في بيته نار[1]، ولو كان عنده خزائن الله لأدركها، مع أنه لو شاء لدعا ربه أن يحقق له ما يريد، لكنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم خُيِّر بين أن يكون عبدًا نبيًّا أو ملكًا نبيًّا فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه إذا كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يملك خزائن الله، فإنه لا يجوز أن يُطلب الرزق من الرسول مباشرة، لأنه لو طلب الرزق من الرسول مباشرة لكان هذا شركًا وتجاوزًا لما هو عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أما السؤال في حياته، فله تفاصيل ليس هذا موضع ذكرها، وقد يعطي وقد لا يعطي، كما منع الأشعريين حين طلبوا رواحل يجاهدون عليها قال: لا أجد ما أحملكم عليه.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعلم الغيب، لقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾.

فإن قال قائل: أليس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يحدث عن أشياء مستقبلة؟ فالجواب: بلى ولكن بوحي من الله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالى يعلم الغيب، ولهذا نقول: كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أمور المستقبل فهي بوحي خاص من الله عزَّ وجلَّ، وحينئذ لا ينافي ما أخبر به من أمور الغيب بما أخبر به تبارك وتعالى في هذه الآية، لأن علمه بالمستقبل بما أوحى الله إليه ليس علمًا ذاتيًّا أدركه بنفسه، ولكنه علم من عند الله عزَّ وجلَّ، كما أن الإنسان يرى الرؤيا الصالحة في المنام وينتفع بها في المستقبل، «**والرؤيا الصالحة جزء من ست**

---

(١) كما رواه البيهقي في الكبرى (١٣٠٩٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأربعين جزءًا من النبوة»(١).

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد الصريح على من قالوا: إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعلم الغيب، ثم لبسوا وشبهوا بما أخبر به من المغيبات التي أوحى الله إليه بها، فيقال: الأصل أنه لا يعلم الغيب، وإذا جاء شيء تحدث به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن المستقبل فإننا نعلم أن هذا بوحي خاص من الله تبارك وتعالى.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشرٌ كغيره لا يعلم الغيب، ينسى كما ننسى، ويلحقه الجوع والظمأ والبرد والحر، كل الخصائص البشرية تلحق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الملك قد يتصور بصورة إنسان لقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ لأنه لولا أنه يمكن تصوره بصورة إنسان ما احتيج إلى النفي، إذا أنه معلوم بدون نفي، وهذا هو الواقع، وقد جاء جبريل عليه السلام في صورة البشر.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١] فإن الملائكة لا يمكن أن ينزلوا ليكونوا رسلًا إلى البشر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال عبودية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا يزيد ولا ينقص، حتى ولو كان الذي نزل إليه على شخصيته عليه الصلاة والسلام، فإنه لا يمكن أن يدعه، وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧] كلمات عظيمة يوجهها الله عزَّ وجلَّ إلى نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولو كان كاتمًا شيئًا مما أوحاه الله إليه لكتم هذا، لأنه شيء عظيم، أو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١].

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشرائع توقيفية، لا يجوز لأحد أن يبتدع منها شيئًا، لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأحقاف:٩] ولهذا قرر أهل العلم أن الأصل في العبادات المنع والحظر، وأنه لا يجوز للإنسان أن يتعبد لله تعالى بشيء إلا ما أذن الله فيه شرعًا، وهذا حق، مستند إلى آيات متعددة وإلى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

مسألة: هل لو أن أحدًا استحسن شيئًا يتعبد لله به، هل يكون حسنًا؟

الجواب: لا يكون حسنًا أبدًا وبذلك يبطل تقسيم من قسم البدعة إلى نوعين: ضلالة وحسنة، أو إلى خمسة أنواع، فإن هذا باطل لا شك فيه، لأن أعلم الخلق بشريعة الله، وأفصح الخلق وأنصح الخلق محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٍ**»(١) كل بصيغة العموم، التي هي أعم صيغ العموم، (كُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٍ) وهذا العموم المحكم لا يخرج منه شيء، ولا يرد على هذا ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جمع الناس في رمضان على أبي بن كعب وتميم الداري، وكان الناس بعد أن امتنع النبي ﷺ من إقامة قيام رمضان بهم جماعة صاروا يقومون أفرادًا أو الرجل مع الثاني أو الرجل مع اثنين وما أشبه ذلك ويحدث التشويش، خرج عمر - رضي الله عنه - ذات ليلة وهم على هذا فأمر أُبَيّ بن كعب وَتَمِيمًا الداري أن يقومَا بالناس بإحدى عشرة ركعة، ففعلا، وقاما بالناس بإحدى عشرة ركعة، ثم خرج مرة أخرى ورآهم على هذه الحال فقال: «**نِعْمَت البدعة هذه**»(٢) فسماها بدعة، وأثنى عليها.

هذا الأثر استدل به جميع أهل البدع على استساغة بدعهم، ونحن نجيبهم بعدة أمور:

الأمر الأول: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين، الذين بدعتهم إن حصلت صارت بدعة سنة، فهل أنتم أيها الخلف المتخلف كعمر؟ لا، إذن لو صح أنها بدعة شرعية لكان عمر ممن يُقتدى بهم، وسنته متبعة بأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

الثاني: أنها بدعة نسبية، باعتبار هجرها من عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أن أقامها عمر، فهذه بدعة نسبية، ولا يصح أن نقول أنها بدعة لغوية، لأن البدعة اللغوية لا بد ألا تكون مسبوقة، لكن نقول إنها بدعة نسبية باعتبار أنها هجرت من عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مارًّا بعهد أبي بكر ثم أول خلافة عمر.

الثالث: هذه البدعة لها أصل وسنة، وهو أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى بأصحابه في قيام رمضان ثلاث ليالٍ وتخلف في الرابعة وقال: إني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها(٣)، هذه العلة التي تأخر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن إقامتها جماعة هل هي باقية في عهد عمر؟ الجواب: لا، والحكم يدور مع علته، وهذه العلة في عهد عمر لا يمكن أن تكون، فبطل تشبث أهل البدع بمثل هذه الكلمة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فإن قال قائل: ابتُدِعت أشياء أقرها المسلمون كجمع القرآن على مصحف واحد، وكتبويب

---

(١) **صحيح:** رواه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد في مسنده (١٧١٨٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني في الجامع (١٣٥٣).

(٢) رواه البخاري (٢٠١٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (٧٧٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٤٣٧٨).

(٣) رواه البخاري (٢٠١٢)، ومسلم (٧٦١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الأحاديث، وكبناء المدارس، وأشياء كثيرة.. ما تقول في هذا؟

أقول: هذه ليست مقصودة لذاتها، بل هي مقصودة لغيرها، فجمع الناس على مصحف واحد لئلا تتفرق الأمة، لو كان الناس يقرءون بالمصاحف التي في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لتمزقت الأمة تمزقًا عظيمًا، ولقالت النصارى إذا كان عندنا أربعة أناجيل أو خمسة فعندكم عشرات، فلهذا كان توحيد المصحف مقصودًا لغيره، وهو جمع كلمة المسلمين وعدم تنازعهم، كذلك أيضًا تبويب الأحاديث أو جمعها على المسانيد، هو أيضًا مقصود لغيره، حتى يتيسر على المسلمين أصول السنة، أرأيتم لو لم تبوب على الأبواب ولا على المسانيد، لكان الإنسان إذا أراد مسألة أن يقرأ كل حديث ورد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا يخفى ما في هذا من التعب العظيم، ولا ما في هذا أيضًا من تعطل الشريعة، فكان هذا مقصودًا لغيره.

أتى أناس وقالوا: محاريب المساجد هذه بدعة، لا بد أن تهدمها، ولو أن الإنسان أوصى أن يُبنى له مسجد ويبنى فيه محراب لبطلت الوصية، لأن المحاريب نهى عنها الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله محذرًا: «**إياكم ومذابح النصارى**» أو كلمة نحوها، فما الجواب؟

الجواب: أن نقول:

أولًا: إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قيَّد فقال «**ومذابح النصارى**» فإذا كان المحراب على غير الشكل النصراني فلا بأس به، هذا إن صح الحديث، مع أن الحديث فيه مقال.

ثانيًا: أن نقول: إذا انتفى أن تكون هذه المحاريب كمحاريب النصارى بقي أن يُقال: هل فيها مصلحة أو لا؟

الجواب:

أولًا: فيها مصلحة فهي تغني عن صف كامل، إذا كان المسجد ضيقًا ثم دخل الإمام في المحراب أغنى عن صف كامل؛ لأن مكانه الذي يفترض أن يكون فيه لولا المحراب لكان صفًا كاملًا.

ثانيًا: الدلالة على القبلة، ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: يُستدل على القبلة بالمحاريب الإسلامية، وهذا أمر مُشاهد، لو كانت المساجد كحجرة مقفلة ليس فيها إلا الزوايا الأربعة، ما عرفنا القبلة.

إذن فيها مصلحة، فإذا كان فيها مصلحة فكيف نقول إنها بدعة محرمة يجب هدمها.

فإذا قال قائل: يمكن أن يُستعاض عنها بالتلوين أو بوضع بلاط يخالف بلاط المسجد.

قلنا: ما الذي يحوجنا إلى هذا ونحن نقول: فيها غير هذه الفائدة وهي التوسعة على المصلين إذا ضاق المسجد.

بقي أن يُقال: إن بعض الناس يكتب على المحراب ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ [آل

عمران:٣٧] يحرفون الكلم عن مواضعه، هل هذا المحراب هو الذي دخل عليها زكريا فيه؟! لا، ثم إن المحراب في اللغة القديمة مكان العبادة، سواء محراب أو حجرة أو أي شيء، فأخطأ هؤلاء من وجهين:

الوجه الأول: أنه ليس المراد بالمحراب في الآية محراب القبلة.

والوجه الثاني: أن زكريا ما دخل عليها المحراب، ما دخل على مريم، لكنَّ الجهل فاضح، فمثل هذا يجب على وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد أن تتبع المساجد التي كتب فيها هذا وتطمسه، كيف يحرف كلام الله في قبلة المسلمين؟ وهل يلزمنا أن كل ما حدث لا بد أن يكون له شاهد من القرآن؟! أبدًا لا يلزم.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: كمال تعبد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لله، لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

١٣- ومنها: إثبات وحي الله له، لقوله: ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وأنواع الوحي مذكورة في قول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١].

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يمكن أن يستويا، لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾ ووجهه: أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، والاستفهام بمعنى النفي مشرب معنى التحدي.

١٥- ومنها: أنه كما أنه لا يستوي الأعمى والبصير حسًّا فلا يستوي الأعمى والبصير معنًى، الأعمى والبصير معنًى لا يستويان، فالجاهل أعمى، والعالم بصير.

١٦- ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على التفكر لقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٧- ومنها: ذم من لا يتفكر، لأن الاستفهام هنا للتوبيخ، ولكن هل التفكر في أي شيء؟ التفكر في الأمور على حسب الواقع، لا يتخيل أشياء لا تمت للواقع بصلة، ولا يتفكر في أشياء لا يمكنه الوصول إليها، فإذا أراد أحد أن يتفكر في ذات الله عز وجل فإنه لا يجوز، لأنه لا يمكن الوصول إليه، ولو أراد أن يتفكر في كيفية الوصول إلى السماء الدنيا فلا يجوز، لأن ذلك لا يمكن الوصول إليه، والله عزَّ وجلَّ قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فإذا كان البصر الذي هو يدرك الأشياء إدراكًا حسيًّا لا يمكن أن يدرك الله عزَّ وجلَّ، فالفكر من باب أولى.

إذن نتفكر في الأمور الواقعة، في آيات الله عزَّ وجلَّ الكونية والشرعية، فالآيات الكونية: هي المخلوقات وما أبدع الله فيها من الحكم والأسرار العظيمة، والآيات الشرعية: هي الأحكام الشرعية التي شرعها الله للعباد وجعلها صالحة لكل زمان ومكان، يعني إذا طبقت الشريعة فهي

صالحة لكل زمان ومكان، لا يمكن أن تُدَمَّر، وهنا نقف لنذكر مَن توسل بهذه العبارة إلى تكييف الشريعة حسب الواقع، لأن هذا غلط عظيم، والواجب تكييف الواقع حسب الشريعة، وإذا كُيِّفَ الواقع حسب الشريعة صلحت الأمور أما أن نكيف الشريعة على الواقع ويكون لنا في كل زمان شريعة أو في كل مكان شريعة، أو في كل أمة شريعة فهذا يعني أن الشريعة تُبَدَّل وتُعَدَّل وتدخلها الأهواء، وهذا شيء ممتنع.

كذلك أيضًا تفكر في أسمائه وصفاته، تفكر في الاسم ماذا يدل عليه من الصفة، سواء كانت الدلالة دلالة تضمن أو دلالة مطابقة، أو دلالة التزام.



قال الله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، والإنذار: إعلام بالشيء على وجه التخويف. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يعني: يؤمنون بالبعث، ويخافون من اليوم الذي يبعثون فيه، كما قال عزَّ وجلَّ في الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا يتولاهم أحد من دون الله عزَّ وجلَّ، ولا يشفع لهم أحد من دون الله، فالولي: أن يتولاه أحد بدون شفاعة، يعني: هو يقوم بكشف الضُّر عنهم أو جلب النفع لهم، والشفاعة: أن يتوسط لهم إلى الله عزَّ وجلَّ، لأن الشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

فشفاعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأهل الموقف: أن يُقضى بينهم: من نوع دفع الضرر؛ لأن الناس يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة من نوع جلب النفع.

ومثاله في الواقع: لو أن إنسانًا شفع لشخص إلى مدير أن يوظفه في عمله، فهذا من جلب النفع، ولو شفع في شخص إلى مدير من أجل أن يرفع عنه التعزير سواء بالمال أو بالحبس فهذا من

باب دفع الضرر.

هؤلاء الذين أمر الله أن ينذر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالقرآن إياهم يقول: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعل: للتعليل، يعني: لأجل أن يتقوا، ويتقون من؟ يتقون الله عزَّ وجلَّ، أو يتقون اليوم الذي يحشرون فيه إلى الله، وهما متلازمان.

والتقوى: مأخوذة من الوقاية، وتتكرر كثيرًا في القرآن الكريم، ومعناها: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وتصديق أخباره على علم وبصيرة.

ومنهم من قال: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله(١).

وبعضهم قال:

خلِّ الذنوب صغيـ ـرها وكبيرها ذاك التقى

واعمل كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الإنذار بالقرآن، ويتفرع من هذا: أن خير ما يُنذر به هو القرآن، يعني هو أبلغ المواعظ في الإنذار، لكن كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا ينتفع بالإنذار بالقرآن إلا الذين يؤمنون باليوم الآخر، لقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الحشر إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا يكون يوم القيامة، حيث يُحْشَر الخلائق إلى ربها عزَّ وجلَّ، ليقضي بينهم قضاءً دائرًا بين العدل والفضل، العدل للكفار، والفضل للمؤمنين.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا أحد يمنع من الله، لقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

---

(١) القائل هو طلق بن حبيب.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الشفاعة، لأنه لولا وجودها ما صح نفيها.

والشفاعة أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى: ليقضى بين الناس هذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يعتذر أولو العزم عنها، وتستقر للرسول ﷺ، ولم ينكرها أحد من طوائف الملة، يقرون بها.

النوع الثاني: الشفاعة في أهل الكبائر من المؤمنين: وهذه تنازع فيها طائفتان من أهل الملة، حسب انتسابهم وهم: الخوارج والمعتزلة، لأن هاتين الطائفتين يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النار والعياذ بالله، وإذا كان الله قد قضى عليه أن يخلد في النار فإن الشفاعة لا تنفعه.

وهناك شفاعة أخرى ليس هذا موضع ذكرها.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلل والأسباب لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهذا أمر شرحناه كثيرًا فلا حاجة إلى الإعادة، وكل إنسان يعرف أن الأمور لها أسباب ولها علل.



قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢]

التفسير

هذه الآية تحتاج إلى الإعراب، فقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾ لا ناهية، والفعل مجزوم بها، ولكنه حرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

﴿شَىْءٍ﴾ مبتدأ لكن دخل عليه حرف الجر الزائد فعمل به لفظًا لا محلًا، ولهذا نُعرب ﴿مِّن﴾ حرف جر زائد إعرابًا و﴿شَىْءٍ﴾: مبتدأ، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ الفاء للسببية، والفعل بعدها منصوب بها على رأي الكوفيين، وبأن مضمرة بعدها على رأي البصريين، ولكن هل هي جواب للنهي أو للنفي؟

الجواب: للنفي، يعني: ليس من حسابك عليهم من شيء، ولا من حسابهم عليك من شيء

فتطردهم، لماذا تطردهم؟!

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفاء للسببية، وتكون فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية على رأي البصريين، أو بها على رأي الكوفيين، وهي جواب لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ يعني: لا تطردهم فتكون من الظالمين.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ الطرد معناه: الإبعاد، يعني: لا تبعدهم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ يدعون: الدعاء ينقسم إلى: دعاء مسألة ودعاء عبادة، دعاء مسألة: أن يقولوا: يا ربنا اغفر، ودعاء العبادة: أن يقوموا بعبادة الله عزَّ وجلَّ من صلاة وغيرها.

فإذا قال قائل: ما وجه كون العابد داعيًا؟ فالجواب: لدليل الأثر، ودليل النظر، أما الأثر فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] فجعل الله الدعاء عبادة، وأما كون العبادة دعاءً، لأن العابد لو سئل: لماذا تعبد الله فقال: أرجو ثوابه وأخاف عقابه، إذن فهو دعاء بلسان الحال لا بلسان المقال، على أن كثيرًا من العبادات لا تخلو من دعاء صريح.

وقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الباء هنا بمعنى: (في) وتأتي الباء بمعنى (في) كثيرًا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات:١٣٧، ١٣٨]، فهل هناك من حكمة أن تأتي الباء بمعنى (في)؟

اعلم أن القرآن الكريم لا يمكن أن يعدل عن الشيء المتعارف لغة إلا لسبب، السبب هنا أن الباء التي هي للظرفية أشربت معنى الاستيعاب، لأن الباء تأتي للاستيعاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦] وكما في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩] أي أنهم قد استوعبوا الغداة والعشي بالدعاء، والغداة: أول النهار، والعشي: آخر النهار.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حال من الفاعل في (يدعون)، المعنى: أنهم مخلصين لله لا يريدون بذلك رياء ولا سمعة.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: أن حسابك ليس عليهم، وحسابهم ليس عليك، وإذا كان كذلك فلماذا تطردهم؟ دعهم يحضرون مجالسك، وينتفعون بها، ليس عليك من حسابهم من شيء ولا من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ هذا مبني على قوله ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في هذه العبارة تلطف في مخاطبة النبي صلى الله عليه وعلى

آله وسلم حيث لم يقل: (فتكون ظالمًا) وهذا فيه شيء من التسلية، أن هناك من هو ظالم، والظالمون كثيرون، ومعلوم أن كون الإنسان مع عالم يشاركونه في الوصف أهون من كونه ينفرد بذلك.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم طرد المؤمنين الصالحين.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على أولئك القوم الذين يحضرون جلسات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما ذكر الله عزَّ وجلَّ، أنهم يدعون الله بالغداة والعشي، مع الإخلاص لله عزَّ وجلَّ.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات وجه الله عزَّ وجلَّ، في قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ والوجه صفة لله عزَّ وجلَّ، صفة حقيقية، يجب علينا أن نؤمن بذلك، ولكن على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وأما من فسر ذلك بأن المراد بالوجه: الثواب، فقد أخطأ، لأن ذلك مخالف لظاهر اللفظ ومخالف لإجماع السلف، ثم إن الله قال في القرآن الكريم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] جعله وصفًا للوجه، فهل يمكن أن يقول قائل: إن الثواب موصوف بأنه ذو الجلال والإكرام؟ الجواب: لا، وتأمل هذا مع قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨] فجعلها بالجر صفة لربك، ولم تكن بالرفع صفة للاسم مع أن أسماء الله عزَّ وجلَّ لها من الجلالة والتعظيم ما لها، ولكن ـ نسأل الله العافية ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

وسبحان الله! ما أدري كيف يلاقي الإنسان ربه يوم القيامة إذا كان الله تعالى قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات ثم يقول: لا وجه لك يا رب، بل المراد بوجهك: الثواب، لا أدري كيف يستطيع الإنسان أن يجيب الله عزَّ وجلَّ؟

والمسألة ليست جدلًا دنيويًا ومخالفة دنيوية، المسألة عقيدة يجب على الإنسان أن يتهيأ للجواب عنها يوم القيامة، الإنسان قد يتخلص في الدنيا بالمجادلة والمغالبة، لكن عند الله لا ينفع، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء:١٠٩]، هؤلاء نقول لهم: أنتم إذا غلبتم في الجدل في الدنيا لكن هل تغلبون الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة؟! لا والله لا تَغلِبون.

المسألة خطيرة، وفي ظني أن هؤلاء المحرفين لمثل هذه الآيات عند تلاوتها وتحريفها ينسون أنهم سيقابلون الله عزَّ وجلَّ، وإلا لو كانوا على ذكر ما ذهبوا فإنهم يُحرفون الكلم عن مواضعه في

أعظم الأشياء.

إذا كانت آيات الأحكام وأحاديث الأحكام تجرى على ظاهرها وهي أحكام، وليس للعقل فيها مجال، فكيف لا تجرى هذه الأخبار العظيمة على ظاهرها وهي تتعلق بالله عزَّ وجلَّ.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كل إنسان لا يحاسب عن الآخر لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، وهذا العموم مقيد بما إذا لم يفرط الإنسان في حق أخيه فإن فرَّط جوزي على ذلك.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله: يجب على الإنسان إذا رأى نائمًا وقد ضاق الوقت عن الصلاة، يجب أن يعلمه، أن يوقظه، مع أن النائم معذور ليس عليه إثم، لكن أنت أيها اليقظان يجب أن توقظه وتعلمه، ولو لم تفعل صار عليك من حسابه، لأنك تركت الواجب .

وكذلك قال العلماء: يجب على من رأى شخصًا يريد أن يتوضأ بماء نجس أن يعلمه، ويجب علي من رأى في ثوب أخيه بقعة نجسة أن ينبهه عليها، لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: كمال عدل الله عزَّ وجلَّ، لأنه خاطب نبيه بهذا الخطاب القوي، من أجل قوم من أصحابه، هو - أي النبي ﷺ - عند الله أعظم جاهًا وأعلى منزلة، لكن الله عزَّ وجلَّ حَكَمٌ عَدْلٌ، يقضي بالحق سبحانه وتعالى.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن منع الإنسان حقه ظلم، وإن لم يكن عدوان - يعني بضرب أو احتيال - لكن إذا منعه حقه فإنه ظالم، لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «**مَطْلُ**[(١)] **الغَنِيِّ**[(٢)] **ظُلْمٌ**»[(٣)] مع أن هذا لم يأخذ من مال الفقير مثلًا، لكن مماطلته يعني: منع حقه، فكل من منع صاحبَ حقٍ حقَّه فهو ظالم له، كما لو اعتدى بأخذ شيء من ماله.



(١) المطل التسويف وعدم القضاء.

(٢) المتمكن من قضاء ما عليه.

(٣) رواه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]

التفسير

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: أضللنا بعضهم ببعض، ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ يعني: أن الأغنياء لا يؤمنون - فتنة -، ولكن لماذا لا يؤمنون؟ الجواب: يقولون: كيف يسبقنا إلى الإيمان هؤلاء، فنحن لا نؤمن. وهذه فتنة قد تقع من الإنسان أن يقول شيئًا ابتدأه فلان! أنا لا أشارك فيه. أو شيئًا عمله فأنا لا أعمل فيه.

ولهذا قال: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ اللام هنا للعاقبة وليست للتعليل، المعنى: فتنا بعضهم ببعض فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، والاستفهام هنا للتحقير، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١].

قال الله عزَّ وجلَّ ردًّا عليهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يعني: هو قد علم أن هؤلاء يشكرون الله بما أنعم الله عليهم، وأما أنتم فلا، فهو ردٌّ عليهم.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** أن الله سبحانه وتعالى يفتن بعض الناس ببعض، فيضل بعض الناس بسبب الآخر، وهذا واقع، تجد مثلًا يفتح باب مساهمة في الخير، فيسبق فلان مثلًا، فيقول الآخرون: شيئًا تدخل فيه فلان لا نوافق ولا يمكن أن يسبقونا...!

وصلة الآية بالتي قبلها واضحة جدًّا؛ لأن الذين يأتون إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ويجلسون إليه فقراء، وأما الملأ فلا يجلسون؛ لأنهم يحتقرون هؤلاء ويقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إقرار الكافرين بأن الإيمان والإسلام منة من الله تعالى، لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٣ - **ومنها:** أن أعداء المؤمنين يأتون بكل أسلوب للتنفير عن المؤمنين لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ وهذا مشاهد في كل شيء، الرسل عليهم الصلاة والسلام هل ذَكَر أعداؤهم ما يُنفر عنهم من الأوصاف؟ نعم، اقرأ الآية العامة الجامعة الشاملة: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم

﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

كذلك أيضًا أهل التعطيل مع أهل السنة والجماعة، يصفهم أهل التعطيل بأوصاف تنفر عنهم، يقولون: هذا مُجَسِّم؛ لأنه أثبت الصفات، فيقولون: هذا تجسيد؛ حتى ينفر الناس من هذا، وأهل الكلام يقولون: هؤلاء (حشوية)، ما عندهم فهم ولا عندهم معنى، ولا عندهم عقول، حشوية يعني: لا خير فيهم، ويسمونهم: (نوابت) جمع نابتة وهي التي ينبت في الزرع من ذات الأوراق التي لا خير فيها.

على كل حال: ألقاب السوء لأهل الخير من أهل الشر لا تزال موجودة، ولكن هل يصمد صاحب الخير أمام هذه الألقاب أو ينهزم؟

الواجب: أن يثبت ولا ينهزم، لأنه إذا انهزم ليس انهزامًا لشخصه، بل هو انهزام للحق الذي كان عليه.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: تقرير علم الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أن الله عالم بمن هو شاكر، وهل المعنى بمن هو شاكر أي بمن هو شاكر الآن أو بمن سيشكر أو بالجميع؟ الجواب: بالجميع.

قوله: ﴿أَعْلَمَ﴾ مجرورة بالفتح للوصفية ووزن الفعل أي ممنوع من الصرف.

وقوله: ﴿بِأَعْلَمَ﴾ أكمل من التعبير بـ (عالم) فأعلم: اسم تفضيل وعالم ليس اسم تفضيل، والذي يمنع التساوي قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] لم يقل (سبح اسم ربك العالي)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤] ما قال: (الله عالم)، الله يصف نفسه بالأكمل وأنتم تنزلونه؟!

فإذا قالوا: إنك إذا قلت أعلم فإنك قارنت بينه وبين العالمين الآخرين وفضلته عليهم؟ قلت: نعم، وأنتم إذا قلتم عالم وصفتموه بما يوصف به الآخرون بدون تفضيل! فانظر كيف صار تحريفهم حجة عليهم.

٥ - ومنها: أن في هذه الآية دلالة على رؤية الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وتصلح أن نجعلها من الأدلة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى، لأن أفضل شيء وأطيب شيء لأهل الجنة أن ينظروا إلى وجه الله عزَّ وجلَّ، اللهم اجعلنا ممن ينظر إليك.

ولهذا يجب التنبه من بعض الأذكياء المصنفين، قال الزمخشري صاحب «**الكشاف**» - وهو جيد في اللغة والبيان وجيد في البلاغة وكل من بعده كلهم عيال عليه يأخذون كلامه - قال في

قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فقال: أي فوز أعظم من هذا!

هذا الكلام إذا قرأه القارئ العادي لا يجد فيه شيء، لكن يريد إنكار رؤية الله عزَّ وجلَّ؛ لأن رؤية الله أعظم من هذا الفوز، لكنه رجل ذكي، قال: أي فوز أعظم من هذا! نقول: أعظم من هذا أن يرى الإنسان ربه عزَّ وجلَّ، رؤية حقيقية.

وهذا ما قام بتفسيره الشيخ ابن عثيمين
في سورة الأنعام فيما لدينا من مادة علمية



تم - بحمد الله - تفسير سورة الأنعام
ويليها - إن شاء الله - تفسير سورة الكهف

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

سورة الكهف مكيَّة، واستثنى بعض المفسرين بعض الآيات: أولها [١ – ٨]، وآية رقم [٢٨] ومن [١٠٧ – ١١٠] على أنها مدنية، ولكن هذا الاستثناء يحتاج إلى دليل؛ لأن الأصل أن السُّور المكيَّة مكيَّةٌ كلها، وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل.

والمكِّي ما نزل قبل الهجرة والمدنِيُّ ما نزَل بعد الهجرة حتى وإن نزل بغير المدينة مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: من الآية٣] فقد نزلت بعرفة عام حجة الوداع.



❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[الكهف:١-٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى:(الْحَمْدُ) :هو وصفُ المحمود بالكمال محبةً وتعظيمًا، وبقولنا: محبةً وتعظيمًا خرج المدح؛ لأن المدح لا يستلزم المحبة والتعظيم، بل قد يَمدح الإنسان شخصًا لا يساوي شيئًا ولكن لرجاء منفعة أو دفع مضرة، أما الحمد فإنه وصف بالكمال مع المحبة والتعظيم.

(لله): هذا اسم عَلَم على الله مُختَصٌّ به لا يوصف به غيره، وهو عَلَمٌ على الذات المقدَّسة تبارك وتعالى.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ هل هي خَبَرٌ أراد الله أن يُخبر عباده

بأنه محمود؟ أو هي إنشاءٌ وتوجيهٌ على أنَّنا نحمدُ الله على هذا؟ أو الجميع؟.

الجواب: الجميع، فهو خبرٌ من الله عن نفسه، وهو إرشادٌ لنا أن نَحمدَ الله على ذلك.

﴿عَبْدِهِ﴾: يعني مُحَمَّدًا، وَصَفَهُ تعالى بالعبودية؛ لأنه أعبَدُ البَشَر لله . وقد وصَفَه تعالى بالعبودية في حالات ثلاث:

١ - حالِ إنزال القرآن عليه كما في هذه الآية.

٢ - في حالِ الدفاع عنهُ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣].

٣ - وفي حالِ الإسراءِ به، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الاسراء:١].

يعني: في أشرف مقاماتِ النبي ﷺ وَصفهُ الله بأنه عبدٌ، ونِعمَ الوصفُ أن يكون الإنسانُ عبدًا لله، حتى قال العاشق في معشوقته:

لَا تَـدْعُني إِلَّا بِيَـا عَبـدَها ... فَإِنَّـه أَشْـرَفُ أَسْـمَائي

﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، سُمِّي كتابًا؛ لأنه يُكتب، أو لأنهُ جامع؛ لأن الكَتْب بمعنى: الجَمْع، ولهذا يقالُ: الكتيبةُ يعني المجموعةُ من الخيل، والقرآن صالح لهذا وهذا،فهو مكتوبٌ وهو أيضًا جامع.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ :لم يجعل لهذا القرآن عوجًا بل هو مستقيم؛ ولهذا قال:

﴿قَيِّمًا﴾،وقيِّمًا حال من قوله: (الكتاب)، يعني: حالَ كونه قيِّمًا. فإن قال قائل: «لماذا لم نجعلها صفة؛ **لأن الكتابَ منصوبٌ وَقيِّمًا منصوب؟**».

فالجواب: أن قيِّمًا نكِرة والكتاب معرفة، ولا يمكن أن توصف المعرفة بالنَّكِرَة، ومعنى ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيمًا غايةَ الاستقامة، وهنا ذَكَرَ نَفْيَ العيبِ أولًا ثم إثباتَ الكمال ثانيًا. وهكذا ينبغي أن تُخلي المكان من الأذى ثم تَضع الكمال؛ ولهذا يقال: «**التخلية قبل التحلية**»، يعني قبل أن تُحلِّي الشيء أخلِ المكان عمَّا ينافي التحلي ثم حَلِّه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾. تنبيه. وهو أنه يجب الوقوف على قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾؛لأنك لو وصلت لصار في الكلام تناقضٌ، إذ يوهمُ أن المعنى لم يكن له عوج قيِّم.

ثم بيَّن تعالى الحكمة من إنْزال القرآن في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

الضمير في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يحتملُ أن يكون عائدًا على ﴿عَبْدِهِ﴾، ويحتملُ أن يكون عائدًا على ﴿الْكِتَابَ﴾، وكلاهما صحيح، فالكتاب نَزل على الرسول ﷺ لأجل أن يُنذِر به، والكتاب نفسُه

مُنذِر، ينذر الناس.

﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾: أي من قِبَلِ الله، والبأس هو العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: من الآية٤]، يعني عذابنا، والإنذار: هو الإخبار بما يُخوِّف.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التبشير: الإخبار بما يسر، وهنا نجد أنه حُذِف المَفعول في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ وذكر المفعول في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ﴾، فكيف نقدر المفعول بـ«ينذر»؟.

الجواب: نُقدِّره في مقابل من يُبَشَّر، وهم المؤمنون فيكون تقديره «الكافرين»، وهذه فائدة من فوائد علم التفسير: أنّ الشيء يعرَف بذكر قبيله المقابل له، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] . ﴿ثُبَاتٍ﴾: يعني «متفرقين» والدليل ذكر المقابل له ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يفيد أنه لا بدَّ مع الإيمان من العمل الصالح، فلا يكفي الإيمان وحده بل لا بد من عمل صالح.؛ ولهذا قيل لبعض السلف: «**أليس مِفتاحُ الجنَّة لا إله إلّا الله؟**»[(١)] يعني: فمن أتى به فُتح له! قال: بلى، ولكن هل يفتحُ المفتاحُ بلا أسنان؟!!

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، وقد بيَّن النبي ﷺ ما يجب الإيمان به لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه**»[(٢)].

﴿يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يعني: يعملون الأعمال الصالحات، ومتى يكون العمل صالحًا؟

الجواب: لا يمكن أن يكون صالحًا إلّا إذا تضمن شيئين:

١ - الإخلاص لله تعالى: بألَّا يقصد الإنسان في عمله سوى وجه الله والدار الآخرة.

٢ - المتابعة لشريعة الله: ألّا يخرج عن شريعة الله سواء شريعة محمد ﷺ أو غيره.

ومن المعلوم أن الشرائع بعد بعثة الرسول ﷺ كلها منسوخة بشريعته ﷺ.

وضد الإخلاص: الشرك، والاتباع ضده الابتداع، إذًا البدعة لا تقبل مهما ازدانت في قلب صاحبها، ومهما كان فيها من الخشوع، ومهما كان فيها من ترقيق القلب؛ لأنها ليست موافقة للتشريع؛ ولهذا نقول: كُل بدعة مهما استحسنها مبتدعها فإنها غير مقبولة، بل هي ضلالة كما قال النبي ﷺ، فمن عمل عملًا على وفق الشريعة ظاهرًا لكن القلب فيه رياء فإنه لا يقبل لفقد

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه البخاري (٥/ ٧٦) تعليقًا، ووصله في «التاريخ الكبير» (١/ ٩٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٦٦)، وقال الحافظ في «المطالب العالية» (١/ ١٠٦): «هذا إسناد حسن موقوف» والقائل هو: وهب بن منبه.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الإخلاص، ومن عمل عملًا خالصًا على غير وفق الشريعة فإنه لا يقبل، إذًا لا بد من أمرين: إخلاص لله، واتباع لرسول الله ﷺ وإلّا لم يكن صالحًا، ثم بيَّن تعالى ما يُبَشَّر به المؤمنون فقال:

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[الكهف:٣]، ﴿أَجْرًا﴾: أي ثوابًا، وسمى الله ثواب الأعمال أجرًا؛ لأنها في مقابلة العمل، وهذا من عدله جلَّ وعلا أن يسمي الثواب الذي يثيب به الطائعَ أجرًا؛ حتى يطمئن الإنسان لضمان هذا الثواب؛ لأنه معروف أن الأجير إذا قام بعمله فإنه يستحق الأجر.

وقوله: ﴿حَسَنًا﴾ جاء في آية أخرى ما هو أعلى من هذا الوصف وهو قوله تعالى:﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: من الآية٢٦] وجاء في آية أخرى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾[الرحمن: ٦٠] فهل نأخذ بما يقتضي التساوي أو بما يقتضي الأكمل؟.

الجواب: بما يقتضي الأكمل، فنقول: ﴿حَسَنًا﴾أي هو أحسن شيء ولا شك في هذا، فإن ثواب الجنة لا يعادله ثواب.

وقوله: ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾أي باقين فيه أبدًا، إلى ما لا نهاية، فلا مرض، ولا موت، ولا جوع، ولا عطش، ولا حر، ولا برد، كل شيء كامل من جميع الوجوه.

واعلم أن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الجنَّة موجودة - الآن - وأنها مؤبدة، وأن النار موجودة - الآن - وأنها مؤبدة، وقد جاء هذا في القرآن، فآيات التأبيد بالنسبة لأصحاب اليمين كثيرة، أما بالنسبة لأصحاب الشمال فقد ذُكر التأبيد في آيات ثلاث:

١ - في سورة النساء، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾[النساء:١٦٨-١٦٩].

٢ - في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[الأحزاب:٦٤-٦٥].

٣ - في سورة الجن في قوله تعالى:﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: من الآية٢٣].

وإذا كانت ثلاثُ آيات من كتاب الله صريحة في التأبيد فلا ينبغي أن يكون هناك خلاف، كما قيل: وليس كل خلاف جاء معتبرًا إلّا خلافًا له حظٌّ من النَّظرِ، وما ذكر من الخلاف في أبدية النار لا حظَّ له، كيف يقول الخالق العليم: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ثم يقال: لا أبدية؟ هذا غريب، من أغرب ما يكون، فانتبهوا للقاعدة في مذهب أهل السنّة والجماعة: أن الجنّة والنار مخلوقتان الآن؛ لأن الله ذكر في الجنة ﴿أُعِدَّتْ ﴾وفي النار ﴿أُعِدَّتْ ﴾. وثانيًا: أنهما مؤبدتان لا تفنيان لا هما ولا من فيهما كما سمعتم.



قال الله تعالى:

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[الكهف:٤،٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ كالإيضاح لما أبهم في الآية السابقة، فيه إنذار لمثل النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، ولليهود الذين قالوا: العُزير ابن الله، وللمشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

والعزير ليس بنبي ،ولكنه رجل صالح.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو بالقول، ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بهذا القول، أو ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بالولد ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، فإذا انتفى العلم ما بقي إلَّا الجهل.

﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ الذين قالوا مثل قولهم، ليس لهم في ذلك علم، ليسَ هناك إلّا أوهام ظنوها حقائق وهي ليست علومًا.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: قد يُشكل على طالب العلم نَصْبُ ﴿كَلِمَةً﴾.

والجواب﴿كَلِمَةً﴾ :تمييز، والفاعل محذوف، والتقدير «كبرت مقالتهم كلمةً» تخرج من أفواههم: أي عَظُمت؛ لأنها عظيمة - والعياذ بالله -، كما قال تعالى:﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم:٩٠-٩٣] . يعني: مستحيل غاية الاستحالة أن يكون له ولد.

فإن قال قائل: أليس الله يقول:﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[الزخرف:٨١].

الجواب: نعم. ولكن التعليق بالشرط لا يدل على إمكان المشروط؛ لأننا نفهم من آيات أخرى أنه لا يمكن أن يكون، وهذا كقوله تعالى للرسول ﷺ:﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[يونس: من الآية٩٤] وهو ﷺ لا يمكن أن يَشك، ولكن على فرض الأمر الذي لا يقع، كقوله تعالى:﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء:٢٢] . فإنه لا يمكن أن يكون فيهما آلهة سوى الله، فتبين بهذا أن التعليق بالشرط لا يدل على إمكان المشروط، بل قد يكون مستحيلًا غاية الاستحالة.

قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ هل لنا أن نستفيد من قوله: ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أن هؤلاء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وأنهم لا يستيقنون أن لله ولدًا؛ لأن أي عاقل لا يمكن أن يقول إن لله

ولدًا، فكيف يمكن أن يكون لله ولدٌ، وهذا الولد من البشر نراه مثلنا يأكل ويشرب ويلبس، ويلحقه الجوع والعطش والحر والبرد، كيف يكون ولدٌ لله تعالى؟ هذا غير ممكن؛ ولذلك قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، «إن» بمعنى: «ما» ومن علامات «إن» النافية أن يقع بعدها «إلَّا» ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾: أي ما يقول هؤلاء إلَّا كذبًا. والكذب: هو الخبر المخالف للواقع، والصدق: هو الخبر المطابق للواقع، فإذا قال قائل: «قَدِم فلانٌ اليوم» وهو لم يَقدُم، فهذا كذب سَواءٌ علم أم لم يعلم، ودليل ذلك قصة سُبَيْعَةَ الأسلمِيَّةِ ﵂ حينما مات عنها زوجها وهي حامل فوضعت بعد موته بليالٍ، ثم خلعت ثياب الحداد، ولبست الثياب الجميلة تريد أن تُخطَب، فدخل عليها أبو السنابل فقال لها: «ما أنت بناكح حتى يأتي عليك أربعةُ أشهر وعشر»؛ لأنها وضعت بعد موت زوجها بنحو أربعين ليلة أو أقل أو أكثر، فلبست ثياب الإحداد، ثم أتت الرسول ﷺ وأخبرته بالخبر فقال لها: «كذب أبو السنابل»[1]، مع أن الرجل ما تعمد الكذب، يظن أنها تعتدُ بأطول الأجلين، فإن بقيت حاملًا بعد أربعةِ أشهر وعشر بقيت في الإحداد حتى تضع، وإن وضعت قبل أربعة أشهر وعشر بقيت في الإحداد حتى تتم لها أربعةُ أشهر وعشر، تعتد أطول الأجلين، ولكن السنَّة بينت أن الحامل عِدَّتُها وضع الحمل ولو دون أربعةِ أشهر، فالشاهد أن النبي ﷺ أطلق على قول أبي السنابل «كَذب» مع أنه لم يتعمد.



قال الله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]

التَّفْسِيرُ

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ الخِطاب للرسول ﷺ، ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: مهلكٌ نفسَك؛ لأنه كان ﷺ إذا لم يجيبوه حَزِنَ حُزنًا شديدًا، وضاق صدره حتى يكادَ يَهلك، فسلَّاه الله وبيّن له أنه ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، وإنما عليه البلاغ وقد بلَّغ.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾: أي: باتباع آثارهم، لعلَّهم يرجعون بعد عدم إجابتهم وإعراضهم.

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن.

﴿أَسَفًا﴾: مفعول لأجله، العامل فيه: ﴿بَٰخِعٌ﴾ المعنى أنه لعلك باخع نفسك من الأسف إذا

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٤٧).

لم يؤمنوا بهذا، مع أن الرسول ﷺ ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، ومهمة الرسول ﷺ البلاغ. قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾[الرعد: ٤٠]، وهكذا ورثته من بعده: العلماء، وظيفتهم البلاغ، وأما الهداية فبيد الله، ومن المعلوم أن الإنسان المؤمن يحزن إذا لم يستجبِ الناس للحق، لكنَّ الحزن الحازنَ إذا لم يقبل الناس الحق على نوعين:

١ - نوع يحزن؛ لأنه لم يُقبل.

٢ - ونوع يحزن؛ لأن الحق لم يُقبل.

والثاني هو الممدوح؛ لأن الأول إذا دعا فإنما يدعو لنفسه، والثاني إذا دعا فإنما يدعو إلى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[النحل: ١٢٥].

لكن إذا قال الإنسان: أنا أحزن؛ لأنه لم يُقبل قولي؛ لأنه الحق، ولذلك لو تبين لي الحق على خلاف قولي أخذت به، فهل يكون محمودًا أو يكونُ غير محمود؟.

الجواب: يكون محمودًا، لكنه ليس كالآخرَ الذي ليس له همٌّ إلَّا قَبول الحق، سَواء جاء من قِبَله أو جاء من قبل غيره.



۞ قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف:٧]

۞ التفسير ۞

إذا تأملت القرآن تجد أنه غالبًا يقدم الشرع على الخلق، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾[الرحمن: ١-٣] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾، وتأمل الآيات في هذا المعنى تجد أن الله يبدأ بالشرائع قبل ذكر الخلق وما يتعلق به؛ لأن المخلوقات إنما سُخِّرت للقيام بطاعة الله، قال الله تبارك وتعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذريات:٥٦]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: من الآية٢٩] إذًا المهم القيام بطاعة الله، وتأمل هذه النكتة حتى يتبين لك أن أصل الدنيا وإيجاد الدنياإنما هو للقيام بشريعة الله .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾: أي صَيَّرنا، وجعل تأتي بمعنى: خلق وبمعنى صيَّر، فإن تعدَّت لمفعولٍ واحدٍ فإنها بمعنى «**خلق**»، مثل قوله تعالى:﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[الأنعام: من الآية١]وإن تعدَّت لمفعولين فهي بمعنى صَيَّر، مثل قوله تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الزخرف:٣]: أي صيَّرناه بلغة العرب،وإنما نبَّهتُ على ذلك؛ لأن الجهمية يقولون: إنَّ الجعلَ بمعنى: الخلق في جميع المواضع، ويقولون: معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: خلقناه، ولكن هذا غلط في فهم اللغة العربية.

﴿جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ هنا جعل بمعنى: صَيَّر فالمفعول الأول «ما» والمفعول الثاني «زينة» أي أنَّ ما على الأرض جعله الله زينة للأرض، وذلك لاختبار الناس. هل يتعلقون بهذه الزينة أم يتعلقون بالخالق؟ الناس ينقسمون إلى قسمين، منهم من يتعلق بالزينة، ومنهم من يتعلق بالخالق، واسمع إلى قوله تعالى مبينًا هذا الأمر: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

إذًا جعل الله الزينة لاختبار العباد، سَواءٌ أكانت هذه الزينة فيما خلقه الله وأوجده، أم مما صنعه الآدمي، فالقصور الفخمة المزخرفة زينة ولا شك، ولكنها من صنع الآدمي، والأرض بجبالها وأنهارها ونباتها وإذا أنزل الله الماء عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، هذه زينة من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾: أي نختبرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الضمير يعود على الخلق، وتأمل قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: «**أكثر عملًا**»؛ لأن العبرة بالأحسن لا بالأكثر، وعلى هذا لو صلى الإنسان أربع ركعات ولكنْ على يقين ضعيف أو على إخلال باتباع الشرع، وصلى آخر ركعتين بيقين قوي ومتابعةٍ قوية فأيهما أحسن؟ الثاني - بلا شك - أحسن وأفضل؛ لأن العبرة بإحسان العمل وإتقانه إخلاصًا ومتابعة.

في بعض العبادات الأفضل التخفيف كركعتي الفجر مثلًا، لو قال إنسان: أنا أحب أن أطيل فيها في قراءة القرآن وفي الركوع والسجود والقيام، وآخر قال: أنا أريد أن أخفف، فالثاني أفضل؛ ولهذا ينبغي لنا إذا رأينا عاميًّا يطيل في ركعتي الفجر أن نسأله: «**هل هاتان الركعتان ركعتا الفجر أو تحية المسجد؟**». فإن كانت تحية المسجد فشأنه، وإن كانت ركعتي الفجر قلنا: لا، الأفضل أن تخفف، وفي الصيام رخَّص ﷺ لأمته أن يواصلوا إلى السَّحَر، وندبهم إلى أن يفطروا من حين غروب الشمس، فصام رجلان، أحدهما امتد صومه إلى السحور، والثاني أفطر من حين غابت الشمس، فأيهما أفضل؟ الثاني أفضل بلا شك، والأول وإن كان لا ينهى عنه فإنه جائز ولكنه غير مشروع، فانتبه لهذا ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولذلك تجد النبي ﷺ يفعل من العبادات ما كان أحسن: يحث على اتباع الجنائز وتمر به الجنائز ولا يتبعها، يحث على أن نصوم يومًا ونُفطِر يومًا ومع ذلك هو لا يفعل هذا، بل كان أحيانًا يطيل الصوم حتى يقال: لا يفطر، وبالعكس يفطر حتى يقال: لا يصوم، كل هذا يتبع ما كان أرضى لله وأصلح لقلبه.



قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾[الكهف:٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿صَعِيدٗا﴾ هذه الأرض بزينتها، بقصورها وأشجارها ونباتها، سوف يجعلها الله تعالى ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ أي: خاليًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾[طه:١٠٥]، أي نسفًا عظيمًا ولهذا جاء مُنكَّرًا: أي نسفًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾[طه:١٠٦-١٠٧]، وبلحظة: كن فيكون! إذًا هذه الأرض يا أخي لا يَتعلَّق قلبك بها فهي زائلة، هي ستصير كأن لم تكن كما قال: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾[يونس: من الآية٢٤].

وتأمل الجملة الآن: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ فيها مُؤكِّدان، «إنَّ» و«اللام»، ثم إنها جاءت بالجملة الاسمية الدالة على القدرة المستمرة، إذا قامت القيامة أين القصور؟ لا قصور، لا جبال، لا أشجار، الأرض كأنها حجر واحد أملس، ما فيها نبات ولا بناء ولا أشجار ولا غير ذلك، سيحولها الله تعالى ﴿جُرُزًا﴾ خالية من زينتها التي كانت عليها.



قال الله تعالى:

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾[الكهف:٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ «أم» هنا منقطعة، فهي بمعنى: «بل»، و﴿حَسِبۡتَ﴾ بمعنى: ظننتَ، هنا أتى بـ«أم» المنقطعة التي تتضمن الاستفهام من أجل شد النَّفس إلى الاستماع إلى القصة ؛لأنها حقيقة عَجب، هذه القصة عجب.

(الْكَهْفِ): الغار في الجبل.

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: بمعنى المرقوم: أي المكتوب؛ لأنه كتب في حجر على هذا الكهف قصتُهم من أولها إلى آخرها.

﴿كَانُواْ﴾ أي: أصحاب الكهف والرقيم.

﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾: من آيات الله الكونية.

﴿عَجَبًا﴾: أي محل تعجُّب واستغراب؛ لأن هؤلاء سبعةٌ معهم كلب كرهوا ما عليه أهل بلدهم من الشرك، فخرجوا متَّجهين إلى الله يريدون أن ينجوا بأنفسهم مما كان عليه أهل بلدهم،

فلجأوا إلى هذا الغار، وكان من حسن حظهم أن هذا الغار له باب لا يتَّجه للمشرق ولا للمغرب، سبحان الله! توفيق؛ لأنه لو اتجه إلى المشرق لأكلتهم الشمس عند الشروق، ولو اتجه إلى المغرب لأكلتهم عند الغروب. كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[الكهف: ١٧] وسيأتينا إن شاء الله تعالى.



قال الله تعالى:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[الكهف:١٠]

التفسير

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾:من هنا بدأت القصة، وعلى هذا يكون﴿إِذْ أَوَى﴾متعلقًا بمحذوف تقديره: «اذكر إذ أوى الفتية»، وكان كفار قريش قد سألوا النبي ﷺ عن قصتهم وهو - عليه الصلاة والسلام - لم يقرأ الكتب، قال - تعالى عنه -:﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت:٤٨]. فوعدهم فأنجز الله له الوعد.

و﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ جمع فتى، وهو الشاب الكامل القوة والعزيمة.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: أي لجأوا إليه من قومهم فارين منهم خوفًا أن يصيبهم ما أصاب قومهم من الشرك والكفر بالبعث، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾:لجأوا إلى الله.

﴿ءَاتِنَا﴾: أعطنا.

﴿لَّدُنكَ﴾: أي من عندك.

﴿رَحْمَةً﴾ أي: رحمة ترحمنا بها، وهذا كقول الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه حين قال أبو بكر لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعاءًا أَدْعُو بِهِ فِي صَلاتِي قَالَ: قُلِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْت فَاغْفِر لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١) .

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: ﴿وَهَيِّئْ﴾اجعل لنا، وتهيئة الشيء أن يُعد ليكون صالحًا للعمل به.

﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ :الرشد: ضد الغيّ، أي اجعل شأننا موافقًا للصواب.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٥).

❁ قال الله تعالى:

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[الكهف:١١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾: أي أنمناهم نومة عميقة. والنوم نوعان:

١ - خفيف: وهذا لا يمنع السماع، ولهذا إذا نمت فأول ما يأتيك النوم تسمع مَن حولك.

٢ - عميق: إذا نمت النوم العميق لا تسمع مَن حولك.

ولهذا قال: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾: أي بحيث لا يسمعون.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ :أي معدودة، وسيأتي بيانها في قوله تعالى:﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾[الكهف:٢٥].



❁ قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾[الكهف:١٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾: وذلك بإيقاظهم من النوم. وسمى الله الاستيقاظ من النوم بعثًا؛ لأن النوم وفاةٌ، قال تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام:٦٠] قال تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر:٤٢] فالنوم وفاة.

وقوله: ﴿بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ﴾: قد يقع فيه إشكال؟ هو: هل الله لا يعلم قبل ذلك؟

الجواب: لا، واعلم أن هذه العبارة يراد بها شيئان:

١ - علم رؤية وظهور ومشاهدة، أي: لنرى، ومعلوم أن علم ما سيكون ليس كعلم ما كان؛ لأن علم الله بالشيء قبل وقوعه علمٌ بأنه سيقع، ولكن بعد وقوعه علمٌ بأنه وقع.

٢ - أن العلم الذي يترتب عليه الجزاء هو المراد، أي لنعلم علمًا يترتب عليه الجزاء، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[محمد: من الآية٣١] . قبل أن يبتلينا

قد علم من هو المطيع ومن هو العاصي، ولكن هذا لا يترتب عليه لا الجزاء ولا الثواب، فصار المعنى لنعلم علم ظهور ومشاهدة، وليس علم الظهور والمشاهدة كعلم ما سيكون، والثاني علمًا يترتب عليه الجزاء.

أما تحقق وقوع المعلوم بالنسبة لله فلا فرق بين ما علم أنه يقع وما علم أنه وقع، كلٌّ سواء، وأما بالنسبة لنا صحيح أنَّا نعلم ما سيقع في خبر الصادق، لكن ليس علمنا بذلك كعلمنا به إذا شاهدناه بأعيننا، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمعَايَنَةِ».

﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قوله: ﴿الْحِزْبَيْنِ﴾ يعني: الطائفتين.

وقوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾: يعني أبلغ إحصاءً، وليست فعلًا ماضيًا بل اسم تفضيل فصار المعنى: أي الحزبين أضبط لما لبثوا أمدًا، أي: المدة التي لبثوها؛ لأنهم تنازعوا أمرهم فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[الكهف: من الآية١٩]وقال آخرون:﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[الكهف: من الآية١٩]. ثم الناس من بعدهم اختلفوا كم لبثوا.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[الكهف:١٣]



❁ التفسير ❁

نِعمَ القائل صدقًا وعلمًا وبيانًا وإيضاحًا؛ لأن كلام الله - تبارك وتعالى - متضمن للعلم والصدق والفصاحة والإرادة أربعة أشياء. كلامه عن علم، وكلامه أيضًا عن صدق، وكلامه في غاية الفصاحة، وإرادته في هذا الكلام خير إرادة، يريد بما يتكلم به أن يهدي عباده.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصُّ الله أكمل القصص وأحسن القصص؛ لأنه صادر عن:

١ -علم.

٢ -عن صدق.

٣ -صادر بأفصح عبارة وأبينها وأوضحها ولا كلامَ أوضح من كلام الله إلَّا من أضل الله قلبه، وقال: هذا أساطير الأولين.

٤ -وبأحسن إرادة لم يرد الله تعالى بما يقص علينا أن نضل ،ولا بما حكم علينا أن نجور، بل أراد أن نهتدي ونقوم بالعدل.

وقوله: ﴿نَحْنُ﴾: إذا قال قائل أليس الله واحدًا؟

فالجواب: واحد لا شك، لكن لا شك أنه جلَّ وعلا أعظم العظماء، والأسلوب العربي إذا أسند الواحدُ إلى نفسه صيغة الجمع فهو يعني أنه عظيم، ومعلوم أنه لا أحد أعظم من الله تعالى؛ ولهذا تجد الملوك أو الرؤساء إذا أرادوا أن يُصدروا المراسم يقولون: «**نحن فلان بن فلان نأمر بكذا وكذا**». إذًا كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي نقرأه عليك ونحدثك به ﴿نَبَأَهُم﴾ أي: خبرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق المطابق للواقع.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: فتية شباب ولكن عندهم قوة العزيمة وقوة البدن وقوة الإيمان.

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: زادهم الله هدى؛ لأن الله تعالى يزيد الذين يهتدون هدى، وكلما ازددت عملًا بعلمك زادك الله هدى أي زادك الله علمًا.



قال الله تعالى:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف:١٤]

التفسير

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي ثبتناها وقويناها وجعلنا لها رِباطًا؛ لأن جميع قومهم على ضدهم، ومخالفة القوم تحتاج إلى تثبيت لا سيما أنهم شباب، والشاب ربما يؤثر فيه أبوه ويقول له: «**اكفر**»، ولكن الله ربط على قلوبهم فثبتهم، - اللهم ثبتنا يا رب -.

﴿إِذْ قَامُوا﴾: يعني في قومهم معلنين بالتوحيد متبرئين مما كان عليه هؤلاء الأقوام.

﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾: وليس رب فلان وفلان بل هو رب السموات والأرض، فهو مالك وخالق ومدبِّر السموات والأرض؛ لأن الرَّب الذي هو اسم من أسماء الله معناه الخالق المالك المدبر، ولم يبالوا بأحد فهم كسحرة فرعون: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[طه:٧٢].

والدنيا كلها قاضية منتهية طالت بك أم قصرت، ولا بد لكل إنسان من أحد أمرين: إما الهَرَم وإما الموت، ونهاية الهرم الموت أيضًا؛ ولهذا يقول الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصةً ... لَذَّاتُـه بادِّكَـارِ المـوْتِ والهـرَمِ

الإنسان كلما تذكر أنه سيموت طالت حياته أم قصرت فإنه لا يطيب العيش له، ولكن من

نعمة الله أن الناس ينسَون هذا الأمر، ولكنَّ هؤلاء الناسين منهم من ينسى هذا الأمر باشتغاله بطاعة الله، ومنهم من ينساه بانشغاله بالدنيا.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: السمواتِ السبعِ والأرضُ كذلك سبعٌ كما جاءت بذلك النصوص، ولا حاجة لذكرها؛ لأنها معلومة والحمد لله.

﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾: لن ندعو دعاء مسألة أم دعاء عبادة إلهٍ سواه، فأقروا بالربوبيَّة وأقرُّوا بالألوهية، الربوبية قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، والألوهية قالوا: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ أي سواه.

﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ :الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: **«اللام»** و**«قد»** و**«القسم الذي دلَّت عليه اللام»**.

وقوله: ﴿إِذٗا﴾ أي: لو دعونا إلهًا سواه ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ أي: قولًا مائلًا وموغلًا بالكفر، وصدقوا، لو أنهم دعوا غير الله إلهًا لقالوا هذا القول المائل الموغل بالكفر - والعياذ بالله - .



قال الله تعالى:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾[الكهف:١٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ يشيرون إلى وجهة نظرهم في انعزالهم عن قومهم، قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ﴾ أي صيَّروا آلهة من دون الله، عبدوها من دون الله.

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ يعني: هلَّا ﴿يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم﴾ أي: على هذه الآلهة، أي: على كونها آلهة وكونهم يعبدونها. فالمطلوب منهم شيئان:

١ - أن يثبتوا أن هذه آلهة.

٢ - أن يثبتوا أن عبادتَهم لها حق، وكلا الأمرين مستحيل.

﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾: السلطان كلُّ ما للإنسان به سُلطة، قد يكون المراد به الدليل مثل قوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾[يونس: من الآية٦٨]، وقد يكون المراد به القوة والغلبة مثل قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ

مُشْرِكُونَ﴾[النحل:١٠٠] وقد يكون الحجة والبرهان كما في قوله تعالى: ﴿بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾أي بحجة ظاهرة يكون لهم بها سُلطة؛ ولهذا قالوا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاء للتفريع، مَن: استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، واعلم أن الاستفهام إذا ضُمِّن معنى النفي صار فيه زيادة فائدة، وهي أنه يكون مُشْرَبًا معنى التحدي؛ لأن النفي المجرد لا يدل على التحدي، لو قلت: «**ما قام زيد**»، ما فيه تحدٍ، لكن لو قلت: «**من أظلم ممن افترى على الله كذبًا**» فهذا تحدي، كأنك تقول: أخبرني أو أوجد لي أحدًا أظلم ممن افترى على الله كذبًا.

فقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: أي من أشد ظلمًا ممن افترى على الله كذبًا في نسبة الشريك إليه وغير ذلك، كل من افترى على الله كذبًا فلا أحد أظلم منه، أنت لو كذبت على شخص لكان هذا ظلمًا، وعلى شخص أعلى منه لكان هذا ظلمًا أعلى من الأول، فإذا افتريت كذبًا على الله صار لا ظلم فوق هذا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فإن قال قائل: «**نجد أن الله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ويقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[البقرة: من الآية١١٤]. وأظلم تدل على اسم التفضيل، فكيف الجمع؟**». نقول: إن الجمع هو أنها اسم تفضيل في نفس المعنى الذي وردت به، فمثلًا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: لا أحد أظلم منعًا ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي الكذب، أي الكذب أظلم؟ الكذب على الله، فتكون الأظلمية هنا بالنسبة للمعنى الذي سيقت فيه ليست أظلمية مطلقة؛ لأنها لو كانت أظلمية مُطلَقه لكان فيه نوع من التناقض، لكن لو قال قائل: «**ألا يمكن أن تقول: إنها اشتركت في الأظلمية؟ يعني: هذا أظلم شيء وهذه أظلم شيء**»؟.

فالجواب: لا يمكن؛ لأنه لا يمكن أن تقرن بين من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وبين من افترى على الله كذبًا، فإن الثاني أعظم، فلا يمكن أن يشتركا في الأظلمية، وحينئذٍ يتعين المعنى الأول، أن تكون الأظلمية بالنسبة للمعنى الذي سيقت فيه.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[الكهف:١٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ هذا من قول الفتية،

يعني: قال بعضهم لبعض: ما دمتم اعتزلتم قومكم وما يعبدون إلَّا الله.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن تكون استثناء من قوله: ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ وعلى هذا يكون هؤلاء القوم يعبدون الله ويعبدون غيره، والفتية اعتزلوهم وما يعبدون إلَّا الله، ويحتمل أن تكون «إلَّا» منقطعة فيكون المعنى أن هؤلاء القوم لا يعبدون الله. ويكون المعنى: «**وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون مطلقًا**» ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لكنِ الله لم تعتزلوه ولكنكم آمنتم به، ويحتمل أن تكون استثناء متصلًا على سبيل الاحتياط، يعني: أن هؤلاء الفتية قالوا: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يخشون أن يكون أحد من أقوامهم يعبد الله، و«**ال**» في الكهف تحتمل أن تكون للعهد، وكأنه كهف ألفوا أن يأووا إليه، أو أن المراد بها الكمال، أي إلى الكهف الكامل الذي يمنعكم من قومكم، أما الأول فيحتاج إلى دليل أن هؤلاء الفتية كانوا يذهبون إلى كهف معين يأوون إليه، وأما الثاني فوجهه أنه إنما يطلبون كهفًا يمنعهم ويحميهم، فتكون «**ال**» لبيان الكمال، أي إلى كهف يمنعكم ويحميكم من عدوكم.

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ يعني: أنكم إذا فعلتم ذلك فإن الله سييسر لكم الأمر؛ لأن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وهنا سؤال في قوله: ﴿ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ الفاء، يتبادر للذهن أنها في جواب الشرط، والمعروف أن «**إذ**» ليست للشرط وإنما الذي للشرط هو «**إذا**» أو «**إذ**» إذا اقترنت بـ«**ما**»، فإذ لم تقترن بـ«**ما**» فليست للشرط

والجواب عن ذلك أن يقال: إما أنها ضُمِّنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها ﴿ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، أوأن«**الفاء**»للتفريع وليست واقعة في جواب الشرط، والمعنى: فحينئذ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ فأووا إلى الكهف.

﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ :أي: يهيئ لكم من شأنكم ﴿مِّرۡفَقٗا﴾ أي: مكانًا ترتفقون به.



قال الله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾[الكهف:١٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ في قوله: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ قراءتان: ﴿تَزَّاور﴾ بتشديد الزاي وأصلها تتزاور، و﴿تَزَٰوَرُ﴾ بتخفيف الزاي، والمراد بذلك أنها

تميل: ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾، تصور كيف يكون الكهف الآن إذا كانت تزاور عنه ذات اليمين؟ يكون وجه الكهف إلى الشمال. ولهذا قال بعضهم: إن وجه الكهف إلى «**بنات نعش**» النجوم المعروفة في السماء، يعرفها أهل البر.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: تكون على شمال الغار.

وقوله: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ قيل: المعنى تتركهم وقيل: تصيب منهم، وهو الأقرب أنها تصيب منهم، وفائدة هذه الإصابة أن تمنع أجسامَهم من التغيُّر؛ لأن الشمس كما يقول الناس: إنها صحة وفائدة للأجسام.

﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: الضمير يعود على هؤلاء الفتية، هذه الفجوة يعني: الشيء الداخل، يعني: ليسوا على باب الكهف مباشرة، بل في مكان داخل؛ لأن ذلك أحفظ لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ دليل على أن الشمس هي التي تتحرك، وهي التي بتحركها يكون الطلوع والغروب خلافًا لما يقوله الناس اليوم من أن الذي يدور هو الأرض، وأما الشمس فهي ثابتة، فنحن لدينا شيء من كلام الله، الواجب علينا أن نجريه على ظاهره وألا نتزحزح عن هذا الظاهر إلَّا بدليل بَيِّن، فإذا ثبت لدينا بالدليل القاطع أن اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض فحينئذ يجب أن نؤول الآيات إلى المعنى المطابق للواقع، فنقول: إذا طلعت في رأي العين وإذا غربت في رأي العين، تزاور في رأي العين، تقرض في رأي العين، أما قبل أن يتبين لنا بالدليل القاطع أن الشمس ثابتة والأرض هي التي تدور وبدورانها يختلف الليل والنهار فإننا لا نقبل هذا أبدًا، علينا أن نقول: إنَّ الشمس هي التي بدورانها يكون الليل والنهار؛ لأن الله أضاف الأفعال إليها، والنبي ﷺ حينما غربت الشمس قال لأبي ذر: «**أتدري أين تذهب؟**»[1] فأسند الذَّهاب إليها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله تعالى أعلم بخلقه، ولا نقبل حدْسًا ولا ظنًا، ولكن لو تيقنا يقينًا أن الشمس ثابتة في مكانها وأن الأرض تدور حولها، ويكون الليل والنهار، فحينئذ تأويل الآيات واجب حتى لا يخالف القرآن الشيء المقطوع به.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الضمير يعود على حال هؤلاء الفتية:

١ - خروجهم من قومهم.

٢ - إيواؤهم لهذا الغار.

٣ - تيسير الله لهم غارًا مناسبًا.

لا شك أن هذا من آيات الله الدالة على حكمته ورحمته، هل نعتبر أن هذا كرامة؟.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

الجواب: نعم نعتبره كرامة ولا شك.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ﴿مَن يَهْدِ﴾: «من» شرطية والدليل على أنها شرطية حذف الياء مِن يهدي، والجواب: «فهو المهتدِ» و«المهتد» أصلها «المهتدي» بالياء لكن حذفت الياء تخفيفًا كما حذفت في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[الرعد: ٩].

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾: أي يُقدِّر أن يكون ضالًا.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾: أي من يتولاه ويرشده إلى الصواب، وفي هذا الخبر من الله تنبيه إلى أننا لا نسألُ الهداية إلَّا من الله، وأننا لا نجزع إذا رأينا من هو ضال؛ لأن الإضلال بيد الله، فنحن نؤمن بالقدر ولا نَسخطُ الإضلال الواقع من الله، لكن يجب علينا أن نُرشد هؤلاء الضالين، فهنا شرع وقدَر، القدر يجب عليك أن ترضى به على كل حال، والمقدور فيه تفصيل، والمشروع يجب أن ترضى به على كل حال، فنحن نرضى أن الله جعل الناس على قسمين: مهتد وضال، ولكن يجب علينا مع ذلك أن نسعى في هداية الخلق.



قال الله تعالى:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[الكهف:١٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ أيها الرائي: إذا رأيتهم ﴿أَيْقَاظًا﴾؛ لأنه ليس عليهم علامة النوم، فالنائم يكون مسترخيًا، وهؤلاء كأنهم أيقاظ، ولذلك يُفرِّق الإنسان بين رجل نائم ورجل مضطجع لَمَّا يراه، حتى لو أن المضطجع أراد أن يتناوم ويخدع صاحبه لعرف أنه ليس بنائم.

﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾: جمع راقد.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: يعني: مرة يكونون على اليمين ومرة على الشمال، ولم يذكر الله الظهر ولا البطن، لأن النوم على اليمين وعلى الشمال هو الأكمل.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ :فيه دليل على أن فعل النائم لا ينسب إليه، ووجه الدلالة أن الله أضاف تقلبهم إليه، فلو أنّ النائم قال في نومه: «امرأتي طالق» أو «في ذمتي لفلان ألف ريال» لم يثبت؛ لأنه لا قصد له ولا إرادة له؛ لا في القول؛ ولا في الفعل، والحكمة من تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال: بعض العلماء قال لئلَّا تأكل الأرض الجانب الذي يكون ملاصقًا لها، ولكن الصحيح أن الحكمة

ليست هذه، الحكمة من أجل توازن الدم في الجسد؛ لأن الدم يسير في الجسد، فإذا كان في جانب واحد أوشك أن ينحَرِم منه الجانب الأعلى، ولكن الله بحكمته جعلهم يتقلبون.

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ يعني كأنه- والله أعلم- لم ينم.

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ :أي جالس على بطنه وقد مدَّ ذراعيه.

﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾: وهو فتحة الكهف أو فِناء الكهف يعني: إما أن يكون على الفتحة، وإما أن يكون إلى جنب الكهف في فِنائه ليحرسهم، وفي هذا دليل على جواز اتخاذ الكلب للحراسة، حراسة الآدميين، أما حراسة الماشية فقد جاءت به السنّة، وحراسة الحرث جاءت به السنة كذلك . حراسة الآدمي من باب أولى؛ لأنه إذا جاز اتخاذ الكلب لحراسة الماشية والحرث أو للصيد الذي هو كمال فاتخاذه لحراسة البيت من باب أولى.

قال الله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾أي: لو اطّلعت أيها الرائي عليهم لولّيت منهم فرارًا، رهبة ينْزِلها الله في قلب من يراهم، حتى لا يحاول أحد أن يدنو منهم، ولهذا قال: مع أنهم لم يلحقوه، لكنه خائف منهم.

﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ ملئت: لم يُملأ قلبُه فقط، بل كلُّه، وهذا يدل على شدة الخوف الذي يحصل لمن رآهم.



قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾أي: كما فعلنا بهم من هذه العناية من تيسير الكهف لهم، وإنامتهم هذه المدة الطويلة، بعثهم الله، أي مثل هذا الفعل بعثناهم، فعلنا بهم فعلًا آخر-، ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾كما جرت به العادة أن الناس إذا ناموا يتساءلون إذا قاموا، من الناس من يقول: ماذا رأيت في منامك:ومن الناس من يقول: لعلَّ نومك لذيذ أو ما أشبه ذلك ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾: ليس المعنى أنهم بعثوا للتساؤل ولكن بعثوا فتساءلوا. فاللام جاءت للعاقبة لا للتعليل، كما في قوله تعالى:﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: من

الآية٨]، اللام ليست للتعليل أبدًا، ولا يمكن أن تكون للتعليل؛ لأن آل فرعون لم يلتقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا، ولكنهم التقطوه فكان لهم عدوًا وحزنًا.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾: كما جرت العادة، أي: كم مدة لبثتم؟ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ :أي كاملًا.

﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ :أي بعض اليوم؛ ذلك لأنهم دخلوا في أول النهار وبُعثوا من النوم في آخر النهار، فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ إن كان هذا هو اليوم الثاني أو ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إن كان هذا هو اليوم الأول، وهذا مما يدل على عمق نومهم.

﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ :أي قال بعضهم لبعض، وكأن هؤلاء القائلين قد شعروا بأن النومة طويلة ولكن لا يستطيعون أن يُحدِّدوا، أمَّا الأولون فحددوا بناءًا على الظاهر، وأما الآخرون فلم يحددوا بناءًا على الواقع؛ لأن الإنسان يفرق بين النوم اليسير والنوم الكثير، ثم قال بعضهم لبعض: ﴿فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الوَرِق: هو الفضة كما جاء في الحديث: «وفي الرِّقةِ رُبْع العُشْر» كان معهم دراهم من الفضة.

﴿فَابْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ تضمن هذا:

أولًا: جواز التوكيل في الشراء، والتوكيل في الشراء جائز، وفي البيع جائز أيضًا، فإن الرسول وكَّل أحد أصحابه أن يشتري له أضحية وأعطاه دينارًا، وقال: «اشْتَرِ أُضْحِيَةً»، فاشترى شاتين بالدينار ثم باع إحداهما بدينار فرجع بشاة ودينار، فدعا له النبي ﷺ أن يبارك الله له في بيعه، فكان لواشترى ترابًا لربح فيه .

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أنه يجوز تصرف الفضولي، أي يجوز للإنسان أن يتصرف بمال غيره إذا علم أن غيره يرضى بذلك، فهؤلاء وكلوا أحدهم أن يذهب إلى المدينة ويأتي برزق.

ثانيًا: في هذا - أيضًا - دليل أنه لا بأس على الإنسان أن يطلب أطيب الطعام لقولهم: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾.

ثالثًا: فيه دليل أيضًا على ضعف قول الفقهاء: إنه لا يصح الوصف بالأفعل، أي لا يجوز أن أصف المبيع بأنه أطيب كل شيء، فلا تقول: «**أبيع عليك برًّا أفضل ما يكون**»؛ لأنه ما من طَيِّب إلَّا وفوقه أطيب منه، ولكن يقال: هذا يرجع إلى العرف، فأطيب: يعني في ذلك الوقت وفي ذلك المكان، وهل من السنّة ما يشهد لطلب الأزكى من الطعام؟ نعم، وذلك أن النبي ﷺ أقرَّ الصحابة الذين باعوا التمر الرديء بتمر جيد ليطعم النبي ﷺ منه، ولم ينههم عن هذا، وما قال: هذا تَرَفُّه، اتركوا طلب الأطيب، فالإنسان قد فتح الله له في أن يختار الأطيب من الطعام أو الشراب أو المساكن أو الثياب أو المراكب، ما دام الله قد أعطاه القدرة على ذلك فلا يُلام.

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾: يعني يشتري ويأتي به، فجمعوا بالتوكيل بين الشراء والإحضار.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾: أي يتعامل بخفية لئلَّا يُشْعَر بهم فيؤذون، وهذا يعني: أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلَّا قليلًا. ثم علَّلوا هذا؛ أي: الأمر بالتطلف والنهي عن الإشعار بقولهم:

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف:٢٠]



❁ التفسير ❁

أي أنهم لا بد أنهم يقتلونكم أو يردونكم على أعقابكم بعد إيمانكم ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي إذا عدتم في ملَّتهم أبدًا، وفي هذا دليل على أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة إلَّا الوسائل المحرمة؛ فإنها محرمة لا يجوز أن يقع الإنسان فيها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف:٢١]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: مثل بعثهم من نومهم، فإن الله أعثر عليهم يعني: أطلع عليهم قومهم.

﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أطلع الله عليهم قومهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إما أن المعنى بقيام الساعة الذي كان ينكره هؤلاء، أو؛ لأن الله تعالى يُنجي المؤمنين من الكفار؛ لأن هؤلاء السبعة نجوا من أمة عظيمة تقاتلهم وتنهاهم عن التوحيد.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: أي قيام الساعة. ﴿السَّاعَةَ﴾ أي: لا شك، واقعة لا محالة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: متعلقة بأعثرنا، أعثرنا عليهم حتى تنازعوا أمرهم بينهم، تنازعوا فيما بينهم

ماذا نفعل بهم؟ أنتركهم أم ماذا نصنع بهم؟.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾: يعني: ابنوا عليهم بنيانًا حتى يكون أثرًا من الآثار وحماية لهم.

﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾: يعني توقفوا في أمرهم كيف يَبقونَ ثلاث مائة سنة وتسع سنين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغيرون أيضًا.

﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾: وهم أمراؤهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ بدلًا من أن نبني بنيانًا نحوطهم به ونسترهم به ولا يكون لهم أثر ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي لنجعلن عليهم مسجدًا نتخذه مصلى، والظاهر أنهم فعلوا؛ لأن القائل هم الأمراء الذين لهم الغلبة.

هذا الفعل، اتخاذ المساجد على القبور، من وسائل الشرك وقد جاءت شريعتنا بمحاربته حتى أن النبي ﷺ قال وهو في سياق الموت: «**لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمِ مَسَاجِدَ**» يُحذِّر ما صنعوا(١).



ثم قال مبينًا اختلاف الناس في عددهم:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٢]

التفسير

سيقولون ثلاثة، أربعة، خمسة، كيف يمكن أن يكون قولان لغائب واحد؟ هذا يخرج على وجهين:

الوجه الأول: أن المعنى: سيقول بعضهم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول البعض الآخر: خمسة سادسهم كلبهم، ويقول البعض الثالث: سبعة وثامنهم كلبهم.

والوجه الثاني: أن المعنى: أنهم سيترددون؛ مرة يقولون: ثلاثة، ومرة يقولون: خمسة، ومرة يقولون: سبعة. وكلاهما محتمل ولا يتنافيان، فتجدُهم أحيانًا يقولون: كذا، وأحيانًا يقولون: كذا؛ حسب ما يكون في أذهانهم.

قال الله تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ قاله في الذين قالوا: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، كلا القولين قال الله تعالى: إنهم قالوه ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي راجمين بالغيب،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

وليس عندهم يقين.

﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يقل: رجمًا بالغيب، بل سكت، وهذا يدل على أن عددهم سبعة وثامنهم كلبهم؛ لأن الله عندما أبطل القولين الأولين، وسكت عن الثالث صار الثالث صوابًا، نظيره قول الله - تبارك وتعالى - في المشركين إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا﴾ هذا واحد، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا اثنان، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأبطل قولهم: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وسكت عن الأول؛ فدل على أن الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا﴾ صحيح، وهنا لما قال: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ في القولين الأولين، وسكت عن الثالث دل على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ يعني إذا حصل نزاع فقل للناس: ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وهل أعلمنا الله بعدتهم؟.

الجواب: نعم؛ أعلمنا بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم، يعني: فإذا كان الله أعلم بعدتهم فالواجب أن نرجع إلى ما أعلمنا الله به، ونقول جازمين: بأن عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما يعلمهم قبل إعلام الله أنهم سبعة وثامنهم كلبهم إلَّا قليل.

(فَلا تُمَارِ فِيهِمْ) أي: في شأنهم، في زمانهم، في مكانهم، في مآلهمْ.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: لا يصل إلى القلب؛ لأنه إذا وصل الجدال إلى القلب اشتد المجادل، وغضب وانتفخت أوداجه وتأثر، لكن لما لم يكن للجدال فيهم كبير فائدة قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ يعني: إلَّا مراءً على اللسان لا يصل إلى القلب، ويؤخذ من هذا أن ما لا فائدة للجدال فيه لا ينبغي للإنسان أن يتعب قلبه في الجدال به، وهذا يقع كثيرًا؛ أحيانًا يحتمي بعض الناس إذا جودل في شيء لا فائدة فيه، فنقول: «**يا أخي لا تتعب، اجعل جدالك ظاهرًا على اللسان فقط لا يصل إلى القلب فتحتمي وتغضب**»، وهذا يدل على أن ما لا خير فيه فلا ينبغي التعمق فيه، وهذا كثير، وأكثر ما يوجد في علم الكلام، فإن علماء الكلام الذين خاضوا في التوحيد وفي العقيدة يأتون بأشياء لا فائدة منها، مثل قولهم: «**تسلسل الحوادث في الأزل وفي المستقبل**» وما شابه ذلك من الكلام الذي لا داعيَ له، وهم يكتبون الصفحات في تحرير هذه المسألة نفيًا أو إثباتًا مع أنه لا طائل تحتها، فالشيء الذي ليس فيه فائدة لا تتعب نفسك فيه، وإذا رأيت من صاحبك المجادلة فقل له: «**تأمل الموضوع**» وسدَّ الباب.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: ولا تستفت في أهل الكهف.

﴿مِّنْهُمْ﴾ :أي من الناس سواءٌ من أهل الكتاب أم من غيرهم أحدًا عن حالهم وزمانهم ومكانهم، وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يستفتي من ليس أهلًا للإفتاء، حتى وإن زعم أن

عنده علمًا فلا تَسْتَفْتِهِ إذا لم يكن أهلًا.

❁❁❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[الكهف:٢٣، ٢٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ الخطاب هنا للرسول ﷺ كالخطاب الذي قبله ﴿لِشَاْىْءٍ﴾ أي في شيء ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ذكروا أن قريشًا أرسلت إلى اليهود في المدينة وقالوا: إن رجلًا بعث فينا يقول: إنه نبي، فقالوا: اسألوه عن ثلاثة أشياء:

١ - عن فتية خرجوا من مدينتهم ولجأوا إلى غار، ما شأنهم؟

٢ - وعن رجل مَلَكَ مشارق الأرض ومغاربها.

٣ - وعن الروح ثلاثة أشياء؛ فسألوا النبي ﷺ عن أصحاب الكهف، فقال: «**أُخْبِرُكُم غدًا**»، فتوقف الوحي نحو خمسة عشر يومًا، لم ينْزل عليه الوحي، والنبي ﷺ لا يدري عن قصص السابقين كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت: ٤٨]. ولكن الله اختبره، فأمسك الوحي خمسة عشر يومًا، كما ابتلى سليمان - عليه الصلاة والسلام - لما قال: «**لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً تَلِدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله**»، فقال له الملك: «**قل: إن شاء الله**»[1]. فلم يقل وطاف على تسعين امرأة يجامعهن، وما الذي حصل؟ أتت واحدة منهن بشق إنسان، حتى يُرِيَ الله عباده أن الأمر أمره وأن الإنسان مهما بلغ في المرتبة عند الله تعالى الوجاهة؛ فإنه لا مفر له من أمر الله.

مكث الوحي خمسة عشر يومًا، ومن المعلوم أن النبي ﷺ سيلحقه الغم والهم لئلَّا يتخذ هؤلاء القوم مِن تأخرِ إخباره بذلك وسيلةً إلى تكذيبه، والحقيقة أن هذا ليس وسيلة للتكذيب، يعني قد يقولون: وعدَنا محمد بأن يخبرنا غدًا ولم يفعل فأين الوحي الذي يدّعي أنه ينْزِل عليه؟ ولكن نقول: إنَّ تأخر الوحي وتأخر إخبار النبي ﷺ بذلك يدل على صدقه؛ لأنه لو كان كاذبًا لصنع قصة فيما بين ليلة وضحاها، وقال: هذه قصتهم، فتأخر الوحي والنبي ﷺ لم يخبرهم يدل على كمال صدقه - عليه الصلاة والسلام -.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ إلَّا قولًا مقرونًا بمشيئة الله، فقرْنُ ذلك بمشيئة الله

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٥٢٤٢) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٦٥٤).

يستفيد منه الإنسان فائدتين عظيمتين:

إحداهما: أن الله ييسر الأمر له حيث فوضه إليه جلَّ وعلا.

والثانية: إن لم يفعل لم يحنث.

فيستفاد من قوله: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾ أنه لو قال: سأفعل هذا على سبيل الخبر لا على سبيل الجزم بوقوع الفعل، فإن ذلك لا يلزمه أن يأتي بالمشيئة، يعني: لو قال لك صاحبك: «**هل تمر عليَّ غدًا؟**» فقلت: «**نعم**» ولم تقل: إن شاء الله فلا بأس؛ لأن هذا خبر عما في نفسكَ، وما كان في نفسك فقد شاءه الله فلا داعي لتعليقه بالمشيئة، أما إن أردت أنه سيقع ولا بد فقل: إن شاء الله، وجه ذلك أن الأول خبر عمَّا في قلبك، والذي في قلبك حاضر الآن، وأما أنك ستفعل في المستقبل فهذا خبر عن شيء لم يكن ولا تدري هل يكون أو لا يكون، انتبهوا لهذا الفرق؛ إذا قال الإنسان: سأسافر غدًا، فإن كان يخبر عمَّا في قلبه فلا يحتاج أن يقول: إن شاء الله؛ لأنه خبر عن شيء واقع، أما إذا كان يريد بقوله: سأسافر، أنني سأنشئ السفر وأسافر فعلًا، فهنا لا بد أن يقول: إن شاء الله، ولهذا كانت الآية الكريمة: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ولم تكن إني سأفعل، بل قال: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾، فلا تقل لشيء مستقبل إني فاعله إلَّا أن يكون مقرونًا بمشيئة الله.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ يعني: اذكر أمر ربِّك بأن تقول: «إن شاء الله» إذا نسيت أن تقولها؛ لأن الإنسان قد ينسى وإذا نسي فقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: من الآية٢٨٦] وقال النبي ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ صَلاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا**».

فالمشيئة إذا نسيها الإنسان فإنه يقولها إذا ذكرها، ولكن هل تنفعه، بمعنى: أنه لو حنِث في يمينه فهل تسقط عنه الكفارة إذا كان قالها متأخرًا؟ من العلماء من قال: إنها تنفعه حتى لو لم يذكر الله إلَّا بعد يوم أو يومين أو سنة أو سنتين؛ لأن الله أطلق: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، ومن العلماء من قال: لا تنفعه إلَّا إذا ذكر في زمن قريب بحيث ينبني الاستثناء على المستثنى منه، وهذا الذي عليه جمهور العلماء، فمثلًا إذا قلت: والله لأفعلن هذا ونسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم ذكرت بعد عشرة أيام فقلت: إن شاء الله، ثم لم تفعل بناء على أن من قال: إن شاء الله لم يحنَث، فمن العلماء من قال: ينفعه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، ومنهم من قال: لا ينفعه؛ لأن الكلام لم ينبنِ بعضه على بعض، إذًا ما الفائدة من أمر الله أن نذكره إذا نسينا؟ قال: الفائدة هو ارتفاع الإثم؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإذا نسيت فقلها إذا ذكرت، لكن هل تنفعك فلا تحنث أم يرتفع عنك الإثم دون حكم اليمين؟ الظاهر: الثاني؛ أن يرتفع الإثم، وأما الحنْث فإنه يحنَث لو خالف؛ لأن الاستثناء بالنسبة للحنْث لا ينبغي إلَّا أن يكون متصلًا، ثم الاتصال هل يقال: إن الاتصال معناه: أن يكون الكلام متواصلًا بعضه مع بعض أو أن الاتصال ما دام بالمجلس؟.

الجواب: فيه خلاف، بعضهم يقول: ما دام في المجلس فهو متصل، وإذا قام عن المجلس فقد انقطع، قالوا: لأن النبي ﷺ قال: «البيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتفَرَّقَا»[1] فجعل التفرق فاصلًا، ومنهم من قال: العبرة باتصال الكلام بعضه مع بعض، والظاهر والله أعلم أنه إذا كان في مجلسه، ولم يذكر كلامًا يقطع ما بين الكلامين فإنه ينفعه الاستثناء فلا يحنث.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ «عسى» بمعنى: الرجاء إذا وقعت من المخلوق، فإن كانت من الخالق فهي للوقوع، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٨، ٩٩]، نقول: عسى هنا واقعة، وقال الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]. أما من الإنسان فهي للرجاء، كقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ﴾ هذه للرجاء.

﴿أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾: أي يدلني إلى الطريق، ولهذا قال: ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي هداية وتوفيقًا، وقد فعل الله، فهداه في شأن أصحاب الكهف للرشد.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف:٢٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿لَبِثُواْ﴾ يعني: أصحاب الكهف ﴿فِي كَهْفِهِمْ﴾ الذي اختاروه لأنفسهم وناموا فيه.

﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾: تكتب اصطلاحًا ثلاثمائة مربوطة: ثلاث مربوطة بمائة، وتكتب مائة بالألف، لكن هذه الألف لا يُنطَق بها، وبعضهم يكتب ثلاث وحدها ومئة وحدها، وهذه قاعدة صحيحة.

وقوله: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ ﴿مِاْئَةٍ﴾ بالتنوين و﴿سِنِينَ﴾ تميز مبين لثلاث مائة؛ لأنه لولا كلمة سنين لكنا لا ندري هل ثلاث مائة يوم أو ثلاث مائة أسبوع أو ثلاث مائة سنة؟، فلما قال: ﴿سِنِينَ﴾ بيَّن ذلك.

﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ ازدادوا على الثلاث مائة تسع سنين، فكان مكثُهم ثلاث مائة وتسع سنين، قد يقول قائل: «لماذا لم يقل: مائة وتسع سنين؟».

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

فالجواب: هذا بمعنى هذا، لكن القرآن العظيم أبلغ كتاب، فمن أجل تناسب رءوس الآيات قال: ﴿ثَلَٰثَ مِأْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾، وليس كما قال بعضهم: بأن السنين الثلاثمائة بالشمسية وازدادوا تسعًا بالقمرية، فإنه لا يمكن أن نشهد على الله بأنه أراد هذا، من الذي يشهد على الله أنه أراد هذا المعنى؟ حتى لو وافق أن ثلاث مائة سنين شمسية هي ثلاث مائة وتسع سنين بالقمرية فلا يمكن أن نشهد على الله بهذا؛ لأن الحساب عند الله تعالى واحد، وما هي العلامات التي يكون بها الحساب عند الله؟.

الجواب: هي الأهلَّة، ولهذا نقول: إن القول: بأن ثلاث مائة سنين« **شمسية**، »وازدادوا تسعًا« **قمرية**» قول ضعيف.

أولًا: لا يمكن أن نشهد على الله أنه أراد هذا.

ثانيًا: أن عدة الشهور والسنوات عند الله بالأهلة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[البقرة: ١٨٩] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[يونس: ٥].



قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف:٢٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ قوله: ﴿قُلِ﴾ أي: قل يا محمد: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، وهذه الجملة تمسك بها من يقول: إنَّ قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ﴾[الكهف: ٢٥] هي من قول الذين يتحدثون عن مكث أهل الكهف بالكهف وهم اليهود الذين يَدَّعون أن التوراة تدل على هذا، وعلى هذا القول يكون قوله: ﴿وَلَبِثُواْ﴾ مفعولًا لقول محذوف والتقدير: «**وقالوا: لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا**»، ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ ولكن هذا القول وإن قال به بعض المفسرين فالصواب خلافه وأن قوله: ﴿لَبِثُواْ﴾ من قول الله، ويكون قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ من باب التوكيد أي: توكيد الجملة أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا، والمعنى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ وقد أعلَمَنا أنهم لبثوا ﴿ثَلَٰثَ مِأْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾، وما دام الله أعلم بما لبثوا فلا قول لأحد بعده.

قال الله: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له ما غاب في السموات والأرض، أو له علم

غيب السموات والأرض، وكلا المعنيين حق، والسموات جمع سماء، وهي سبع كما هو معروف، والأرض هي - أيضًا - سبع أرَضين، فلا يعلم الغيب - علم غيب السموات والأرض - إلَّا الله، فلهذا من ادعى علم الغيب فهو كافر، والمراد بالغيب المستقبل، أما الموجود أو الماضي فمن ادعى علمهما فليس بكافر؛ لأن هذا الشيء قد حصل وعلمه من علمه من الناس، لكن غيب المستقبل لا يكون إلَّا لله وحده، ولهذا من أتى كاهنًا يخبره عن المستقبل وصدَّقه فهو كافر بالله ؛ لأنه مكذب لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل: من الآية٦٥]، أما ما كان واقعًا؛ فإنه من المعلوم أنه غيب بالنسبة لقوم وشهادة بالنسبة لآخرين.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ :هذا يسميه النحويون فعل تعَجُّب.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ :بمعنى ما أبصره.

﴿وَأَسْمِعْ﴾ :بمعنى ما أسمعه، وهو أعلى ما يكون من الوصف، والله - تبارك وتعالى - يبصر كل شيء، يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة السوداء في ظلمة الليل، ويبصر ما لا تدركه أعين الناس مما هو أخفى وأدق، وكذلك في السمع، يسمع كل شيء، يعلم السر وأخفى من السر، ويعلم الجهر﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه:٧] . تقول عائشة في قصة المجادلة التي ظاهر منها زوجها، وجاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ وكانت عائشة في الحجرة، والحجرة صغيرة كما هو معروف، وكان الرسول يحاور المرأة وعائشة يخفى عليها بعض الحديث، والله يقول:﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١] . تقول عائشة: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها**»(١)، والله فوق كل شيء، ومع ذلك سمع قولها ومحاورتها للرسول ﷺ، وفيه الإيمان بأن الله تعالى ذو بصر نافذ لا يغيب عنه شيء وذو سمع ثاقب لا يخفى عليه شيء، والإيمان بذلك يقتضي للإنسان ألا يُري ربَّه ما يكرهه ولا يُسمعه ما يكرهه؛ لأنك إن عملت أي عمل رآه، وإن قلت أي قول سمعه، وهذا يوجب أن تخشى الله وألا تفعل فعلًا يكرهه ولا تقول قولًا يكرهه الله، لكن الإيمان ضعيف، فتجد الإنسان عندما يريد أن يقول أو أن يفعل؛ لا يخطر بباله أن الله يسمعه أو يراه إلَّا إذا نُبِّه، والغفلة كثيرة، فيجب علينا جميعًا أن ننتبه لهذه القضية العظيمة.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ قوله: ﴿مَا لَهُم﴾ هل الضمير يعود على أصحاب الكهف أو على من هم في السموات والأرض؟.

الجواب: الثاني هو المتعين، يعني: ليس لأحد ولي من دون الله، حتى الكفار وليهم الله وحتى

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

المؤمنون وليهم الله قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: من الآية٦١] ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: من الآية٦٢]. والله ولي كُلِّ أحد، وهذه هي الولاية العامة، أليس الله تعالى يرزق الكافرين وينمي أجسامهم وييسر لهم ما في السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر والنجوم والأمطار؟! هذه ولاية، ويتولى المؤمنين - أيضًا - بذلك؛ لكن هذه ولاية عامة.

أما الولاية الخاصة، فهي للمؤمنين. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: من الآية٢٥٧]، والولاية الخاصة تستلزم عناية خاصة، أن الله يسدد العبد فيفتح له أبواب العلم النافع والعمل الصالح، ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾. يخرجهم بالعلم، فيعلمهم أولًا ويخرجهم ثانيًا بالتوفيق.

إعراب الجملة هذه: ﴿مَا﴾ نافية، و﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، و﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر دخل على هذه الكلمة حرف الجر الزائد؛ لأنك لو حذفت ﴿مِن﴾ وقلت: «ما لهم من دونه وليٌّ» لاستقام الكلام، لكن جاءت ﴿مِن﴾ من أجل التوكيد والتنصيص على العموم، يعني: لا يمكن أن يوجد لأهل السموات والأرض ولي سوى الله.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ هذه كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: من الآية١٠]، والحكم كوني وشرعي، فالخلق والتدبير حكم كوني، والحكم بين الناس بالأوامر والنواهي حكم شرعي، وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يشمل النوعين. فلا أحد يشرك الله في حكمه لا الكوني ولا الشرعي، وفيه دليل على وجوب الرجوع إلى حكم الله الشرعي، وأنه ليس لنا أن نُشَرِّع في دين الله ما ليس منه، لا في العبادات ولا في المعاملات، وأما من قال: إن لنا أن نُشَرِّع في المعاملات ما يناسب الوقت، فهذا قول باطل؛ لأنه على قولهم لنا: أن نجوز الربا ولنا أن نجوز الميسر وأن نجوز كل ما فيه الكسب ولو كان باطلا، فالشرع صالح في كل زمان ومكان ولن يُصلحَ آخر هذه الأمة إلَّا ما أصلح أولها، الحكم الكوني لا أحد يُشركُ الله فيه ولا أحد يدعي هذا، هل يستطيع أحد أن يُنَزِّل الغيث؟! وهل يستطيع أحد أن يُمسك السموات والأرض أن تزولا؟! ولكن الحكم الشرعي هو محل اختلاف البشر ودعوى بعضهم أن لهم أن يشرعوا للناس ما يرون أنه مناسب.



❁ قال الله تعالى:

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾[الكهف:٢٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ هذا كالنتيجة لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ يعني: إذا كان لا يشرك في حكمه أحدًا فاتْلُ ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾.

فقوله: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ يشمل التلاوة اللفظية والتلاوة العملية، أمّا التلاوة اللفظية فظاهر، تقول: «فلان تلا علي سورة الفاتحة»، والتلاوة الحكمية العملية أن تعمل بالقرآن، فإذا عملت به فقد تلوتَه أي تَبعتَه، ولهذا نقول في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [فاطر: من الآية٢٩]يشمل التلاوة اللفظية والحكمية، والخطاب في قوله: ﴿ وَٱتْلُ ﴾للرسول ﷺ، ولكن اعلم أن الخطاب للرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دلَّ الدليل على أنه خاص به، فهو خاص به.

الثاني: ما دلَّ الدليل أنه للعموم، فهو للعموم.

الثالث: ما يحتمل الأمرين، فقيل: إنه عام، وقيل: إنه خاص، وتتبعه الأمة لا بمقتضى هذا الخطاب، ولكن بمقتضى أنه أسوتها وقدوتها.

فمثال الأول الذي دلَّ الدليل على أنه خاص به، قوله - تبارك وتعالى -:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح:١].

فهذا - لا شك - أنه خاص به، وكذلك قوله تعالى:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾[الضحى:٦]، فهو خاص به ﷺ.

ومثال الثاني الذي دلَّ الدليل على أنه عام قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾[الطلاق: من الآية١]، فقوله: ﴿طَلَّقْتُمُ ﴾للجماعة؛ وهم الأمة، لكن الله نادى زعيمها ورسولها؛ لأنهم تابعون له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾، إذًا الخطاب يشمل النبي ﷺ وجميع الأمة، ومثال ما يحتمل الأمرين هذه الآية: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾، لكن قد يقول قائل: إن هذه الآية فيها قرينة قد تدل على أنه خاص به كما سنذكره - إن شاء الله -، ولكن الأمثلة على هذا كثيرة، والصواب أن الخطاب للأمة،ولكن وُجِّه لزعيمها وأسوتها؛ لأن الخطابات إنما توجه للرؤساء والمتبوعين.

وقوله: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ هو القرآن، وفي إضافة الرب إلى الرسول - عليه

الصلاة والسلام - دليل على أن ما أوحاه الله إلى رسوله من تمام عنايته به.

وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ يعني: لا أحد يستطيع أن يبدل كلماته، لا الكونية ولا الشرعية، أما الكونية فواضح، لا أحد يستطيع أن يُبَدِّلها، فإذا قال الله تعالى: ﴿كن﴾ في أمر كوني فلا يستطيع أحد أن يبدله، أما الشرعية فلا أحد يستطيع شرعًا أن يبدلها. والنفي هنا ليس نفيًا للوجود، ولكن النفي هنا للإمكان الشرعي، فلا أحد يستطيع شرعًا أن يبدل كلمات الله الشرعية، فالواجب على الجميع أن يستسلموا لله، فلو قال قائل: وجدنا من يبدل كلام الله! فإن الله أشار إلى هذا في قوله في الأعراب، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: من الآية١٥]. قلنا: هذا تبديل شرعي، والتبديل الشرعي قد يقع من البشر فيحرفون الكلام عن مواضعه، ويفسرون كلام الله بما لا يريده الله، ومن ذلك جميع المعطِّلة لصفات الله أو لبعضها ممن بدلوا كلام الله.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ يعني: لن تجد أيها النبي من دون الله ملتحدًا، أي أحدًا تميل إليه أو تلجأ إليه؛ لأن الالتحاد من اللحد وهو الميل، يعني: لو أرادك أحد بسوء ما وجدت أحدًا يمنعك دون الله، إذًا عندما يصيب الإنسان شيء يتضرر به أو يخاف منه يلتجئ إلى الله، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢٢]



قال الله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي احبسها مع هؤلاء الذين يدعون الله دعاء مسألة ودعاء عبادة، اجلس إليهم وقوِّ عزائمهم.

وقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ أي أول النهار، وقوله: ﴿وَٱلْعَشِىِّ﴾ آخر النهار.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ مخلصين لله يريدون وجهه ولا يريدون شيئًا من الدنيا، يعني: أنهم يفعلون ذلك لله وحده لا لأحدٍ سواه.

وفي الآية إثبات الوجه لله تعالى، وقد أجمع علماء أهل السنة على ثبوت الوجه لله تعالى بدلالة الكتاب والسنة على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] . وقال

النبي ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»[(١)]، وأجمع سلف الأمة وأئمتها على ثبوت الوجه لله.

ولكن هل يكون هذا الوجه مماثلًا لأوجه المخلوقين؟.

الجواب: لا يمكن أن يكون وجه الله مماثلًا لأوجه المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: من الآية١١]. وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، أي شبيهًا ونظيرًا، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: من الآية٢٢]. وهكذا كل ما وصف الله به نَفْسَهُ فالواجب علينا أن نجريه على ظاهره، ولكن بدون تمثيل، فإن قال قائل: إذا أثبتّ لله وجهًا لزم من ذلك التمثيل، ونحمل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١]، يعني إلّا في ما أثبته كالوجه واليدين؟.

فالجواب: أن هذا مكابرة؛ لأننا نعلم حسًا وعقلًا أن كل مضاف إلى شيء فإنه يناسب ذلك الشيء، أليس للإنسان وجه، وللجَمَلِ وجه، وللحصان وجه وللفيل وجه؟ بلى، وهل هذه الأوجه متماثلة؟ لا؛ أبدًا! بل تناسب ما أضيفت إليه، بل إن الوقت والزمن له وجه، كما في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾[آل عمران: من الآية٧٢]، فأثبت أن للزمن وجهًا، فهل يمكن لأحد أن يقول: إن وجه النهار مثل وجه الإنسان؟.

الجواب: لا يمكن، إذًا ما أضافه الله لنفسه من الوجه لا يمكن أن يكون مماثلًا لأوجه المخلوقين؛ لأن كل صفة تناسب الموصوف. فإن قال قائل: إنه قد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»[(٢)]، فما الجواب؟

فالجواب: من أحد وجهين:

الوجه الأول: إما أن يقال: لا يلزم من كونه على صورته أن يكون مماثلًا له، والدليل أن النبي ﷺ أخبر بأن أوَّل زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر[(٣)]، ونحن نعلم أنه ليس هناك مماثلة بين هؤلاء والقمر، لكن على صورة القمر من حيث العموم إضاءةً وابتهاجًا ونورًا.

الوجه الثاني: أن يقال: «على صورته» أي على الصورة التي اختارها الله، فإضافة صورة الآدمي إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[البقرة: من الآية١١٤]، ومن المعلوم أن الله ليس يصلي في المساجد، لكن أضيفت إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم وعلى أنها إنما بنيت لطاعة الله، وكقول صالح لقومه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾[الشمس: ١٣]، ومن المعلوم أن هذه الناقة ليست لله كما تكون للآدمي يركبها؛ لكن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٨)، والترمذي (٣٠٦٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) واللفظ له.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٣٤).

أضيفت إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم، فيكون «خلق آدم على صورته» أو «على صورة الرحمن» يعني: على الصورة التي اختارها من بين سائر المخلوقات، قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٦، ٧].

أي: الذي جعلك جَعْلًا كهذا، وهذا يشمل اعتدال القامة واعتدال الخلقة، ففهمنا الآن - والحمد لله - أن الله تعالى له وجه حقيقي وأنه لا يشبه أوجه المخلوقين . وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ إشارة للإخلاص، فعليك أخي المسلم بالإخلاص حتى تنتفع بالعمل.

وقوله: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: لا تتجاوز عيناك عن هؤلاء السادة الكرام تريد زينة الحياة الدنيا، بل اجعل نظرك إليهم دائمًا وصحبتك لهم دائمًا، وفي قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارة إلى أنَّ الرسول ﷺ لو فارقهم لمصلحة دينية لم يدخل هذا في النهي.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ يعني عن ذكره إيَّانا أو عن الذكر الذي أنزلناه، فعلى الأول يكون المراد الإنسان الذي يذكر الله بلسانه دون قلبه، وعلى الثاني يكون المراد الرجل الذي أغفل الله قلبه عن القرآن، فلم يرفع به رأسًا ولم ير في مخالفته بأسًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ما تهواه نفسه.

﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ﴾ أي: شأنه ﴿فُرُطًا﴾ أي: منفرطًا عليه، ضائعًا، تمضي الأيام والليالي ولا ينتفع بشيء، وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فُرطا عليه، تجده يبقى الساعات الطويلة ولم يحصل شيئًا، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله.



قال الله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ. أي: قلها معلنًا ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ لا من غيره، فلا تطلبوا الحق من طريق غير طريق الله؛ لأن الحق من عند الله.

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ والأمر في قوله: ﴿فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ للتهديد وليس للإباحة بل هو للتهديد كما يهدد الإنسان غيره فيقول: «إن كنت صادقًا فافعل كذا»، ويدل عليه قوله تعالى

بعده: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾، يعني: من كفر فله النار قد أعدت، وقوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد به الكافرون، والدليل على هذا قوله: ﴿فَلۡيَكۡفُرۡ﴾، فإن قال قائل: **«هل الكفر يسمى ظلمًا؟»**.

فالجواب: نعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤]، ولا أحد أظلم ممن كفر بالله أو جعل معه شريكًا، وهو الذي خلقه وأمده وأعده.

قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ﴾ أي: بأهل النار ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أي: ما حولها، يعني: أن النار قد أحاطت بهم فلا يمكن أن يفروا عنها يمينًا ولا شمالًا.

وقوله: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ يعني: أن أهل النار إذا عَطشوا عَطشًا شديدًا وذلك بأكل الزَّقوم أو بغير ذلك أغيثوا بهذا الماء ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ يكون كعَكَر الزيت يعني تَفَلَهُ الخاثر في أسفله أو ما أشبه ذلك مما له منظر كريه، ولا تقبله النفوس كما قال تعالى:﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾[إبراهيم: ١٦، ١٧]، أي: كالصديد يتجرعه ولا يكاد يُسيغه.

﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ إذا قَرُبَ منها شَواها وتساقطت - والعياذ بالله - من شدة فيح هذا الماء، وإذا وصل إلى أمعائهم قطعها كما قال جلَّ وعلا:﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾[محمد: من الآية١٥]، وما أعظم الوجع والألم فيمن تقطع أمعاؤه من الداخل، لكن مع ذلك تقطع وتعاد كالجلود﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[النساء: من الآية٥٦]، الله أكبر، سبحان القادر على كل شيء، وبلحظة يكون هذا الشيء متتابعًا، كلما نَضجت بُدِّلوا، وكلما تقطَّعت الأمعاء فإنها توصل بسرعة.

قوله: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هذا قدح وذم لهذا الشراب، و«بئس» فعل ماضٍ لإنشاء الذم.

قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ أي: وقبح مرتفقها والارتفاق بها. والمرتفق ما يرتفق به الإنسان، قد يكون حسنًا وقد يكون سيئًا، ففي الجنة﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[الكهف:من الآية٣١]،وفي النار ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[الكهف: من الآية٢٩].



❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف: ٣٠]

❁ التفسير ❁

هذا من أسلوب القرآن، فإن الله إذا ذكر أهل النار ذكر أهل الجنة، وهذا من معنى قوله:

﴿مَثَانِيَ﴾ [الزمر: من الآية٢٣] أي: تثنى فيه المعاني والأحوال والأوصاف ليكون الإنسان جامعًا بين الخوف والرجاء في سيره إلى ربه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قد سبق الكلام في معنى هذه الآية، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولم يقل: «إِنَّا لا نضيع أجرهم»، ولكن قال تعالى: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وذلك لبيان العلة في ثواب هؤلاء وهو أنهم أحسنوا العمل، و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، هذا من الوجه المعنوي، ومن الوجه اللفظي أن تكون رءوس الآية متوافقة ومتطابقة؛ لأنه لو قال: «إِنَّا لا نضيع أجرهم» لاختلفت رءوس الآيات.

وبماذا يكون الإحسان في العمل؟ يكون بأمرين:

١ - الإخلاص لله.

٢ - المتابعة لرسول الله ﷺ، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من الحث على إحسان العمل.



قال الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف:٣١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ المشار إليه الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿جَنَّاتُ﴾: جمع جنة وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(عَدْنٍ): بمعنى: الإقامة، أي جنات إقامة لا يبغون عنها حِوَلا أي تحولًا عنها، ومن تمام النعيم أن كل واحد منهم لا يرى أن أحدًا أنعم منه، ومن تمام الشقاء لأهل النار أن كل واحد منهم لا يرى أحدًا أشد منه عذابًا، ولكن هؤلاء- أهل الجنة- لا يرون أن أحدًا أنعم منهم؛ لأنهم لو رأوْا ذلك لتنغص نعيمهم حيث يتصورون أنهم أقل.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الأنهار جمع نهر،وهي أربعة أنواع ذكرها الله تعالى في سورة محمد، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، وهنا قال: ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ﴾، وفي آية أخرى قال:

﴿تَحْتِهِمُ﴾ وفي ثالثة: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾، وفي رابعة: ﴿تَحْتَهَا﴾ والمعنى واحد؛ لأنهم إذا كانت الأنهار تجري تحت أشجارها وقصورها فهي تجري تحت سكانها.

قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي الجنات.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾: قال بعضهم: إن ﴿مِنْ﴾ هنا زائدة لقول الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الانسان: من الآية٢١]، فـ ﴿مِن﴾ زائدة. ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن ﴿مِن﴾ لا تزاد في الإثبات كما قال ابن مالك في الألفية:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَرّ نَكِرَة كَمَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَر

وعلى هذا فإما أن تكون للتبعيض: أي يحلون فيها بعض أساور، أي: يحلى كل واحد منهم شيئًا من هذه الأساور، وحينئذٍ لا يكون إشكال، وإما أن تكون «للبيان» أي: بيان ما يحلون، وهو أساور وليس قلائد أو خُروصا مثلًا، وأما قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فهي بيانية، أي: لبيان الأساور أنها من ذهب، ولكن لا تحسبوا أن الذهب الذي في الجنة كالذهب الذي في الدنيا، فإنه يختلف اختلافًا عظيمًا، قال الله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]، ولو كان كذهب الدنيا لكان العين رأته.

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، السندس: ما رَقَّ من الديباج والإستبرق ما غلظ منه.

وقوله: ﴿خُضْرًا﴾ خصَّها باللون الأخضر؛ لأنه أشد ما يكون راحة للعين ففيه جمال وفيه راحة للعين.

قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾.

قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ حال من قوله تبارك وتعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ أي: حال كونهم متكئين فيها، والاتكاء يدل على راحة النفس وعلى الطمأنينة.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، والأريكة نوع من المرتفق الذي يرتفق فيه، وقيل: إن الأريكة سرير في الخيمة الصغيرة المغطاة بالثياب الجميلة تشبه ما يسمونه بالكوخ.

قال الله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ هذا مدح لهذه الجنة وما فيها من نعيم، ففيها الثناء على هذه الجنة بأمرين: بأنها ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾، وأنها ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾. قال الله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف:٣٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يعني: اجعل وصيِّر.

(لَهُم) أي: للكفار؛ قريش وغيرهم.

(مَثَلًا) مفعول اضرب، وبيَّن المثل بقوله: ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ وعلى هذا يكون «رجلين» عطف بيان وتفصيل للمثل.

قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أغلب ما في الجنتين العنب، وأطراف الجنتين النخيل وما بينهما زرع، ففيهما الفاكهة والغذاء من الحب وثمر النخل.



❁ قال الله تعالى:

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف:٣٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ ولم يقل: آتتا أُكُلَها؛ لأنه يجوز مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى في كلتا، وقد اجتمع ذلك في قول الشاعر:

كِلَاهُمَا حِينَ جَدَّ الجرْيُ بَيْنَهُمَا ... قَدْ أَقْلَعَا وَكِلا أَنْفَيْهِمَا رَابِي

يشير إلى فرسين تسابقا فيقول: كلاهما، أي كلا الفرسين، «حين جد الجري بينهما» أي: المسابقة، «قد أقلعا» أي: توقفا عن المجاراة، و«رابي» أي منتفخ، فقد قال: «قد أقلعا» ولم يقل: «قد أقلع»، وقال: «رابي» ولم يقل: «رابيان»، ففي البيت مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، وهنا آتت أُكُلَها مراعاةً للفظ.

قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ كان خلال الجنتين نهر من الماء يجري بقوة، فكان في الجنتين كلُّ مقومات الحياة: أعناب، ونخيل، وزرع، ثم بينهما هذا النهر المطَّرِد.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾[الكهف:٣٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ أي: أن أحد الرجلين كان له ثمر، كأن له ثمرًا زائدًا على الجنتين أو ثمرًا كثيرًا من الجنتين.

وقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ وهما يتجاذبان الكلام.

قوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ افتخر عليه بشيئين:

١ - بكثرة المال ٢ - العشيرة والقبيلة. فافتخر عليه بالغنى والحسب، يقول ذلك افتخارًا وليس تحدثًا بنعمة الله بدليل العقوبة التي حصلت عليه.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾[الكهف:٣٥-٣٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ ذكرت بلفظ الإفراد مع أنه قال: ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ فإما أن يقال: إن المراد بالمفرد الجنس، وإما أن يراد إحدى الجنتين، وتكون العظمى هي التي دخلها.

﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ هذه جملة حالية يعني: الحال أنه ظالم لنفسه، وبماذا ظلم نفسه؟ ظلم نفسه بالكفر كما سيتبين.

قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يعني: ما أظن أن تفنى وتزول أبدًا، أعجب بها وبما فيها من قوة وحسنِ المنظر، وغير ذلك حتى نسي أن الدنيا لا تبقى لأحد، ثم أضاف إلى ذلك قوله:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ فأنكر البعث؛ لأنه إذا كانت جنَّته لا تبيد فهو يقول: لا بعث وإنما هو متاع الحياة الدنيا.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾: يعني: على فرض أن تقوم الساعة وأُرد إلى الله.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾: أي: مرجعًا، فكأنه يقول: بما أن الله أنعم عليَّ بالدنيا، فلا بد أن ينعم عليَّ بالآخرة، وهذا قياس فاسد؛ لأنه لا يلزم من التنعيم في الدنيا أن ينعم الإنسان في الآخرة، ولا من كون الإنسان لا يُنَعَّم في الدنيا ألا يُنَعَّم في الآخرة، لا تلازم بين هذا وهذا، بل إن الكفار يُنعمون في الدنيا وتُعجل لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ولكنهم في الآخرة يُعذَّبون. وهذا كقوله - تبارك وتعالى - في سورة فُصِّلت: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت:٤٩، ٥٠].

هذا مثلُ هذا.



قال الله تعالى:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف:٣٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يناقشه في الكلام.

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ ذكره بأصله.

والهمزة في قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ للإنكار.

أما قوله: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ فلأن آدم أبا البشر خُلق من تراب.

وأما ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ فلأن بني آدم خُلِقوا من نطفة، والمعنى: أنَّ الذي ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ قادر على البعث الذي أنت تُنكره.

وقوله: ﴿سَوَّىٰكَ﴾ أي: عدَّلك وصيَّرك رجلًا، وهذا الاستفهام للإنكار بلا شك، ثم يمكن أن نجعله للتعجب أيضًا.

الجواب: يمكن أن يكون للإنكار وللتعجب - أيضًا - يعني: كيف تكفر ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾! ويستفاد من هذا أن منكر البعث كافر ولا شك في هذا كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]



❁ قال الله تعالى:

﴿لَٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[الكهف:٣٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنَّا۠﴾ أصلها «لكن أنا» وحذفت الهمزة تخفيفًا وأدغمت النون الساكنة الأولى بالنون الثانية المفتوحة فصارت لكنَّا، وتكتب بالألف خطًّا وأما التلاوة ففيها قراءتان إحداهما بالألف وصلًا ووقفًا، والثانية بالألف وقفًا وبحذفها وصلًا.

﴿لَٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾: أي هو الله ربي مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وعلى هذا فتكون ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، يعني: الشأن أن الله تعالى: ربي.

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾: وهذا كقول ابن آدم لأخيه قابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، يعني: أنت كفرت ولكني أنا أعتز بإيماني وأؤمن بالله.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾[الكهف:٣٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ﴾ يعني: هلَّا ﴿إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ﴾ أي: حين دخولك إيَّاها ﴿قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ حتى تجعل الأمر مفوضًا إلى الله.

وقوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيها وجهان:

١ - أنَّ ﴿مَا﴾: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: **«هذا ما شاء الله»**.

٢ - أنَّ ﴿مَا﴾: شرطية و﴿شَآءَ﴾ فعل الشرط وجوابه محذوف والتقدير: **«ما شاء الله كان»**.

وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: لا قوة لأحد على شيء إلَّا بالله، وهذا يعني تفويض القوة لله، يعني فهو الذي له القوة مطلقًا، القوة جميعًا، فهذه الجنة ما صارت بقوتك أنت ولا بمشيئتك أنت ولكن بمشيئة الله وقوته، وينبغي للإنسان إذا أعجبه شيء من ماله أن يقول: **«ما شاء الله لا قوة إلَّا بالله»** حتى يفوض الأمر إلى الله لا إلى حوله وقوته، وقد جاء في الأثر أن من قال ذلك في شيء يعجبه من ماله فإنه لن يرى فيه مكروهًا.

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾.

(إِنْ): شرطية، وفعل الشرط ترى، والنون للوقاية، والياء محذوفة للتخفيف، والأصل «ترني».

(أَنَا) :ضمير فصل لا محلَّ له من الإعراب.

﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾: أي: إن احتقرتني لكوني أقل منك مالًا وأقل منك ولدًا ولست مثلك في عزَّة النفر.



قال الله تعالى:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾[الكهف:٤٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ هذه الجملة هي جواب الشرط. وهل هي للترجي أم للتوقع؟

الجواب: فيها احتمالان:

الأول: أنها للترجي، وأن هذا دعا أن يؤتيه الله خيرًا من جنته وأن ينْزل عليها حسبانًا من السماء؛ لأنه احتقره واستذله فدعا عليه بمثل ما فعل به من الظلم، ولا حرج على الإنسان أن يَدعوَ على ظالمه بمثل ما ظلمه، ويحتمل أنه دعا عليه من أجل أن يعرف هذا المفتخر ربه ويدعَ الإعجاب بالمال،وهذا من مصلحته. فكأنه دعا أن يؤتيه الله ما يستأثر به عليه، وأن يتلف هذه الجنة حتى يعرف هذا الذي افتخر بجنته وعزة نفره أن الأمر أمر الله، فكأنه دعا عليه بما يضره لمصلحة هي أعظم. فكون الإنسان يعرف نفسه ويرجع إلى ربه خير له من أن يفخر بماله ويعتز به، هذا إذا جعلنا عسى للترجي.

الثاني: أن تكون عسى للتوقع، والمعنى: أنك إن كنت ترى هذا فإنه يُتوقع أن الله تعالى يُزيل عني ما عبتني به ويزيل عنك ما تفتخر به، وأيًا كان فالأمر وقع إما استجابة لدعائه وإما تحقيقًا لتوقعه.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ :والمراد بالحسبان هنا ما يدمرها من صواعق أو غيرها.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ خصَّ السماء؛ لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، يعني: لو نفرض أنه جاءت أمطار وسيول جارفة أو نيران محرقة تسعى وتحرق ما أمامها، يمكن أن تُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه أو يتعذر.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا﴾: أي: تصبح لا نبات فيها.

﴿زَلَقًا﴾: يعني: قد غمرتها المياه.



قال الله تعالى:

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[الكهف:٤١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ فلا يوجد فيها ماء.

و﴿غَوْرًا﴾ بمعنى: غائر فهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، فدعا دعوة يكون فيها زوال هذه الجنة إمَّا بماء يغرقها حتى تصبح ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، وإما بغور لا سُقيا معه لقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ وكلا الأمرين تدمير وخراب. فالفيضانات تدمر المحصول، وغور الماء حتى لا يستطيع أن يطلبه لبعده في قاع الأرض - أيضًا - يدمر المحصول، فماذا كان بعد هذا الدعاء أو هذا التوقع؟



قال الله تعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: بثمر صاحب الجنتين فهلكت الجنتان.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾: من الندم، وذلك أن الإنسان إذا ندم يقلب كفيه على ما قد حصل.

﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾: وهذا يدل على أنه أنفق فيها شيئًا كثيرًا.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي: هامدة على عروشها. و﴿عُرُوشِهَا﴾ جمع عرش أو عريش وهو ما يوضع لتمدد عليه أغصان الأعناب وغيرها.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ولكن الندم بعد فوات الأوان لا ينفع، إنما ينتفع من سمع القصة، أما من وقعت عليه فلا ينفعه الندم؛ لأنه قد فات الأوان.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾[الكهف:٤٣]

❁ التفسير ❁

فالذي كان يفتخر به ويقول: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ لم تمنعه فِئَتُهُ من عقوبة الله،ولم ينتصر هو بنفسه؛ لأنه - والعياذ بالله - كفر وحاور المؤمن فعوقب بهذه العقوبة.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾[الكهف:٤٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ فيها قراءتان:

١ - الوِلاية .

٢ - الوَلاية.

فالوَلاية: بمعنى: النُّصرة، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾[لأنفال: من الآية٧٢] والوِلاية: بمعنى الملك والسلطة، فيوم القيامة لا نصرة ولا ملك إلَّا ﴿لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾، وإذا كان ليس هناك انتصار ولا سلطان إلا لله فإن جميع من دونه لا يفيد صاحبه شيئًا.

﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾، (هو) الضمير يعود على الله، ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ من غيره، إذا أثاب عن العمل فهو ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾؛ لأن غير الله إن أثاب فإنه يثيب على العمل بمثله، وإن زاد فإنه يزيد شيئًا يسيرًا أما الله فإنه يثيب العمل بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

كذلك هو ﴿وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ جلَّ وعلا؛ لأن من كان عاقبته نصر الله وتَولِّيهُ فلا شك أن هذا خير من كل ما سواه، جميع العواقب التي تكون للإنسان على يد البشر تزول، لكن العاقبة التي عند الله لا تزول.

إنَّ هذا المثل الذي ضربه الله في هذه الآيات هل هو مثل حقيقي أو تقديري؟ يعني: هل هذا الشيء واقع أو أنه شيء مُقدَّر؟

الجواب: من العلماء من قال: إنه مثل تقديري كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[النحل:٧٦]، وكقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ

مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر:٢٩]، وما شابه ذلك، فيكون هذا مثلًا تقديريًا وليس واقعيًا. ولكن السياق وما فيه من المحاورة والأخذ والرد يدل على أنه مثل حقيقي واقع، فهما رجلان أحدهما أنعم الله عليه، والثاني لم يكن مثله.



❁ ثم ضرب الله تعالى مثلًا آخر فقال:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وهو المطر ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أن الرِّياض صارت مختلطة بأنواع النبات المتنوع بأزهاره وأوراقه وأشجاره كما يشاهد في وقت الربيع كيف تكون الأرض، - سبحان الله -، كأنه وَشْيٌ من أحسن الوشْيات، إذا اختلط من كل نوع ومن كل جنس.

﴿فَأَصْبَحَ ﴾: يعني: هذا النبات المختلف المتنوع.

﴿هَشِيمًا ﴾: هامدًا.

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾: أي: تحمله، فهذا هو ﴿مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾. الآن الدنيا تزدهر للإنسان وتزهو له، إذا بها تخمد بموته أو فَقدها، لا بد من هذا، إما أن يموت الإنسان أو أن يفقد الدنيا . هذا مثل موافق تمامًا، وقد ضرب الله تعالى هذا النوع من الأمثال في عدة سور من القرآن الكريم حتى لا نغتر بالدنيا ولا نتمسك بها، والعجب أننا مغترون بها ومتمسكون بها مع أن أكدارها وهمومها وغمومها أكثر بكثير من صفوها وراحتها والشاعر الذي قال:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا ... وَيَــوْمٌ نُــساءُ وَيَــومٌ نُــسَرّ

لا يريد كما يظهر لنا المعادلة، لكن معناه: أنه ما من سرور إلَّا ومعه مساءة، وما من مساءة إلَّا ومعها سرور، لكن صفوها أقل بكثير من أكدارها، حتى المنعمون بها ليسوا مطمئنين بها كما قال الشاعر الآخر:

لا طِيبَ للعيشِ مَا دَامت مُنغَّصَةً ... لذَّاتُـه بادِّكـار المـوْتِ والهـرَمِ

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ ما وجد فهو قادر على إعدامه، وما عُدِم فهو قادر

على إيجاده، وليس بين الإيجاد والعدم إلَّا كلمة ﴿كن﴾، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] . وفي قوله: ﴿مُّقۡتَدِرًا﴾ مبالغة في القدرة.



ثم قال الله تعالى مقارنًا بين ما يبقى وما لا يبقى:

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف:٤٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ﴾ من أي نوع سواء كان من العروض أو النقود أو الآدميين أو البهائم.

﴿وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولا ينفع الإنسان في الآخرة إلَّا ما قدَّم منها، وذكر البنين دون البنات؛ لأنه جرت العادة أنهم لا يفتخرون إلَّا بالبنين، والبنات في الجاهلية مهينات بأعظم المهانة كما قال الله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [النحل:٥٨]، أي: صار وجهه مسودًا وقلبه ممتلئًا غيظًا.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾: يعني: يختبئ منهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، ثم يُقدِّرُ في نفسه ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: من الآية٥٩]. بقي قسم ثالث وهو أن يُمسِكَهُ على عِزٍّ وهذا عندهم غير ممكن، ليس عندهم إلَّا أحد أمرين:

١ - إما أن يمسكه على هون.

٢ - يَدُسه في التراب، أي يدفنه فيه وهذا هو الوأد، قال الله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي: أن الإنسان يتجمل به يعني يتجمل أنَّ عنده أولادًا، قدر نفسك أنك صاحب قِرى يعني: أنك مضياف وعندك شباب عشرة يستقبلون الضيوف، تجد أن هذا في غاية ما يكون من السرور، هذه من الزينة، كذلك قدر نفسك أنك تسير على فرس وحولك هؤلاء الشباب يحُفُّونك من اليمين ومن الشمال ومن الخلف ومن الأمام، تجد شيئًا عظيمًا من الزينة، ولكن هناك شيء خير من ذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي: الأعمال الصالحات من أقوال وأفعال، ومنها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومنها الصدقات والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، هذه الباقيات الصالحات.

﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ أي: أجرًا ومثوبة.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: خير ما يُؤمِّله الإنسان؛ لأن هذه الباقيات الصالحات هي كما وصفها الله بباقيات، أما الدنيا فهي فانية وزائلة.

❁❁❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي: اذكر لهم ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ وعلى هذا فإن ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف عامِلُهُ محذوف والتقدير اذكر ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: اذكر للناس هذه الحال، وهذا المشهد العظيم ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ وقد بين الله في آية أخرى أنه يسيرها فتكون سرابًا ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:٢٠] وتكون كالعهن المنفوش: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [القارعة:٥]، وذلك بأن الله تعالى يدُك الأرض وتصبح الجبال كثيبًا مهيلًا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل:١٤] ثم تتطاير في الجو، هذا معنى نُسَيِّرُ، ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قول الله - تبارك وتعالى - في سورة النمل: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨] . بعض الناس قال: إنَّ هذه الآية تعني دوران الأرض، فإنك ترى الجبال فتظنها ثابتة ولكنها تسير، وهذا خطأ وتَقَوّل على الله تعالى بلا علم؛ لأن سياق الآية يأبى ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل:٨٧- ٨٩] . فالآية واضحة أنها يوم القيامة، وأما زعم هذا الرجل القائل بذلك بأن يوم القيامة تكون الأمور حقائق وهنا يقول: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ فلا حسبان في الآخرة، فهذا خطأ أيضًا؛ لأنه إذا كان الله أثبت هذا فيجب أن نؤمن به ولا نحرفه بعقولنا، ثم إن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢] . فإذا قلنا: إن زلزلة الساعة هي قيامها، فقد بيَّن الله أن الناس يراهم الرائي فيظنهم سكارى

وما هم بسكارى، وعلى كل حال فإن الواجب علينا جميعًا أن نجري الآيات على ظاهرها وأن نعرف السياق؛ لأنه يعين المعنى، فكم من جملة في سياق يكون لها معنى ولو كانت في غير هذا السياق لكان لها معنى آخر، ولكنها في هذا السياق يكون لها المعنى المناسب لهذا السياق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة؛ لأنها تكون قاعًا وصفصفًا، وهي الآن ليست بارزة؛ لأنها مكورة، وأكثرها غير بارز، ثم إن البارز لنا أيضًا كثير منه مختفٍ بالجبال، فيوم القيامة لا جبال ولا أرض كروية بل تمد الأرض مدَّ الأديم، قال الله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ [الانشقاق:١-٣]، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ يدل على أن الأرض الآن غير ممدودة.

وقوله: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: الناس، بل إن الوحوش تحشر كما قال الله: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير:٥]

بل جميع الدواب - أيضًا - كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨] . فكلُّ شيء يحشر، ولهذا يقول الله هنا: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: الناس، وفي الآية الأخرى ﴿ٱلۡوُحُوشُ﴾ وفي الأخيرة جميع الدواب.

وقوله: ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ﴾ أي: نترك، ﴿مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ كل الناس يحشرون، إن مات في البر حشر، في البحر حشر، في أي مكان، لا بد أن يحشر يوم القيامة ويجمع.



قال الله تعالى:

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ [الكهف:٤٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ﴾ أي: عرض الناس ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: على الله .

﴿صَفّٗا﴾ أي: حال كونهم صفًا بمعنى: صفوفًا، فيحاسبهم الله، أما المؤمن فإنه يخلو به وحده ويقرره بذنوبه ويقول له: عملت كذا وعملت كذا فيقر فيقول له أكرم الأكرمين: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْم»(١) يغفر الله له يوم القيامة، ولا يعاقبه عليها وفي الدنيا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٦٨).

يسترها، فكم من ذنوب لنا اقترفناها في الخفاء؟ كثيرة، سواء كانت عملية في الجوارح الظاهرة أو عملية من عمل القلوب، فسوء الظن موجود،و الحسد موجود، إرادة السوء للمسلم موجودة، وهو مستور عليه. وأعمال أخرى من أعمال الجوارح ولكن الله يسترها على العبد، إننا نؤمِّل - إن شاء الله - أن الذي سترها علينا في الدنيا أن يغفرها لنا في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم ذلك. وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام وقد والقسم المقدر، يعني: والله لقد جئتمونا ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ ليس معكم مال ولا ثياب ولا غير ذلك، بل ما فقد منهم يرد إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح أنهم يحشرون يوم القيامة «حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»[1] و«غُرْلا» جمع أغرل وهو: الذي لم يختن، إذًا سوف يعرضون على الله صفا ويقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ويقال أيضًا: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: هذا إضراب انتقال، فهم يوبخون ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ فلا مفر لكم ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: فلا مال لكم ولا أهل، ويوبخون - أيضًا - على إنكارهم البعث فيقال: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، وهذا الزعم تبين بطلانه، فهو باطل.



قال الله تعالى:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: وزِّع بين الناس، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله.

﴿فَتَرَى﴾ أيها الإنسان ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين مما كتب فيه؛ لأنهم يعلمون ما قدموه لأنفسهم، وهذا يشبه قول الله تعالى عن اليهود الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٨٠]، فتُحُدوا وقيل لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٩٤]، قال الله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: من الآية٩٥] يعني: يعرفون أنهم إذا ماتوا عُذِّبوا، ومن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

كان يعلم أنه إذا مات عُذب فلن يتمنى الموت أبدًا، فهؤلاء مشفقون مما في كتاب الله، يعني: يعلمون أنه مُحتوٍ على الفضائح والسيئات العظيمة.

ويقولون إذا علموا: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾.

(يا) حرف نداء ﴿ويلتنا﴾ وهي الهلاك ولكن كيف تنادى؟

الجواب: إما أن «يا» للتنبيه فقط؛ لأن النداء يتضمن الدعاء والتنبيه، وإما أن نقول: إنهم جعلوا ويلتهم بمنْزلة العاقل الذي يوجه إليه النداء، ويكون التقدير: «**يا ويلتنا احضري**»! لكن المعنى الأول أقرب؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ ولأنه أبلغ.

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ)أي شيء لهذا الكتاب؟.

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾: يعني: أثبتها عددًا، كأنهم يتضجرون من هذا، ولكن هذا لا ينفعهم.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ :أي وجدوا ثواب ما عملوا.

﴿حَاضِرًا﴾: لم يغب منه شيء وعبَّر الله تعالى بالعمل عن الثواب؛لأنه مثلُه بلا زيادة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وذلك لكمال عدله فلا يزيد على مسيء سيئة واحدة، ولا ينقص من محسن حسنة واحدة، قال تعالى:﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾[طه:١١٢] . وهذه الآية ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ من الصفات المنفية عن الله، وأكثر الوارد في الصفات الصفات المثبتة كالحياة والعلم والقدرة. وأما ذكر الصفات المنفية فقليل بالنسبة للصفات المثبتة، ولا يتم الإيمان بالصفات المنفية إلَّا بأمرين:

الأول: نفي الصفة المنفية.

والثاني: إثبات كمال ضدها.

فالنفي الذي لم يتضمن كمالًا لا يمكن أن يكون في صفات الله . بل لا بد في كل نفي نفاه الله عن نفسه أن يكون متضمنًا لإثبات كمال الضد، والنفي إن لم يتضمن كمالًا فقد يكون لعدم قابليته، أي قابلية الموصوف له، وإذا لم يتضمن كمالًا فقد يكون لعجز الموصوف، وإذا كان نفيًا محضًا فهو عدمٌ لا كمال فيه، والله تعالى له الصفات الكاملة كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الأكمل.

قلنا: إذا لم يتضمن النفي كمالًا فقد يكون لعدم قابليته، كيف ذلك؟ ألسنا نقول: إن الجدار لا يظلِم؟ بلى، هل هذا كمال للجدار؟ لا؛ لأن الجدار لا يقبل أن يوصف بالظلم، ولا يوصف بالعدل، فليس نفي الظلم عن الجدار كمالًا، وقد يكون النفي إذا لم يتضمن كمالًا نقصًا لعجز الموصوف به عنه، لو أنك وصفت شخصًا بأنه لا يظلم بكونه لا يجازي السيئة بمثلها؛ لأنه رجل ضعيف لا يقدر على الانتصار لنفسه لم يكن هذا مدحًا له.

فالخلاصة أن كل وصفٍ وصف الله به نفسه وهو نفي فإنه يجب أن نعتقد مع انتفائه ثبوتَ كمال ضده، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأحقاف:٣٣]، فعلى هذه القاعدة نفى الله «**العي**» وهو العجز؛ لثبوت كمال ضد العجز وهو القدرة، إذًا نؤمن أن الله له قدرة لا يلحقها عجز، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ:٣٨]، أي: من تعب وإعياء وذلك لكمال قدرته جلَّ وعلا.

قلنا: إن الله لا يظلم أحدًا وذلك لكمال عدله، لكن الجهمية قالوا: «**لا يظلم**» لعدم إمكان الظلم في حقه، وليس لأنه قادر على أن يظلم ولكنه لا يظلم، قالوا: لأن الخلق كلَّهم خلق الله، ملك لله، فإذا كانوا ملكًا لله فإنه إذا عذَّب محسنًا فقد عذب ملكه، وليس ذلك ظلمًا؛ لأنه يفعل في ملكه ما يشاء، ولكن قولهم: هذا باطل؛ لأنه إذا كان الله قد وعد المحسنين بالثواب والمسيئين بالعذاب، ثم أحسن المحسن فعذبه وأساء المسيء فأثابه فأقل ما يقال فيه: إنه- وحاشاه- أخلف وعده. هذا أقل ما يقال، وهذا ولا شك مناف للعدل وللصدق، فنقول لهم: إنَّ الله قال في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»(١)، وهذا يدل على أنه قادر عليه، لكن حرَّمه على نفسه لكمال عدله جلَّ وعلا، إذًا نحن نقول: لا يظلم الله أحدًا لكمال عدله، لا لأن الظلم غير ممكن في حقه كما قالت الجهمية.



۞ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف:٥٠]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ «**إذ**» هذه تأتي كثيرًا في القرآن، والمُعرِبون يقولون: إنها مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكرْ إذْ يعني: اذكر هذا للأمة حتى تعتبر به ويتبين به فضيلة بني آدم عند الله.

وقوله: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ هم عالم غيبي خلقهم الله من نور. كما أعلمنا النبي ﷺ أن الله خلقهم من نور . وأعلمنا الله تعالى في القرآن أنه خلق الجنَّ من نار، وأنه خلق البشر من طين، إذًا المخلوقات

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه(٤٢٥٧).

التي نعلمها هي: الملائكة من نور، والجن من نار، والإنسان من طين، فالملائكة إذًا عالم غيبي والإيمان بهم أحد أركان الإيمان، والملائكة على خلاف الشياطين كما يتبين من الآية، وهم أقدر من الشياطين وأطهر من الشياطين، ولهم من النفوذ ما ليس للشياطين، فالشياطين لا يمكن أن يَلِجُوا إلى السماء، بل من حاول أُتبع بالشهاب المحرق، والملائكة يصعدون فيها، فهم يصعدون بأرواح بني آدم إلى أن تصل إلى الله، وهم - أيضًا - قد ملأوا السموات، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إيمانًا لا شك فيه، وأنهم عالم غيبي، لكن قد يكونون من العالم المحسوس بقدرة الله كما كان جبريل، فقد رآه النبي ﷺ مرتين له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق وهو واحد،وهذا يدل على عظمة خِلقته، وعظمة خِلقة جبريل تدل على عظمة الخالق - جلَّ وعلا - وأحيانًا يأتي جبريل الذي هذا وصفه وهذا خلقه على صورة إنسان، ولكن ليس تقلبه هكذا بقدرته هو، ولكن بقدرة خالقه - جلَّ وعلا -، والله أعطاه القدرة على التقلب والتكيف بقدرة الله - جلَّ وعلا -.

وقوله تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ قال بعضهم: سجود تحية، وليس سجودًا على الجبهة، قالوا ذلك فرارًا من كونه سجودًا على الجبهة؛ لأن السجود على الجبهة لا يصح إلا لله، ولكن الذي يجب علينا أن نأخذ الكلام على ظاهره ونقول: الأصل أنه سجود على الجبهة، وإذا كان امتثالًا لأمر الله لم يكن شركًا كما أن قتل النفس بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالًا لأمر الله كان طاعة من الطاعات، فإن إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - أُمر بذبح ابنه فامتثل أمر الله وشرع في تنفيذ الذبح، ولا يخفى ما في ذبح الابن من قطيعة الرحم، لكن لما كان هذا امتثالًا لأمر الله صار طاعة، ولما تحقق مراد الله تعالى من الابتلاء نسخ الأمر ورفع الحرج، إذًا فالسجود لآدم لولا أمر الله لكان شركًا، لكن لما كان بأمر الله كان طاعة لله.

وآدم: هو أبو البشر، خلقه الله من طين وخلقه بيده، قال أهل العلم: لم يخلق الله شيئًا بيده إلا آدم وجنة عدن، فإنه خلقها بيده وكتب التوراة بيده - جل وعلا -، فهذه ثلاثة أشياء كلها كانت بيد الله، أما غيرُ آدم فيخلق «بكلمة» (كن) فيكون، وهو نبي، وليس برسول؛ لأن أول رسول أرسل إلى البشرية هو نوح - عليه الصلاة والسلام -، أرسله الله لما اختلف الناس: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة: من الآية٢١٣]، أي: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول رسول نوحٌ - عليه الصلاة والسلام - وآدم نبي مُكلَّم، فإذا قال قائل: كيف يكون نبيًا ولا يكون رسولًا؟.

الجواب: يكون نبيًا ولا يكون رسولًا؛ لأنه لم يكن هناك داعٍ إلى الرسالة، فالناس كانوا على ملة واحدة والبشر لم ينتشروا بعد كثيرًا، ولم يفتتنوا في الدنيا كثيرًا، نفر قليل، فكانوا يستنون بأبيهم ويعملون عمله، ولما انتشرت الأمة وكثرت واختلفوا أرسل الله الرسل.

﴿ٱسۡجُدُواْ﴾: امتثالًا لأمر الله ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾: لم يسجد. وإبليس هو الشيطان ولم يسجد، بيَّنَ الله

سبب ذلك في قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: فالجملة استئنافية لبيان حال إبليس أنه كان من الجن أي: من هذا الصنف ،وإلا فهو أبوهم.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعة الله تعالى في أمره، وأصل الفسوق الخروج، ومنه قولهم: فسقت التمرة إذا انفرجت وانفتحت.

فإذا قال قائل: إن ظاهر القرآن أن إبليس كان من الملائكة؟.

فالجواب: لا، ليس ظاهر القرآن؛ لأنه قال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ثم ذكر أنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، نعم القرآن يدل على أن الأمر توجه إلى إبليس كما قد توجه إلى الملائكة، ولكن لماذا؟ قال العلماء: إنه كان – أي: إبليس – يأتي إلى الملائكة ويجتمع إليهم، فوجه الخطاب إلى هذا المجتمع من الملائكة الذين خُلقوا من النور، ومن الشيطان الذي خُلق من النار، فرجع الملائكة إلى أصلهم والشيطان إلى أصله، وهو الاستكبار والإباء والمجادلة بالباطل؛ لأنه أبى واستكبر وجادل، ماذا قال لله؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢]، فكيف تأمرني أن أسجد لواحد أنا خير منه؟ ثم علل بعلة هي عليه قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: من الآية ١٢]. وهذا عليه، فإن المخلوق من الطين أحسن من المخلوق من النار، المخلوق من النار خلق من نار محرقة ملتهبة فيها علامة الطيش، تجد اللهب فيها يروح يمينًا وشمالًا، ما لها قاعدة مستقرة، ولقد ذكر ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» فروقًا كثيرة بين الطين وبين النار، ثم على فرض أنه خلق من النار وكان خيرًا من آدم،أليس الأجدر به أن يمتثل أمر الخالق؟ بلى، لكنه أبى واستكبر.

قال الله لما بين حال الشيطان: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾: الخطاب يعود لمن اتخذ إبليس وذريته أولياء من دون الله فعبدوا الشيطان وتركوا عبادة الرحمن، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يس:٦٠] ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس:٦١].

قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: من ولدوا منه، سُئل بعض السلف – سأله ناس من المتعمقين – فقالوا: هل للشيطان زوجة؟ قال: إني لم أحضر العقد، وهذا السؤال لا داعي له، نحن نؤمن بأن له ذرية أما من زوجة أو من غير زوجة ما ندري، أليس الله قد خلق حواء من آدم؟ بلى، فيجوز أن الله خلق ذرية إبليس منه كما خلق حواء من آدم.

وهذه المسائل – مسائل الغيب – لا ينبغي للإنسان أن يورد عليها شيئًا يزيد على ما جاء في النص؛ لأن هذه الأمور فوق مستوانا، نحن نؤمن بأن لإبليس ذرية، ولكن هل يلزمنا أن نؤمن بأن له زوجة؟

الجواب: لا يلزمنا.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾: أي: تتولونهم وتأخذون بأمرهم من دون الله ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ هذا محط الإنكار، يعني كيف تتخذون هؤلاء أولياء وهم لكم أعداء؟ هذا من السفه ونقص العقل ونقص التصرف أن يتخذ الإنسان عدوه وليًا.

﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس هذا البدل بدلًا لهم، وما هو البدل الخير؟.

الجواب: أن يتخذوا الله وليًا لا الشيطان.

وقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ﴾: يمكن أن نقول إنها بمعنى الكافرين؛ لأنهم هم الذين اتخذوا الشيطان وذريته أولياء على وجه الإطلاق، ويمكن أن نقول: إنها تعم الكافرين ومن كان ظُلمهم دون ظلم الكفر، فإن لهم من ولاية الشيطان بقدر ما أعرضوا به عن ولاية الرحمن.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف:٥١]



❁ التَفسِير ❁

قوله تعالى:﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يعني: أن هؤلاء الذين اتخذهم الناس أولياء من دون الله ليس لهم حق الكون والتدبير، فالله - - ما أشهدهم خلق السموات والأرض؛ لأن السموات والأرض مخلوقتان قبل الشياطين.

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: ما أشهدت بعضَهم خلق بعض، فكيف تتخذونهم أولياء وهم لا شاركوا في الخلق ولا خلقوا شيئًا،بل ولا شاهدوه، وفي هذه الجملة دليل على أن كل من تكلم في شيء من أمر السموات والأرض بدون دليل شرعي أو حسي فإنه لا يُقبل قوله، فلو قال: إن السموات تكونت من كذا والأرض تكونت من كذا وبعضهم يقول: الأرض قطعة من الشمس، وما أشبه ذلك من الكلام الذي لا دليل على صحته.

فإننا نقول له: إن الله ما أشهدك خلق السموات والأرض، ولن نقبل منك أيَّ شيء من هذا إلاَّ إذا وجدنا دليلًا حسيًا لا مناص لنا منه، حينئذٍ نأخذ به؛ لأن القرآن لا يعارض الأشياء المحسوسة.

﴿وَمَا كُنتُ﴾ الضمير في ﴿كُنتُ﴾ يعود إلى الله.

﴿كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾أي: أنصارًا ينصرون ديني؛ لأن المضل يصرف الناس عن الدين، فكيف يتخذ الله المضلين عضدًا، وهو إشارة إلى أنه لا ينبغي لك أيها الإنسان أن تتخذ

المضلين عضدًا تنتصر بهم؛ لأنهم لن ينفعوك بل سيضرونك، إذًا لا تعتمد على السفهاء ولا تعتمد على أهل الأهواء المنحرفة؛ لأنه لا يمكن أن ينفعوك بل هم يضرونك، فإذا كان الله لم يتخذ المضلين عضدًا فنحن كذلك لا يليق بنا أن نتخذ المضلين عضدًا؛ لأنهم لا خير فيهم، وفي هذا نهي عن بطانة السوء وعن مرافقة أهل السوء، وأن يحذر الإنسان من جلساء السوء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف:٥٢]



❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: اذكر يوم يقول: ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ فينادونهم ولا يستجيبون لهم، وهذا يكون يوم القيامة، يقال لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم أولياء شفعاء.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾: فهذه الأصنام لا تنفع أهلها بل تُلقى هي وعابدوها في النار، قال الله:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾: الموبق هو مكان الهلاك، يعني: أننا جعلنا بينهم حائلًا مهلكًا حيث لا يمكن أن يذهبوا إلى شركائهم، ولا أن يأتي شركاؤهم إليهم، أرأيت لو كان بينك وبين صاحبك خندق من نار، هل يمكن أن تذهب إليه لتنصره؟ أو أن يأتي إليك لينصرك؟

الجواب: لا يمكن، هؤلاء يجعل الله بينهم يوم القيامة ﴿مَّوْبِقًا﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]



❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ المجرمون يعني: الكافرين، كما قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]. ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: أيقنوا: ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾ والظن يأتي

بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[البقرة: ٤٦]، أي: يوقنون أنهم ملاقوا الله، وإلَّا فالظن الذي هو ترجيح أحد الأمرين المشكوك فيهما لا يكفي في الإيمان.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ يعني: لم يجدوا مكانًا ينصرفون عنها إليه، وهذه الجملة معطوفة على (رأى) وليست داخلة تحت قوله ظنوا؛ لأنه لو كان داخلًا في الظن لقال: «ولن»، يعني: أنهم لما رأوْها وظنوا أنهم مواقعوها لم يجدوا عنها مصرفًا أي: مكانًا ينصرفون إليه لينجوا به منها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف:٥٤]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿صَرَّفْنَا﴾ يعني: نوعنا، تصريف الشيء يعني:تنويعه كما قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾[البقرة: ١٦٤]، أي: تنويعها من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، إذًا ﴿صَرَّفْنَا﴾ أي: نوعنا في هذا القرآن من كل مثل، وهكذا الواقع، فكلام الله صدق، أمثال القرآن تجدها متنوعة فتارة لإثبات البعث، وتارة لإثبات وحدانية الله، وتارة لبيان حال الدنيا، وتارة لبيان حال الآخرة، وتارة تكون مطولة، وتارة مختصرة، فهي أنواع، كل نوع في مكانه من البلاغة والفصاحة.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل جنس وصنف، فهذا مثل لكذا وهذا مثل لكذا، لماذا؟

الجواب: من أجل أن يتذكر الناس ويتعظوا ويعقلوها. ولكن يوجد من الناس من لا يتعظ بهذه الأمثلة، بل على العكس، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، بعض المفسرين يقول: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: الكافر، ولكن في هذا نظر؛ لأنه لا دليل على تخصيصه بالكافر، بل نقول: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ من حيث الإنسانية.

﴿شَيْءٍ جَدَلًا﴾: يعني: أكثر ما عنده، ولكن من حيث الإيمان فالمؤمن لا يكون مجادلًا، بل يكون مستسلمًا للحق ولا يجادل فيه، ولهذا قال عبد الله بن مسعود: «**مَا أُوتِي قَوْمٌ الجدَلَ إِلَّا ضَلُّوا**» وتدبر حال الصحابة تجد أنهم مستسلمون غاية الاستسلام لما جاءت به الشريعة، ولا يجادلون ولا يقولون لم؟ ولما قال الرسول ﷺ: «**تَوَضَّؤوا مِنْ لُحُومِ الإِبلِ وَلَا توضؤوا مِنْ لُحُومِ الغَنَمِ**»[1] هل قال الصحابة «لِمَ»؟ بل قالوا: سمعنا وأطعنا، ما جادلوا، وكذلك في بقية الأوامر، لكن الإنسان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٦٠)، وابن ماجه(٤٩٥).

من حيث هو إنسان أكثر شيء عنده الجدل. إذًا إذا مر بك مثل هذا في القرآن الكريم ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فلا تحمله على الكافر إلا إذا كان السياق يُعَيِّنُ ذلك، فإذا كان السياق يراد به ذلك صار هذا عامًا يراد به الخاص، لكن إذا لم يكن في السياق ما يعين ذلك فاجعله للعموم، اجعله إنسانًا بوصف الإنسانية، والإنسانية إذا غلب عليها الإيمان اضمحل مقتضاها المخالف للفطرة.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ هذا وقع في قول الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب وزوجته فاطمة حين جاء إليهما ذات ليلة ووجدهما نائمين فقال: «أَلَا تُصَلِّيَان»؟ قال علي: «إِنَّ أنفُسَنا بيد الله وَلَوْ شَاءَ لَأَيْقَظَنَا»، فانصرف الرسول ﷺ وهو يضرب على فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1]، ولا شك أن الرسول ﷺ يعلم أن أنفسهما بيد الله، والرسول - عليه الصلاة والسلام - قال في الفريضة: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا»[2] فعذر الناسي والنائم وهو يعلم ﷺ ذلك، ولكنه يريد أن يَحُثَّهما، وأراد علي أن يدفع اللوم عنه وعن زوجه فاطمة.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾[الكهف:٥٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ يعني: ما منع الناس عن الإيمان والاستغفار نقص البيان، فقد ذكر الله أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، وكان الواجب على الإنسان إذا ضربت له الأمثال أن يؤمن، لكنه ما منعهم من الإيمان نقصٌ في البيان، فالأمر والحمد لله بين واضح أتى بها النبي ﷺ بيضاء نقية لكنه العناد.

ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: ما ينتظرون إلَّا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلًا.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ يعني: يطلبون مغفرته، فالمؤمن كثير الاستغفار لربه، والكافر إذا آمن لا بد أن يستغفر الله مما وقع فيه من الذنوب، فإذا آمن واستغفر زال عنه ما كان من الذنوب، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢٧)، و مسلم (٧٧٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٨٤)، و مسلم (٥٩٧).

مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[لأنفال:٣٨]

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ يعني: مقابلة ومعاينة ومباشرة، وما هي سنة الأولين؟

الجواب: هي أخذهم بالعذاب العام، لكن لم يأخذ الله هذه الأمة بعذاب شامل؛ لأن النبي ﷺ دعا ربه ألا يهلك أمَّته بسنة بعامة فأجاب الله دعاءه.



قال الله تعالى:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾[الكهف:٥٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ هذه وظيفة الرسل ،ما نرسل المرسلين من أولهم نوح إلى آخرهم محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم - إلَّا لهذين الأمرين: مبشرين ومنذرين، يعني: ولم نرسلهم من أجل أن يجبروا الناس على الإيمان بل هم مبشرون ومنذرون، يبشرون المؤمنين وينذرون الكافرين.

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ منصوبة على الحال من المرسلين، يعني: إلَّا حال كونهم مبشرين ومنذرين.

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ :المجادلة هي المخاصمة، وسميت المخاصمة مجادلة؛ لأن كل واحد يَجْدُلُ حجته للآخر، والجَدْل: هو فتل الحبل حتى يشتد ويقوى، هذا أصل المجادلة، إذًا يجادل أي: يخاصم، والمخاصمة بالباطل باطلة، مثال ذلك في الرسل يقولون: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾[التغابن: من الآية٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾[المؤمنون: من الآية٢٤]، ويجادلون في البعث فيقولون: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾[يس: ٧٨]، ويجادلون في الآلهة يقولون: إذا كان المشركون وما يعبدون من دون الله حصب جهنم، فعيسى من حصب جهنم، وغير ذلك من المجادلة، وقد أبطل الله مجادلتهم بعيسى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾[الانبياء: من الآية١٠١]، ومنهم عيسى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[الانبياء: من الآية١٠١] ويستفاد من الآية أن كل إنسان يجادل من أجل أن يدحض الحق فإن له نصيبًا من هذه الآية، يعني: أن فيه نصيبًا من الكفر - والعياذ بالله -؛ لأن الكافرين هم الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، فإذا قال قائل: «**الشبهات التي يوردها من يوردها من الناس كيف يقال إنها باطل وهي شبهة؟**».

فالجواب: إذا كان غرضهم منها أن يُدحضوا الحق، مثل الذين ينكرون حقيقة استواء الله على العرش ويقولون: إنه لو استوى على العرش لكان «جسمًا»، فهؤلاء جادلوا بالباطل من أجل أن يدحضوا الحق الذي أثبته الله لنفسه، وأما مسألة أن الله «جسم» أو غير «جسم» فهذا شيء آخر، المهم أنهم أتوا بهذه الكلمة من أجل إدحاض الحق، ونحن لا ننكر عليهم مسألة أنه «جسم أو غير جسم»، ننكر أنهم أنكروا حقيقة الاستواء، وأما مسألة أنه «جسم أو غير جسم» فهذا مبحث آخر، وهو أننا لا نثبت اللفظ «جسم» ولا ننكره، أما المعنى فنقول: إن الله تعالى حق قائم بذاته، موصوف بصفاته ،يفعل ما يشاء، يستوي على عرشه، وينزل إلى السماء الدنيا، وينْزِل ليفصل بين العباد، ويعجب ويفرح ويضحك، المهم أنه كلما رأيت شخصًا يجادل يريد أن يدحض الحق، فله نصيب من هذه الآية.

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أي: صيروا. ﴿آيَاتِي﴾ يعني: القرآن.

﴿وَمَا أُنْذِرُوا﴾: أي: ما أنذروا به من العذاب اتخذوها ﴿هُزُوًا﴾ مثال ذلك أن الكفار استهزءوا لما أخبر الله عن شجرة الزقوم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات:٦٤]، يعني: في قعره، فصاروا يضحكون، كيف تخرج في أصل الجحيم، وهي شجرة أبعد ما يكون عن النار، النار حارة جافة والشجرة رطبة، فجعلوا يستهزئون ويقولون: هذا من هذيان محمد ﷺ، فاتخذوا ما أنذروا به هزوًا والله قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[الصافات:٦٦] ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[الواقعة:٥٤-٥٥]، يملأون بطونهم من هذه الزَّقوم ملئًا تامًا ثم تحترق من العطش، فماذا يسقون؟ يسقون ماءً حارًا: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾، أي: على ما في بطونهم ﴿مِنَ الْحَمِيمِ﴾، ومع ذلك يشربون شربًا ليس عاديًا بالنسبة إلى البشر، ولكنه شرب الإبل الهيم «العطاش» هذه الشجرة التي يهزءون بها هي التي يملأون بها بطونهم في جهنم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف:٥٧]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: ذكره الواعظ بآيات ربه الكونية، كأخذه الأمم المكذبين، أو الشرعية كالقرآن.

﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ :ولم يقبلها، أي: لا أحد أظلم منه، فإن قيل: ما الجمع بين هذه الآية، وبين الآية التي في أول السورة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[الأنعام:٢١] ونحوها؟

فالجواب: بأحد وجهين:

الأول: أن الأفضلية باعتبار ما شاركه في أصل المعنى، فقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ يعني: من أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها من الذين يُذَكَّرون فيُعرِضون، قد يذكر الإنسان فيعرض، لكن أشد ما يكون أن يذكر بآيات الله ثم يعرض عنها، وفي افتراء الكذب قد يفتري الإنسان الكذب على فلان وفلان، وأعظم ما يكون الافتراء عليه هو الله، وأنت إذا أخذت بهذه القاعدة سلمت من إشكال كبير.

الثاني: وقيل: إن «أظلم» و«أظلم» يشتركان في الأظلمية ويتساويان فيها بالنسبة لغيرهما، وفيه نظر؛ لأنه لا يمكن أن نقول: إنّ من ذكر بآيات ربه فأعرض عنها أنه يساوي من افترى على الله كذبًا، أو من منع مساجد الله أن يُذْكر فيها اسمه يساوي من كذب على الله، ونحو ذلك.

قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: الكونية والشرعية؛ الكونية أن يقال له: إن كسوف الشمس والقمر يخوف الله بهما عباده فيعرض عنها ويقول: أبدًا خسوف القمر طبيعي، وكسوف الشمس طبيعي، ولا إنذار ولا نذير، وهذا إعراض، أما الآيات الشرعية فكثير من يذكر بآيات الله ويعرض عنها.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾: يعني: نسي ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي والاستكبار وغير ذلك مما يمنعه عن قبول الحق؛ لأن الإنسان - والعياذ بالله - كلما أوغل في المعاصي ازداد بعدًا عن الإقبال على الحق كما قال الله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[الصف: من الآية٥]، ولذلك يجب أن يُعلم أن من أشد عقوبات الذنوب أن يعاقب الإنسان بمرض القلب - والعياذ بالله -، فالإنسان إذا عوقب بهلاك حبيب أو فقد محبوب من المال، فهذه عقوبة لا شك، لكن إذا عوقب بانسلاخ القلب فهذه العقوبة أشد ما يكون. يقول ابن القيم : والله ما خوفي الذنوب، فإنها لعلى طريق العفو والغفران وإنما أخشى انسلاخ القلب من تحكيم هذا الوحي، والقرآن هذا هو الذي يخشاه الإنسان العاقل، أما المصائب الأخرى فهي كفارات، وربما تزيد العبد إيمانًا.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرًا﴾ أي: صيرنا.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: أي: قلوب من ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ﴾، وأعيد ضمير الجمع على مفرد باعتبار المعنى؛ لأن «مَن» سواء كان اسمًا موصولًا أو شرطية يجوز في عود الضمير إليها أن يعود على لفظها فيكون مفردًا أو يعود على معناها فيكون مجموعًا أو مثنى حسب السياق، فإذا قلت: «يعجبني من قام» فهنا عاد على اللفظ، وإذا قلت: «يعجبني من قاما» فهنا يعود على المعنى، وكذلك لو قلت: «يعجبني من قاموا»، وقد يراعى اللفظ مرة والمعنى مرة أخرى، وتعود الضمائر

لمراعاة الأمرين في سياق واحد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فهنا روعي اللفظ، وفي قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ روعي اللفظ أيضًا، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ روعي فيها المعنى، وفي قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ روعي اللفظ، كل هذا جاء في سياق واحد: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: من الآية١١]، فروعي اللفظ أولًا ثم المعنى ثانيًا ثم اللفظ ثالثًا.

﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية تمنعهم من ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أن يفقهوا القرآن فلا يفهمونه، وفي هذا الحث على فقه القرآن، وأنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن ويتعلم معناه، كما كان الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صممًا. تأمل - والعياذ بالله - القلوب عليها غِطاء فلا تفقه، والآذان عليها صمم فلا تسمع، فلا يسمعون الحق ولا يفهمونه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ يعني: لو أرشدتهم يا محمد إلى الهدى.

﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا﴾ أي: ما دامت قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقرٌ لن يهتدوا، فمن أين يأتي الهدى، والآذان لا تسمع الحق والقلوب لا تنقاد للحق - والعياذ بالله - فإن قال قائل: هل في هذا تيئيس للرسول ﷺ من أنه وإن دعا لا يقبل منه أو فيه تسلية له؟.

فالجواب: في هذا تسلية له، وأنهم إذا لم يقبلوا الحق فلا عليك منهم ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:٥٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ هذا فيه تسلية للرسول ﷺ من وجه آخر؛ لأن النبي ﷺ يمكن أن يقول: لماذا لم يعاجلوا بالعقوبة؟ كيف يكذبونني وأنا رسول الله ولم يعاقبهم؟! ولكن بَيَّن الله له أنه هو ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الذي يستر الذنوب ويتجاوز عنها.

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: صاحب الرحمة الذي يلطف بالمذنب. ولهذا قال: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: لو أراد الله أن يؤاخذ الناس بما كسبوا لعجل لهم العذاب، وقد بين الله هذا العذاب في آيات أخرى فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا

تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾[فاطر:٤٥] أي: لأهلكهم في الحال.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ «بل» هذه للإضراب الإبطالي، يعني: بل لن يسلموا من العذاب إذا أُخر عنهم، هم موعد ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾أي: مكانًا يؤولون إليه، وهذا يوم القيامة، ويحتمل أن يكون ما يحصل للكفار من القتل على أيدي المؤمنين كما قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة:-١٤-١٥]، إذًا يحتمل أن يكون المراد ما سيكون عليهم من القتل، والأخذ في الدنيا، أو ما سيكون عليهم يوم القيامة الذي لا مفر منه.



قال الله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[الكهف:٥٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾أي: قرى الأمم السابقين، وقد يقول قائل :هنا إشكال فإن القرى جماد، والجماد لا يعود عليه الضمير بصيغة الجمع، يعني أنك لا تقول مثلًا: «هذه البيوت عمرناهم» ولكن تقول: «هذه البيوت عمرناها»، فلماذا قال: «أهلكناهم»؟

فالجواب: قال هذا؛ لأن الذي يهلك هم أهل القرى، وفي هذا دليل واضح على أن القرى قد يراد بها أهلها، وقد يراد بها البناء المجتمع، فالقرية أو القرى تارة يراد بها أهلها وتارة يراد بها المساكن المجتمعة، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص:٥٩]، فالمراد بالقرى هنا أهلها، وقال تعالى:﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[العنكبوت: من الآية٣١]والمراد بالقرية هنا المساكن المجتمعة.

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾: المراد بالظلم هنا الكفر، أي: حين كفروا. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾يعني: جعلنا لإهلاكهم موعدًا، والله يفعل ما يشاء، إن شاء عجَّل العقوبة وإن شاء أخَّر، لكن إذا جاء الموعد لا يتأخر، ولهذا قال نوح - عليه الصلاة والسلام - لقومه:﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح:٤]، فهو أجل معين عند الله في الوقت الذي تقتضيه حكمته.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ مفعول لفعل محذوف والتقدير: «اذكر إذ قال»، يعني: واذكر إذ قال موسى لفتاه؛ أي: غلامه يوشع بن نون، وكان موسى - عليه الصلاة والسلام - ابن عمران قام يخطب يومًا في بني إسرائيل فقام أحدهم وقال: هل على وجه الأرض أعلم منك؟ قال موسى: «لا»، وذلك بناء على ظنه أنه لا أحد أعلم منه، فعتب الله عليه في ذلك، لماذا لم يكل العلم إلى الله؟ فقال الله: إنَّ لي عبدًا أعلم منك وإنَّه في مجمع البحرين، وذكر له علامة وهي أن تفقد الحوت، فاصطحب حوتًا معه في مِكْتَل، وسار هو وفتاه يوشع بن نون جاء ذلك في البخاري لينظر من هذا الذي هو أعلم منه ثم ليتعلم منه أيضًا، كان الحوت في المكتل، فلما استيقظا مع السرعة لم يفتشا في المكتل، وخرج الحوت بأمر الله من المكتل ودخل في البحر.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال، والخبر محذوف والتقدير: «لا أزال أسير».

﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قيل: إنه مكان الله أعلم به، لكن موسى يعلم، وقيل: إنه ملتقى البحر الأحمر مع البحر الأبيض، وكان فيما سبق بينهما أرض، حتى فتحت القناة وهذا ليس ببعيد، وسبب ذلك أن الله أوحى إليه أن عبدًا في مجمع البحرين أعلم منك.

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾: أو هنا للتنويع، يعني: إما أن أبلغ مجمع البحرين أو أمضي في السير حقبًا أي: دهورًا طويلة، وقيل: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: «إلَّا» أي: حتى أبلغ مجمع البحرين إلَّا أن ﴿أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي: دهورًا طويلة قبل أن أبلغه، لكن الوجه الأول أسد، فتهيئًا لذلك وسارا، وسبب قوله هذا أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن عبدًا لنا هو أعلم منك عند مجمع البحرين، فسار موسى إليه طلبًا للعلم.



قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾[الكهف:٦١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: موسى وفتاه.

(مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا) أي: بين البحرين.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: أضاف الفعل إليهما مع أن الناسي هو الفتى وليس موسى، ولكن القوم إذا كانوا في شأن واحد وفي عمل واحد، نسب فعل الواحد منهم أو القائل منهم إلى الجميع، ولهذا يخاطب الله بني إسرائيل في عهد الرسول ﷺ فيقول: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة:٥٠] ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: من الآية٥٥]، مع أنهم ما قالوا هذا؛ لكن قاله أجدادهم.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: نسيان ذهول وليس نسيان ترك، وهذا من حكمة الله، أن الله أنساهما ذلك لحكمة، وهذا الحوت قد جعله الله علامة لموسى، أنك متى فقدت الحوت فثَم الخضر، وهذا الحوت كان في مِكْتَل وكانا يقتاتان منه، ولما وصلا إلى مكان ما ناما فيه عند صخرة، فلما استيقظا وإذا الحوت ليس موجودًا، لكنه أي: الفتى لم يتفقد المكتل ونسي شأنه وأمره، هذا الحوت - سبحان الله - خرج من المكتل، ودخل في البحر وجعل يسير في البحر، والبحر ينحاز عنه.

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: اتخذ الحوت طريقه في البحر.

﴿سَرَبًا﴾ أي: مثل السرب، والسرب هو السرداب يعني أنه يشق الماء ولا يتلاءم الماء، وهذا من آيات الله، وإلا فقد جرت العادة أن الحوت إذا انغمر في البحر يتلاءم البحر عليه، لكن هذا الحوت من آيات الله، أولًا: أنه قد مات، وأنهما يقتاتان منه، ثم صار حيًا ودخل البحر ثانيًا: أنه صار طريقه على هذا الوجه، وهذا من آيات الله - تبارك وتعالى -.



قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[الكهف:٦٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ الفاعل موسى وفتاه ﴿جَاوَزَا﴾ يعني: تعديا ذلك المكان، قال

موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾: وكان ذلك؛ لأن الغداء هو الطعام الذي يؤكل في الغداة.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي: تعبًا.

وقوله: ﴿مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ ليس المراد من حين ابتداء السفر، ولكن من حين ما فارقا الصخرة، ولذلك طلب الغداء، قال أهل العلم: وهذا من آيات الله فقد سارا قبل ذلك مسافة طويلة ولم يتعبا، ولما جاوزا المكان الذي فيه الخضر تعبا تعبا سريعًا من أجل ألا يتماديا في البعد عن المكان.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:٦٣]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: قال الفتى لموسى:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي :ما حصل حين لجأنا إلى الصخرة، والمراد بالاستفهام التعجب أو تعجيب موسى.

(فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ) يعني: نسيت أن أتفقده أو أسعى في شأنه أو أذكره لك، وإلا فالحوت معروف كان في المكتل.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ قوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ هذه بدل من الهاء في «أنسانيه»، يعني: ما أنساني ذكره إلا الشيطان.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: اتخذ الفتى أو موسى سبيل الحوت في البحر.

﴿عَجَبًا﴾ يعني: محل عجب، وهو محل عجب، ماء سيال يمر به هذا الحوت، ويكون طريقه سربًا، فكان هذا الطريق للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا، ولنا أيضًا عجبًا؛ لأن الماء عادة يتلاءم على ما يمر به لكن هذا الحوت - بإذن الله - لم يتلاءم الماء عليه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: قال موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا

نَبْغِ﴾ أي: ما كنا نطلب؛ لأن الله أخبره بأنه إذا فقد الحوت، فذاك محل اتفاقه مع الخضر.

(فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) يعني: رجعا بعد أن أخذا مسافة تعبا فيها، إرتدا على آثارهما، يعني: يقصان أثرهما؛ لئلا يضيع عنهما المحل الذي كانا قد أويا إليه.



قال الله تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف:٦٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الخضر كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ هل هو عبدٌ من عباد الله الصالحين أو من الأولياء الذين لهم كرامات أو من الأنبياء الموحى إليهم؟ كل ذلك ممكن، لكن النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كراماتٍ؛ ليبين الله بذلك أن موسى لا يحيط بكل شيء علمًا وأنه يفوته من العلم شيء كثير.

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: أن الله - جلَّ وعلا - جعله من أوليائه برحمته إياه.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يعني: علمًا لا يطَّلِع عليه الناس، وهو علم الغيب في هذه القصة المعينة وليس علم نبوة، ولكنه علم خاص؛ لأن هذا العلم الذي اطَّلع عليه الخضر لا يمكن إدراكه وليس شيئًا مبنيًا على المحسوس، فيبنى المستقبل على الحاضر، بل شيئًا من الغائب، فأطلعه الله تعالى على معلومات لا يطَّلع عليها البشر.



قال الله تعالى:

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[الكهف:٦٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: قال موسى للخضر: هل أتبعك؟ وهذا عرض لطيف وتواضع، وتأمّل هذا الأدب من موسى - عليه الصلاة والسلام - مع أن موسى أفضل منه، ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب: ٦٩]، ومع ذلك يتلطف معه؛ لأنه سوف يأخذ منه علمًا لا يعلمه موسى، وفي هذا دليل أنَّ على طالب العلم أن يتلطف مع شيخه ومع أُستاذه وأن يُعامله

بالإكرام، ثم بين موسى أنه لا يريد أن يَتَّبِعَه ليأكل من أكله أو يشرب من شربه، ولكن ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ولا شك أن الخضر سيفرح بمن يأخذ عنه العلم، وكل إنسان أعطاه الله علمًا ينبغي أن يفرح أن يؤخذ منه هذا العلم؛ لأن العلم الذي يُؤخذ من الإنسان في حياته ينتفع به بعد وفاته، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٧، ٦٨]



❁ التفسير ❁

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾: وبيّن له عذره في قوله هذا، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، وأين الدليل للخضر أن موسى لم يحط بذلك خُبرا؟.

الجواب: لأنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا يدل على أنه لا علم له فيما عند الخضر.

فماذا قال موسى؟

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:٦٩]



❁ التفسير ❁

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ هذا الذي قاله موسى قاله فيما يعتقده في نفسه في تلك الساعة من أنه سيصبر، لكنه علَّقه بمشيئة الله لئلَّا يكون ذلك اعتزازًا بنفسه وإعجابًا بها.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو كقول إسماعيل بن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لما قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: من الآية١٠٢]، وموسى قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، - وأيضًا - أصبر على ما تفعل وأمتثل ما به تأمر ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).

أَمْرًا﴾، وعده بشيئين:

١ - الصبر على ما يفعل.

٢ - الائتمار بما يأمر، والانتهاء عما ينهى.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٧٠]



❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ ومعلوم أنه سيتبعه.

﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أي: عن شيء مما أفعله.

﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: (حَتَّى) هنا للغاية، يعني: إلى أن ﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: إلى أن أذكر لك السبب، وهذا توجيه من معلم لمن يتعلم منه، ألَّا يتعجل في الرد على معلمه، بل ينتظر حتى يحدث له بذلك ذكرًا، وهذا من آداب المتعلم ألَّا يتعجل في الرد حتى يتبين الأمر.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف:٧١-٧٣]



❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ الفاعل موسى والخضر، وسكت عن الفتى، فهل الفتى تأخر عن الركوب في السفينة، أم أنه ركب ولكن لما كان تابعًا لم يكن له ذكر؟.

الجواب: الذي يظهر - والله أعلم - أنه كان تابعًا، لكن لم يكن له تعلق بالمسألة، والأصل هو موسى، طوي ذكره وهو أيضًا تابع.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ مرَّت سفينة، وهما يمشيان على شاطئ البحر فركبا فيها.

﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ أي: الخضر بقلع إحدى خشبها الذي يدخل منه الماء، فقال له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذا إنكار من موسى على الخضر مع أنه قال له: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾

لكنه لم يصبر؛ لأن هذه مشكلتها عظيمة، سفينة في البحر يخرقها فتغرق! واللام في قوله: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ ليست للتعليل، ولكنها للعاقبة، يعني: أنك إذا خرقتها غرق أهلها، وإلَّا لا شك أن موسى لا يدري ما غرض الخضر، ولا شك أيضًا أنه يدري أنه لا يريد أن يغرق أهلها؛ لأنه لو أراد أن يغرق أهلها لكان أول من يغرق هو وموسى، لكن اللام هنا للعاقبة، ولام العاقبة ترد في غير موضع في القرآن، مثل قول الله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] لو سألنا أي إنسان: هل آل فرعون التقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا؟.

الجواب: أبدًا، ولكن هذه للعاقبة.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ يعني: شيئًا عظيمًا، يعني: كان موسى شديدًا قويًا في ذات الله، فقد أنكر عليه، وبين أن فعله ستكون عاقبته الإغراق، وزاده توبيخًا في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

١ - اللام.

٢ - قد.

٣ - القسم المقدر الذي تدل عليه اللام، والإمر بكسر الهمزة الشيء العظيم، ومنه قول أبي سفيان لهرقل لما سأله عن الرسول ﷺ وبين له حاله وصفاته وما كان من أخلاقه، فلما انصرف مع قومه، قال أبو سفيان: «**لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كَبْشَة إنه ليخافه مَلِكُ بني الأصفر**»(١)، يعني بابن أبي كبشة: الرسول ﷺ. و: «أَمِرَ أمرُه» يعني عَظُم أمره.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

فاعتذر موسى:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣].

وسبب نسيان موسى؛ أن الأمر عظيم اندهش له: أن تغرق السفينة وهم على ظهرها، وهذه توجب أن الإنسان ينسى ما سبق من شدة وقع ذلك في النفس.

وقوله: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بنسياني، ولهذا نقول في إعراب «ما»: إنها مصدرية، أي: بنسياني ذلك وهو قولي: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يعني: لا تثقل علي وتعسر علي الأمور؛ وكأن هذا والله أعلم توطئة لما يأتي بعده.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

قال الله تعالى:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾[الكهف:٧٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ بعد أن أرست السفينة على الميناء. ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ ولم يقل: «قتله»، وفي السفينة قال: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ ولم يقل: «فخرقها»، يعني: كأن شيئًا حصل قبل القتل فقتله.

(غُلامًا) الغلام هو الصغير، ولم يصبر موسى. ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ وفي قراءة «زاكية»؛ لأنه غلام صغير، والغلام الصغير تكتب له الحسنات، ولا تكتب عليه السيئات، إذًا فهو زكي؛ لأنه صغير ولا تكتب عليه السيئات.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني: أنه لم يقتل أحدًا حتى تقتله، ولكن لو أنه قتل هل يُقتل أو لا؟.

الجواب: في شريعتنا لا يقتل؛ لأنه غير مُكلَّف ولا عَمْد له، على أنه يحتمل أن يكون هذا الغلام بالغًا وسمي بالغلام لقرب بلوغه وحينئذٍ يزول الإشكال.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾: هذه العبارة أشد من العبارة الأولى. في الأولى قال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، ولكن هنا قال: ﴿نُكْرًا﴾ أي: منكرًا عظيمًا، والفرق بين هذا وهذا، أن خرق السفينة قد يكون به الغرق وقد لا يكون وهذا هو الذي حصل، لم تغرق السفينة، أما قتل النفس فهو منكر حادث ما فيه احتمال.



قال الله تعالى:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[الكهف:٧٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾: هنا فيها لوم أشد على موسى، في الأولى قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ وفي الثانية قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ يعني: كأنك لم تفهم ولن تفهم، ولذلك كان الناس يفرقون بين الجملتين، فلو أنك كلمت شخصًا بشيء وخالفك فتقول في الأول: «ألم أقل إنك»، وفي الثاني تقول: «ألم أقل لك» يعني: أن الخطاب ورد عليك ورودًا لا خفاء فيه، ومع ذلك خالفت، فكان قول الخضر لموسى في الثانية أشد: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ﴾، فقال له موسى لما رأى أنه لا عذر له:



قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف:٧٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي: امنعني من صحبتك، وفي قول موسى:

﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾: إشارة إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - يرى أنه أعلى منه منزِلة وإلَّا لقال: «إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا أُصَاحِبُكَ».

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ يعني: أنك وصلت إلى حال تعذر فيها؛ لأنه أنكر عليه مرتين مع أن موسى التزم ألَّا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرًا.



قال الله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ولم يعين الله القرية فلا حاجة إلى أن نبحث عن هذه القرية، بل نقول: قرية أبهمها الله فنبهمها.

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي: طلبا من أهلها طعامًا.

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ولا شك أن هذا خلاف الكرم، وهو نقص في الإيمان؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[١].

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) أي: أنه مائل يريد أن يسقط، فإن قيل: هل للجدار إرادة؟

فالجواب: نعم له إرادة، فإن ميله يدل على إرادة السقوط، ولا تتعجب إن كان للجماد إرادة، فها هو «أُحُد» قال عنه النبي ﷺ إنه: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[٢] والمحبة وصف زائد على الإرادة، أما قول بعض الناس الذين يجيزون المجاز في القرآن: إنَّ هذا كناية وأنه ليس للجماد إرادة فلا وجه له.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٦٧)، ومسلم (١٣٤٥).

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: أقامه الخضر، لكن كيف أقامه؟ الله أعلم، قد يكون أقامه بيده، وأن الله أعطاه قوة فاستقام الجدار، وقد يكون بناه البناء المعتاد، المهم أنه أقامه، ولم يبين الله تعالى طول الجدار ولا مسافته ولا نوعه فلا حاجة أن نتكلف معرفة ذلك.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولم ينكر عليه أن يبنيه ولا قال: كيف تبنيه وقد أبوا أن يضيفونا؟! بل قال: ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ وهذا لا شك أنه أسلوب رقيق فيه عرض لطيف ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي عِوَضًا عن بنائه.

❁❁❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: انتهى ما بيني وبينك فلا صحبة. ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سأخبرك عن قُربٍ قبل المفارقة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، وإنما قلنا: «سأخبرك عن قرب»؛ لأن السين تدل على القرب بخلاف سوف، وهي أيضًا تفيد مع القرب التحقيق. ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسيره وبيان وجهه.

❁❁❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٧٩، ٨٠]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ «ال» في السفينة هي للعهد الذكري أي: السفينة التي خرقتها.

﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: أنهم يطلبون الرزق فيها إما بتأجيرها، أو صيد السمك عليها، ونحوه وهم مساكين جمع، والجمع أقله ثلاثة، وليس ضروريًا أن نعرف عددهم.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ يعني: أن أجعل فيها عيبًا، لماذا؟

قال: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيبها حتى إذا مرت بهذا الملك، قال: هذه سفينة معيبة لا حاجة لي فيها؛ لأنه لا يأخذ إلا السفن الصالحة الجيدة، أما هذه فلا حاجة له فيها، فصار فعل الخضر من باب دفع أشد الضررين بأخفهما، ومنه يؤخذ فائدة عظيمة وهي إتلاف بعض الشيء لإصلاح باقيه، والأطباء يعملون به، تجده يأخذ من الفخذ قطعة فيصلح بها عيبًا في الوجه، أو في الرأس، أو ما شابه ذلك، وأخذ منه العلماء - رحمهم الله - أن الوقف إذا دَمَر وخرب فلا بأس أن يباع بعضه ويصرف ثمنه في إصلاح باقيه، ثم بين الخضر حال الغلام فقال: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿أَبَوَاهُ﴾ أي: أبوه وأمه ﴿مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي: وهو كافر.

﴿فَخَشِينَا﴾ أي: خفنا، والخشية في الأصل خوف مع علم، وأتي بضمير الجمع للتعظيم.

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ يعني: يحملها على الطغيان والكفر، إما من محبتها إياه، أو لغير ذلك من الأسباب، وإلا فإن الغالب أن الوالد يؤثِّر على ولده ولكن قد يؤثر الولد على الوالد، كما أن الغالب أن الزوج يؤثر على زوجته، ولكن قد تؤثر الزوجة على زوجها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: يعني: أنَّا إذا قتلناه؛ فإن الله خير وأبقى؛ نؤمل منه تعالى ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي: في الدين، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: في الصلة، يعني: أنه أراد أن الله يتفضل عليهما بمن هو أزكى منه في الدين، وأوصل في صلة الرحم، ويؤخذ من ذلك أنه يقتل الكافر خوفًا من أن ينشر كفره في الناس.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿لِغُلَامَيْنِ﴾ يعني: صغيرين.

﴿يَتِيمَيْنِ﴾: قد مات أبوهما.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: القرية التي أتياها.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي: كان تحت الجدار مال مدفون لهما.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾: فكان من شكر الله لهذا الأب الصالح أن يكون رءوفًا بأبنائه، وهذا من بركة الصلاح في الآباء أن يحفظ الله الأبناء.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: أراد الله ﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: أن يبلغا ويكبرا حتى يصلا إلى سن الرشد، وهو أربعون سنة عند كثير من العلماء، وهنا ما قال: «فأردنا» ولا قال: «فأردت»، بل قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾؛ لأن بقاء الغلامين حتى يبلغا أشدهما ليس للخضر فيه أي قدرة، لكن الخشية - خشية أن يرهق الغلام أبويه بالكفر تقع من الخضر وكذلك إرادة عيب السفينة.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾: حتى لا يبقى تحت الجدار، ولو أن الجدار انهدم لظهر الكنْز وأخذه الناس.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: هذه مفعول لأجله، والعامل فيه أراد، يعني: أراد الله ذلك رحمة منه جلَّ وعلا.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يعني: ما فعلت هذا الشيء عن عقل مني أو ذكاء مني ،ولكنه بإلهام من الله وتوفيق؛ لأن هذا الشيء فوق ما يدركه العقل البشري.

﴿أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: ذلك تفسيره الذي وعدتك به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ [الكهف: من الآية٧٨]. أي: تفسيره، ويحتمل أن يكون التأويل هنا في الثاني العاقبة، يعني: ذلك عاقبة ما لم تستطع عليه صبرًا؛ لأن التأويل يراد به العاقبة ويراد به التفسير.

﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وفي الأول قال: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع﴾؛لأن «استطاع واسطاع ويستطيع ويسطيع» كل منها لغة عربية صحيحة.

وقد ذكر شيخنا عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله تعالى - في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن) فوائد جمة عظيمة في هذه القصة لا تجدها في كتاب آخر فينبغي لطالب العلم أن يراجعها؛ لأنها مفيدة جدًا.

وبهذا انتهت قصة موسى مع الخضر.

ثم ذكر الله تعالى قصة أخرى سألوا عنها رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - .



قال الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ سواء من يهود أو من قريش أو من غيرهم.

﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: صاحب القرنين، وكان له ذكر في التاريخ، وقد قال اليهود لقريش: اسألوا محمدًا عن هذا الرجل؛ فإن أخبركم عنه فهو نبي، ولماذا سمي بذي القرنين؟ قيل: معناه ذي الملك الواسع من المشرق والمغرب، فإن المشرق قرن والمغرب قرن، كما قال النبي ﷺ عن المشرق: «حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[1]، فيكون هذا كناية عن سعة ملكه، وقيل: ذي القرنين لقوته، ولذلك يعرف أن الفحل من الضأن الذي له قرون يكون أشد وأقوى، وقيل: لأنه كان على رأسه قرنان كتاج الملوك، والحقيقة أن القرآن العظيم لم يبين سبب تسميته بذي القرنين، لكن أقرب ما يكون للقرآن العظيم «المالك للمشرق والمغرب»، وهو مناسب تمامًا؛ حيث قال النبي ﷺ عن الشمس إنها: «تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ»[2].

﴿قُلْ﴾ لمن سألك: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ وليس كل ذكره بل ذكرًا منه، ثم قصَّ الله القصة:



قال الله تعالى:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك بثبوت ملكه وسهولة سيره وقوته.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أي: شيئًا يتوصل به إلى مقصوده، وقوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ لا يعم كل شيء؛ لكن المراد من كل شيء يحتاج إليه في قوة السلطان، والتمكين في الأرض، والدليل على هذا أن «كل شيء» بحسب ما تضاف إليه، فإن الهدهد قال لسليمان عن ملكة اليمن سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ومعلوم أنها لم تؤت ملك السموات والأرض، لكن من كل شيء يكون به تمام الملك، كذلك قال الله تعالى عن ريح عاد:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦١٢)، والنسائي (٥٢٢)، وأبو داود (٣٩٦).

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومعلوم أنها ما دَمَّرت كل شيء، فالمساكن ما دُمِّرت كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: من الآية٢٥].



قال الله تعالى:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: تبع السبب الموصل لمقصوده فإنه كان حازمًا، انتفع بما أعطاه الله تعالى من الأسباب؛ لأن من الناس من ينتفع، ومن الناس من لا ينتفع، ولكن هذا الملك انتفع ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وجال في الأرض.



قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ من المعلوم أن المراد هو المكان الذي تغرب الشمس فيه، وهو البحر؛ لأن السائر إلى المغرب سوف يصطدم بالبحر والشمس إذا رآها الرائي وجدها تغرب فيه.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ هي: أرض البحر ﴿حَمِئَةٍ﴾ مسودة من الماء؛ لأن الماء إذا مكث طويلًا في الأرض صارت سوداء، ومعلوم أنها تغرب في هذه العين الحمئة حسب رؤية الإنسان، وإلَّا فهي أكبر من الأرض، وأكبر من هذه العين الحمئة، وهي تدور على الأرض، لكن لا حرج أن الإنسان يخبر عن الشيء الذي تراه عيناه بحسب ما رآه.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي: عند العين الحمئة وهو البحر ﴿قَوْمًا﴾.

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يعني: أن الله خيره بين أن يعذبهم بالقتل أو بغير القتل أو يحسن إليهم؛ وذلك لأن ذا القرنين ملك عاقل، ملك عادل، ويدل لعقله ودينه ما ذكره الله عنه في الآية التالية.



قال الله تعالى:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[الكهف:٨٧-٨٨]

التفسير

حكمٌ عدل: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ وذلك بالشرك؛ لأن الظلم يطلق على الشرك وعلى غيره، لكن الظاهر - والله أعلم - هنا أن المراد به الشرك؛ لأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾

يقول: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ العذاب الذي يكون تعزيرًا، وعذاب التعزير يرجع إلى رأي الحاكم، إما بالقتل أو بغيره.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾؛ لأن العقوبات لا تطهر الكافرين، فالمسلم تطهره العقوبات، أما الكافر فلا، فإنه يعذب في الدنيا وفي الآخرة - نعوذ بالله من ذلك - .

قوله: ﴿نُّكْرًا﴾ ينكره المُعَذَّب بفتح الذال، ولكنه بالنسبة لله تعالى ليس بنكر، بل هو حق وعدل، لكنه ينكره المُعَذَّب ويرى أنه شديد.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾: المؤمن العامل للصالحات له جزاء عند الله ﴿الْحُسْنَى﴾ وهي الجنة كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: من الآية٢٦]، فسرها النبي ﷺ بأن: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي الجنة. والزيادة هي النظر إلى وجه الله .

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: سنقول له قولًا يسرًا لا صعوبة فيه، فوعد الظالم بأمرين: أنه يعذبه، وأنه يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا، والمؤمن وعده بأمرين: بأن له ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وأنه يعامله بما فيه اليسر والسهولة، لكن تأمل في حال المشرك بدأ بتعذيبه ثم ثنى بتعذيب الله، والمؤمن بدأ بثواب الله أولًا ثم بالمعاملة باليسر ثانيًا، والفرق ظاهر؛ لأن مقصود المؤمن الوصول إلى الجنة، والوصول إلى الجنة لا شك أنه أفضل وأحب إليه من أن يقال له قول يُسر، وأما الكافر فعذاب الدنيا سابق على عذاب الآخرة وأيسر منه فبدأ به، وأيضًا فالكافر يخاف من عذاب الدنيا أكثر من عذاب الآخرة؛ لأنه لا يؤمن بالثاني.



۞ قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾[الكهف:٨٩-٩٠]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾أي: موضع طلوعها، أتبع أولًا السبب إلى المغرب ووصل إلى نهاية الأرض اليابسة مما يمكنه أن يصل إليه ثم عاد إلى المشرق؛ لأن عمارة الأرض تكون نحو المشرق والمغرب، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا**»(١) دون الشمال والجنوب؛ لأن الشمال والجنوب أقصاه من الشمال، وأقصاه من الجنوب كله ثلج ليس فيه سكان، فالسكان يتبعون الشمس من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وجدها تطلع على قوم ليس عندهم بناء، ولا أشجار ظليلة ولا دور ولا قصور، وبعض العلماء بالغ حتى قال: وليس عليهم ثياب؛ لأن الثياب فيها نوع من الستر. المهم أن الشمس تحرقهم.



۞ قال الله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[الكهف:٩١-٩٣]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني: الأمر كذلك على حقيقته.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: قد علمنا علم اليقين بما عنده من وسائل الملك وامتداده، أي: بكل ما لديه من ذلك.

ثم قال: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[الكهف:٩٢-٩٣].

قوله تعالى: ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني: سار واتخذ سببًا يصل به إلى مراده.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾: السدين هما جبلان عظيمان يحولان بين الجهة الشرقية من شرق

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وأبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

آسية، والجهة الغربية، وهما جبلان عظيمان بينهما منفذ ينفذ منه الناس.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: لا بينهما ولا وراءهما.

﴿قَوْمًا﴾ قيل: إنهم الأتراك.

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فيها قراءتان: «لَّا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلًا» و«لَّا يَكَادُونَ يَفقهُونَ قَوْلًا» والفرق بينهما ظاهر: لا ﴿يَفْقَهُونَ﴾ يعني هم، لا «يُفْقِهُونَ» أي: غيرهم، يعني: هم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم، هذه فائدة القراءتين، وكلتاهما صحيحة، وكل واحدة تحمل معنىً غير معنى القراءة الأخرى، لكن بازدواجهما نعرف أن هؤلاء القوم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم.



قال الله تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ وحينئذٍ يقع إشكال كيف يكونوا ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ثم ينقل عنهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح فصيح: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾؟.

والجواب عن هذا سهل جدًا، وهو أن ذا القرنين أعطاه الله تعالى ملكًا عظيمًا، وعنده من المترجمين ما يُعرف به ما يريد، وما يَعرف به ما يريد غيره، على أنه قد يكون الله قد ألهمه لغة الناس الذين استولى عليهم كلِّهم، المهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، نادَوه بلقبه تعظيمًا له.

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ :يأجوج ومأجوج هاتان قبيلتان من بني آدم كما صح ذلك عن النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ لما حدَّث الصحابة بأن الله يأمر آدم يوم القيامة فيقول:

«يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِير، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيد» [فاشتد ذلك عليهم] قالوا: يا رسول الله، وأَيُّنا ذلك الواحد؟ قال: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُم رَجُلٌ وَمِنْ يَأْجُوج ومَأْجُوج أَلْفٌ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ...» (١) إلخ الحديث.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).

وبهذا نعرف خطأ من قال: إنهم ليسوا على شكل الآدميين وأن بعضهم في غاية ما يكون من القِصَر، وبعضهم في غاية ما يكون من الطول، وأن بعضهم له أذن يفترشها، وأذن يلتحف بها وما أشبه ذلك، كل هذا من خرافات بني إسرائيل، ولا يجوز أن نصدقه، بل يقال: إنهم من بني آدم، لكن قد يختلفون كما يختلف الناس في البيئات، فتجد أهل خط الاستواء بيئتهم غير بيئة الشماليين، فكل له بيئة، الشرقيون الآن يختلفون عن أهل وسط الكرة الأرضية، فهذا ربما يختلفون فيه، أما أن يختلفوا اختلافًا فادحًا كما يذكر، فهذا ليس بصحيح.

﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ :الإفساد في الأرض يعم كل ما كان غير صالح، وغير أصلح، يفسدونها في القتل، وفي النهب، وفي الانحراف، وفي الشرك، وفي كل شيء، المهم أنهم يحتاجون إلى أحد يحميهم من هؤلاء.

﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا﴾ يعني:حاجزًا يمنع من حضورهم إلينا، فعرضوا عليه أن يعطوه شيئًا، وهذا اجتهاد في غير محله، لكنهم خافوا أن يقول: لا، ولا يمكنهم بعد ذلك، وإلَّا هذا الاجتهاد: كيف يقولون لهذا الملك الذي فتح مشارق الأرض ومغاربها: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا﴾ هذا لا يقال إلَّا لشخصٍ لا يستطيع. لكنهم قالوا ذلك خوفًا من أن يرد طلبهم، يريدون أن يقيموا عليه الحجة بأنهم أرادوا أن يعطوه شيئًا يحميهم به من هؤلاء، قال في الجواب:



قال الله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾[الكهف:٩٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿خَيۡرٞ﴾ خبر المبتدأ، يعني: الذي مكَّني فيه ربي من الملك والمال والخدم، وكل شيء، خير من هذا الخرج الذي تعرضونه عليَّ، وهذا كقول سليمان - عليه الصلاة والسلام - في هدية ملكة سبأ، قال:﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾[النمل: من الآية٣٦]وهذا من اعتراف الإنسان بنعم ربه التي لا يحتاج معها إلى أحد.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بقوة بدنية لا بقوة مالية؛ لأنه عنده من الأموال الشيء العظيم.

﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ يعني: أكبر مما سألوا، هم سألوا سدًا، ولكنه قال: ردمًا، يعني: أشد من السد، فطلب منهم:



قال الله تعالى:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[الكهف:٩٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ الزُّبَر يعني: القطع من الحديد، فجمعوا الحديد وجعلوه يساوي الجبال، وهذا يدل على القوة العظيمة في ذلك الوقت، يعني: أرتال من الحديد، تجمع حتى تساوي الجبال الشاهقة العظيمة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ يعني جانبي الجبلين ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ يعني: انفخوا على هذا الحديد، وليس المراد بأفواهكم؛ لأن هذا لا يمكن، ولكن انفخوا بالآلات والمعدات التي عنده؛ لأن الله أعطاه ملكًا عظيمًا، فنفخوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ والحديد معروف أنه إذا أوقد عليه في النار يكون نارًا، تكون القطعة كأنها جمرة، بل هي أشد من الجمرة، ثم طلب أن يؤتوه قطرًا يفرغه عليه، والقطر هو النحاس المذاب كما قال الله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: من الآية١٢]، يعني: النحاس أرسله الله تعالى لسليمان، بعد أن كان معدنًا قاسيًا يحتاج إلى إخراج بالمعاول ثم صَهْر بالنار، أسال الله له عين القطر كأنها ماء - سبحان الله -.

قال ذو القرنين: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ فأفرغ عليه القطر - النحاس - فاشتبك النحاس مع قطع الحديد فكان قويًا.



قال الله تعالى:

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾[الكهف:٩٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ و«ما استطاعوا» معناهما واحد، وسبق في قصة موسى مع الخضر ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع﴾ و﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾. ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ يعني: أن يصعدوا عليه؛ لأنه عالٍ؛ ولأن الظاهر أنه أملس، فهم لا يستطيعون أن يصعدوا عليه.

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لم تأتِ التاء في الفعل الأول (اسطاعوا) وأتت فيه ثانيًا، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أيهما أشق أن يصعدوا الجبل أو أن يَنقبوا هذا الحديد؟.

الجواب: الثاني أصعب ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾؛ لأنه حديد ممسوك بالنحاس،

فصاروا لا يستطيعون ظهوره لعلوه وملاسته فيما يظهر، ولم يستطيعوا له نقبًا لصلابته وقوته، إذًا صار سدًا منيعًا وكفى الله شر هؤلاء المفسدين وهم يأجوج ومأجوج.

❁❁❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ قالها ذو القرنين وانظر إلى عباد الله الصالحين، كيف لا يسندون ما يعملونه إلى أنفسهم، ولكنهم يسندونه إلى الله وإلى فضله، ولهذا لما قالت النملة حين أقبل سليمان بجنوده على وادي النمل، قامت خطيبة فصيحة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٨-١٩]، أيضًا ذو القرنين قال:

﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾: وليس بحولي ولا قوتي، ولكنه رحمة به ورحمة بالذين طلبوا منه السد، أن حصل هذا الردم المنيع.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني: بخروج هؤلاء المفسدين.

﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ يعني: جعل هذا السد دكًا، أي: منهدمًا تمامًا وسواه بالأرض، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا[1]. يعني: شيء يسير لكن ما ظهر فيه الشق لا بد أن يتوسع.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾: فما هو هذا الوعد؟.

الجواب: الوعد هو أن الله يخرجهم في آخر الزمان، وذلك بعد خروج الدجال وقتله يخرج الله هؤلاء، يخرجهم في عالم كثير مثل الجراد أو أكثر «فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِه مَرَّةً مَاءٌ» ثم «يُحصَرُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ» في جبل الطور، ويلحقهم مشقة ويرغبون إلى الله تعالى في هلاك هؤلاء، «فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»[2] يصبحون في ليلة واحدة على كثرتهم، ميتين مِيتة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠)، وأبو داود (٤٣٢١).

رجل واحد، حتى تنتن الأرض من رائحتهم، فيرسل الله تعالى أمطارًا تحملهم إلى البحر أو يرسل اللهُ طيورًا فَتَحْمِلُهُمْ إلى البحر، والله على كل شيء قدير، وهذه الأشياء نؤمن بها كما أخبر بها النبي ﷺ، أما كيف تصل الحال إلى ذلك، فهذا أمره إلى الله.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ يعني: وعد الله تعالى في خروجهم كان ﴿حَقًّا﴾ أي: لا بد أن يقع كل ما وعد الله بشيء فلا بد أن يقع؛ لأن عدم الوفاء بالوعد، إما أن يكون عن عجز، أو إما أن يكون عن كذب، والله منَزَّهٌ عنهما جميعًا عن العجز، وعن الكذب، فهو لا يخلف الميعاد لكمال قدرته، وكمال صدقه.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:٩٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ المفسرون الذين رأيت كلامهم يقولون: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: إذا خرجوا صار «يموج بعضهم في بعض»، ثم اختلفوا في معنى «يموج بعضهم في بعض» هل معناه أنهم يموجون مع الناس، أو يموج بعضهم في بعض يتدافعون عند الخروج من السد؟ وإذا كان أحد من العلماء يقول:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني: بعد السد، صاروا هم بأنفسهم يموج بعضهم في بعض، فإن كان أحدٌ يقول بهذا، فهو أقرب إلى سياق الآية، لكن الذي رأيته أنهم يموج بعضهم في بعض يعني :إذا خرجوا، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومئذْ يريد الله خروجهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: النافخ إسرافيل أحد الملائكة الكرام، وكان النبي ﷺ يفتتح صلاة الليل بهذا الاستفتاح: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**»[1]، هؤلاء الثلاثة الملائكة الكرام، كل واحد منهم موكل بما فيه الحياة، جبريل موكل بما فيه حياة القلوب، ميكائيل بما فيه حياة النبات وهو القَطْر، والثالث إسرافيل بما فيه حياة الناس عند البعث، ينفخ في الصور نفختين. الأولى: فَزَعٌ وصعق، ولا يمكن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧٠)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وأبو داود (٧٧٦).

الآن أن ندرك عظمة هذا النفخ، نفخ تفزع الخلائق منه وتصعق بعد ذلك، كلهم يموتون إلَّا من شاء الله، لشدة هذا النفخ وشدة وقعه، ما يمكن أن نتصور؛ لأن الناس يفزعون، بل فزع من في السموات ومن في الأرض، ثم يصعقون - الله أكبر -. شيء عظيم كلما يتصوره الإنسان، يقشعر جلده من عظمته وهوله.

النفخة الثانية: يقول الله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: ٦٨].

النفخة الثانية:يقوم الناس من قبورهم أحياء ينظرون، ماذا حدث؟! لأن الأجسام في القبور، يُنْزِل الله تعالى عليها مطرًا عظيمًا ثم تنمو في داخل الأرض، حتى إذا تكاملت الأجسام تكاملها التام نفخ في الصور نفخة البعث:﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: من الآية٦٨].

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾أي: جمعنا الخلائق ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾أي: جمعًا عظيمًا، فهذا الجمع يشمَل: الإنس، والجن، والملائكة، والوحوش، وجميع الدواب، قال الله تبارك وتعالى:﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨] كل الخلائق، حتى الملائكة - ملائكة السماء - كما قال الله :﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] . يا له من مشهد عظيم، الله أكبر.



قال الله تعالى:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[الكهف:١٠٠]

التفسير

﴿وَعَرَضْنَا﴾أي: عرضناها لهم فتكون أمامهم - اللّهم أجرنا منها -.

﴿جَهَنَّمَ﴾ :اسم من أسماء النار.

﴿عَرْضًا﴾يعني: عرضًا عظيمًا، ولذلك نُكِّر يعني: عرضًا عظيمًا تتساقط منه القلوب، ومن الحكم في إخبار الله بذلك أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف من هذا اليوم، وأن يستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه، كما قال الصِّديق :

كلنا مصبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله فتصور هذا وتصور أنه ليس بينك وبينه إلَّا أن تخرج هذه الروح من الجسد، وحينئذ ينتهي كل شيء.



قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾[الكهف:١٠١،١٠٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ هؤلاء الكافرون كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله، لا ينظرون إلى ذكر الله، وقد ذكر الله تعالى فيما سبق - في نفس السورة - أنَّ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: من الآية٥٧] فالقلوب، والأبصار، والأسماع كلها مغلقة.

﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ هل المراد لا يريدون؟ كقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: من الآية١١٢]، أي: هل يريد؟ أو المعنى أنهم لا يستطيعون ﴿سَمۡعًا﴾ أي سمع الإجابة، وليس سمع الإدراك؟.

الجواب: يحتمل المَعْنَيَيْن جميعًا، وكلاهما حق.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ [الكهف:١٠٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أي: أفظن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ من هم عباده؟.

الجواب: كل شيء فهو عبد لله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣]. ومن الذي اتُّخِذ وليًا من دون الله، أي: عُبد من دون الله؟.

الجواب: عبدت الملائكة، عبدت الرسل، وعبدت الشمس، وعبد القمر، وعبدت الأشجار، وعبدت الأحجار، وعبدت البقر! نسأل الله العافية، الشيطان يأتي ابن آدم من كل طريق.

﴿مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني: أربابًا يدعونهم ويستغيثون بهم وينسون ولاية الله ، يعني: أيظن هؤلاء الذين فعلوا ذلك أنهم يُنصرون؟

الجواب: لا، لا يُنصرون، ومن ظن ذلك فهو مُخبَّل في عقله.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ يعني: أن الله هيأ النار ﴿نُزُلٗا﴾ للكافرين، ومعنى النُّزُل ما يقدمه صاحب البيت للضيف، ويحتمل أن يكون بمعنى المنْزِل، وكلاهما صحيح، فهم نازلون فيها، وهم يعطونها كأنها ضيافة، وبئست الضيافة.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾[الكهف:١٠٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد للأمة كلها: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾.

الجواب: نعم.

نريد أن نُخبَر عن الأخسرين أعمالًا، حتى نتجنب عمل هؤلاء، ونكون من الرابحين، وقد بين الله تعالى في سورة العصر أن كل إنسان خاسر، إلَّا من اتصف بأربع صفات:

١ - الذين آمنوا.

٢ - وعملوا الصالحات.

٣ - وتواصوا بالحق.

٤ - وتواصوا بالصبر.

وهنا يقول:



قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: ضاع سعيهم وبَطل في الحياة الدنيا لكنهم: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فغُطي عليهم الحق - والعياذ بالله - وظنوا وهم على باطل أن الباطل هو الحق، وهذا كثير، فاليهود مثلًا يظنون أنهم على حق، والنصارى يظنون أنهم على حق، والشيوعيون يظنون أنهم على حق، كل واحد منهم يظن أنه على حق، ولذلك مكثوا على ما هم عليه، ومنهم من يعلم أنه ليس على حق، لكنه - والعياذ بالله - لاستكباره واستعلائه أصر على ما هو عليه.



قال الله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الكونية أو الشرعية؟.

الظاهر كلتاهما، لكن الذين كذبوا الرسول ﷺكذبوا بالآيات الشرعية، ولم يكذبوا بالآيات الكونية، والدليل أن الله تعالى أخبر أنهم إذا سُئلوا: من خلق السموات والأرض؟ يقولون: الله، ولا أحد منهم يدعي أن هنالك خالقًا آخر مع الله، لكنهم كذبوا بالآيات الشرعية، كذبوا الرسول ﷺ؛ كذبوا بما جاء به، فهم داخلون في الآية.

﴿وَلِقَائِهِ﴾ أي: كذبوا بلقاء الله، ومتى يكون لقاء الله؟.

الجواب: يكون يوم القيامة، فهؤلاء كذبوا بيوم القيامة وجادلوا، وأُروا الآيات ولكنهم أصروا، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ [يس:٧٧-٧٨] يكذبنا فيه فقال: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] تَحَدًّا! من يحييها؟ رميم لا فيها حياة ولا شيء؟.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

ومن الذي أنشأها أوّل مرة؟

الجواب: هو الله، والإعادة أهون من الابتداء كما قال الله :﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: من الآية٢٧]هذا دليل، إذًا الدليل على إمكان البعث، وإحياء العظام وهي رميم:

١ - أن الله تعالى ابتدأها، ولما قال زكريا حين بُشِّر بالولد وكان قد بلغ في الكِبَر عتيا، إن امرأته عاقر، قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، فالذي خلقك من قبل، وأنت لم تكن شيئًا قادر على أن يجعل لك ولدًا.

٢- ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: من الآية٧٩]وإذا كان الله بكل خلق عليمًا، فإنه لن يتعذر عليه أن يخلق ما يشاء، من الذي يمنعه إذا كان عليمًا بكل خلق؟.

الجواب: لا أحد يمنعه.

٣ - ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾[يس:٨٠] شجر أخضر يخرج منه نار، فالشجر الأخضر يضرب بالزند ثم ينقدح نارًا، وكان العرب يعرفون هذا، فالذي

يخرج هذه النار، وهي حارة يابسة من غصن رطب بارد، يعني: متضادان غاية التضاد، قادر على أن يخلق الإنسان، أو أن يعيد خلق العظام وهي رميم، ثم حقق هذه النار بقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

٤ - ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١].

الجواب: بلى، قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧] فالذي خلق السموات والأرض بِكِبَرِهَا، وعظمها قادر على أن يعيد جزءًا من لا شيء بالنسبة للأرض، من أنت يا ابن آدم بالنسبة للأرض؟ لا شيء، أنت خلقت منها، أنت بعض يسير منها، فالذي قدر على خلق السموات والأرض، قادر على أن يخلق مثلهم، قال الله تعالى مجيبًا نفسه: ﴿بَلَىٰ﴾ [يس: من الآية٨١].

٥ - ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: من الآية٨١] الخلَّاق صيغة مبالغة، وإن شئت فاجعلها نسبة، يعني: أنه موصوف بالخلق أزلًا وأبدًا، وهو تأكيد لقوله قبل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

٦ - ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] لا يحتاج إلى عمال ولا بنَّائين ولا أحد؛ ولهذا قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]. كلمة واحدة.

٧ - ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس:٨٣].

كل شيء فبيده ملكوته يتصرف كما يشاء، فنسأله أن يهدينا صراطه المستقيم.

٨ - ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] فهذا هو الدليل الثامن. وإنما كان دليلًا؛ لأنه لولا رجوعنا إلى الله لكان وجودنا عبثًا، وهذا ينافي الحكمة، فتأمل سياق هذه الأدلة الثمانية في هذا القول الموجز، ومع ذلك ينكرون لقاء الله.

في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ إلزام لهم بالإيمان؛ لأنه كونه ربهم يجب أن يطيعوه وأن يؤمنوا به، لكن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يعني: بَطَلَت ولم ينتفعوا بها، حتى لو أن الكافر أحسن وأصلح الطرق وبنى الرُّبط، وتصدق على الفقراء فإن ذلك لا ينفعه، إن أراد الله أن يثيبه عجل الله له الثواب في الدنيا، أما في الآخرة فلا نصيب له، - نعوذ بالله نسأل الله الحماية والعافية -، لأن أعماله حبطت، ولكن هل يحبط العمل بمجرد الردة أم لا بد من شرط؟.

الجواب: لا بد من شرط، وهو أن يموت على ردته، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة: من الآية٢١٧]. أما لو ارتد، ثم مَنَّ الله عليه بالرجوع إلى الإسلام، فإنه يعود عليه عمله الصالح السابق للردة.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ يعني: أنه لا قدر لهم عندنا ولا ميزان، وهو كناية عن سقوط

مرتبتهم عند الله.

وقيل: إن المعنى أننا لا نزنهم؛ لأن الوزن إنما يحتاج إليه لمعرفة ما يترجح من حسنات أو سيئات، والكافر ليس له عمل حتى يوزن، ولكن الصحيح أن الأعمال توزن كُلّها، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[القارعة:٦-١١]. فيقام الوزن؛ لإظهار الحجة عليه، والمسألة هذه فيها خلاف.

❁❁❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾[الكهف:١٠٦]



❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: ذلك المذكور من أنه لا يقام لهم الوزن وأن أعمالهم تكون حابطة.

﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾: الباء للسببية و(ما) مصدرية وتقدير الكلام: بكفرهم.

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟﴾ معطوفة على ﴿كَفَرُوا۟﴾ أي: بما كفروا واتخذوا، فهم - والعياذ بالله - كفروا وتعدى كفرهم إلى غيرهم، صاروا يستهزئون بالآيات، ويستهزئون بالرسل، ولم يقتصروا على كفرهم بالله.

﴿هُزُوًا﴾ أي: محلَّ هُزُؤٍ، يسخرون منهم، ولهذا قال الله للرسول ﷺ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[الأنبياء: من الآية٣٦]: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: من الآية٤١] والاستفهام هنا لا يخفى أنه للتحقير، أهذا الرسول! ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[الفرقان: من الآية٤٢]. - أعوذ بالله -؛ يفتخرون أنهم صبروا على آلهتهم وانتصروا لها. ثم ذكر ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

❁❁❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف:١٠٧]



❁ التفسير ❁

بدلًا ما كانت جهنم نزلًا للكافرين، صارت جنات الفردوس نزلًا للمؤمنين، لكن بشرطين:

١ - الإيمان.

٢ - العمل الصالح. والإيمان محله القلب، والعمل الصالح محله الجوارح، وقد يراد به - أيضًا - عمل القلب، كالتوكل والخوف والإنابة والمحبة، وما أشبه ذلك.

و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هي التي كانت خالصة لله، وموافقة لشريعة الله.

ولا يمكن أن يكون العمل صالحًا إلَّا بهذا، الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله، فمن أشرك؛ فعمله غير صالح، ومن ابتدع فعمله غير صالح، ويكون مردودًا عليهما، ودليل ذلك قوله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

وقال النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[2]. أي: مردود عليه، فصار العمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لشريعة الله، أو لرسول الله؟.

الجواب: لشريعة الله أحسن، إلَّا إذا أريد بالمتابعة لرسول الله، الجنس، دون محمد ﷺ فنعم؛ لأن المؤمنين من قوم موسى وقوم عيسى يدخلون في هذا.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ هل المراد بالكينونة هنا الكينونة الماضية، أو المراد تحقيق كونها نزلًا لهم؟ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟ نقول: الأمران واقعان، فكانت في علم الله نزلًا لهم، وكانت نزلًا لهم على وجه التحقيق؛ لأن «كان» قد يسلب منها معنى الزمان، ويكون المراد بها التحقيق.

﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾: هل هذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ أو لأن الفردوس هي أعلى الجنَّات، والجنَّات الأُخرى تحته؟

الجواب: الظاهر الثاني؛ لأنه ليس جميع المؤمنين الذين عملوا الصالحات ليسوا كلهم في الفردوس، بل هم في جنات الفردوس، والفردوس قال النبي ﷺ: «**فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**»[3] أعلى الجنة ووسط الجنة معناه أن الجنة مثل القبَّة، وفيه أيضًا وصف رابع: ومنه تفجر أنهار الجنة.



---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

❁ قال الله تعالى:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف:١٠٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ولا نزاع في هذا بين أهل السنة.

﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ أي: لا يطلبون عنها بدلًا، ﴿حِوَلٗا﴾ أي: تحولًا؛ لأن كل واحد راضٍ بما هو فيه من النعم، وكل واحد لا يرى أن أحدًا أكمل منه، وهذا من تمام النعيم، أنت مثلًا لو نزلت قصرًا منيفًا فيه من كل ما يبهج النفس، ولكنك ترى قصر فلان أعظم منه، هل يكمل سرورك؟.

الجواب: من يريد الدنيا لا يكمل سروره؛ لأنه يرى أن غيره خير منه، لكن في الجنة، وإن كان الناس درجات، لكن النازل منهم - وليس فيهم نازل - يرى أنه لا أحد أنعم منه، عكس أهل النار، أهل النار يرى الواحد منهم أنه لا أحد أشد منه، وأنه أشدهم عذابًا.

﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ يعني: لو قيل للواحد: هل ترغب أن نجعلك في مكان آخر غير مكانك لقال: «لا»، وهذا من نعمة الله على الإنسان أن يقنع الإنسان بما أعطاه الله وأن يطمئن ولا يقلق.



❁ قال الله تعالى:

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[الكهف:١٠٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿قُل﴾ أي: يا محمد: ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا﴾ يعني: حبرًا يكتب به ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾

﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ قبل أن تنفد كلمات الله ؛ لأنه المدبر لكل الأمور، وبكلمة ﴿كُن﴾ لا نَفاد لكلامه بل إن في الآية الأخرى ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾، أي: لو كان أقلامًا ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[لقمان:٢٧] . لَنَفِد البحر وتكسرت الأقلام وكلمات الله - جلَّ وعلا - باقية.

﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ يعني: زيادة، فإن كلمات الله لا تنفد، وفي هذا نص صريح على إثبات كلام الله، وكلمات الله كونية، وشرعية، أما الشرعية فهو ما أوحاه إلى رسله، وأما الكونية فهي ما قضى به قدره ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، وكل شيء بإرادته، إذًا فهو يقول لكل شيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ومن الكلمات الشرعية ما أوحاه إلى من دون

الرسل، كالكلمات التي أوحاها إلى آدم، فإن آدم - عليه الصلاة والسلام -، نبي وليس برسول، وقد أمره الله ونهاه، والأمر والنهي كلمات شرعية.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ يعني: أعلن للملأ أنك لست ملكًا، وأنك من جنس البشر ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وذِكر المثلية لتحقيق البشرية، أي: أنه بشر لا يتعدى البشرية، ولذلك كان - عليه الصلاة والسلام - يغضب كما يغضب الناس، وكان ﷺ يمرض كما يمرض الناس، وكان يجوع كما يجوع الناس، وكان يعطش كما يعطش الناس، وكان يتوقى الحر كما يتوقاها الناس، وكان يتوقى سهام القتال كما يتوقاها الناس، وكان ينسى كما ينسى الناس، كل الطبيعة البشرية ثابتة للرسول - عليه الصلاة والسلام - وكان له ظِلٌّ كما يكون للناس.

أمّا من زعم أن الرسول ﷺ نُورَاني، ليس له ظل فهذا كذب بلا شك فإن الرسول ﷺ كغيره من البشر له ظل ويستظل أيضًا، ولو كان الرسول ﷺ ليس له ظل، لنقل هذا نقلًا متواترًا؛ لأنه من آيات الله إذًا الرسول ﷺ بشر مثل الناس، وهل يقدر الرسول ﷺ أن يجلب للناس نفعًا أو ضرًا؟

الجواب: لا، كما أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾[الجن:٢١]، ومن العجب أن أقوامًا لا يزالون موجودين، يتعلقون بالرسول ﷺ أكثر مما يتعلقون بالله، إذا ذكر الرسول ﷺ اقشعرت جلودهم، وإذا ذكر الله كأن لم يُذكر! حتى إن بعضهم يؤثر أن يحلف بالرسول ﷺ دون أن يحلف بالله، وحتى إن بعضهم يرى أن زيارة قبر الرسول ﷺ، أفضل من زيارة الكعبة، ولقد شاهدت أناسًا حُجِزوا عن المدينة في أيام الحج لقرب وقت الحج؛ لأنه إذا قرب وقت الحج منعوهم من الذهاب إلى المدينة، لئلّا يفوتهم الحج، يبكي! يقول: أنا منعت من الأنوار، ومنعت من كذا وكذا، ويعدد ما نسيته الآن، فيقال له: أنت لماذا جئت؟ قال: جئت لمشاهدة الأنوار،كأنه ما جاء إلا لزيارة المدينة، ونسي أنه جاء ليؤدي فريضة الحج، وسبب ذلك الجهل؛ وأن العلماء لا يبينون للعامة، وإلّا فالعامي عنده عاطفة جياشة لو أنه أخبر بالحق لرجع إليه.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ هذه هي الميزة للرسول ﷺ، أنه يوحى إليه، وغيره لا يوحى إليه، إلّا إخوانه من

المرسلين - عليهم الصلاة والسلام -.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: هذه الجملة حصر، كأنه قال: لا إله إلا واحد، واستفدنا أنها للحصر من «إنَّما»؛ لأن كلمة «إنما» من أدوات الحصر، تقول: «إنما زيد قائم» يعني: ليس له وصف غير القيام، وتقول: «إنما العلم بالتعلم» وليس هناك طريق للعلم إلَّا بالتعلم.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يُأمِّل أن يلقى الله ويؤمن بذلك.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: دعوة يسيرة سهلة، أتريد أن تلقى ربك وقلبك مملوء بالرجاء؟ إذا كان كذلك.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. كل إنسان عاقل يرجو لقاء الله ولقاء الله - ليس ببعيد، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٥]. قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ بمعنى قولهم: «كل آتٍ قريب».

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إذا قال قائل: ألستم قررتم أن العمل الصالح لا بد فيه من إخلاص ومتابعة؟ قلنا: بلى، لكنه لما كان الإخلاص ذا أهمية عظيمة ذكره تخصيصًا بعد دخوله ضمن قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

وتأمل قوله: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ ليتبين لك أنه - جلَّ وعلا - حقيق بأن لا يشرَك به؛ لأنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع المخلوقات، إننا نقول بقلوبنا وألسنتنا: «ربنا الله» ونسأل الله تعالى الاستقامة حتى ندخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

والحمد لله الذي وفقنا لإكمال هذه السورة، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



تم - بحمد الله - تفسير سورة الكهف

ويليها - إن شاء الله - تفسير سورة النور

تفسير سورة النور

تفسير سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١-٣]

التفسير

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

قال الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾

قوله: ﴿فَاجْلِدُوا﴾: الخطابُ للمؤمنين عمومًا، ومن المعلوم أنَّ الذي يُقِيمُه هو الإمام، لكن وُجِّه الخطاب لجميع الناس؛ لأنَّهم مسئولون عن إقامة الحُدود، فإنَّ إقامة الحُدود فرض كفاية.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾: الرأفة: الرحمة برِقَّة.

وقوله: ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾؛ أي: في الحدِّ؛ لأنَّ إقامة الحُدود من الدين، كما صرَّح عمر رضي الله عنه بأنَّ الرَّجْمَ فريضة في كتاب الله.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: وهذا شرطٌ؛ فمَن كان مؤمنًا فلْيَفعل هذا، وهو من باب ما يُسمُّونه بالإغراء، كما تقول للإنسان: إن كنتَ رجُلًا فافعَل، إن كنتَ كريمًا فأكرِمِ الضيف، وما أشبه ذلك.

---

(1) قال العلامة السعدي: أي: هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمة القدر ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: أحكامًا جليلة، وأوامر وزواجر، وحكمًا عظيمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها. (نقلنا تفسير هذه الآية من تفسير السعدي لتعذر وجود المادة العلمية الخاصة بها لدينا).

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: اللام للأمر، وهو للوجوب، ولابُدَّ أن يشهَدَ العذابَ طائفةٌ من المؤمنين، والطائفة أقلُّها ثلاثةٌ.

وقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾: ﴿لَا يَنكِحُ﴾ اختلف العلماء فيها؛ هل المراد لا ينكِح؛ أي: لا يطأ إلا زانيةً أو مُشرِكة، فيكون المعنى: الزاني لا يزني إلا بزانيةٍ أو مُشرِكة، أو المُراد بالنكاح: عقدُ النِّكاح حقيقةً، وهذا هو الصحيح؛ والمعنى: أنَّه لا يتزوَّج إلا زانيةً أو مُشرِكة؛ وكيف ذلك؟

لأنَّه إذا كان زانيًا حَرُمَ على العفيفة أن تتزوَّج به، فإذا تزوَّجَت؛ فإمَّا أن تكون عالمةً بالحُكم، راضيةً به، ولكنَّها عصَت، فتكون زانية؛ لأنَّها أباحَت فرجَها بغيرِ عقدٍ صحيحٍ.

وإما أن تكون غير راضيةٍ بالحُكم؛ بل اختارَت حكمًا غير حُكم الله، فتكون مُشرِكة، هذا هو توجيه الآية، وهو توجيهٌ واضحٌ.

وكذلك الأخرى قال: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾: فالزانية لا يجوز أن تتزوَّج حتى تتوب، فإن تزوَّجها شخصٌ وهو راضٍ بحُكم الله، وعالمٌ أنَّه حرامٌ؛ فهو زانٍ.

وإن تزوَّجها غير راضٍ بحُكم الله؛ فهو مُشرِك.

وقوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ﴾ أي: نكاح الزاني أو نكاح الزانية ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، والذي حرَّمه هو الله عزَّ وجلَّ.



قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤، ٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾؛ يعني: من الرجال.

وقوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ هذا حكم، والحكم الثاني: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، والحكم الثالث: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الاستثناء هنا يعود إلى الجملة الأخيرة بالإجماع، ولا يعود إلى الجملة الأولى بالإجماع.

فما هي الجملة الأولى؟ ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾.

واختلفوا هل يعود إلى الجملة الثانية أو لا، على قولَين:

فمنهم مَن قال: إنَّ القاذِف لا تُقبَلُ شهادتُه أبدًا ولو تاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، فيكون مردود الشهادة، ولو تاب.

ومنهم مَن قال: إنَّه إذا تابَ قُبِلَتْ شهادتُه.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يُفيدُ أنَّه بالتوبة يسقُطُ عنهم الإثم؛ لأنَّ ختمَ الآية بالمغفرة والرحمة يدلُّ على: أنَّ هؤلاء قد غُفِر لهم ورُحِموا.

ونستفيدُ منها: أنَّ الآية إذا خُتِمَت بمِثْلِ هذا؛ فإنَّها تقتضي العهد، ومن ذلك قوله تعالى في الذين يسْعَونَ في الأرض فسادًا: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، فنأخُذ من هذا: أنَّ مَن تابَ من قَطْعِ الطريق قبل القُدرة عليه، فإنَّه يُغفَر له.

والاستنباطُ من ختام الآيات يعرفُه الفُصَحاء، وإن كانوا ليسوا بطلبة علم، كما ذَكَر السيوطي في «الإتقان» عن رجلٍ قَرأَ قول الله تعالى: ﴿والسارقُ والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسَبَا نكالًا من الله والله غفورٌ رحيمٌ﴾، فقال له أعرابيٌّ حولَه: أعِدِ الآية، فأعادَها وقال: ﴿نكالًا من الله والله غفورٌ رحيمٌ﴾، قال: أعِدْها، فأعادَها مرَّتَين أو ثلاثًا، ثم قال: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قال: الآن، عزَّ وحَكَمَ فقَطع، ولو غفر ورَحِمَ ما قَطع(١).



❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٦-١٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ أي: أن يشهد أحدهم أربع شهادات، وخبر المبتدأ الذي

---

(١) نظرًا لتعذر سماع المادة العلمية الخاصة بتفسير هذه الآيات [٢-٥] قمنا بنقل تفسيرها من شرح صحيح البخاري لابن عثيمين الجزء السابع ط. مكتبة الطبري (ص ٢٠٦-٢٠٧)، (٢٣٤، ٢٣٥).

هو (شهادته) محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [تدفع عنه حد القذف]، أي: يدفع عنه حد القذف.

إذن (شهادة) مبتدأ، و(أربع) نائب مناب المصدر، وعامله شهادة. والخبر محذوف تقديره يدفع عنه حد القذف، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ لم يذكر القراءة الثانية وهي قراءة الرفع (وشهادةٌ أحدهم أربع شهادات بالله)، وعلى قراءة الرفع نقول: (شهادة) مبتدأ، وخبره ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾.

وقوله: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ بالله يعني: لابد أن يقول: أشهد بالله، متعلقة بالشهادات، ما يكفي أن يقول: أشهد أن امرأته كذا وكذا بل لابد أن يقول: أشهد بالله لتتضمن الشهادة شهادةً وقَسَمًا، ولهذا أُجيبت بجواب القسم، وجواب القسم هو: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

إذنْ لابد أن يشهد شهادة بالله لتكون شهادة مقرونة بالقسم، والدليل على هذا: أنه أُجيب بما يجاب به القسم وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فهذه الجملة الخبرية مؤكَّدة بالشهادة، والقسم، وإنَّ، واللام، وهذه أربع مُؤكِّدات، وتُكَرَّر أربع مرات فيزيد تأكيدٌ من وراء تأكيد، فإخباره عن زوجته بأنها زنت مُؤَكَّد بهذه الأربعة.

وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الصادق: هو المُخْبِرُ بما يطابق الواقع.

وقوله: [فيما رمى به زوجته من الزنا] يعني: لابد أن يقول هذا أو معناه، إما أن يقول: فيما رميتُها به من الزنا، أو فيما قذفتها به من الزنا، أو ما أبدى هذا المعنى، المهم: لا يكفي أن يقول: أشهد بالله إني لمن الصادقين؛ والسبب لأنه قد ينوى به الصادقين في غير هذه القضية، وظاهر القرآن الكريم أنه يُجزئ؛ لأن الله ما قال: (فيما رميتها به من الزنا لمن الصادقين)، ويكون هذا - وإنه لمن الصادقين في قول آخر - ما ينفعه هنا؛ لأنه كما جاء في الحديث: «يَمِينُكَ عَلَى مَا يُصَدِّقُكَ بِهِ صَاحِبُكَ»[1]. فأنت وإن نويت خلاف ذلك فأنت إنما استُشْهِدتَ على ما رميتها به من الزنا، فسواء ذكرته أم لم تذكره لا يختلف الحكم.

ولهذا القرآن لم يقيده بذلك بناءً على أن المقام يعينه، وأن نيته خلاف ذلك لا تنفعه؛ لأن اليمين عَلَى مَا يُصَدِّقُكَ بِهِ صَاحِبُكَ يعني: خصمك.

لكن لو أنه قال ذلك، أو هي طلبت ذلك مثلًا، أو الحاكم طلب منه ذلك، فإنه أولى؛ لأجل أن يطمئن الإنسان أكثر، يعني لو طلب القاضي منه ذلك لأن القاضي مثلًا خاف أنه يتأول وإن كان تأوله لا ينفعه فإنه إذا أمره يُجيبه على هذا الشيء.

مسألة: لو قال: أشهد بالله إني لصادق هل يجزئ، أو لابد أن يقول: لمن الصادقين؟

الجواب: الفقهاء يقولون: لابد أن يقول باللفظ، وفي نفسي من ذلك شيء؛ لأن هذه ليست ألفاظ ذِكْر يتعبد الإنسان بها إنما هي ألفاظ يحصل بها إثبات ما شَهِدَ به، ولا شك أن الأولى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٥٣)، والترمذي (١٣٥٤)، وأبو داود (٣٢٥٥)، وابن ماجه (٢١٢٠).

والأحرى والأبرأ أن يقول ذلك بلفظ القرآن؛ لكن لو قال: إني لصادق فالظاهر أنه يُجزئ، لأن المقصود بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إثبات الصدق أو الشهادة بالله على صدقه.

وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُاْ﴾ أي: يدفع عنها العذاب، فالرجل إذا قذف زوجته بالزنا وأتى بشهود أربعة يشهدون بأن هذه المرأة زنت ورأوا ذَكَرَ الزاني في فرجها، لا يحتاج إلى لعان؛ لأن الله إنما ذكر هذا فيمن لم يكن له شاهد إلا نفسه.

ثانيًا: إذا شهد على ما رماها به أربع شهادات وأقرَّت بذلك انتهى الأمر أيضًا، وأقيم عليها الحد، وإذا لم تُقِر بذلك فإنها حينئذٍ تُلاعِن.

وقوله: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الخامسة: مبتدأ، و﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾: خبره في تأويل مصدر، وقوله: ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ اللعنة: هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وقوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هذا شرطٌ في الدعاء على نفسه باللعنة، يعني: إن كان كاذبًا فلعنة الله عليه يعني: وإن كان صادقًا فلا لعنة، وقوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما رمى به زوجته من الزنا فإنه مستحق للعنة الله التي هي الطرد والإبعاد.

ومناسبة ذكر اللعنة هنا في مقابل كذبه؛ لأنه في الحقيقة يتضمن كلامه إبعاد زوجته واتهامها بما هي بريئة منه، فلذلك جاء بذكر اللعنة بخلاف المرأة فإنها تأتي بأمر آخر كما سيذكر - إن شاء الله -.

وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ يدفع عنها العذاب أي: حد الزنا الذي ثبت بشهادته، نحن قلنا: إذا رمى الرجل زوجته بالزنا فلا يخلو من ثلاث حالات: إما أن يقيم بيِّنة فهنا يقام عليها الحدُّ بالبيِّنة، وإما أن تُقر فيقام عليها الحد بالإقرار، وإما أن تُنكِر، وفي حال إنكارها يُطلب اللعان فإذا شهد الرجل أربع شهادات بالله أقيم عليها الحد، لكن لها أن تدفع هذا الحد بشهادات تنقض شهادة الرجل.

إذن العذاب في قوله: ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ المراد به: حد الزنا.

وأما قول فقهائنا - رحمهم الله -: إن المراد بالعذاب: الحبس، فهذا قول ضعيف جدًّا؛ لأنه لا ذكر للحبس في الآية، بل إن الآية صريحة في أن الذي يندفع هو العذاب، والعذاب هو: حد القذف، بدليل قوله فيما سبق: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذن يتعين أن المراد بالعذاب هو حد الزنا.

أما قول الفقهاء - رحمهم الله -: إن العذاب الحبس حتى تقرَّ أو تلاعن، فهذا قول لا دليل عليه وهو ضعيف جدًّا.

إذن إذا أنكرت المرأة، فنقول للرجل: اشهد على ما قلت أربع شهادات بالله إنك لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليك إن كان من الكاذبين، فإذا شهد ثبت عليها حد الزنا: الرجم إن كانت محصنة، والجلد مع التغريب إن كانت غير محصنة.

مسألة: فإن قال قائل: لا يمكن أن تكون غير محصنة؛ لأن هذا زوج يتهم زوجته .

الجواب: لكن يمكن أن يعقد عليها ولا يجامعها فتكون غير محصنة.

ولها بعد أن ثبت الحد عليها بشهادة الزوج أن تُسقِطَ الحدَّ، بشهادات تقابل شهادات الزوج؛ لهذا يقول الله - عز وجل -: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ أي: شهادتها ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، مقابل قوله: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قوله: ﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ يعني: وتشهد الخامسة ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في ذلك، في مقابل أن لعنة الله عليه ﴿إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

لكن لماذا اختير لها الغضب دون اللعنة؟

فالغضب أشد من اللعنة، الغضب - والعياذ بالله - يلزم منه اللعنة وزيادة، بخلاف اللعنة فهي طرد وإبعاد عن الرحمة لكن هذا طرد وإبعاد مع غضب، فهو أشد، وإنما اختير لها ذلك لسببين:

السبب الأول: أن رمي الزوج إياها بالزنا أقرب إلى الصدق من إنكارها؛ لأنه يبعد أن الزوج يرمي زوجته بالزنا - بعيد جدًّا - إلا إذا تيقن ذلك، لكن إنكارها هي أمر مُتَوَقَّع؛ لأنها تدرأ عن نفسها عار الفاحشة، وكذلك عن أهلها مثلما قالت المرأة: «لا أفضح قومي سائر اليوم».

فعلى كل حال نقول: الغضب أشد من اللعنة واختير للمرأة؛ لأن رمي الزوج إياها بالزنا أقرب إلى الصدق والواقع من إنكارها، فكان إنكارُها أعظم؛ لذلك رُتِّب عليه إن كان صادقًا أن يغضب الله عليها.

السبب الثاني: أنها تقول: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وإذا كان من الصادقين فقد أنكرته هي وحادت عن الحق مع علمها به، إذا قالت: ﴿غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وصار صادقًا صار معناه أنها خالفت الحق مع علمها به؛ لأن الفرض أنه صادق ولو صار صادقًا وهي تنكر والفعل مفعول مخفي، وهي تقول: لا، ما هو صحيح، وهو صادق في أنه صحيح فما الذي يناسبها؟ صارت عالمة الحق فأنكرته، ومَنْ علِمَ الحق ورده فجزاؤه أشد، جزاؤه الغضب، ولهذا في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ مَنْ هم المغضوب عليهم؟ الذين علموا الحق فأنكروه مثل اليهود، والضالون: الذين لم يقولوا بالحق لجهلهم به.

مسألة: فإن قال قائل: ألا يطلقها؟

الجواب: لكن هو لا يطلقها لو كان يريد الطلاق ما احتاج إلى أن يرميها بل طلقها وانتهى الأمر. أصلًا ما يمكن يقدم الإنسان على رمي زوجته بالزنا لمجرد تهمة أبدًا، إلا شيء رآه لا يمكن أن يصبر عليه؛ لأن هذا عار عليه، ولهذا - كما سيأتينا إن شاء الله في حديث الإفك - ما يمكن للإنسان العفيف أن يبتليه الله بامرأة تزني ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور:

٢٦] ولهذا هو نفسه يجد من العار أن يُشْهِر عند الناس أن امرأته زانية، لكن هي تجد من نفسها أن من العار أن تُقِرَّ على نفسها بالزنا فهي تحاول أن تنكر.

مسألة: فإن كان هناك ولد من هذا الزنا ؟

الجواب: إذا حصل هذا الشيء منها يجب عليه أن يستبرئها بحيضة فإن قُدِّرَ الحمل والولد - يعني لما استبرأها ما حاضت حملت - فالولد له؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ**»[1] حتى لو فرضنا أنه حصل تقدير له من هذا الزاني فهو ولد الرجل؛ لأن الولد للفراش. إلا إذا لاعن على هذا الولد انتهى الموضوع.

واللعان لنفي الولد فيه خلاف، المذهب: ما يجوز أن يلاعن لنفي الولد، لابد أن يقذفها أولًا بالزنا ثم يلاعن وينفي الولد، والصحيح: أنه يجوز أن يلاعن لنفي الولد فقط، كأن يقول: ما أقول زنت لكن هذا الولد ليس مني وألاعن على ذلك، ويقول في اللعان: أشهد بالله - ويشهد أربع مرات - أنه لمن الصادقين في أن الولد ليس له، وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

مسألة: **فإن قال قائل:** كيف ينفي الولد ولا يقذفها بالزنا ؟

الجواب: قد تكون مكرهة ما زنت، أو مشتبه فيها مثلًا؛ لأن مسألة أنها تزني صعبة، ولهذا أوجب الله فيها الحد، وهذا الرجل لو نفى ولده ما وجب عليه الحد، لا هي ولا هو، لا هي أن نقول هذا الولد يكون زنا، ولا هو أيضًا نقول هذا العمل يكون قذفًا، نعم لو فرضنا على القول الصحيح أنه إذا حملت وليس لها زوج فإنها تُحَدّ إلا إذا ادعت شبهة، لكن لو أن لها زوجًا لا يمكن أن نؤذيها، يحتمل أن يكون من زوجها.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

قال المؤلف: [﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالستر في ذلك، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ بقبوله التوبة في ذلك وغيره، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم به في ذلك وغيره ليبين الحق في ذلك وعاجل بالعقوبة من يستحقها].

قوله: ﴿وَلَوْلَا﴾ هذه شرطية، ويسمونها حرف امتناع لوجود، يعني: أنها منعت شيئًا لوجود شيء، هنا ننظر ما هو الذي امتنع لوجود شيء؟ الذي امتنع هو الجواب المحذوف جواب (لولا) المحذوف وهو ما قدره المؤلف بقوله: [ليبين الحق في ذلك وعاجل بالعقوبة من يستحقها] هذا هو الذي امتنع لوجود فضل الله ورحمته.

فالحاصل أن الذي منع جواب (لولا) في هذه الآية هو فضل الله ورحمته، وأما ﴿فَضْلُ﴾ فهو مبتدأ وخبره محذوف؛ لأن (لولا) يُحذف بعدها الخبر وجوبًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

وَبَعْدُ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرِ حَتْمٌ ....

يعني لازم.

فهنا (لولا) إذنْ تحتاج إلى جواب، وجوابها مقدر، وتحتاج إلى خبر للمبتدأ وهو محذوف أيضًا، ويحذف وجوبًا بعد (لولا) غالبًا كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ الفضل من آثار الرحمة في الحقيقة؛ لكن الرحمة تكون فيما يضطر إليه العبد وزيادة، وتكون في الزيادة أيضًا، والفضل في الزيادة فقط فيكون عطف الرحمة هنا على الفضل من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الفضل من آثار الرحمة لكنه أخص منها حيث إنه زائد على ما يحتاج إليه العبد ويُضطر إليه، وأما الرحمة فتكون فيما يحتاج إليه العبد وفيما زاد على ذلك.

وقول المؤلف: [بالستر في ذلك] هذا بناءً على خصوص الآية للمتلاعنين، والصواب أن الآية عامة - يعني: لولا فضل الله ورحمته عليكم في هذا وغيره ليس في الستر وحده لحصل لكم ما لم يحصل لكم الآن، فالصواب إبقاء الآية على عمومها؛ وأنه لولا هذا الفضل والرحمة من الله ما حصل لنا الذي حصل من هذا التيسير وهذا التشريع الحكيم.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ معطوف على فضل، يعني: ولولا أيضًا أن الله ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿تَوَّابٌ﴾: سبق لنا أن التواب: كثير التوبة وأن توبة الله على عباده تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: التوفيق للتوبة، والثاني: قبول التوبة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨] وتطلق التوبة من العبد إلى الله، وهي من العبد إلى الله بمعنى الرجوع من معصيته إلى طاعته، فالعبد توَّاب والله توَّاب، لكن فرقٌ بين تواب التي يوصف بها الله، وتواب التي يوصف بها العبد، فتواب التي يوصف بها الله معناها: المُوَفِّق للتوبة القابل لها، وتواب التي يوصف بها العبد: معناها الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى من معصيته إلى طاعته.

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ سبق لنا أنها مشتقة من الحُكْمِ والحِكْمَة فتكون بمعنى: حَاكِم وبمعنى مُحْكِم، والحكم لله سبحانه وتعالى ينقسم إلى: كوني، وشرعي.

والحكمة تكون في الحكم الكوني، وتكون كذلك في الحكم الشرعي، فمحل الحكمة الحُكْمان - يعني: الحكم الكوني، والحكم الشرعي.

والحكمة أيضًا - كما سبق - تكون حكمة في الإيجاد، وحكمة في الصورة، وحكمة في الغاية، يعني حكمة الله ليست هي غايات الأمور، لكن في الإيجاد وفي الصورة وفي الغاية.

يعني: أن الله لا يوجد شيئًا إلا لحكمة، ثم إيجاده على صورة معينة حكمة أخرى، ثم الغاية من هذا الإيجاد حكمة ثالثة، إذنْ فحكمة الله سبحانه وتعالى تتعلق بالإيجاد وبالصورة والغاية.

فمثلًا: إيجاد الشمس هذا لحكمة، وهو حكمة إيجاده، كونها على هذه الصورة المعينة، وبهذه الحرارة وبهذه المسافة عن الأرض وبهذا السير المعين هذه اسمها حكمة في الصورة، والغاية منها هي مصالح الخلق وهذه أيضًا حكمة.

إيجاد الإنسان حكمة، وكونه على هذه الوجه من الصورة حكمة، والغاية من إيجاده حكمة، وهكذا في الأمور الكونية والشرعية؛ فإن تشريع الشرائع حكمة، وكونها على هذا الوجه المعين حكمة، والغاية منها ـ وهو إصلاح الخلق ـ حكمة أيضًا.

فالحاصل إذن: أن حكمة الله سبحانه وتعالى تكون في الإيجاد والصورة والغاية.

والحكيم قلنا إن معناها: حاكم ومحكم أي متقن، أي ذو حكمة، فالمحكم أي ذو الحكمة، والحكمة ـ كما ذكرنا ـ تكون في الشرع وفي القدر؛ لأنها تكون في الحكمين، وتكون في الإيجاد، والصورة، والغاية.

جواب (لولا) في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ يقول المعلق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لبيَّن الحق في ذلك وعاجل بالعقوبة من يستحقها].

لكن المؤلف قَصَرَ هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ على قصة المتلاعنين، يعني: لولا أن الله تفضل علينا ورحمنا؛ لبين الحق في ذلك، أي بين كذب الزوج إن كان كاذبًا وكذب المرأة إن كانت هي الكاذبة، وعاجل بالعقوبة من يستحقها من أحدهما؛ لأن أحدهما كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لما تلاعنا قال: «**اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا أَحَدٌ تَائِبٌ؟**»(١) يعني: يُعرِّض لهما بالتوبة، ويَعْرِض عليهما التوبة فهل أحد يتوب؟!

فالمعلِّق رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أن هذه الآية خاصة بقصة المتلاعنين، والصواب: أنها عامة فيها وفي غيرها؛ لأن الله لم يقيدها قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ما قال في ذلك. ثم العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

إذن يكون الجواب المقدر غير ما قدره المفسر، نقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ ما حصل لكم هذه المصالح وانتفت عنكم تلك المفاسد؛ لأن هذا عام أعم مما قاله المؤلف.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآيات:** الحكمة في تشريع الله؛ لأن هذه الآية مستثناة في الحكم من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٠٧)، والترمذي (٣١٧٩)، وأبو داود (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٢٠٦٧).

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

لو هذه الآية بقيت على ما هي عليه لوجب أن يجلد الزوج، الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ في هذا الحكمة في التشريع حيث خصَّ الأزواج بهذا الحكم من حكم الذين يرمون المحصنات، هذا النوع من التخصيص منفصل، فهذه الآية خصصت عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ لأنه لو بقيت الآية تلك على عمومها، لكان الزوج إذا قذف زوجته يثبت له الأحكام الثلاثة السابقة، لكن الزوج انفرد عن غيره بهذا الحكم، فإذنْ هذه الآية أو تخصيص الأزواج من عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ هذا خُصص بمخصِّص منفصل؛ لأنه نص مستقل.

ما هي الحكمة من تخصيص الأزواج بهذا الحكم دون غيرهم من القذفة؟

الحكمة هي أن الزوج لا يمكن أن يقذف زوجته بالزنا إلَّا والأمر كما قال؛ لأن زنا زوجته عار عليه؛ لأنها هي حرثه، فإذا قذفها بالزنا أصبح الأمر شديدًا وعظيمًا، إذ أ ن هذا يوجب التشكك في أولاده عند الناس، ويوجب العار عليه حيث يقال: هذا الرجل ديوث كان يقر الفاحشة في أهله؛ لأن النفوس قد تقول: هذه ليست أول مرة!! وما أشبه ذلك، إذ إن الزنا عادة لا يأتي علنًا بل يأتي سرًّا، والسر لا يظهر في أول مرة، فلهذا لما كان زنا الزوجة عارًا على الزوج، صار لا يمكن أن يقذف زوجته بالزنا إلا والأمر كما ذكر، ولهذا خُصَّ من بين سائر القاذفين بهذا الحكم؛ لأن قذفه يعتبر شهادة.

٢ - **ومن الفوائد:** أنه لا يصح اللعان إذا قذف أجنبية ثم تزوجها، يعني: لو قذف امرأة أجنبية ثم تزوجها فلا لعان، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، فلو قذف امرأة أجنبية ثم تزوجها فلا لعان بينهما وإنما يُحد للقذف.

٣ - **ومن فوائدها:** عموم الآية ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ يشمل ما قبل الدخول وما بعد الدخول، فلو عقد على امرأة ثم رماها بالزنا أُجري بينهما اللعان، لأنها زوجته.

٤ - **وفيها أيضًا:** أن رمي غير الزوجة ولو الأم أو البنت أو الأخت ممن يلحقهم عاره ليس كقذف الزوجة، بمعنى أن الرجل لو قذف أقرب الناس إليه بالزنا طُبِّق عليه أحكام القاذفين الثلاثة السابقة بخلاف الزوج، ووجه ذلك ما سبق من الإشارة إلى الحكمة.

٥ - **ومن الفوائد أيضًا:** أن البدل يُجعل له حكم المبدل منه، فلما كانت البينة على الزنا أربعة شهود، وكان الزوج إذا قذف زوجته بالزنا يعتبر شاهدًا، والتعدد الشخصي في حقه ممتنع، جُعِل التعدد في نفس الشهادة، ويكون هذا تقريرًا للقاعدة المشهورة والمعروفة: (**أن البدل له حكم المبدل منه**)، فلما كانت شهادة الزوج على زوجته بالزنا بمنزلة شهادة رجل، صار تكرارها بمنزلة تكرار الرجال وتعدد الشهود.

٦ - **وفيها أيضًا من الفوائد:** تعظيم هذا الأمر بحيث لا يكتفي فيه بالشهادة المجردة، بل لابد من شهادة مقرونة بيمين، فيقول: أشهد بالله.

٧ - **وفيها أيضًا:** وجوب قرن هذه الشهادة المعقدة باليمين في الخامسة باللعنة بالنسبة للزوج، وبالغضب بالنسبة للزوجة.

٨ - **ومن الفوائد أيضًا:** أنه يجب أن يبدأ الزوج باللعان؛ والدليل: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ ولا يتم العذاب عليها إلا إذا شهد الزوج، هذا من جهة الدليل.

ومن جهة النظر: أن الزوج مُدَّعٍ في الحقيقة والذي يُبْدَأُ به هو المُدَّعِي، وهو الذي يُطلب منه إثبات الدعوى، هو الذي يقال له: هات بيِّنة، فإذا لم يوجد بينة رجعنا إلى المنكر أي إلى الـمُدَّعَى عليه.

فعلى كل حال فيه من الفوائد أنه يجب البداءة بشهادات الزوج، والدليل من الآية أنه قال: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ ولا يتم العذاب إلا بشهادات الزوج، هذا من جهة الدليل، ومن جهة النظر: أن الزوج بمنزلة المدعي، والـمُدَّعِي يُطلب منه أولًا إثبات ما ادعاه.

٩ - **ومن فوائدها:** أنه لابد أن نؤكد الشهادة بـ (إن)، و(اللام) مع اليمين السابقة لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فلو قال: أشهد بالله بأني صادق فإنه لا يكفي، لابد أن يأتي باللام؛ لأن اللام تفيد زيادة تأكيد وتقوية، فلابد من الإتيان بها.

وفيه دليل على جواز الدعاء معلقًا بالشرط، يؤخذ من قوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهي تقول: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وقد جاء مثله أو قريب منه في الاستخارة: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ... إلخ**»[(١)]، وكما جاء الشرط مفيدًا في دعاء الخالق جاء مفيدًا أيضًا في الشرع - يعني في الأحكام الشرعية - مثل ما قال النبي ﷺ لضباعة بنت الزبير لما قالت: يا رسول الله إني أريد أن أحُجَّ وأجدني شاكية قال: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحَلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي، فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ**»[(٢)].

فكما يجوز الشرط في دعاء المسألة، يجوز الشرط أيضًا في دعاء العبادة، كما في حديث ضباعة بنت الزبير، وهذا يشهد لرؤية رآها شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنه رأى النبي ﷺ، وكان يُشْكِلُ عليه جنائز تقدم عليه، ويشكل عليه أنهم مسلمون، فرأى النبي ﷺ ذات ليلة: فسأله عن أشياء من جملتها: عن الرجل يُقَدَّم إلى الإمام ليصلي عليه وهو يشك في إسلامه، فقال له النبي ﷺ: (عليك بالشرط يا أحمد)، ومعنى الشرط مثل: اللهم إن كان مؤمنًا فاغفر له وارحمه؛ لأن هذا حقيقة أحيانًا يشك الإنسان في إسلام الجنازة المقدمة، فيقول: اللهم إن كان مؤمنًا فاغفر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٨٢)، والترمذي (٤٨٠)، وأبو داود (١٥٣٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧).

له وارحمه، وهذا جائز وشاهده هذه الآية وحديث الاستخارة هذا في دعاء المسألة، وفي دعاء العبادة حديث ضُباعَة بنت الزُّبير: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي، فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ».

١٠- وفيه دليل على: ثبوت الحد على المرأة بلعان الزوج، إلا إذا أنكرت ولاعنت، يؤخذ من قوله: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ والعذاب هو الحد، والدليل على أن العذاب هو الحد قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأما من فسَّر العذاب بالحبس، بأنها تحبس حتى تُقر أو تلاعن فهذا قول لا دليل عليه، ولا معول عليه.

إذن يثبت الحد على المرأة بلعان الزوج كما تدل عليه الآية، وكذا يثبت بالبينة إذا أتى بها وهذا مفهوم من الآية السابقة ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾، ويثبت بأمر ثالث وهو إقرار المرأة إذا أقرت.

إذا أنكرت المرأة وقالت: أبدًا هو كاذب حينئذ نقول: لاعني، أجيبيه على شهاداته فإذا أجابته على شهاداته سقط عنها العذاب، وإن لم تُجبه أُقِيم عليها الحد.

في هذا أيضًا دليل على الحكمة في اللعان، حيث خص الرجل باللعنة ـ بالدعاء على نفسه باللعنة ـ، والمرأة بالدعاء على نفسها بالغضب، وهذا سبقت الإشارة إليه.

يعني كون الزوج يلعن نفسه إن كذب كأن في اتهامه إياها بالزنا إبعادًا لها عن العفة وعن نفسه وأولاده، فناسب أن يدعو على نفسه باللعن الذي هو الطرد والإبعاد، وبالنسبة لها؛ لأنه إن كان صادقًا قد علمت الحق وأنكرته وهذا عقوبته الغضب فكل من علم الحق ورده فعقوبته الغضب. الثاني: أن الزوج مظنة دعواه الصدق؛ لأن هذا يلحق به العار وهي أقرب للكذب؛ لأنها تريد أن تدفع عن نفسها وعن أهلها العار. فلذلك خصت بالغضب.

إذنْ يؤخذ من هذا الحكمة في المغايرة بين الزوج والزوجة فيما يدعو أحدهما به على نفسه فالمرأة بالغضب، والزوج باللعنة.

لو أنه عكس وقال الزوج: غضب الله عليه، والزوجة: لعنة الله عليها، فلا يصلح، حتى قال العلماء: لو أبدل الغضب بالسَّخَط أو أبدل اللعنة بالطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإنه لا يصح اتباعًا للفظ، وهذا في الحقيقة محل نظر؛ لأن السخط قد يكون بينه وبين الغضب فرق، لكن الطرد والإبعاد عن رحمة الله هو معنى اللعنة، إلا أنه مع ذلك نقول: إنه لا ينبغي العدول عما جاء به القرآن.

١١- وفيها أيضًا: بيان فضل الله ورحمته على عباده بالشرع والقَدَر لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ فإنَّ هذا يتعلق بالشرع وبالقَدَر.

أما بالشرع: فلولا الله تفضل علينا ورحمنا وشرع للأزواج ما شرع من اللعان، لكان الزوج يقع في حرج عظيم؛ لأنه إن تكلم يقام عليه حد القذف، وإن سكت سكت على أمر عظيم، لكن من رحمة الله أن الله شرع اللعان، وهذا فضل ورحمة في الشرع.

كذلك في القدر: بالنسبة لقضية المتلاعنين ـ وهو ما أشار إليه المؤلف ـ: أنه لولا أن الله سبحانه

وتعالى يحب الستر لفضح المرأة، وأظهر آية تدل على صدق الزوج أو بالعكس إذا كان الزوج كاذبًا لكن من رحمة الله - أن الله سبحانه تعالى - يستر على عباده في الدنيا مثل هذه الأمور، ثم يجازيهم عليها في الآخرة.

مسألة: في هذه الآية ما ذكر حكم قذف الرجل لو عَيَّنَه الزوج لو قال: زنا بها فلان، فهل يُحَدُّ لقذف فلان لأنه ليس زوجه - طبعًا - أو نقول من اللعان لأن الزنا هنا واحد، والله تعالى جعل شهادات الزوج بمنزلة إقامة البينة لكن بالنسبة للزوجة لا بالنسبة لمن قذفها به، وفي السنة من قذفها به يسلم من الحد ولا يصل له حق في إقامة حد القذف على الزوجة، أو نقول: هذا القذف يوجب اللِّعان بالنسبة للزوجة ويوجب الحد بالنسبة للأجنبي؟

الجواب: في الحديث أن هلال بن أُمَيَّة قذف امرأته بشريك بن سحماء[1] فعيَّن الرجل الذي زنا بها، ولم يَحُدُّه النبي ﷺ حَد القذف، ولهذا الصحيح من أقوال أهل العلم: أنه لا يُحد بقذف الرجل ولو عينه، لكن لا ينبغي مثل هذا؛ لأجل ألَّا يدنس عرضه، فالأولى أن يقول: إنها زنت ولا يعيِّن، لكن لو عَيَّن فإنَّ السنة تدل على أنه لا يُحَدُّ للرجل، السبب في ذلك هو أن الأصل هنا هل المقصود قذف الزوج للرجل الأجنبي أم الزوجة؟ الزوجة، وما عَيَّن الرجل إلا لزيادة إثبات قذف الزوجة يعني: ما قال فلان زنى بامرأتي وأراد أن يدنس الرجل هذا، هو في الحقيقة المسألة للتخلص من زوجته، فهذه - والله أعلم - الحكمة في أنه لن يُحد، لكن منْ راعى المعنى كانت الآية السابقة تدل على أن الرمي بالزنا يوجب الحد، وهذه الآية تدل على أن رمي المرأة بالزنا يوجب اللِّعان، فتبقى الآية هناك بالنسبة للأجنبي على عمومها وهذه بالنسبة للزوجة على خصوصها.

لكن السنة في الحقيقة هي الفاصلة، والنبي ﷺ ما حَدَّ الرجل الذي قذف امرأته بشريك بن سحماء، لكن الذين يقولون يُحد يجيبون عن هذا يقولون: من قال إن شريك بن سحماء لم يطالب بحقه وحد القذف لا يجب إلا بالمطالبة.

لكننا نقول ردًّا على هذا: مسألة كون الحد بالقذف لا يجب إلا بالمطالبة محل نظر، لأن عموم الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ لا تُقَيِّد ذلك بالمطالبة، وكون هذا حقًّا خاصًّا للمقذوف محل نظر وغير مُسَلَّم به؛ لأن تدنيس أعراض المسلمين ليس حقًّا شخصيًّا في الواقع، يتعلق بعموم المسلم على إسلامه، وإنما يتعلق بعموم المجتمع الإسلامي وإفساد له، ولهذا أنا أميل إلى أن حدَّ القذف يجب وإن لم يُطالِب به المقذوف، المهم أن يثبت حتى لو أن المقذوف لا يريد أن يدافع عن عرضه وسكت، نقول: إن المسلمين هم الذين يدافعون عن عرضه ويقام الحد عليه.

١٢- ومن فوائدها: إثبات الأسباب والموانع من قوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ لأن هذه الآية فيها مانع وفيها سبب، فالسبب الذنوب وما يترتب عليها من الأخطاء، والمانع الذي

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٧١)، والترمذي (٣١٧٦)، وأبو داود (٢٢٥٥).

يمنع من العقوبة هو فضل الله ورحمته.

١٣- ومن فوائدها: إثبات (التَّوَّاب) اسمًا من أسماء الله لقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾، وإثبات (الحكيم) اسمًا من أسمائه تعالى، والحكيم - كما أشرنا إليه أولًا - يتضمن معنى الحكم والحكمة، والحكم: كوني وشرعي، والحكمة: في الإيجاد والصورة، والغاية، وهذه الأشياء الثلاثة في الحكمة في الحكم القدري والحكم الشرعي.

مسألة: هل ينتفي الولد عن الزوج باللعان أم لا ينتفي؟

الجواب: إن نفاه في لعانه انتفى وإلا فهو ولده.

إذن لابد أن يُصَرح بنفيه، وإلا فهو ولده؛ لأن «**الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ**» كما قال النبي ﷺ: «**وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ**»(١)، فإذا سكت عن الولد فهو ولده وإن نفاه انتفى.

فإن نفاه؛ فليس له أبٌ شرعًا، أما قدرًا فله أب، ويُنْسب إلى أمه، وترثه أمه ميراث أم وأب، ينبني على ذلك صورة: لو مات هذا الولد عن أمه التي ولدته وعن إخوته لأمه، كيف يكون الميراث؟

إذا قلنا: إن الأم أم وأب حجبتهم الأم، وصار الميراث لها وليس لإخوته شيء، يصير لها السدس على أنها أم، والباقي لها تعصيبًا على أنها أبٌ، وهذا هو الصحيح لحديث: «**تَحُوزُ المَرْأَةُ ثَلَاثَةَ مَوَارِيثَ: شَقِيقَهَا، وَعَتِيقَهَا، وَوَلَدَهَا الذِي لَاعَنَتْ عَلَيهِ**»(٢)، في المذهب يقولون: إنها ترثُه ميراث أم فقط ويكون العاصب له عصبة أمه، وعلى هذا فيكون للأم هنا السدس، والباقي لإخوته من أمه؛ لأنهم هم عصبة الأم أبناؤها فيكون الباقي لهم.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١]

التفسير

قال المؤلف: [﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ جماعة من المؤمنين قالت: حسان بن ثابت، وعبد الله بن أُبي، ومسطح، وحمنة بنت جحش].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩٠)، والترمذي (٢١١٥)، وأبو داود (٢٩٠٦)، وابن ماجه (٢٧٤٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٥٧٦).

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ و(أل) هنا للعهد الذهني، يعني: الذي هو معلوم عندهم ومفهوم.

وقوله: ﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: [أسوأ الكذب] كما قال المؤلف، ونَعَم هذا أسوأ كذبٍ يكون مثل هذا الكذب الذي جاء به هؤلاء، لما يتضمنه من القدح في أمهات المؤمنين وبالتالي في النبي ﷺ كما يتبين من الآيات في سياقها.

وقوله: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: جماعة، وقوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ الخطاب للمؤمنين، وكونه من المؤمنين يدل على أنهم لم يخرجوا عن الإيمان بهذا القذف؛ لأنه صدر قبل أن يتبين الحكم في هذا، وإلا فمن قذف واحدةً من أزواج النبي ﷺ عائشة أو غيرها، فهو كافر مرتد يُستتاب فإن تاب وإلا قُتِل، وَعَدُّ المؤلف عبد الله بن أُبي من هؤلاء العصبة على أساس أن عبد الله بن أُبَيّ كان يتظاهر بالإسلام ولكنه في الحقيقة منافق، ثم إن عبد الله بن أُبَيّ ليس يُصرح في هذا بالقذف، وإنما هو خبيث يجمعه ويُشيعه بين الناس بلفظ ليس فيه تصريح، ومع هذا هو الذي تولى كبره ـ كما سيأتي ـ.

إنما نقول الخطاب في قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ للمؤمنين، ولا شك أن مثل حسان بن ثابت رضي الله عنه ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش لا شك أن مثل هؤلاء مؤمنون، وأنهم لم يخرجوا من الإيمان بما فعلوا؛ لأنه قبل تَبيُّن الحكم، لكن الذي يُشكل عليه أن يُعدَّ منهم عبد الله بن أُبَيّ، وإيضاح هذا الإشكال بأن يقال: إن عبد الله بن أُبَيّ يتظاهر بأنه مع المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة:١٤] وهو في الحقيقة من المنافقين، فعدُّه منهم باعتبار الظاهر لا باعتبار الحقيقة والواقع.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾ أي: لا تظنوه أيها المؤمنون غير العصبة ﴿شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

أولًا: الله تعالى يقول: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾ فنهى أن نظن بأن هذا الإفك شر لنا قبل أن يُثبت أنه خير لماذا؟ لأنه لا شك أنه حين وقع هذا الإفك أن المؤمنين أصابهم ما أصابهم من الأذى وظنوا أن ذلك شرّ، فأراد الله تعالى أن ينتزع هذا الظن من نفوسهم قبل أن يبين حكمه قال: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾، لأن هذا أول ما ينبغي معالجته بالنسبة إلى هذا الإفك فهو انتزاع ما يظنه بعض المؤمنين أن هذا الإفك شرٌّ، ثم بعد هذا الانتزاع تأتي المعالجة، يقولون: إن التخلية قبل التحلية، يعني تخلية الشيء من القبح والتشويه قبل أن يُحلى بالشيء الجميل؛ ولهذا نهى الله أن نحسب هذا شرًّا حتى يقتلع هذا من نفوسنا أولًا، ثم تكون مُستعدةً للتحلية ولإثبات ما يُثْبَت ويُتَحَدث عنه في شأن هذا الإفك.

وتبين بهذا أنه ينبغي عند معالجة الأشياء أن نزيل أولًا الأذى لنفتح الطريق أمام الخير حتى يلج ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ وفيه أيضًا: أن نقول: ينبغي أن يؤتى بأهم شيء، وأهم شيء في هذا الأمر أن يُزال ما في النفوس من ظن أن يكون هذا الإفك شرًّا للنبي ﷺ ولآل أبي بكروبالمؤمنين

عمومًا، لأن حقيقة الأمر لو وقع هذا ـ وحاشا لله أن يقع ـ لكان هذا شرًّا بالنسبة لآل أبي بكر وبالنسبة لنبي الله ﷺ، ولهذا ما يمكن للمؤمنين حقًّا أن يظنوا هذا الظن.

وأجلَّاء المؤمنين من الصحابة أنكروا ذلك وقالوا: لا يمكن أن يكون، وممن أنكره أسامة بن زيد رضي الله عنه، وغيره أنكروا هذا أن يكون، ولكن بعض الناس لكثرة الترويج والإشاعات، والشيطان أيضًا ينفث في قلوبهم حصل منهم بعض الشك، والصحابة المؤمنون انقسموا في هذا إلى ثلاثة أقسام: قسم حصل منه ما حصل من الانحراف في هذا الأمر، وقسم منهم أنكر ذلك إنكارًا بالغًا، وقال: هذا لا يمكن، والقسم الثالث: توقف وشَكَّ في الأمر.

لكن الأجلَّاء من الصحابة والمعظم منهم أنكروا ذلك كما ذكره أهل العلم.

قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

أولًا: كيف لا نحسبه شرًّا؟ نحن نؤمن بذلك؛ لأن الله قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا﴾ وإن كان الإنسان قد يظن بادئ ذي بَدء بأنه شرّ، وهذا الشيء معروف، واحد يقذف أهلك أمر تعرف أنه شر موجه إليك هذا أمر مُسَلَّم به، فلما قال الله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ انتهت المشكلة هذه وقضي عليها بنهي الله عز وجل، العليم بما سيكون بأنه ليس بشر.

بقي أن يقال: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ونحن نؤمن بهذا أيضًا وأنه خيرٌ لنا، لكن ما هو الخير الذي ظهر في هذا الإفك؟

نقول: الخير الذي ظهر في هذا الإفك خير ليس له نظير، حيث:

أولًا: ظهرت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ونزاهتها، ظهورًا لا يعادله شيء؛ شهد الله لها بالبراءة من فوق عرشه تبارك وتعالى.

ثانيًا: ظهر بذلك نقاءُ وطُهرُ فراش النبي ﷺ، وأنه لا يمكن لفراش النبي ﷺ أن يتدنس بهذا.

ثالثًا: من الخير: الأجر العظيم الذي ترتب على ما أصاب المؤمنين في هذه الحادثة من الأذى والمشقة والجهد الجهيد، حتى أنه من حكمة الله عز وجل أن الوحي انقطع شهرًا كاملًا، ما نزل على النبي ﷺ وحي؛ لأجل أن يتمحص المؤمن من المنافق، ولأجل أن يشتد اشتياق المؤمنين إلى بيان الله سبحانه وتعالى في هذه القضية العظيمة الهامة، ولأجل أن يزداد أجرهم في هذه المدة.

ثم إن فيها أيضًا من الخير: رفعة شأن النبي ﷺ، وهذا فوق قولنا نزاهة فراشه وطهارته، وكون الله سبحانه وتعالى بنفسه يدافع عنه.

ثم فيه أيضًا من الخير: تأديب المؤمنين وعظتهم بما ينبغي أن يكونوا عليه من عدم إطلاق القول والتجرُّؤ على أعراض الأعفَّاء إلى غير ذلك مما سيتبين - إن شاء الله - في أثناء هذه القصة العظيمة.

[قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يأجركم الله تعالى به، ويظهر الله براءة عائشة رضي الله عنها ومن

جاء معها منه وهو صفوان فإنها قالت: كنت مع النبي ﷺ...إلخ].

هذا أيضًا من الخير لصفوان بن المُعَطِّل رضي الله عنه أنه إذا أنزل الله براءة عائشة من ذلك وكان هو الذي رماه المنافقون بها نفهم من ذلك براءة صفوان رضي الله عنه.

[قالت عائشة رضي الله عنها: كنت مع النبي ﷺ في غزوة بعدما أُنْزِل الحجاب][1] وهذه الغزوة تسمى غزوة المُرَيْسِيع وغزوة بني المُصْطَلِق، ولم يبين المؤلف متى كانت هذه الغزوة لكنه يتبين لنا متى كانت، كانت بعدما أنزل الحجاب، والحجاب نزل سنة ست من الهجرة.

وعلى هذا فتكون هذه الغزوة في السنة السادسة في آخرها أو في السابعة، وأما قول بعض المؤرخين أنها في الخامسة أو في الرابعة فهذا وهم منهم، والصحيح أنها كانت في السادسة في آخرها؛ لأنها صرحت بأنها بعدما أنزل الحجاب، والنبي ﷺ أيضًا استشار زينب في شأنها، وزينب نزلت آية الحجاب عند زواج النبي ﷺ بها.

تقول رضي الله عنها: [ففرغ منها ورجع ودنا من المدينة، وآذن بالرحيل ليلة، فمشيت وقضيت شأني وأقبلت إلى الرحل فإذا عقْدي قد انقطع ـ وهو بكسر المهملة: القِلَادة ـ، فرجعت ألتمسه وحملوا هودجي ـ هو ما تركب فيه ـ على بعيري يحسبونني فيه وكانت النساء خفافًا إنما يأكلن العُلْقة ـ هو بضم المهملة وسكون اللام: من الطعام ـ أي القليل ـ][2].

تحدثت عائشة رضي الله عنها عن قصة الإفك تقول: إنه لما رجع النبي ﷺ من هذه الغزوة في ليلة من الليالي أُذِنَ بالرحيل، فذهبت تقضي حاجتها كشأن الإنسان إذا أراد أن يركب أو أراد أن ينام أو ما أشبه ذلك يفرغ نفسه، ذهبت تقضي حاجتها يعني: تتبول أو تتغوط، فلما رجعت وإذا العِقد قد انقطع، فرجعت تلتمسه وقد ذكر المؤرخون: أن هذا العقد كان عارية عندها لأختها أسماء، فذهبت تلتمسه ـ تطلبه ـ فوجدت العقد، فلما وجدته رجعت إلى مكانها، فإذا القوم قد حملوا هودجها، وما ظنوا أنها ليست فيه؛ لأنها كما قالت رضي الله عنها: كانت النساء خفافًا ما كان اللحم قد بان عليهن؛ لأنهن إنما يأكلن العُلْقة من الطعام يعني: القليل.

ثم إن الهودج الذي حمله ليس رجلًا واحدًا أو اثنين حتى يميزوا خفته، إنما حمله جماعة، والعادة أن الجماعة لا يحسون بثقل الشيء ما يهمهم، لذلك حملوه على أنها فيه، وساروا، فلما رجعت ولم تجدهم، عرفت أن القوم سيفقدونها وسيرجعون إليها، وهذا أمر معروف، هي من ذكائها وعقلها ما ذهبت يمينًا ولا شمالًا، ما قالت ألحقهم أبحث عنهم بقيت في مكانها، ومن العجيب أنها من طمأنينتها ورباطة جأشها أنها نامت في هذا المكان، ولما نامت كان صفوان بن المعطل رضي الله عنه في أخريات القوم، وكان كثير النوم وثقيل النوم أيضًا، فلما استيقظ لحق القوم، فلما أقدم على مكانهم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

وجد سواد شخص، فأوى إليه وحصل ما حصل.

يقول: [ووجدت عقدي وجئت بعدما ساروا، فجلست في المنزل الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فغلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان قد عَرَّس من وراء الجيش فادَّلَج - هما بتشديد الراء والدال أي: نزل من آخر الليل للاستراحة - فسار منه (أي من مكانه) فأصبح في منزله (أي في منزل الجيش) فرأى سوادَ إنسانٍ نائم - أي شخصه - فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني - أي قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون - فخمَّرت وجهي بجلبابي - أي غطيته بالملاءة - والله ما كلمني بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، ووطئ على يدها فركبتَها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين.... إلخ](١).

فهو رضي الله عنه لما رأى سواد الشخص أقبل إليه، فلما أقبل وإذا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نائمة ولم تغطِّ وجهها؛ لأن ما حولها أحد، فعرفها رضي الله عنه وكان قد رآها قبل الحجاب فعرفها، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أناخ بعيره ووطئ على ركبته حتى ركبت ولم يكلمها بكلمة، وإنما استرجع رضي الله عنه خوفًا مما وقع تَوَقَّع أمرًا فوقع؛ لأن امرأة في فلاةٍ من الأرض وَحدَهَا ويأتي بها رجل متأخر عن الجيش وهي متأخرة عنه، هذا لا شك أنه بليَّة وابتلاء من الله عز وجل، ولهذا رأى أنه مصيبة رضي الله عنه فاسترجع، ولكن لعفته وتعظيمه للنبي ﷺ وتعظيمه أم المؤمنين رضي الله عنها ما كلمها ولا بكلمة حتى ما قال: اركبي، ولا قال: ما الذي خلفك، ولا قال: لا بأس عليك، ما تكلم بكلمة إطلاقًا؛ احترامًا لفراش النبي ﷺ، وإكرامًا له، وإنما أناخ البعير ووطئ على ركبته حتى ركبت رضي الله عنها، فذهب يقود بها حتى أتى الجيش، أتاهم متى؟

يقول: [موغرين في نحر الظهيرة - أي من أوغر - واقعين في مكان وغر من شدة الحر] هذا معنى الوغر شدة الحر، حتى عندنا الآن في اللغة العامية يقولون: والله اليوم حر واغر يعني شديد الحر.

يقول: [فهلك من هلك فيّ، وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول. ا.هـ قولها، رواه الشيخان](٢).

لَّما حصل الذي حصل وجد عبد الله بن أُبَيّ ونظراؤه من المنافقين متنفسًا يتنفسون منه الصعداء للقدح في النبي ﷺ، فجعلوا يتكلمون: ما الذي جاء به، ما الذي خلَّفه، ما الذي خلَّف عائشة؟ ثم صاروا ينشرون الحديث، ويذيعوناً ويزحلقوناً حتى شاع الخبر وانتشر، والنبي عليه الصلاة والسلام تألم ولابد أن يتألم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

تألم في الحقيقة من وجهين:

أولًا: أن عائشة رضي الله عنها فراشه، وأحب نسائه إليه وهو يحبها وهي تحبه.

والشيء الثاني: أنها ابنة أعز الناس إليه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكيف يقع هذا الأمر وكيف يكون؟!

ولذلك ضاقت على النبي ﷺ الضائقة، حتى إنه مع شدة صبره ومع فهمه لأهله، ونزاهتهم، وبُعدهم عما رُموا به، حتى أنه دخل عليه شيء مما دخل، فصار يستشير بعض أصحابه: هل يفارق عائشة أو لا يفارقها؟ منهم من يشير عليه بعدم المفارقة، ويقول: أهلك يا رسول الله ما نعلم إلا خيرًا، ومنهم من أشار عليه بالمفارقة لما رأى من تأذِّيه ﷺ، وقال: إنه إذا فارقها يستريح، وممن أشار بذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم النبي ﷺ؛ لأنه قريب النبي ﷺ، ورأى من النبي ﷺ مشقة عظيمة وأذىً كثيرًا فقال: لعله إذا طلقها يستريح ويطمئن.

لكن كبار الصحابة رضي الله عنهم قالوا: هذا أمر لا يمكن، وممن أشار عليه أسامة بن زيد بأن يمسكها ولا يطلقها.

على كل حال بقي الأمر هكذا في زعزعة وقلق وشدة إلى تمام الشهر.

عائشة رضي الله عنها ما كانت تعلم فيما يخوض فيه الناس ولا تدري عن شيء؛ لأنها كانت مريضة وكانت في بيت والدها، ولا علمت بشيء إلا في آخر الأمر، حين خرجت تقضي حاجتها فعثرت، فقالت لها أمُّها أم رومان: تعس مسطح(١)؛ لأن أمها أيضًا ما في قلبها إلا ما حصل، وإنما خصت مسطح بن أثاثة من بين الذين قالوا ما قالوا؛ لأنه كان ابن خالة أبي بكر قريبًا منه، كان المفروض أن مثله يدافع عن هذه القضية لقرابته، لكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا، لما قالت: تعس مسطح! استغربت عائشة رضي الله عنها أن أم رومان تقول في مسطح ما تقول مع أنه ابن خالة أبي بكر! فسألت: ما الأمر؟ فأخبرتها بالأمر، وقالت: إن الناس يقولون في هذا الأمر منذ كذا وكذا .

فازداد ألمها ألمًا، ومرضها مرضًا، حتى جعلت تبكي ما تنام رضي الله عنها، وحُقَّ لها أن تفعل هذا لأن الأمر عظيم، فجاء النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذات يوم إليهم وتقول: إنها أيضًا قد استنكرت من النبي ﷺ؛ لأنها كانت تعتاد منه لين الجانب والتحري عنها في السؤال إذا مرضت ودخل عليها يسأل ويتحرى، أما في هذه المرة ما كان يتحدث بل يقول: «كَيْفَ تِيْكُمْ؟»(٢) ويجلس قليلًا ثم يخرج.

في يوم من الأيام كان قد جاء وقال: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» على العادة، فبينا هو جالس إذ نزل عليه الوحي والفَرَج من الله عز وجل، ببراءة عائشة رضي الله عنها، فلما سُرِّيَ عنه، وإذا به يضحك ـ عليه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

الصلاة والسلام ـ فقال لها: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةَ»! فقالت: منك أو من الله؟ قال: «بَلْ مِنَ اللهِ» فقالت: الحمد لله[1]، ثم انتهت قصة الإفك.

ولكن حصل ما حصل فيها من هذا البلاء العظيم.

[يقول الله عز وجل: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي عليه ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ في ذلك]

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي من هؤلاء العصبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ قال المؤلف: [أي: عليه] فتكون اللام بمعنى (على) هذا ما رآه المؤلف، أن اللام بمعنى على، وإذا كانت مضمنةً معنى على فلماذا عُدِل عنها إلى اللام؟ لتفيد الاستحقاق، وأنهم مستحقون لما عليهم من الإثم، فاللام إذن للاستحقاق، أي لبيان أن هؤلاء العصبة الذين ارتكبوا ما ارتكبوا مستحقين لما عليهم من الإثم.

وقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ﴾ في هذا العدل من الله عز وجل في المجازاة على السيئة، وأن الإنسان لا يُحَمَّل إلا ما اكتسب لا زيادة.

وفيه أيضًا دليل على أن هذه المسألة ليسوا مشتركين في إثم واحد، بل كل واحد له إثمه الكامل فيما اشترك فيه من هذه القضية.

[وقوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: تحمَّل معظمه فبدأ بالخوض فيه وأشاعه وهو عبد الله بن أُبي ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو النار في الآخرة].

قوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أتى بالجملة على هذه الصفة للمبالغة ما قال: ولمن تولى كبره منهم بل قال: ﴿وَٱلَّذِى﴾ جعلها في الحقيقة جملتين في جملة لأن (الذي) مبتدأ و (له) خبر مقدم و﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مبتدأ ثانٍ، فكأن الجملة صارت جملتان لبيان الأهمية والتأكيد والإشارة إلى أن توليه لهذا الشيء أمر عظيم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ تولى الشيء بمعنى: احتفى به، وأولاه عنايته، وقوله: ﴿كِبْرَهُۥ﴾ أي: معظمه فكِبْرُ الشيء بمعنى: معظمه، يعني: ابتدأ به وصار يغذِّيه وينمِّيه، ويذكره في المجالس، ويُوغر الصدور به وهو عبد الله بن أُبَيّ، وهو جدير بمثل هذه الخِسَّة؛ لأنه منافق بل هو رأس المنافقين، وهو يتمنى أن يقع مثل هذا الأمر؛ ليجد فيه منفذًا للطعن بالنبي ﷺ وبفراشه وبخاصة أصحابه ـ لعنه الله ـ.

يقول: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ معنى العذاب: العقوبة، وعظيم بمعنى: عظيم في قدره وعظيم في نوعه وجنسه وعظيم في أمده؛ فإنه ـ والعياذ بالله ـ في الدرك الأسفل من النار، لا يوجد أحد من أهل النار أسفل من المنافقين، ورأس المنافقين في هذه الأمة هو عبد الله بن أُبي، فيكون أسفل مَنْ في الدرك الأسفل من النار، ولذلك عَظُم عذابه ـ والعياذ بالله ـ في شكله ومدته وفي قدره، فهذا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

الذي ﴿تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مسألة: هل حُدَّ هؤلاء الذين تكلموا؟

الجواب: ما حدَّ النبي ﷺ منهم إلا المؤمنين فقط، وهم: حسان بن ثابت رضي الله عنه، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش وهي أخت زينب بنت جحش، وزينب زوجة الرسول ﷺ على أنها ضرة عائشة رضي الله عنها لما سألها الرسول ﷺ عن عائشة أثنت عليها خيرًا، وأختها هلكت فيمن هلك، فحدَّهم النبي - عليه الصلاة والسلام - حد القذف ثمانين جلدة.

وأما المنافقين فما حدَّهم النبي ﷺ لم يحدهم إما لأن الحد تطهير وكفارة والمنافقون ليسوا أهلًا للتطهير ولا للكفارة، وهذا تعليل واضح من حيث المعنى، لكن من حيث الواقع قد يكون غير واضح لأن المنافقين يُظهرون أنهم مسلمون، فكان ينبغي أن تُجرى عليهم أحكام الإسلام الظاهرة، وتترك سرائرهم إلى الله عز وجل.

وقال آخرون: إنما لم يحدَّهم النبي - عليه الصلاة والسلام - لأنهم ما كانوا يُصَرِّحون لم يقولوا: إن صفوان فعل بعائشة مثلًا ولكنهم كانوا يجمعون الحديث ويصيغونه بعبارات تعطي هذا المعنى، لكن بدون تصريح ومعلوم أن من لم يصرح بالزنا ما يُحد بالقذف، ولذلك لم يحدهم النبي ﷺ.

ويجوز أن يكون الرسول ﷺ ترك حدهم لهذا ولغيره، قد يكون مثلًا ترك حد عبد الله بن أُبَيّ؛ لأنه رأس المنافقين، وكان زعيمًا في قومه، فيخشى أن يكون بذلك فتنة كبيرة، وحد القذف على القول بأنه للآدمي يجوز إسقاطه إذا أسقطه من هو له.

لكن الذي يظهر - والله أعلم - أن السبب في ذلك أن المنافقين كعادتهم، المنافق يروغ ولا يستطيع أن يُصَرِّح، وآلته الخداع في كل شيء، فتجدهم لا يصرحون ولكنهم يحومون حول الشيء حتى يملئوا قلوب الناس منه، ولهذا الصحابة الذين هم صرحاء صرحوا بما ظنوه، وإن كان ظنًّا باطلًا، لكن على حال هم ظنوا هذا فصرحوا به، فحدهم النبي ﷺ حد القذف.



قال الله تعالى:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]

التفسير

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يقول المؤلف:

[﴿لَّوْلَآ﴾ هلَّا ﴿إِذْ﴾ حين ﴿سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: ظن بعضهم ببعض

﴿خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب بيِّن].

يقول الشارح: ﴿لَّوْلَآ﴾ بمعنى: هلَّا، فهي أداة تحضيض، وفيها شيء من التوبيخ؛ حيث ظنوا أمرًا لا ينبغي أن يكون يعني: (هلَّا إذ سمعتموه) أي: سمعتم هذا الخبر الذي فشا ولا أصل له.

قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ يقول المؤلف: [فيه التفات عن الخطاب] يعني إلى الظاهر ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ مقتضى السياق أن يقال: ظننتم بأنفسكم خيرًا، لكنه قال: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فالتفت من الخطاب إلى الظاهر، يعني من ضمير الخطاب إلى الاسم الظاهر، وقد مر علينا سابقًا أن للالتفات فائدتين على الأقل هما:

الفائدة الأولى: التنبيه.

والفائدة الثانية: يعينها السياق.

فالالتفات على كل حال الفائدة المتيقنة هي التنبيه؛ لأن مجرى الخطاب إذا اختلف يقتضي أن ينتبه الإنسان، ولهذا كان بعض الخطباء يغيِّر الأسلوب من خبر إلى إنشاء أو من إنشاء إلى خبر، ومن استفهام إلى إخبار وإثبات وما أشبه ذلك، حتى في الصوت والإلقاء تجده يغيِّر؛ لأجل أن ينتبه؛ لأن الناس إذا خوطبوا على وتيرة واحدة في الخطاب سهوا؛ لكن إذا تغير الأسلوب أو كيفية الأداء يحصل بذلك الانتباه.

والفائدة الثانية: يعيِّنها السياق، والفائدة الثانية هنا: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل: ظننتم إشارة إلى أن ظنهم هذا يُخْرِجُهُم من الإيمان؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين ما ظنوا إلا الخير ولم يقل ظننتم خيرًا؛ لأن في ظنهم هذا الظن خرجوا من الإيمان، ولكن ليس خروجًا مطلقًا إلا بعد نزول الآيات.

الفائدة الثالثة بعد فائدة التنبيه: أنه كان ينبغي عليهم أن يظنوا هذا الظن لأنهم مؤمنون، هم يقولون: أنهم مؤمنون وهم مؤمنون حقًّا، فكان ينبغي عليهم ما داموا مؤمنين أن يظنوا خيرًا.

فعندنا الآن هم ظنوا ما ظنوا فكانوا بذلك غير مؤمنين إذ المؤمنون لا يظنون إلا خيرًا.

ثانيًا: كان ينبغي عليهم لإيمانهم أن يظنوا خيرًا.

وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ لأن الواقع أن القضية بين ذكر وأنثى، صفوان بن المعطل وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما، فهي من الجنسين ولذلك قال: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ نص على الجنسين؛ لأن القضية أو التهمة في الجنسين جميعًا، في صفوان، وهو من المؤمنين، وفي عائشة وهي من المؤمنات، ولهذا قال: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين هم بمنزلة صفوان ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ اللاتي هن بمنزلة عائشة.

قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ المراد ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ أنفسهم هم يعني: بأعينهم أو المراد ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ بعائشة وصفوان والنبي ﷺ وجعلهم الله أنفسًا؛ لأن المؤمنين كلهم كنفس

واحدة كما في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]؟

الجواب: الأخير، واضح أن المراد ظنوا أي بعضهم ببعض كما قال المؤلف، أي: ظنوا بأنفسهم أي: بهؤلاء المتهمين كذبًا وزورًا خيرًا؛ لأنهم من أنفسهم يعرفونهم ويعرفون أحوالهم، وهم إخوانهم في الإيمان، أو أن المعنى الذي أشرنا إليه بأنفسهم هم، يعني: يظنون خيرًا بأنفسهم وكأنهم لو اتُّهِمُوا بهذا الأمر وهم يعرفون أنفسهم يظنُّون بأنفسهم خيرًا وبراءة، يعني: كما أنه لا تتهمون أنفسكم لو قيل فيكم ذلك، فالواجب كذلك أن تظنوا بعائشة وصفوان رضي الله عنهما.

التفسير الآن بالأنفس يراد بها نفس الظانّ، والمعنى: أي يظنون بأنفسهم خيرًا أي بأن هذا الأمر لو كان أمرًا متهمين به، لكانوا يعرفون أنفسهم، ولا يمكن أن يصدقوا بهذا الأمر؛ لأنهم يعرفون أنهم نزيهون منه وبريئون منه.

على كل حال المعنيان محتملان، وكلاهما له وجه صحيح، فعائشة وصفوان من أَنْفُسِ المؤمنين لأن المؤمن مع أخيه كنفس واحدة، والذي يظن بأم المؤمنين وصفوان خلاف ما ينبغي، كأنما ظن بنفسه، يعني: فكما أنك تعرف نفسك ولا تظن فيها مثل هذا الظن، فكذلك يجب أن تعرف أم المؤمنين وصفوان، فلا تظن فيهما إلا ما تظن بنفسك. يعني: كما أنك لا تظن بنفسك إلا خيرًا كذلك لا تظن بأم المؤمنين وصفوان رضي الله عنهما إلا خيرًا.

قوله: ﴿وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ معطوفة على ﴿ظَنَّ﴾ أي: ظن المؤمنون وقالوا، وفي هذا أنه يجب على المؤمن إبطال الباطل بقلبه وبلسانه، ما يكفي أنك تعتقد أن هذا ما هو صحيح، بل يجب أن تُبيِّن بطلان هذا الشيء؛ لأن الذي يعتقد هذا الأمر غير صحيح ويسكت يكون موقفه سلبي في الواقع، لكن الواجب أن يبطل الباطل، ولهذا قال: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ ثم قال: ﴿وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ لابد من ظن وقول، ما يكفي إنك تعتقد أن ما قيل في عائشة وصفوان رضي الله عنهما إنه إفك، بل يجب أن تقول لأجل أن نقابل هذا الباطل بالإبطال، فلا بد أن نظن الخير، ونبطل الباطل.

وقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ إذنْ معطوفة على ﴿ظَنَّ﴾ فهي داخلة في التحذير، أي أن الله يقول: الواجب أن نظن الخير وأن نبطل الباطل.

ومن فوائد الالتفات أيضًا: أنك إذا تحدثت لصاحبك بصيغة الغائب صار ألطف وأهون وإذا أتيت بعد ذلك بصيغة الخطاب صار أبلغ سواء كان ذلك مدحًا أم ثناء، فمن الثناء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢ - ٤]، ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] فأثنى المصلي على الله بالأول بصيغة الغائب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم بصيغة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ المخاطب؛ كأنه بعد الثناء صار حاضرًا بين يدي ربه، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

إذنْ الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب فائدته: للتنبيه وقوة التوبيخ؛ لأن الخطاب أبلغ.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس:١ ـ ٣]، في الأول ﴿عَبَسَ﴾ للغائب، ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ كأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يخاطب النبي ﷺ بهذا اللفظ: عبستَ وتولَّيت بل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ حتى تبين، ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ هذه مثلها.

المهم: أنه إذا انتُقِل من صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب فله فائدة التنبيه، وزيادة فائدة أخرى تستفاد من السياق(١).



قال الله تعالى:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]

التفسير

قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: أنه يرويه بعضكم عن بعض، تلقَّى الشيء بمعنى: استقبله، وأخذه فهم يتلقونه بألسنتهم، ويقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم.

الفرق بين: (تقولون بأفواهكم)، و(تتلقونه بألسنتكم) هو: التلقي: أخذه من الغير، فالتلقي لاستقبال الكلام، وتقولون بأفواهكم، ذلك لإلقاء الكلام إلى الغير، وفيه إشارة إلى أن هذا القول لا يصل إلى القلب وإنما هو مجرد كلام باللسان، وذلك لتشكك كثير من الصحابة في هذا الخبر، وسبق أن جمهورهم وفضلاءهم أنكروه من أول الأمر.

قول المؤلف: [وحذف من الفعل إحدى التاءين] أصله (إذ تتلقونه بألسنتكم)، ولا يمكن أن نقول: إن تلقى هنا فعل ماض، مثل قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] ممكن أن يقال فيها: فعل ماض لكنها فعل مضارع هي أصلًا (تتلظى)، ولا يمكن هنا أن نقول (تلقى) فعلًا ماضيًا؛ لأن الفعل الماضي لا تأتي فيه الواو والنون، تأتي فيه الواو (تلقوا) لكن لا تأتي النون؛ لأن النون من الأفعال الخمسة المضارعة، وهنا فيها نون، فإذنْ هنا لا تجوز أن تكون فعلًا ماضيًا فيقينًا أنه حذف منها إحدى التائين.

ثم قال المؤلف: [وإذ منصوب بمسكم أو أفضتم] فيكون (لمسكم إذ تلقونه)، أو (أفضتم إذ تلقونه)، ويستفاد من كلام المؤلف: أن (إذ) هنا: اسم، وقد مر علينا أن كثيرًا من المُعربين يجعلون إذ التعليلية حرفًا لا اسمًا؛ لأن المعنى من أجل كذا.

قوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في هذا من التوبيخ ما فيه، أن يقول الإنسان

---

(١) يلاحظ أن تفسير الآيتين: (١٣، ١٤) غير موجود.

بفمه ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ جمع فاه - وهو الفم - تقول بفمك ما ليس لك به علم.

مسألة: إذا قال قائل: أليس القول بالفم؟! لماذا قال: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ مع أن القول لا يكون إلا بالفم؟

الجواب: لأنه مجرد كلام باللسان وبالفم، ولكنه لم يستقر في القلب؛ لأنه ليس عن علم، وقد يقال: إن هذا من باب التأكيد، كما في قوله: (مشى برجله إلى فلان) تحقيقًا للمشي، يعني: أنه قول محقق تقولونه قولًا صريحًا وليس ذلك ظنًّا في النفس، فإن القول يطلق على الظن، ومثله أيضًا: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] معلوم أن الطائر ما يطير إلا بجناحيه.

فعلى كل حال نقول: إن قوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ إما أن يراد به تحقيق القول، وأنه ليس مجرد ظن أو تخيل، بل يقولونه صراحة بأفواههم، وإما أن يُقال: إن هذا القول على مجرد الفم فقط، ولا يصل إلى قرارة النفس؛ لأنهم وإن كانوا يقولونه لكن كأنهم يستبعدونه مستريبون في حقيقته.

وقوله: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ ما أكثر ما يقع هذا من الناس! يفيد ولابد أن الإنسان لا يقول قولًا إلا وله به علم، ما يكفي أن تقول قولًا لمجرد الظن، ولا لمجرد الوهم أو التخيل، لا تقل - خصوصًا في الأمور الخطيرة - إلا فيما لك به علم، ولهذا قال الله عز وجل في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني: لا تتبعه، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦] يعني: فأنت مسئول عن سمعك وبصرك وقلبك الذي هو محل الظن والاعتقاد.

إذنْ لا تقل ما ليس لك به علم، لا تتبع ما ليس لك به علم، فلابد من أن يكون الإنسان على علم، وهذه تربية من الله عز وجل تفيد أن الإنسان يتثبت فيما يقول؛ ليكون قوله معتبرًا، وليسلم من إثم القول بلا علم لاسيما إذا كان القول على الله فإنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، أو كان القول في مثل هذه الأمور الخطيرة التي فيها القدح بالنبي ﷺ وآل بيته، وأصحابه، وبالتالي القدح في الدين؛ لأنه إذا قُدِح في الرسول الذي جاء به فهو قدح في نفس الدين الذي أتى به الرسول المقدوح فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ يعني: لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الإثم، في هذه الجملة من تعظيم هذا الأمر ما فيه، يعني: تحسبون أن القول في هذا الأمر هينًا وأنها كلمات تُقال وتنقل لكنه عند الله عظيم، ويتعاظم كلما كان الإنسان المقذوف فيه أبعد عما قيل فيه.

ولهذا قذف المحصن فيه الحد، وقذف غير المحصن فيه التعزير، يعني: لو قذف أحد إنسانًا متهمًا بالزنا وليس عفيفًا عُزِّر فقط، ولو قذف إنسانًا معروفًا بالعفَّة وجب فيه الحد كاملًا، ولهذا قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ قلنا: إنه يتعاظم بحسب حال المقذوف المتكلم فيه.

وكذلك إذا لم يكن الكلام قذفًا يكون أعظم بحسب حال القول، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:٢١] فأعظم الكذب الكذب على الله، ثم على رسوله ﷺ، وهكذا يتعاظم الكذب بحسب من نمي إليه الكلام.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦]



❁ التفسير ❁

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ﴾ هو للتعجب هنا، ﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ﴾ كذب ﴿عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَا﴾: بمعنى: هلَّا وهي للتحضيض المُشْرَب بالتوبيخ، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الضمير يعود على الإفك، ﴿قُلْتُم﴾ هذه جواب لولا، ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يقول المؤلف: [ما ينبغي] ﴿لَنَا﴾، واعلم أن كلمة ﴿مَّا يَكُونُ﴾ وكلمة [ما ينبغي] تأتي للشيء الممتنع، عندما نعبر في كتب الفقه: (ولا ينبغي أن يفعل كذا وكذا) المراد: أن ذلك ليس بمستحب فقط؛ لكن عندما تأتي (ما ينبغي) في كلام الله وكلام الرسول ﷺ إنما يراد بها: الممتنع غاية الامتناع الذي لا يصح ولا يليق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢] يعني: يمتنع غاية الامتناع ولا يليق ولا يصح، وكما في قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»[1]. بمعنى: أنه ممتنع ولا يليق ولا يصح أن ينام سبحانه وتعالى؛ لكمال حياته.

على كل حال: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ﴾ يعني: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا ولا يصح منا أن نتكلم بهذا؛ لأنه لا يمكن أن يجعل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر واقعًا من أهل النبي ﷺ، ويمتنع حسب ما تقتضيه حكمة الله عز وجل؛ لما في ذلك من الأمر الذي لا يليق بحكمة الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ لخطورة الأمر وعظمه.

وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [هو للتعجب هنا]، هذا ليس بصحيح أنه للتعجب، ولكنه للتنزيه البالغ يعني: ننزهك يا ربنا أن يقع هذا من أهل بيت رسولك ﷺ، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يعني: تنزيهًا لك عما لا يليق بك، ومنه أن يقع مثل هذا من أهل النبي ﷺ، فكلمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ في هذا الموضع من أحسن ما يكون، بل هي أحسن ما يكون في الحقيقة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٥).

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ لماذا؟ لأن ذلك ينافي تنزيهك، ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: سبحانك أن يقع هذا من أهل بيت نبيك ﷺ، وليس للتعجب أنهم يتعجبون مما قيل، لا، بل إنهم ينزهون الله سبحانه وتعالى عما نُسب إلى أهله، يعني: تنزيهًا لك يا رب أن يقع مثل هذا في بيت رسولك ﷺ؛ فهذا التنزيه في هذا المقام من أحسن ما يكون بل هو أحسن ما يكون، ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ كذب ﴿عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ أي: كذب؛ لأنه خلاف ما تقتضيه حكمة الله عز وجل، ﴿عَظِيمٌ﴾ لماذا وُصِفَ بالعِظَم؟

لأنه في آل بيته ﷺ، أيُّ بهتان أعظم من بهتان يكون فيه القدح في النبي ﷺ وأهل بيته وأصحابه!! لو كان هذا قذف لفلان أو لفلان صار عظيمًا، لكن ليس كعظم هذا، ليس كعظم ما نُسب لأهل الرسول ﷺ فلذلك وُصف بالعِظَم.



قال الله تعالى:

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧]

التفسير

قوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ينهاكم ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الوعظ يقول المؤلف: [ينهاكم] الله أن تعودوا، والأمر والنهي موعظة ولهذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨]، فجعل الأمر موعظة؛ لأن الإنسان يتعظ به.

هكذا هنا: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحذركم بالموعظة، والتحذير متضمن للنهي، وعلى هذا فيجب أن نعرف أن قول المؤلف: [ينهاكم] ليس تفسيرًا لها بمقتضى اللفظ ولكن بما يدل عليه المعنى، وإلا فالموعظة التحذير بما يليّن القلب تخويفًا أو ترهيبًا، فمعنى ﴿يَعِظُكُمُ﴾ أي: يحذركم الله سبحانه وتعالى ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ يعني: من أن ﴿تَعُودُواْ﴾ ترجعوا لمثله أبدًا يعني: ما دمتم أحياء ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هل هي شرط للموعظة ليعظكم، أو جملة مستقلة والتقدير (إن كنتم مؤمنين فاتعظوا بذلك)؟

يقول المؤلف: [﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تتعظون بذلك] هذه الجملة في الحقيقة إن قلت إنها شرط في قوله: ﴿يَعِظُكُمُ﴾ فإنه يجب أن نؤوِّل الموعظة هنا بالموعظة النافعة لا بمجرد ذكر الموعظة؛ لأن الموعظة لا تنفع إلا بشرط الإيمان، وأما إذا قلنا: إن الموعظة بيان ما يتعظ به المرء، فليس الإيمان

شرط في ذلك، فإن موعظة الله مُلقاة لكل أحد، سواء كان مؤمنًا أم غير مؤمن، ولكن لا ينتفع بها إلا المؤمن، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ هذا عام، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

فالحاصل أن نقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ إن كانت قيدًا في قوله: ﴿يَعِظُكُمُ﴾ فالمراد بالموعظة: الموعظة النافعة فإنها هي التي تنفع المؤمن، وإن كانت ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مستقلة عما قبلها أو نقول: وإن كانت الموعظة إلقاء ما به الوعظ للناس سواء انتفعوا أم لم ينتفعوا فإن قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مستقلة، وجوابها محذوف، أي: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فاتعظوا بما وعظكم الله به.

وفيه إشارة إلى أنه لا ينتفع بالموعظة إلا المؤمنون على كلا الاحتمالين، أما غير المؤمن فإنه لا ينتفع.



قال الله تعالى:

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:١٨]

التفسير

قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: [في الأمر والنهي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يأمر به وينهى عنه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيه].

﴿وَيُبَيِّنُ﴾ بمعنى: يُظهر و﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بمعنى: العلامات الدالة عليه سبحانه وتعالى، وقد مر علينا أن الآيات تنقسم إلى: آيات كونية وهي: ما خلقه الله في الكون وقدَّره وهذه ظاهرة للمؤمنين وغيرهم، حتى المؤمنين يعرفون إن هذه آيات ما يستطيع البشر أن يفعل مثلها، وآيات شرعية: لا تتبين وتظهر إلا للمؤمنين: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت:٤٤]. فالآيات الشرعية التي تضمنها وحي منزل على رسله لا يستفيد منها إلا المؤمن، أما الكافر ـ والعياذ بالله ـ فإنه يزداد بها رجسًا إلى رجسه، ويموت على كفره، الآيات الكونية حتى غير المؤمنين بالله سبحانه وتعالى ـ يعني غير المنقادين والمذعنين لشرائعه - يؤمنون بأن مثل هذه الأمور لا يمكن لبشر أن يأتي بها على اختلاف مشاربهم.

لهذا نقول: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: يظهرها، حتى تتبين، ولا فرق في ذلك بين الآيات الكونية والآيات الشرعية، ولهذا لما خَسفَت الشمس في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيتين مِنْ آيَاتِ الله»(١)، حتى خسوفهما من آيات الله لو أن البشر كلهم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٤٢)، ومسلم (٩١٤).

اجتمعوا على أن يكسفوا الشمس لا يستطيعون، فإذنْ هو من آيات الله؛ لأن الآية معناها: هو ما يدل على ما كانت آية له، بمعنى: أنها لا يمكن أن يأتي بها أحد سوى من كانت آية له.

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ قال المؤلف: [في الأمر والنهي] كأنه حملها على الآيات الشرعية والحقيقة أنها شاملة للآيات الشرعية والآيات الكونية.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع شامل فيما يتعلق بفعله، وفيما يتعلق بفعل المخلوقين، فالله سبحانه وتعالى عليم بما كان وما سيكون من فعله ومن فعل المخلوقين، ﴿حَكِيمٌ﴾ سبق لنا أنها مشتقة من الحُكم والحِكْمَة، وسبق لنا: أن الحكمة تكون أولًا في الشرع والقَدَر، فكل ما شرعه الله فإنه مطابق للحكمة، وفي القدر كل ما خلقه الله مطابق للحكمة، محلها إذنْ الشرع والقَدَر.

أما عن الحكمة نفسها فهي على ثلاثة أشياء: في الإيجاد، والصورة، والغاية.

فإيجاد الشيء: حكمة، لولا أن الحكمة في وجوده ما وجد.

وكونه على هذا الشكل المعين أو بهذه الصورة المعينة هو أيضًا: حكمة.

والغاية منه أيضًا حكمة، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

إذا ضربنا (٢×٣) كم تكون؟ الشرع والقدر وكل منهما إما في الإيجاد أو في الصورة أو في الغاية تكون الجميع (٦)، أما الحكم فإنه ينقسم أيضًا إلى قسمين: كوني وشرعي.

مثال الحكم الشرعي: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠]

مثال الحكم الكوني: قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

إذا كان الحكم كونيًا أو شرعيًا كليهما مطابق للحكمة فهل يلزم أن نعرف هذه الحكمة أم لا يلزم؟ لا يلزم، لكن يجب علينا أن نؤمن أنه ما من شيء أوجده الله أو شرعه إلا وله حكمة، لكننا لقصورنا يخفى علينا كثير من هذه الحِكَم.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩]

التفسير

قوله: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ باللسان] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قلنا: إن مثل هذا الترتيب كونه يأتي بالجملة على جملتين يفيد ذلك التأكيد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ...لَهُمْ﴾ ما قال: إن للذين يحبون أن تشيع الفاحشة عذاب، بل جعلها جملتين صغرى وكبرى، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه كبرى، وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الصغرى، وسميت صغرى؛ لأنها قائمة مقام الاسم المفرد إذ هي خبر، والأصل في الخبر أن يكون مفردًا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى: اسم إن فهي في محل مبتدأ، ﴿يُحِبُّونَ﴾: صلة الموصول، ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: مفعول يحبون، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر إن.

إذن هذه الجملة نقول: تضمنت جملتين صغرى وكبرى، الكبرى المجموع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الجملة الكبرى، والصغرى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وسميناها صغرى وإن كانت مكونةً من مبتدأوخبر؛ لأنها خبر فهي في مقام المفرد؛ لأن الأصل في الخبر أن يكون مفردًا، تقول مثلًا: (الطالب فاهمٌ)، ففاهمٌ خبر مبتدأ مفرد.

تقول: (الطالب له فهمٌ) صارت الآن جملة، والجميع جملتان: كبرى وهو مجموعها، وصغرى وهو الجملة التي صارت خبرًا، والله أعلم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ الذين اسم من الأسماء الموصولة، والمعروف في علم الأصول أن اسم الموصول يفيد العموم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يكون عامًّا، وقوله: ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾، ﴿تَشِيعَ﴾: بمعنى تنتشر وتظهر، وقول المؤلف: [باللسان] هذا تفسيرٌ للشيوع يعني: تشيع بالقول، وتُظْهَر ويتداولها الناس، ولكن الأظهر أنها أعم من الشيوع باللسان؛ وأنها تشيع بالفعل بحيث يشاهدهم الناس، وبالقول بحيث يُشاع عنهم ذلك، فهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة سواء يحبون أن تشيع بالقول - كما أشار إليه المؤلف باللسان -، أو يحبون أن تشيع بالفعل بمعنى: أن يظهر أمرهم ويتبين ويُرَوْنَ ويُشَاهَدُون.

وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذه جملة صغرى يعني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ التي اسم

إن وهي في محل المبتدأ و ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملة خبرية خبر إن، وهذه تفيد التوكيد أوكد مما لو قيل: إن للذين يحبون أن تشيع الفاحشة عذابًا أليمًا - مثلًا - هذا أبلغ؛ لأنها تكون جملتين، تكون كأنهما مكررتان.

وقول المؤلف: [بنسبتها إليهم] هذا بناءً على أن المراد بالشيوع: شيوع اللسان، والأصح أنه أعم أي: بنسبتها إليهم فيما يقال فيه، أو برؤيتها منهم فيما فعلوا.

وقول المؤلف: [وهم العصبة] هذا ليس بصحيح؛ لأنه أراد أن يُفَسِّر العام بالخاص؛ لأن ﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ هل هو خاص بالعصبة الذين جاءوا بالإفك أو عام في كل أحد؟ عام في كل أحد إلى يوم القيامة، حتى مثلًا من أحب أن تشيع الفاحشة في المؤمنين في زمنه فهو داخل في هذه الآية، وتخصيص الآية بشيء لا دليل عليه هذا لا يجوز.

وقد قال أهل العلم: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

لكن يجب أن نعرف أن صورة السبب قطعية الدخول، يعني: إذا ورد لفظ عام لسبب خاص فإن السبب الذي وردت من أجله قطعي الدخول في هذا العام، وغيره من أفراد العموم ليس قطعيًّا ولكنه ظاهر فيه، وبيان ذلك أن دلالة العام على فرد من أفراده دلالة ظنية، يعني: ليست قطعًا، إذ يجوز أن يكون بعض الأفراد قد خُصِّصَ بحكمٍ يخالفُ هذا العموم، ولهذا نقول: دلالة اللفظ العام على عمومه ظنية، وذلك لاحتمال أن يكون بعض أفراده قد خصص إلا صورة السبب يعني: الصورة التي هي سبب هذا العموم فهي قطعية الدخول؛ لأنه ما يمكن أن نخرجها عن العموم وهو وارد من أجلها.

فمثلًا لو قال قائل: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ...﴾ [المجادلة:٢] لو قال: إنه لا يدخل فيها أوس بن الصامت الذي ظاهر من زوجته وهو سبب النزول ماذا نقول له؟ نقول: هذا غير صحيح قطعًا هو داخل.

لو قال قائل: إن الرجل الذي رآه النبي ﷺ قد ظُلِّلَ عليه والناس حوله وهو صائم في السفر فقال النبي ﷺ: **«لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصَّومُ فِي السَّفَرِ»**(١) **لو قال قائل**: هذا الرجل لا يدخل في هذا الحديث نقول: غير صحيح ولا يمكن؛ لأن الصورة التي هي سبب العموم قطعية الدخول غيرها ما هو قطعي لكن ظني.

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فسر هذا العموم بالخاص، وهذا لا يجوز، إذا وُجِدَ لفظ عام يجب الأخذ بعمومه وإن كانت دلالته على جميع أفراده - كما سبق - ظنية لكن يجب الأخذ بعمومه حتى يَرِد دليل على التخصيص، فنقول: هذه الآية العامة في العصبة وغيرهم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

[﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: بحد القذف ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي: بالنار لحق الله].

قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ من العذاب ما ذكره المؤلف، وقد يكون عذابٌ أشد، لكن المتبادر لنا أن العذاب الأليم في الدنيا هو العقوبة، وعذاب ـ كما أشرنا إليه سابقًا ـ معناه عقوبة، أليم بمعنى: مؤلم، وأما عذاب الآخرة فهو عند الله أيضًا.

وقول المؤلف: [بحد القذف ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار لحق الله] هذا يُشكِل عليه أنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ أن: «مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الذُّنُوبِ شَيْئًا، وَعُوقِبَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا كَانَ كَفَّارَةً لَهُ»(١) ولهذا قالوا: إن الحدود كفارة لأصحابها، الحدود كحد الزنا وحد السرقة وغيرها كفارة لأصحابها إذ أن الله تعالى لا يجمع عليه عقوبتين، فعلى هذا نقول: إن الآية هذه فيمن يحب أن تشيع الفاحشة، لا فيمن أشاعها؛ لأنه إذا كانت فيمن يحب أن تشيع الفاحشة ولكن هو ما أشاعها فما عليه حد في الدنيا، مجرد محبة الإنسان لشيوع الفاحشة في المؤمنين ليس بقذف؛ فلا يقام عليه الحد، لكن يُعَزَّر أو يُعاقب بما يسميه أهل العلم التعزير، تعزير يردعه وأمثاله عن هذا العمل، وأما عذاب الآخرة فيقال: إن هذا ما دام الأمر ليس بحد فقد لا يعزَّر وحينئذ يكون العذاب عليه في الآخرة، وأما من أُقِيم عليه الحد لمعصية من المعاصي فإنه يكون كفارة له كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ.

إذا كان هذا الوعيد فيمن يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين فكيف يكون حال من أشاع الفاحشة؟!

الذي يُشيع أشد من الذي يحب أن تشيع؛ لأن الذي يُشيع يحب ويفعل، إذ ما فعل الشيء إلا لمحبته لشيوعه فيكون قد أحب وفعل، والذي أحب قد لا يفعل ومع ذلك له عذاب أليم.

ثم قال الله تعالى: [﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ انتفاءها عنهم ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها العصبة بما قلتم من الإفك ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ وجودها فيهم].

والحدود فرائض لابد من إقامتها، والتعزير: من العلماء من يرى أنه يرجع إلى اجتهاد الإمام إذا رأى أنه لا يقام لا يقيمه. فإذا فرضنا أن الإمام اجتهد، سواء أخطأ في اجتهاده أو أصاب، ولم يُقِم الحد عليه، هذا معناه أنه يُعاقب في الآخرة ولابد، والحديث عام على عمومه، والآية كذلك ظاهرها أنه يُجمع له بين الأمرين، والحديث يدل على أن الحدود كفَّارة لأصحابها، لذا فالتوفيق هو أن نقول: إذا فاته عذاب الدنيا أصيب بعذاب الآخرة.

إذا عُزِّر لمحبته للفحشاء فلا يعذب في الآخرة؛ لأن الله لا يجمع بين عقوبتين على العبد بذنب واحد، لكن إذا فاته التعذير، إما لكونه اجتهد الحاكم، أو لكونه أخفى نفسه أو ما أشبه ذلك، يبقى عذاب الآخرة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

مسألة: هل يصح العفو عمَّن وقعت منه هذه الفاحشة؟

الجواب: هذا يتعلق بالمصلحة إذا كان هذا الذي وقعت منه الفاحشة رجلًا معروفًا بالعفة وبالصلاح، وأن الأمر بدر منه هكذا هفوة، فإنه لا ينبغي أن يُرفع إلى الإمام ويشهر، بل يُستر عليه ويُنصح، وإذا كان الرجل معروفًا بالشر والفساد، كان من الواجب أن يُبيَّن أمره، ويُظْهَر ويُشْهَر.

ومثل ذلك أيضًا مسألة العفو، العفو عن الجناة هل هو أولى من الأخذ بالحق أو الأخذ بالحق أولى من العفو؟

ينبني على هذا التفصيل: إذا كان في العفو صلاح فالعفو أفضل، وإلا فالأخذ بالحق أفضل، وكل الآيات التي تندب إلى العفو مقيدة بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] فقيَّد الله تعالى العفو بالإصلاح.

وأيضًا من الناحية المعنوية أن يُقال: العفو إحسان والإصلاح واجب، وإذا تعارض الواجب والإحسان، فيُقدم الواجب، فعلى هذا إذا تعارض إصلاح الخلق أو العفو عن هذا المجرم نقول: إن الإصلاح أولى، هذا المجرم لو عفوت عنه ذهب يفعل إجرامًا بغيرك، وإذا عفا ذهب يفعل إجرامًا آخر وهكذا، فنقول: لا ينبغي العفو هنا إن لم نقل بتحريمه.

وعلى هذا يتنزل فعل بعض الناس الآن، بعض الناس إذا صدمه إنسان مثلًا، أو سرق منه مالًا، أو قتل له نفس تجده يبادر بالعفو، وهذا خطأ عظيم؛ هذا يجب أن يُبَيَّنْ للناس أن الواجب النظر: هل الرجل الذي تهور وصدم هذا الآدمي أو هذه البهيمة أو هذا المال وأفسده هل هو إنسان متهور شرير، فإنه لا ينبغي العفو عنه؟ وهل أيضًا من المصلحة أن نعفو عنه أو ربما إذا عفونا أصبح الناس لا يبالون بهذا الشيء، يعني: لو أن كل من جرى منه مثل هذا الأمر عُزِّر وحبس وغُرِّم المال ما كان الناس على هذا الوجه الذي ترونه الآن.

لكن مع الأسف بعض الإخوان تأخذه العاطفة، ويأخذه الزهد في الدنيا أمام الصدمة العظيمة التي أصابته، ثم عندما يصاب في المصيبة الفادحة ترخص الدنيا كلها عنده، ويقول: إذا راح عزيزي هذا الذي هو عليَّ عزيز لا يهمني الدنيا كلها صارت عندي لاشيء ثم بسرعة يصفح، هذا خطأ، والواجب التعقُّل.

ولهذا في الحقيقة أن الأخذ بالعاطفة دون عقل من شيم النساء، وليس من شيم الرجال، ولا من شيم أيضًا أهل الإصلاح؛ فإن الواجب في هذه الأمور أن يُنْظَر ما هو الأصلح بالنسبة لهذا الشخص الخاص وبالنسبة للعموم.



قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٠]

التفسير

[﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها العصبة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم لعاجلكم بالعقوبة]

كرر الله سبحانه وتعالى هنا: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾؛ لأن المقام كله مقام عظيم ففي الأول ـ الآية التي قبل الإفك ـ القذف وهو أمر عظيم وتدنيس لأعراض المسلمين فلولا فضل الله على المسلمين ورحمته بإقامة الحدود التي تردعهم وتمنعهم لحصل ما حصل وكذلك ذَكَر ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ في قصة الإفك، فقد مرت علينا ثلاث مرات.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: هي الرحمة المتضمنة للرقة البالغة يعني: أنها أخص من الرحمة المطلقة، فهي رحمة وزيادة. ولهذا قال: ﴿رَّحِيمٌ﴾ فجمع بين الأخص من حيث المعنى والأعم، الرحمة أعم من الرأفة كل رأفة فهي رحمة ولا عكس؛ لأنها ـ أي الرأفة ـ رحمة من نوع خاص، تقتضي زيادة في الرحمة وعناية بها، والرحيم سبق أنه من أسماء الله سبحانه وتعالى، وقد قسم العلماء الرحمة إلى قسمين: عامة، وخاصة.

فالعامة: هي الشاملة لكل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر وإنسان وبهيمة، ولهذا لو قال لك قائل: هل الكافر مرحوم أم لا؟ نقول: بالمعنى العام مرحوم لولا رحمة الله ما أكل ولا شرب ولا اكتسى، ولا تزوَّج، ولا ولد له ...إلخ.

أما الرحمة الخاصة: فهي الخاصة بالمؤمنين التي تتضمن سعادة الدنيا والآخرة، وأما العامة فهي سعادة في الدنيا فقط.



قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١]

التفسير

قال المؤلف: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: طرق تزيينه] الخطوات: جمع خطوة - وهي عبارة عن المسافة التي بين القدمين في المشي - والمراد بـ ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: طرقه فعبَّر بالخطوة عن الطريق؛ لأن الطريق أثر الخُطَا.

وقول المؤلف: [طرق تزيينه] نعم هو هكذا الشيطان جميع طرقه مكروهة إلى النفوس، لكنه يزينها للإنسان، حتى يدخل فيها.

وطرق الشيطان من حيث المعنى العام: هي التكذيب والاستكبار، هذه هي الطرق العامة للشيطان، فالشيطان مكذب ومستكبر، من أدلة استكباره: أنه أبى أن يسجد لآدم، وتكذيبه: أنه ادَّعى أنه خير من آدم، فإن هذا يقتضي أنه كذَّب بكون آدم خيرًا منه، فهذه الطريق طريق الشيطان على سبيل العموم.

التكذيب يقابل الأخبار، والاستكبار يُقَابل التكليف: الأوامر والنواهي.

وإذا تأملت جميع المعاصي وجدتها لا تخرج عن هذين الأمرين إما تكذيب وإما استكبار، فهو - أي الشيطان - طرقه مبنية على هذين الأمرين: التكذيب فيما يتعلق بالأخبار، والاستكبار فيما يتعلق بالتكليف من الأوامر والنواهي.

عندما نأتي للتفصيل مثلًا: البخل من خطوات الشيطان؛ لأنه يأمر به، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨] قال كثير من أهل العلم: إن المراد بالفحشاء هنا: البخل؛ لأن الآية في سياق الإنفاق، وإن كان الأصلح أنها أعم.

الأكل بالشمال والشرب بالشمال من خطواته أيضًا؛ لأن النبي ﷺ أخبر بأن: «**الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**»(١) وعلى هذا فالأكل بالشمال والشرب بالشمال يكون حرامًا؛ لأن الله نهى عن اتباع خطوات الشيطان، والنبي ﷺ أيضًا نهى أن يأكل الإنسان بشماله ويشرب بشماله، ومن ثَم نأخذ خطر تهاون الناس اليوم بهذه المسألة لأن كثيرًا من الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية - يأكلون بالشمال ويشربون بالشمال، ويزعمون أن هذا تَقَدُّم ومدنية، والسبب هو الشعور بالنقص؛ لأن الإنسان - مع الأسف - متى شَعر بنقصِهِ فإنه لابد أن يقلد من يرى أنه أكمل منه.

فهؤلاء المغرورين ظنوا أن غيرهم من الأمم الكافرة أرقى منهم، وأشد تقدمًا، وصحيح أنهم أرقى مِنَّا في الصناعة وفي أمور الدنيا، لكن في الأخلاق والآداب التي أرشدنا إليها الإسلام ليسوا أرقى منا، إلا أنه بالنظر إلى حال المسلمين اليوم لا شك أن عندهم من الآداب الإسلامية التي يطبقونها لا عن قصد، ولكن لمجرد أنها أخلاق فاضلة، لا تَعَبُّد لله خير منا، ومع الأسف أن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٢٠)، والترمذي (١٧٩٩)، وأبو داود (٣٧٧٩).

المسلم الذي أُمر بتطبيق هذه الآداب والأخلاق هو الذي تقاعس عنها، مع أن المسلم إذا طبقها يكون متصلًا بهذه الأخلاق الفاضلة، وهذه لا شك أنها نبل وشرف، وزيادة على ذلك يكون مأجورًا؛ لأنه يفعلها امتثالًا لأمر الله ورسوله.

أولئك إذا فعلوها لا يُؤْجَرون إنما يفعلونها؛ لأنها أخلاق فاضلة فهم مثلًا عندهم صدق في المعاملة وعندهم بيان وعدم غشٍ، وعندهم وفاء بالوعد، كل هذه من الصفات التي أمر الإسلام بها، كثير من المسلمين الآن متخلٍ عن هذه الصفات، لكن إذا اتصف بها المسلم يكون محمودًا عليها، ويكون مأجورًا عليها أيضًا؛ لأنه يفعلها امتثالًا.

إذنْ خطوات الشيطان: طرقه التي يسير عليها، والتي هي منهج سلوكه وذلك دائرٌ على أمرين هما: التكذيب والاستكبار.

وقد تكون خطوات الشيطان مبينة مخصوصة ـ كما قلنا في مسألة الأكل بالشمال والشرب بالشمال ـ.

قال المؤلف: [﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ أي المتبع ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي القبيح ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ شرعًا باتباعها]

قوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، (مَنْ): اسم شرط، و(مَنْ) الشرطية تحتاج إلى: شرط وجزاء، يعني فعل شرط وجواب شرط.

ففعل الشرط: ﴿يَتَّبِعْ﴾، وجواب الشرط: الجملة ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

عندنا الآن ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ وعندنا ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الضمير يعود على أيهما؟

إن نظرنا إلى أصل الجملة والموضوع قلنا: إنه يعود إلى الشيطان؛ لأن جواب الشرط يعود على ما يعود عليه فعل الشرط، وإذا نظرنا إلى السياق وإلى أقرب مذكور قلنا: إنه يعود إلى الشيطان.

فصار المعنى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وقع في الفحشاء والمنكر، تصير جملة دالة على جواب الشرط وليست هي جواب الشرط، أما على ما سلكه المؤلف ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ﴾ تكون هي بعينها جواب الشرط.

إذا قلنا: الضمير عائد على ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ فإنه أي: المتبع ـ كما قال المؤلف ـ، فالجملة هي جواب الشرط ويرجِّح هذا التقدير أن الأصل أن المذكور جواب الشرط، وأن الضمير في جوابه يعود على ما يعود إليه فعل الشرط ـ هذا الأصل ـ، وأما على الرأي الثاني: فإنه يقول: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يقول: فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر ويكون هذا دالًا على الجواب.

ويؤيد هذا الرأي أن السياق في النهي عن اتباع خطوات الشيطان، فكأنه يقول: من يتبع خطوات الشيطان وقع في الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، وهذا أظهر من وجهين: لأن السياق يدل عليه ـ هذا وجه ـ ولأن المُتَّبع لخطوات الشيطان قد لا يأمر بالفحشاء

والمنكر، قد يفعل الفحشاء والمنكر ولكن لا يأمر بها فليس بلازم من اتبع خطوات الشيطان أن يأمر بالفحشاء والمنكر، نعم من اتبعه اتباعًا مطلقًا لزم أن يأمر بالفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر.

فعلى كل حال: الأرجح أن الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ﴾ عائد إلى الشيطان لا إلى المتبع يرجحه أمران:

أولًا: دلالة السياق عليه؛ لأن الله نهى عن اتباع خطوات الشيطان، ثم ذكر ما يؤيد هذا النهي من التحذير، حيث بيَّن أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، وهذا كل عاقل إذا علم أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر هل يُسَوِّغ لنفسه أن يتبع خطواته؟ الجواب: لا.

الوجه الثاني مما يؤيد ذلك: أن الذي يتبع خطوات الشيطان قد لا يأمر بالفحشاء والمنكر، قد يتبعه ذلك بنفسه، ولكن لا يأمر به، وكثير من أهل الضلال تجدهم ضالين بأنفسهم، لكن ما عندهم دعوة لما هم عليه، وإن كان نجد أيضًا أن كثير من أهل الضلال عندهم دعوة يأمرون بالفحشاء والمنكر أي: بما هم عليه.

فالصحيح إذنْ: أن الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يعود على الشيطان وإذا قلنا بأنه يعود على الشيطان يبقى النظر أين جواب الشرط؟ الجواب: محذوف تدل عليه هذه الجملة وتقديره (ومن يتبع خطوات الشيطان وقع في الفحشاء والمنكر)؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، فمن اتبعه وقع فيها والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]

التفسير

[﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمؤمنين، قال أبو بكر رضي الله عنه: بلى أنا أحب أن يغفر الله لي ورجَّعَ إلى مسطح ما كان ينفقه عليه[1]].

قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ هذا عرض لكن بمعنى التحضيض، يعني: يحضنا أن نحب هذا الشيء

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٤٤٥).

لكننا ليس المقصود أن نحب هذا الشيء فقط بل أن نسعى في أسبابه؛ لأن من أحب شيئًا سعى في أسباب الحصول عليه، قد يدَّعِي كل واحد يقول: أنا أحب أن يُغفر لي ومع ذلك هو منهمك في المعاصي؛ من ترك الواجب وفعل المحرم، وهو يقول: أنا أحب أن يُغفر لي.

فإن محبته ليست صادقة؛ لأن من أحب شيئًا سعى في الوصول إليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني: فإذا كنتم تحبون ذلك فاعفوا واصفحوا عن غيركم؛ فإن من عفا وصفح عن غيره غفر الله له.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الغفور: مأخوذٌ من المغفرة وهي: ستر الذنب مع التجاوز عنه، وليست مطلق الستر، بل ستر مع التجاوز، أما الستر بدون تجاوز فليس بمغفرة، وإنما قلنا: إنها الستر مع التجاوز؛ لأن التجاوز هو الذي به الوقاية من العذاب، وأصل ذلك من (المِغْفَر) فإن المغفر يستر الرأس ويقيه.

ويدل على أن المغفرة هي الستر مع الوقاية: أنه جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: **«أَنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ يومَ القِيَامَةِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ حَتَّى إِذَا أَقَرَّ بِهَا قَالَ اللهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»**[1].

فدل ذلك على أن المغفرة غير الستر، وإلا لكانت المغفرة في الدنيا من قبل، فالمغفرة شيء والستر شيء آخر، لكن كل مغفرة تتضمن الستر، وليس كل ستر يتضمن المغفرة؛ لأن من غَفَر لك ولم يعاقبك معناه أنه ستر عليك إذ لو عاقبك لفضحك.

يقول المؤلف: إن أبا بكر رضي الله عنه رجَّع ـ بالتشديد والتخفيف ـ، قال الله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:٨٣] بمعنى: ردَّك؛ لأن فعل (رجع) في الحقيقة يُستعمل متعديًا ولازمًا، فإذا قلت رَجَعَت من كذا فهذا لازم، وإذا قلت: رَجَعْتُ إلى فلان ما استعرته منه صارت الآن متعدية.

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأن هذا نزل في أبي بكر مع مسطح بن أثاثة ابن خالته، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.



❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٢٣]

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

۞ التَّفْسِيرُ ۞

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي: بالزنا ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: العفائف ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفواحش بأن لا يقع في قلوبهن فعلها ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله ورسوله ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الرمي: هو القذف بالزنا وسُمِّيَ رميًا؛ لأنه يشبه الرمي بالحجارة من حيث إيلامه للمقذوف.

وقوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ تقدَّم أن المراد بهن: العفائف عن الزنا، وأن المُحْصَن في القرآن يطلق ويراد به عدة معانٍ منها هذه: العفيفات عن الزنا، ومنها: ذوات الأزواج، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤]، ومنها: الحرائر ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥] أي: الحرائر.

وذكرنا أيضًا على هذا الكلام أن الألفاظ المشتركة التي تطلق على معانٍ متعددة يُعَيِّن المراد منها السياق، فالسياق هو المعين للمراد.

قوله: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ يقول: [عن الفواحش بألَّا يقع في قلوبهن فعلها] وهذا القيد ليس بشرط، يعني: ليس بشرط أن تكون المَرْمِيَّة ممن هي غافلة، هكذا قال بعض أهل العلم، بدليل أن من قَذَف محصنةً بالزنا وجب عليه حد القذف وإن لم تكن غافلة، ولكنَّ الأصل في القيد أنه مُعْتَبَر، وأن مفهوم المخالفة غير داخل فيه، فمن قال: إن هذا القيد لا يعتبر مثلًا، وإنما زدناه بناءً على الغالب أو ما أشبه ذلك، لنا أن نطالبه بالدليل نقول: هات دليل على أن هذا القيد لبيان الغالب، وأنه ليس بمقصود، وإلا فالأصل أن نقول: يراد بها ما يخالف محترزاتها يعني: يراد بها أن ما يخالفها يكون مخالفًا لها في الحقيقة.

وقوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ بعض العلماء يقول: إن الغافلات هذه قيد لبيان الواقع، وليست مقصودة، بمعنى: أن من رمى محصنة فعليه هذه اللعنة وإن لم تكن غافلة، ودليله قال: لأن من قذف محصنةً وجب عليه حد القذف وإن لم تكن غافلة. والغافلة التي لا يأتي في ذهنها هذا الأمر الذي رميت به، وهو أبلغ من كونها لم تفعله ولم تتهم به، الغافلة أبلغ ممن لا تُتَّهم به؛ لأنها قد لا تتهم به، ولكن قد يرد في قلبها هذا الشيء إلا أنها لا تفعله، فالغافلات أكمل حالًا من مجرد المحصنات، فيقول هذا القائل - الذي ذهب إلى أن الغافلات قيد لبيان الواقع وأنه لا مفهوم له يؤيد رأيه هذا -: بأن المحصنة إذا قُذِفَت وجب على قاذفها الحد، وإن لم تكن غافلة.

نقول له ردًّا على كلامه وتقريره -: ادعاؤك أن الغافلات قَيْدٌ أغلبي، وأنه لا مفهوم له، واستدلالك على ذلك بأن رمي المحصنة بالقذف يوجب الحد وإن لم تكن غافلة هذا غير مُسَلَّم به؛ لأن الأصل في القيد الاعتبار، وأنه يُخْرِج ما عداه بمفهوم المخالفة، هذا هو الأصل: أن القيود التي

ترد في القرآن أو في السنة الأصل فيها أنها: قيود تُخْرِج محترزاتها من هذا الحكم، فمثلًا عندما نقول: إن الغافلات قَيْدٌ أغلبي لا يُخرج محترزه هذا خلاف الأصل وعلى مُدَّعيه الدليل.

هو استدل على ذلك بأن قذف المحصنة يوجب الحد وإن لم تكن غافلة، وهذا صحيح، المرأة المحصنة التي لا تتهم بالزنا إذا قذفها القاذف وجب عليه الحد وإن لم تكن غافلة، إننا نرد هذا الاستدلال أو هذا التقييد الذي قيد به قوله بأن الحكم مُخْتَلِف فهناك حدَّ القذف، وهنا اللعنة: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ فمن قذف محصنة استحق حد القذف، لكن اللعنة إنما تكون على من قذف محصنة غافلة، هذا هو الأصل، ولذلك نؤيد أن الغافلات قيدٌ اعتباريٌّ لا أغلبي، وأن الحكم ـ الذي هو اللعن في الدنيا والآخرة ـ لا يكون إلا لمن قذف محصنة غافلة.

أما من قال: إن المراد بهذه الآية عائشة رضي الله عنها مثلًا، وأنها غافلة عن هذا الأمر، فهذا صحيح عائشة غافلة، لكننا أيضًا نرد قوله بأن الآية عامة، فهذا أيضًا مثل الأول: حمل العام على الخصوص يحتاج إلى دليل، فمن ادعاه فعليه الدليل وإلا وجب الأخذ بالعموم.

إذا قال قائل: لماذا قَدَّم الله الوصف بالإحصان على الإيمان، مع أن الإيمان أعظم وهو الأصل فلماذا قدمه؟

نقول: وجه تقديمه هنا واضح؛ لأن الرمي بالزنا يَنْقُض الإحصان وينافيه، فبدأ بالوصف الذي يَنْقُض ما رميت به وهو الإحصان؛ لأن المؤمنة قد تكون مؤمنة وليست مُحْصَنَة، لكن المُحْصَنَة التي هي أبعد شيء عما رميت به ليست هي مؤمنة فقط؛ بل ومحصنة أيضًا، فعلى هذا نقول وجه تقديم المحصنة على المؤمنة مع أن الإيمان أكمل وأولى بالاعتبار أن المسألة في رد قولٍ يتعلق بالإحصان، فناسب أن يُذكر ما يتعلق به من الحكم وهو وصف الإحصان قبل وصف الإيمان.

وقوله: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الجملة محلها من الإعراب: خبر إن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ﴾، ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هنا ما قال لعنهم الله، قال: ﴿لُعِنُواْ﴾ لأجل أن يشمل ذلك لعنة الله وغيره مثل قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩] يعني: أن الله يلعنهم وكذلك اللاعنون يلعنونهم.

وبناء الفعل للمجهول من فوائده: العموم، مثل قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦ ـ ٧] ما قال: غير مَن غَضِبت عليهم مثلما قال: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن النعمة من الله، والغضب من الله ومن غيره، كل من استكبر عن الحق فإنه مغضوب عليه لا من قِبَل الله فحسب لكن من قِبَل الله وغيره، فاللعنة أيضًا هنا من قِبَل الله وغيره ولذلك بُنيت للمجهول: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

اللعنة: الطرد والإبعاد عن رحمة الله هذا بالنسبة للعنة الله، فهم ـ والعياذ بالله ـ مُطردون عن رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الدنيا والآخرة، وبالنسبة لغير الله يُلعَنُون في الدنيا بحيث يُسَبُّون،

ويُقْدَحُ فيهم، ويُبْعَد عن الاختلاط بهم، تجد الناس يبتعدون عنهم؛ لأنهم ممقوتون، محذورون، كل يحذر منهم ويخاف أن يتهموه بما اتهموا به فلان وفلانة.

هذه الآية: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ هل المحصنين الغافلين مثلهم؟

نعم، بالإجماع أن المحصنين مثل المحصنات.

إذنْ ما وجه ذكر هذا للنساء دون الرجال ما داموا مشتركين في الحكم؟

لأن كثرة القذف في النساء أكثر من الرجال، يعني: كون المرأة تُقْذَف وتتهم بالزنا أكثر من الرجال لذلك ذُكرت هي، والرجل مثلها بالاتفاق.



قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]

التفسير

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾، قال: [﴿يَوْمَ﴾ ناصبه الاستقرار الذي تعلق به لهم] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ﴾ ما جعلها المؤلف متعلقة بلعنوا، جعلها متعلقة لهم بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور؛ لأن ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم (لهم): خبر مقدم، و﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ، و﴿عَظِيمٌ﴾: صفة.

فالجار والمجرور إذَا صارا خبر المبتدأ، يقولون: إنه يجوز أن تجعله متعلقًا بفعل ويجوز أن تجعله متعلقًا باسم فاعل.

قال ابن مالك:

وَأَخْبَرُوْا بِظَرْفٍ أَوْ بِحَرْفِ جَرّ ... نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوْ اسْتَقَرّ

فهنا نقول: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ استقر لهم عذاب أليم نجعل الخبر جملة، أو كائن لهم نجعلها اسم فاعل، وأيًّا كان فإن كائن يصح أن يتعلق به الظرف، واستقر أيضًا يصح أن يتعلق به الظرف، وعلى هذا فنقول: العذاب العظيم يكون لهم متى؟ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾... إلخ.

إذن كلمة ﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب، ناصِبُهُ المقدر الذي تعلق به الجار والمجرور سواء قدرته مُستقِر أو قدرته استقرَّ، فـ ﴿يَوْمَ﴾ هذه متعلقة بما تعلق به الجار والمجرور في (لهم) سواء قدرته مستقر أو قدرته استقر.

[﴿تَشْهَدُ﴾ بالفوقانية والتحتانية] تشهد، ويشهد [﴿عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من قول وفعل، وهو يوم القيامة].

يعني: اليوم الذي تشهد فيه هذه الجوارح هو يوم القيامة.

قوله: [﴿تَشۡهَدُ﴾ بالفوقانية والتحتانية] يعني: أن فيها قراءتين (تشهد، يشهد)؛ وذلك لأن (ألسنة) جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث، تقول: قال الرجال، وقالت الرجال.

﴿تَشۡهَدُ﴾ مؤنث أم مذكر؟ مؤنث، ويشهد مذكر فكلاهما جائز.

وقوله: ﴿أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾ جمع لسان، ﴿وَأَيۡدِيهِمۡ﴾ جمع يد، ﴿وَأَرۡجُلُهُم﴾ جمع رجل ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قال المؤلف: [من قول وفعل] استفدنا من كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فائدة عظيمة وهو: أن العمل يشمل القول والفعل، بخلاف الفعل، ولهذا نجعل القول قسيمه الفعل، ما نقول: قول وعمل، إذا أردت أن تحرر تمامًا تقول: قول، وفعل، ويجوز قول وعمل لكن على سبيل التجوز.

إذنْ فهمنا أن العمل يطلق على القول وعلى الفعل. بل قال أهل السنة والجماعة في بحثهم في الإيمان: إن العمل يشمل عمل اللسان وهو: القول، وعمل الجوارح وهو: الفعل، وعمل القلب أيضًا، مثل: خوفه ورجائه ومحبته وما أشبه ذلك - يعني حركة القلب - الحركة القلبية.

فصار إذنْ العمل إذا قيل: يشمل القول والفعل، وإذا أردت أن تُقَسِّم تقول: قول، وفعل.

إذا سمعت، أو جاءك عبارة فيها: (قول وعمل) فاعلم أن هذا من باب التجوز، تجوَّز بالعمل عن الفعل، وإلا فالأصل أن الفعل قسيم القول، لا أن العمل قسيم القول.

إذا قلت: عمل يشمل القول والفعل، ولو قلت: فعل يختص بالفعل وهو عمل الجوارح والقول عمل اللسان فالعمل يشمل: قول اللسان وفعل الجوارح، لكن فعل: يختص بفعل الجوارح فقط.

قوله: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ اللسان يشهد على الإنسان كيف يشهد؟ يقول لهذا القاذف للمحصنة الغافلة المؤمنة يقول: إنك قذفتها لسانه نفسه يقول: إنك قذفتها، مع أن العمل عمل اللسان ومع ذلك يشهد اللسان على صاحبه بهذا القول الذي هو القذف.

﴿وَأَيۡدِيهِمۡ﴾ أيضًا تشهد عليهم ﴿وَأَرۡجُلُهُم﴾ تشهد عليهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن هذه الأعضاء تشهد على الإنسان يوم القيامة، وكذلك ذكر أن الجلود تشهد أيضًا، وأنه يحصل محاورة بين الإنسان وبين جلده: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [فصلت:٢١].

وفي هذه الآية إثبات ذلك، وإثبات الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل، والدليل قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لا بزيادة ولا بنقص.

وفيها أيضًا تمام قدرة الله عز وجل، حيث أن هذه الأعضاء تنطق، مع أن النطق في العادة باللسان، لكن يكون في كل شيء إذا أراد الله سبحانه وتعالى، ولهذا تقول الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ

﴿أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

مسألة: قد يقول قائل: لماذا ختم الله على أفواههم وجعل أعضاءهم تتكلم، كما أنه توجد آيات تدل على كلامهم بأفواههم ؟

الجواب: المراد بالختم على الأفواه بحيث لا ينكرون ولا ينافي أن تشهد بالآية، ثم تأتي بها يضاد مرادها، أو يقال: القيامة مواقف؛ لأن القيامة خمسين ألف سنة فتارة كذا، وتارة كذا، مثل ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] يعني: كل شيء يخبروه، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] وهذا جحود فكيف نجمع بين الآيتين؟ أن نقول: إن القيامة مواقف وهكذا جمع بعض العلماء بين قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢] وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦] فهنا سواد وهنا الزرقة منهم من قال: إن هذا باعتبار مواقف القيامة، ومنهم من قال: إن الزرقة في العيون والسواد في الوجوه، ومنهم من قال: إن الناس يختلفون الكفار منهم أزرق ومنهم أسود.

على كل حال: إنما قصدي أن أهل العلم رحمهم الله لجأوا إلى الجمع بين الآيات التي ظاهرها التعارض يوم القيامة بأن القيامة ليست ساعة واحدة حتى تتعارض فيها الآيات، يوم القيامة خمسين ألف سنة تختلف الأحوال فيه.

مسألة: قد يقول قائل: هل أسكت الله اللسان؛ لأنه يدافع عنهم، أم ماذا ؟

الجواب: لا يدافع عنهم ولكن يشهد بخلافهم يصير اللسان لسانين لسان شاهد وناطق للجوارح وهو مقصود هذه الآية، ولسان آخر منكر وهو الموافق لمراد صاحبه. فيصير كأنه لو أنكر الإنسان باللسان الذي يتابعه في ضلالته. والحكمة هنا ـ والله أعلم ـ من ذكر اللسان؛ لأن القذف إنما حصل به ولهذا قدمه على الأيدي والأرجل.

وفي هذه الآية: إثبات البعث وإثبات الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل والدليل قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تشهد بما كانوا يعملون لا بزيادة ولا بنقص.

وفيها أيضًا:

تمام قدرة الله عز وجل، حيث أن هذه الأعضاء تنطق مع أن النطق في العادة باللسان، لكن يكون في كل شيء إذا أراد الله سبحانه وتعالى، ولهذا تقول الجلود: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت:٢١].

وفي هذا دليل على عظم القذف للمحصنات الغافلات المؤمنات، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه

من الكبائر فقال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»(١) وذكر منهم: «قَذْفَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ».

وفي هذا دليل على تمام غيرة الله عز وجل، وأنه جل وعلا غيور، وقد جاء في الحديث الصحيح: «مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ»(٢)، وكذلك قصة سعد بن عُبادة لما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:٤] كأن سعدًا رضي الله عنه استشكل: كيف أن الرجل يجد على زوجته رجلًا، ثم يذهب يطلب أربعة شهود لا يأتيه وإلا قد فرغ، وقال رضي الله عنه للنبي - عليه الصلاة والسلام -: والله لأضربنه بالسيف غير مُصَفِّح - يعني: أضربه بالسيف بحده حتى أقتله - فقال النبي ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»(٣).

ويدلك على هذا كيف أوجب الله على هؤلاء القاذفين أوجب لهم أن يُلْعَنُوا في الدنيا والآخرة وأن لهم عذابًا عظيمًا، ولهذا جاء الشرع بما أراده سعد بن عُبادة رضي الله عنه، فإن الإنسان لو وجد - والعياذ بالله - إنسانًا على امرأته فله قتله، له أن يقتله سواء كان هذا الفاعل مُحْصَن أو غير محصن ولا يحتاج أيضًا إلى مدافعة، ما يحتاج أن نقول إذا عجز عن انكفافه فله قتله، بل له قتله مباشرة؛ لأن هذا ليس من باب دفع الصائل، ولكنه من باب الغيرة على محارمه، ولهذا وقعت القصة في عهد عمر رضي الله عنه واختصموا إليه وأقروا بأن هذا المقتول يعني: (ما أنكروا ادِّعاء الزوج) بأنه وجده على امرأته؛ لأنه قال: يا أمير المؤمنين أنا ما ضربت إلا فَخِذَي امرأتي فإن كان بينهما أحد فقد قتلته، فأخذ عمر رضي الله عنه بالسيف وقال له: إن عادوا فعد، ولم ينكر عليه هذا الفعل؛ لأن هذا الإنسان ما يتحمل أن يجد إنسان ينتهك محارمه لهذا الحد حتى يقتله.

فعلى كل حال: في هذه الآية إثبات الغيرة لله عز وجل ووجه هذا أنه سبحانه وتعالى حمى أعراض عباده المؤمنين المحصَنين الغافلين بهذه العقوبة العظيمة وهي: اللعن في الدنيا والآخرة.

هل يستفاد من الآية جواز لعن القاذف للمحصنة الغافلة المؤمنة لقوله: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، أو هذا بيان لواقع الأمر أن الناس يلعنونهم، ويكرهونهم، ويبعدوهم عن مجالسهم؟

الحقيقة أن الآية محتملة مثل قوله ﷺ: «اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: البَرَازُ فِي المَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيْقِ، وَالظِّلِّ»(٤) ورواية مسلم: «اتَّقُوا اللَّاعِنَيْنِ» قالوا: وما اللاعنان؟ قال: «الذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيْقِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٤) حسن: أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦٢).

النَّاسِ أو ظِلِّهِمْ»(١)، فَسَمَّى ذلك لَعْنًا.

فهل المعنى: أن هؤلاء الناس الذين يفعلون هذا الفعل ينفر الناس منهم ويبعدونهم، ويتخلون عن أخلاقهم، أو يجوز أن نلعنهم نقول: اللهم العن من تخلى في طريق الناس أو ظلهم، وهنا نقول: اللهم العن من قذف مُحصَنة غافلةً مؤمنةً؟

الظاهر أن الأمر يتناول هذا وهذا، يتناول الأمر الواقع المنزل أنهم بالفعل يبعدون عنهم ويبعدونهم عن مجالسهم؛ وأنه يجوز للإنسان أن يلعن من قذف محصنة غافلة مؤمنة؛ لأن الله لعنه، فالدعاء عليه باللعن من باب تحقيق ما أخبر الله به.



قال الله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥]

التفسير

قال المؤلف: [﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: يجازيهم جزاءه الواجب عليهم ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ حيث حقق لهم جزاءه الذي كانوا يشكُّون فيه ومنهم عبد الله بن أُبَيّ، والمحصنات هنا أزواج النبي ﷺ لم يَذْكُر في قذفهنّ توبة، ومن ذكر في قذفهن ـ أول السورة ـ التوبة غيرهن].

يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾ بمعنى: يعطيهم وافيًا، تقول: وفَّيته حقه أي: أعطيته إياه وافٍ.

وقوله: ﴿دِينَهُمُ﴾ أي: جزاءهم والدِّين كما أسلفنا كثيرًا يطلق على العمل وعلى جزاء العمل، فَمِن إطلاق الدين على العمل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] المراد هنا: العمل أو الجزاء؟ العمل الذي تدينون الله به، ومثل قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] المراد: الجزاء، فالدين إذنْ يطلق ويراد به العمل والجزاء على العمل.

ومنه قولهم: (كما تدين تدان) يعني: كما تعمل تجازى.

قوله: ﴿دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ دينهم أي: جزاء عملهم، وقوله: ﴿الْحَقَّ﴾ بمعنى: العدل؛ وذلك لأن الحق إن قيل في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق، وإن قيل: في مقابلة الحكم سواء كان الحكم تشريعيًا أو جزائيًا فمعناه: العدل؛ هنا قيل في مقابلة الحكم الجزائي وعليه فيكون المراد بالحق يعني: العدل الذي ليس فيه ظلم ولا جَور، وهكذا جزاء الله سبحانه وتعالى يكون دائمًا حقًا يعني:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩)، وأبو داود (٢٥).

عدلًا ليس فيه جور.

أليس جزاء الله تعالى بالحسنات الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة؟ هل ينافي هذا الآية أم لا؟

الجواب: لا ينافيها؛ لأن هذا عدل وزيادة كون الله يُثيبُ العامل أكثر من عمله هذا عدل وزيادة، لكن كون الإنسان الذي يجازي غيره على عمل سيئ فيعاقبه بأكثر مما يستحق هذا جَور، فالله تعالى منزه عن هذا؛ لأنه جور، لكن الأول فضل من الله، والله سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ في هذه الجملة مُؤَكِّدان: وإن شئنا قلنا ثلاثة مؤكدات. أنَّ، وضمير الفصل، هذان اثنان، والمؤكد الثالث أن الجملة مكونة من مبتدأ وخبر كلاهما معرفة، وكون المبتدأ والخبر معرفة هذا يفيد التوكيد والحصر أيضًا.

إذنْ فالله تعالى هو الحق مؤكد بهذه المؤكدات الثلاثة.

وما معنى كون الله حقًّا؟

وجه الأحقية لله عز وجل من وجوه ثلاثة:

أولًا: بوجوده فإن وجوده حق وهو أحق الأشياء، ولهذا جميع الفطر السليمة تشهد به، وكذلك العقول الصريحة - يعني: الخالصة عن الشبهات والشهوات - تشهد به.

ثانيًا: وكذلك أيضًا ما يصدر عنه فهو الحق، ما يصدر عنه من خبر أو حكم فما أخبر به فهو الحق وما حكم به فهو حق سواء كانت أحكامًا تشريعية - وهو ما شرعه للعباد - أو جزائية - وهو ما يجازي به العباد.

المعنى الثالث: ما يستحقه أيضًا فهو حق يعني: كون الله يختص بأشياء لا يشاركه فيها غيره هذا أيضًا حق ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

إذنْ الحق في جانب الله تعالى يكون على الوجوه التالية: الوجود، والاستحقاق، وما يصدر عنه.

فوجوده حق وما يستحقه من الأمور حق يعني: من كمال الصفات، والعبادة وغير ذلك والثالث: ما صدر عنه تبارك وتعالى فهو حق من خبر أو حكم، والحكم كما أسلفنا سواء كان جزائيًّا أو تشريعيًّا، ونقول: أو قدريًّا؛ لأن الأحكام القدرية أيضًا تعتبر حكم مثل ما قلنا: إن الحكم قسمين: كوني، وقدري وفي الحقيقة أنه لابد أن يضاف: أن ما يصدر عنه من أحكام جزائية أو قدرية أو تشريعية فهي حق.

وقوله: ﴿الْمُبِينُ﴾ من أَبانَ يعني: من الفعل الرباعي، وأبان بمعنى: أظهر أم بمعنى: ظهر؟

أبان الفعل الرباعي هذا قالوا: إنه يستعمل متعديًا ولازمًا، يستعمل لازمًا بمعنى (بانْ)، ومتعديًا بمعنى (بانَ) أي: ظهر.

قوله: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ هل المعنى البيِّن الأحقية، أو المعني الذي أبان لخلقه أنه حق، أم كلاهما؟ الواقع أن الله تعالى بيِّن الأحقية، وقد أبان لعباده كونه حقًّا.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩] ما معنى مبين هل هي بمعنى: بيِّن أم مبين بمعنى: مُظهِر؟

القرآن بيِّن مُبين، لكن المُبين هنا أظهر لقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠].

في قوله تعالى: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] مبين هنا بمعنى: بيِّن.

والحاصل أن كلمة مبين تستعمل من المتعدي واللازم؛ لأن هي أصلًا فعل رباعي أبان تستعمل لازمًا ومتعديًا فإن كان لازمًا فهي بمعنى بيِّن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وإن كانت من المتعدي فهي بمعنى: مُظهِر للشيء مُبيِّنه، أَبَنْتَه بمعنى: أَظْهَرْتَه حتى بان، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩] أي: مُظهر لقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، وكذلك أيضًا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] بمعنى: مُظهِر، وإن كان باللازم أنه إذا كان مُظهرًا فهو ظاهر في نفسه فالمبين بمعنى: مظهر لابد أن يكون بيِّنًا في نفسه وإلا لما أظهره.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ هذه الآية ننزلها على المبين اللازم والمتعدي؛ لأن الله تعالى بيِّن الأحقية ومبين ذلك لعباده.

كيف أبان لعباده أنه الحق؟

أولًا: بما ركب فيهم من الفطر السليمة والعقول؛ ولهذا دائمًا يُحيل الله سبحانه وتعالى هذه الأمور إلى العقل فيقول: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤] دليل على أن العقل مرجع، لكن المراد بالعقل: العقل السليم الذي ليس فيه شبهات وليس فيه شهوات، وأما العقل الذي استولت عليه الشبهات أو الشهوات فهذا عقل فاسد.

أيضًا أبان الحق تبارك وتعالى بغير العقل، بالفطرة فإن الفطرة السليمة تشهد بالحق وأبان العقل بالوحي الذي أرسل به الرسل، فتكون إبانة الله تعالى للحق بهذه الطرق الثلاثة: العقل، والفطرة، والوحي.

كل هذه الطرق الثلاث يتبين بها الحق، ولذلك يضرب الله الأمثال للناس؛ لأجل أنهم يعتبرون المورد، والمصدر، مورد المثل ومضربه فيعتبرون بهذا على هذا والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [النور: ٢٦-٢٩]

التفسير

قال العلامة السعدي:

[﴿الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء -خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي؟!! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها.

ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لمبطل مقالًا، ولا لشك وشبهة مجالًا، فقال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلًا، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعًا ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صادر من الرب الكريم.

[ثم][1] يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك

---

(١) من وضعنا نحن.

عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**» فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حَتَّى يَسْتَأْنِسُوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناسًا، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أأدخل»؟

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقًّا واجبًا لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال.

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان.

وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم، وفيه حرج ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ وهذا من احترازات القرآن العجيبة، فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لفظ عام في كل بيت ليس ملكًا للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية، وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية][1].



---

(١) نقلنا تفسير هذه الآيات: (٢٦ - ٢٩) من تفسير العلامة السعدي؛ لعدم توفر المادة العلمية لدينا في مصادرنا.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

أولًا: الكلام على قوله: ﴿يَغُضُّوا﴾ ما جازمها؟

ثلاثة أقوال: إما أنها مجزومة باللام المقدرة ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليغضوا من أبصارهم، وذكرنا لذلك شاهدًا وهو: محمد تفد نفسك كل نفس، يعني: لتفد.

أو جواب للأمر الموجود وهو ﴿قُل﴾ وأوردنا على ذلك ما يُضَعِّفه وهو: أن مجرد القول لا يلزم منه الغض، اللهم إلا على فرض أن المؤمن لابد إذا قيل له أن يغض غض.

الوجه الثالث: أنه جواب لأمر مقدر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ غضوا من أبصاركم يغضوا من أبصارهم، غضوا يغضوا. والغض معناه: القصر أو النقص.

قوله: ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ المؤلف يرى أنها زائدة، والصحيح أنها للتبعيض وليست زائدة.

والذي يُضعف ما ذهب إليه المؤلف ثلاثة أوجه:

أولًا: المشهور أن (مِنْ) لا تزاد إلا في النفي والشدة وهذه في الإثبات.

ثانيًا: إن غض البصر ليس واجبًا دائمًا؛ بل هو جائز لماذا كان جائزًا وحفظ الفرج كله واجب؟ قالوا: لأن غض البصر من باب سد الذرائع، تحريم إطلاق البصر من باب سد الذرائع ولذلك يجوز إذا كانت المصلحة في فعله بخلاف حفظ الفرج.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]

۞ التفسير ۞

قوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الكلام فيها كالكلام في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: على رأي المؤلف أن المراد بالزينة: (إلا ما ظهر منها) المراد بالمستثنى هنا: الوجه والكفان.

القول الثاني: من اللباس الذي لابد من ظهوره.

تفسير المؤلف للزينة بأنها الزينة الخِلْقِية التي زَيَّن الله بها البدن غير صحيح، والسبب أن المراد بالزينة ـ على الصحيح ـ الزينة الخارجية وهي: ما تتزين به المرأة وليس الزينة الخلقية التي خلق الله المرأة عليها، والدليل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف:٣٢] وفي آخر هذه الآية: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] كل من تأمل الزينة وجدها في الزينة الخارجية، لا فيما زين الله به المرأة، وعلى هذا يكون الاستثناء عائدًا على ما يبدو من الثياب الذي لابد من ظهوره؛ وذلك لأنها لو حُرِّم عليها حتى الثياب التي تبدو ولابد من ظهورها لوجب عليها أن تبقى بالبيت إذ لا يمكن تطبيق هذا الأمر إلا بذلك وهذا أمر لم يكلف الله به.

إذنْ تبين أن قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أن الراجح فيه: ما ظهر من اللباس يعني: الشيء الذي لابد من ظهوره، وظهوره ضروري هذا مباح، ويدل على ذلك أيضًا: أن الزينة لا تُستعمل إلا فيما يَتَزَيَّن به الإنسان من لباس وغيره، ويؤيده أيضًا ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ ولو كان المراد الوجه والكفين لقال: إلا ما أُظهر مثلًا؛ لأنه ما يظهر إلا إذا أُظهر.

قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ضرب بالشيء على الشيء بمعنى ألقاه عليه، لكن مع الإلصاق، بمعنى: ألقاه عليه لاصقًا به، ومنه ضربت بيدي على يدي أو على فخذي أو ما أشبه ذلك، هذا معنى الضرب على الجيوب، ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ جمع خمار وهو ما تُغَطِّي به المرأةُ رأسها ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ جمع جَيْب، وهو طَوْقُ الثوب يُسمى جيب، ولا يزال الناس إلى الآن يسمونه بهذا الاسم.

أوجب الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ اللام لام الأمر، والسكون في قوله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ليس سكون إعراب ولكنه سكون بناء؛ لأن الفعل متصل بنون النسوة ويكون مبنيًّا على السكون مهما كان الأمر.

هنا أمر الله سبحانه وتعالى أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها، ولزم من ذلك أن ينزل من رأسها إلى الجيب، فهل المراد بضرب الخمار على الجيب أن يكون من تحت الوجه بحيث يبقى الوجه مكشوفًا والجيب مستورًا، أو أن المعنى أن تضرب بالخمار على الجيب مارًّا بالوجه؟ لأن هذا هو الأقرب الخمار ينزل من الأعلى يعني من فوق الرأس، ثم الجيب إذا وجب ستره فالوجه من باب أولى.

وكان النساء في الجاهلية - على حسب ما قاله بعض المفسرين - كانت - إحداهن - تسدل الخمار من وراءها ولا يقرب وجهها ولا جيبها، ولهذا أمر الله النساء أن يضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ، وعند من يرى أن المراد بالزينة الوجه والكفان يقول: تضرب بخمارها على جيبها من أسفل فتغطي الجيب وتكشف الوجه، مع أن الوجه أعظم فتنة من الجيب.

قوله: [﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: يسترن الرؤوس والأعناق والصدور بالمقانع] المقانع جمع مِقْنِعَة وهي: ما تُقَنَّع به المرأة يعني: ما نسميه عندنا الآن الغترة.

[﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية وهي ما عدا الوجه والكفين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ جمع بعل، أي: زوج...إلخ]

قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ فاستثنى من الزينة، وهنا قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فاستثنى من يُبْدَى له الزينة، هناك استثنى الزينة المبداة وهنا استثنى من تُبْدَى له الزينة، وبينهما فرق، الآن لو أخذنا بظاهر الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ قلنا: المراد بالزينة: هي الزينة الأولى فتصير: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولا يبدين هذه الزينة أيضًا ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ وحينئذ نكون قد خصصنا عموم ما سبق من الآية.

عندنا الآن نهي عن إبداء الزينة في موضعين استُثْنِي من الموضع الأول الزينة، ومن الموضع الثاني: مَن يُبْدَى له الزينة، فهل نجعل الاستثناءين يَنْصَبَّان على عمل واحد ونقول: لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها لبعولتهن...إلخ. وحينئذ يكون غير هؤلاء الذين استثنوا يَحْرُم إبداء الزينة لهم مطلقًا الظاهرة والخفية؟ الجواب: هذا احتمال.

والاحتمال الآخر: أن نقول: إن الزينة زينتان: زينةٌ ظاهرة تُبْدَى لكل أحد، وزينة خفية لا تبدى إلا لهؤلاء، وعلى هذا مشى المؤلف، على أن هذه الزينة غير الزينة الأولى، فالزينة الأولى: عامة؛ فأبيح منها ما ظهر لكل أحد، والثانية: هذه ليست عامة، بل المراد بها: الخفية التي لا تظهر، أو التي ليس من الضروري أن تظهر.

هذه الزينة يقول المؤلف: [وهي ما عدا الوجه والكفين] بناء على تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين، لكن الصحيح أن المراد الخفية: هي التي ليست من الضرورة أن تظهر

يعني: الثياب الداخلية - كما يقول العامة - هذه لا تبدى إلا للمذكورين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾... إلخ.

البعولة جمع بعل وهو: الزوج.

وقوله: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وهذا يشمل الأب الأدنى ومن فوقه كالأجداد، واعلم أن باب التحريم غير باب الإرث، باب الإرث: الأبوة والبنوة لا تشمل إلا مَن يتصلون إليك بطريق الأب، يعني: بطريق الذكورة، فابن البنت مثلًا وأب الأم لا علاقة لهم بالإرث، لكن في باب التحريم - النكاح وما يتصل به - يشمل الآباء من قِبَل الأب ومن قِبَل الأم، يعني: لا فرق بين من بينك وبينه أنثى ومن ليس بينك وبينه أنثى.

هناك في باب الأصول والفروع في الإرث الذي بينه وبينه أنثى من الآباء لا يرث، لكن هنا الذي بينك وبينه أنثى والذي ليس بينك وبينه أنثى على حد سواء، وعليه فنقول: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ يشمل الأب الأدنى والجد من قِبَل الأب ومن قِبَل الأم.

وقوله: ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ نفس الشيء آباء البعولة يجوز للمرأة أن تبدي لهم الزينة الخفية كما تبدي الزينة الظاهرة لكل أحد، وآباء البعولة هنا يشمل أب الزوج وجده من قِبَلِ الأب ومن قِبَل الأم، ولهذا كان أبا الزوج مُحَرَّمًا للزوجة وإن علا، يعني: لزوجة ابنه وإن نزل سواء تزوجها ودخل بها، أو تزوجها وطلقها قبل الدخول، أو مات عنها، فإن آباءهم محارم لهن.

وقوله: ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ الابن هنا نقول فيه ما قلناه في الأب، يعني: أنه لا فرق بين الابن للصُّلْب الذي يتصل بالإنسان بطريق الذكورة، والابن الذي يتصل بطريق الأنوثة، فابن البنت مثلًا يدخل في الأبناء، ومثله أيضًا أبناء بعولتهن، ابن الزوج يجوز للزوجة أن تبدي له الزينة الخفية.

ابن بنت الزوج كذلك، وعلى هذا يكون جميع من تفرع عن الزوج من ذكور وإناث وإن نزلوا يكونون محارم لزوجة جدهم، إلا أنه في هذه المسألة يُشترط الدخول بالمرأة، لأنهم من الربائب، والربائب لابد من الدخول، فلو أن رجلًا تزوج امرأة عقد عليها ثم طلقها أو مات عنها قبل الدخول لم يكن أولاده محارمَ لها؛ لأن من شرط ذلك الدخول كما قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣].

وقوله: ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ أشقاء أو لأب أو لأم، ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ وإن نزلوا، فالعمة يجوز أن تبدي لابن أخيها ما يخفى من زينتها؛ لأنه من محارمها، ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ويكن لهم خالات، إذنْ فالخالة يجوز أن تبدي لابن أختها ما يخفى من زينتها؛ لأنه من محارمها.

مسألة: هل بقي أحد من الأقارب محارم ولم يُذكر في هذه الآية؟

الجواب: نعم، بقي الأعمام ما ذكروا في هذه الآية، والأخوال ما ذكروا في هذه الآية، مع أنهم

من المحارم، والآية صريحة استثناء ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾ فعلى هذا العم والخال لا يجوز للمرأة أن تبدي لهم الزينة الخفية؛ لأن الآية حصرت ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾ لهؤلاء، وعلى هذا ليس كل مَحْرَم يجوز أن تبدى له الزينة لماذا؟

قالوا: لأن إبداء الزينة للعم والخال يُخشَى منه أن يصف ذلك لابنه؛ لأن ابن العم يجوز أن يتزوج بنت عمه، وابن الخال يجوز أن يتزوج بنت عمته، فلذلك قالوا: لا تُبْدَى الزينة للعم والخال وإن كانا من المحارم، وفي هذا دلالة بَيِّنة على أنه ليس المراد بالزينة هنا: كما قال المؤلف ما عدا الوجه والكفين؛ لأن الوجه والكفين يجوز إبداؤها للعم والخال؛ لأنهما من المحارم، ولكن هذه الزينة زينة اللباس الخفية وعلى هذا فلا يجوز للمرأة أن تتجمل عند عمها أو خالها.

مسألة: كذلك الرضاع ما ذكر هنا، هل حكمهم حكم المذكورين هنا أم لا؟

الجواب: معلوم أن ما يحرم من الرضاع يحرم من النسب لكن هو ليس من باب التحريم، ولهذا أُسْقِطَ العم والخال وهما حرام، فالمسألة ليست من باب التحريم.

العم هل يجوز له أن ينظر من المرأة ما ينظر إليه الأخ - من حيث المحرمية لا من حيث الزينة -؟!

حقيقة الأمر أن مسألة إبداء الزينة غير مسألة المحرمية، إذا كان العم والخال ما ذكروا مع أنهما من المحارم دلَّ ذلك على أن مسألة إبداء الزينة غير المحرمية؛ لأن المسألة هنا حسَّاسة جدًّا في الحقيقة، ولذلك الأخوة من الرضاع عند الناس كلهم أنه يجوز للمرأة أن تتجمل لهم وتتبهّى لهم مع أن المسألة خطيرة جدًّا في الحقيقة، وكم من أناس - والعياذ بالله - فجروا بأخواتهم من الرضاعة!! لأن الصلة ليست صلة رحم ونسب، بل صلة رضاع، فهي أضعف من صلة النسب والرحم؛ لذلك يحصل من بعض الناس الذين لا يخافون من الله من تحرُّك الشهوة، والتمتع بالنظر إلى أخواتهم أو خالاتهم من الرضاع ما هو معلوم، لذلك كره بعض العلماء للمرأة أن تبدي زينتها لمحارمها من الرضاع وقال: إن ذلك فيه خطر، ولهذا لم يتعرض الله سبحانه وتعالى للرضاعة إطلاقًا أبدًا وليس هذا من باب التحريم، وإذا كان من التحريم يقول النبي ﷺ: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»(1)، فالمسألة هنا إبداء زينة، وقد عُلِم الآن بحسب هذا الحصر أنها ليست لها علاقة بمسألة المحرمية، ويدل على ذلك أنه استثنى أشياء ما هم محارم مثل ما ملكت أيمانهم والتابعين من غير أولي الإربة، والطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، فدل ذلك على أن هذه المسألة ليس لها علاقة بمسألة المحرمية، وإنما هي مسألة مستقلة تعود إلى أمر حسَّاس دقيق؛ لأن كل الاستثناءات المذكورة كلها استثناءات في حماية الأعراض وتطهير النفوس وإبعادها عن الدنس، ولذلك تجد فيها احترازات بالغة الأهمية.

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

فالذي يظهر لي من سياق الآية: أنه يجب إبقاءها على عمومها، وعلى خصوصها أيضًا؛ وأن ما استُثْنِيَ فيها فله حكم الاستثناء، وما لم يذكر فيها فهو باق على النهي ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ والباقي باقٍ على النهي.

قد يقول قائل: إذا كان بني الأخ وبني الأخت يجوز إبداء الزينة لهم؛ لأنها عمتهم أو خالتهم فلماذا لا يكون العكس؟ لأن عمها وخالها إما تكون بنت أخته أو بنت أخيه، العم تكون بنت أخيه والخال تكون هي بنت أخته، فإذا كان يجوز لها إبداء الزينة لابن أخيها ولابن أختها أفلا يجوز العكس لأن الصلة واحدة؟

نقول: لا؛ لأن ابن أخيها، وابن أختها تشعر هي بأن لها العلو عليهم؛ لأنها عمة أو خالة فهم يحترمونها وليست هي التي تحترمهم، لكن مسألة العم والخال يشعران بعلو مرتبتهما على بنت أخيهما وبنت أختهما، فهي تحترمهما وهما لا يحترمانها، فلذلك يكون القياس هنا غير وجيه، والآية ما فيها مجال للقياس أبدًا؛ لأن فيها تفصيل بالعين إلا فلان، وفلان، وفلان، ما هي قواعد عامة.

أما المحرمية: فيجوز أن تُبْدِي له الوجه والكفين وما يظهر غالبًا، لكن مسألة الثياب؛ لأننا رجَّحنا أن الغالب في الزينة ما هي الزينة الخلقية التي خلق الله المرأة عليها إنما المراد بالزينة: اللباس فنقول: الزينة الخفية التي جرت العادة بأن المرأة لا تظهر بها إلا في حالات معينة ما تُبْدَى لهؤلاء العم والخال.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ اختلف المفسرون فيها فمنهم من قال: إن الإضافة للنوع ومنهم من قال: إن الإضافة للجنس.

الذين قالوا: إن الإضافة للنوع قالوا: المراد بـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المؤمنات؛ لأنه قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فالمراد بنسائهن أي: ما كان من نوعهن فالإضافة من باب إضافة الشيء إلى نوعه يعني: نساء المؤمنات.

وبعضهم قال: من باب إضافة الجنس يعني: أنه أضيف النساء إليهن باعتبار الجنس يعني: أو النساء اللاتي من جنسهن يعني: نساء.

فعلى القول الأول: لا يجوز للمرأة المسلمة أن تبدي زينتها للكافرة؛ لأنها ليست من نوعها، ولأنها - في الحقيقة - الكافرة غير مؤتمنة قد تغري بها الفساق والكفار إذا رأتها تتجمل وتتبهَّى وتبدي زينتها.

والقول الثاني: أن المراد بنسائهن: الجنس يعني: النساء اللاتي من جنسهن، وعليه فيجوز للمرأة أن تبدي ما خفي من زينتها لجميع النساء، من مؤمنات وغير مؤمنات، وهذا هو الأقرب،

واحتمال أن هذه المرأة الكافرة تغري بها الفساق والكفار هذا وارد، لكن هذا الاحتمال أيضًا وارد في المسلمات، فإن المسلمة غير المؤمنة ربما يحصل منها ذلك، وهذه المسائل في الحقيقة دقيقة جدًّا، وقد ترد حتى مع النساء بعضهن البعض، ولذلك المساحقة بين النساء موجودة؛ لأن المرأة تعشق المرأة وتتعلق بها كما يتعلق الرجل بالمرأة، ويحصل منها هذا الفعل المحرم.

وقوله: [﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فيجوز له نظره إلا ما دون السرة والركبة فيحرم نظره لغير الأزواج] المؤلف يسير على أن المراد بالزينة هنا: ما زيَّن الله به المرأة يقول: هؤلاء الذين استثنوا ما ملكت أيمانهن يعني: العبيد، وكذلك الإماء اللاتي ملكهن النساء، ولابد أن يكون المُلك تامًّا، فإن كان لها عبد مشترك فإنه لا يجوز لها إبداء الزينة له؛ لأنه لا يقال ملكته وإنما ملكت بعضه، ولهذا لا يجوز للرجل أن يتسرى الأمة المشتركة، إذا كانت أمة مشتركة بينه وبين شخص ما يجوز أن يتسرى بها؛ لأنها ليست ملكه، كما أنه لا يجوز للمرأة أن تبدي شيئًا من زينتها الخفية لمملوك بينها وبين غيرها؛ لأنه لا يصدق عليه أنه ملكها بل إنه مشترك.

يقول: [فيجوز لهم نظره، إلا ما بين السرة والركبة فيحرم نظره].

المؤلف سائر - على ما أشرنا إليه سابقًا - أن المراد بالزينة ما زين الله به المرأة ويقول: إن هؤلاء المستثنين يجوز للمرأة أن تبدي لهم ما دون السرة والركبة، يجوز للمرأة أن تبدي للأخوة وابن أخيها وابن أختها وأب زوجها يجوز تبدي صدرها وبطنها وثدييها وكل شيء، ما عدا ما بين السرة والركبة، لكن هذا فيه نظر، وفيه فتنة عظيمة، لو قلنا بجواز هذا لحصل به فتنة كبيرة جدًّا، امرأة مثلًا شابة زوجة ابنه تأتي إليه بهذه المثابة، ولنفرض أيضًا أنه هو رجل شاب هذا ما أحد يقوله.

لكن مع هذا لاحظوا بشرط أن تُؤمَن الفتنة، يعني: حتى على رأي المؤلف لابد من أمن الفتنة؛ فإن لم تؤمن الفتنة حَرُم، لكن حتى وإذا أمنت الفتنة فإن هذا فتح باب لها بلا شك، ولهذا الصحيح في المسألة - بقطع النظر - عن كون هذا المراد بالآية أو غير المراد بالآية - الصحيح أنه لا يجوز للمرأة أن تكشف للمحارم إلا ما جرت العادة به فقط؛ لأن ما جرت العادة به لا يُحتشم منه ولا يُبَالَى به، في عرفنا الآن تُخْرِج الكف، والذراع، والساق، والرأس، والرقبة كل هذا يخرج عادة للمحارم، ولهذا لو زاد على هذا الأمر لوجدت الناس يُنكرونه.

على كل حال: الصحيح في هذه المسالة أن يرجع إلى ما جرت به العادة، إلا في الشيء الذي لا يمكن كشفه إلا بفتنة متوقعة، أو لازمة فهذا لا يجوز.

إذنْ يبقى النظر في غير المحارم ممن تُبْتَلَى بهم المرأة مثل: إخوة الزوج، إذا كان الإنسان عنده في البيت أخ، وكل أخ من الأخوين له زوجة، على المشهور من المذهب أنه لا يجوز أن تبدي لا كف ولا وجه ولا قدم ولا غيره؛ وأن هذا الرجل مثل الرجل الذي في السوق، ولو أخذنا بهذا في

الحقيقة للَحِقَ الناس حرج كبير، نقول للمرأة إذا ظهر أخو زوجك لابد أن لا يظهر منك ولا ظفر ولا شعرة هذا في الحقيقة فيه مشقة وحرج؛ ولهذا الصحيح في هذه المسألة أن مسألة الكف والقدم مما يشق التحرز منه لا بأس به، أما الوجه فلا يجوز؛ لأن التحرز منه ممكن بخلاف الكف والرجل، وهذه امرأة تعمل في البيت تكنس وتفرش كيف تحرز من أخي زوجها؟!

لهذا نقول: إن ما يشق التحرز منه من إظهار القدم والكف فالصحيح أنه لا بأس به، وقد مشى على ذلك بعض فقهاء الحنابلة، وقال في «**الإنصاف**»: إنه ما يسع الناس العمل إلا بهذا، وهذا صحيح.

يقول في التفسير: [وخرج بـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ الكافرات فلا يجوز للمسلمات الكشف لهن، وشمل ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ العبيد].

قوله: [خرج وشمل]، خرج بنسائهن الكافرات، بناءً على أن الإضافة نوعية لا جنسية، وأن المراد بنسائهن: أي المسلمات.

وأما على القول الثاني: أن المراد بالنساء أنه من باب إضافة الجنس إلى جنسه، يعني: الذين من جنسكم وهن النساء فلا تخرج الكافرات، بل يشمل المؤمنات والكافرات.

وقد ذكروا أن الصحابة ﭫ لما فتحوا الأمصار كان فيها قوابل من الكافرات، فأقرهن الصحابة على ذلك، وهذا مما يدل على أن المراد بنسائهن النساء دون المسلمات، ليس بقيد المسلمات، نعم إن خيف منها ضرر فهذا شيء آخر، وخوف الضرر حتى في المسلمة.

وقوله: [وشمل ما ملكت أيمانهن العبيد] أي في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ شمل العبيد.

مسألة: وهل يراد به غير العبيد؟

نقول: نعم، على القول بأن المراد بنسائهن: المسلمات فإن ما ملكت أيمانهن يشمل الأَمَة الكافرة وبذلك يجوز إبداء الزينة لها وإن لم تكن من نسائهن؛ لأنها مملوكة، أما إذا قلت: بنسائهن أي: جميع النساء فإن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ يختص بالذكور فقط، لأن النساء معروفات من قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، لكن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اضطُر أن يقول ذلك لهذا السبب.

على أنه من أهل العلم من قصر قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ على النساء الكافرات فقط، وقال: إن العبد لا يجوز لسيدته إبداء الزينة له، وإنما المراد بـ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ لأجل أن تدخل الأمة المملوكة إذا كانت كافرة؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، ودخلت في ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾.

لكن الصحيح أن نساءهن - كما أشرنا إليه سابقًا - المراد به: الجنس، وأن جميع النساء من مسلمات وكافرات يجوز إبداء الزينة لهن، إلا إذا خشي المحظور، فإذا خشي المحظور فهذا لو كانت

مسلمة كما نهى النبي ﷺ: «أَنْ تَنْعَتَ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا»[1] يعني: تقول مثلًا: فلانة هذه كذا وكذا وتصفها حتى كأنه يشاهدها؛ لأن الرسول ﷺ نهى المرأة أن تنعت المرأة لزوجها على هذا الوجه.

فإذا خُشي المحظور فهذا شيء آخر، لكن هذه الأشياء بدون المحظور.

قال: [﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ في فضول الطعام ﴿غَيْرِ﴾ بالجر صفة، والنصب استثناء ﴿أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ أصحاب الحاجة إلى النساء] أصحاب تفسير (لأولي) و(الإربة): الحاجة إلى النساء [﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ بأن لم ينتشر ذكر كل].

قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ يقول المؤلف: في [فضول الطعام]، ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ المراد بهم: الخدم وشبههم الذين يتبعون أهل البيت، أو التابعين أيضًا الذين يأتون إلى الناس ليأكلوا من فضول طعامهم وإن لم يكونوا خدمًا لهم، فهو شامل لهؤلاء وهؤلاء، فالتابع: هو الذي يتبع أهل البيت إما لكونه خادمًا عندهم، وإما لكونه يتلقى فضول الطعام منهم، لكن التابعين يجوز إبداء الزينة لهم بشرط ألا يكون لهم (إربة) يعني: حاجة في النساء، وقول المؤلف: [بأن لم ينتشر ذكر كل] ليس هذا هو العلامة ليس العلامة أن لا ينتشر ذَكَرُه بل العلامة: أن لا يُعرف منه ميل إلى النساء؛ لأن من الناس من يميل إلى النساء وإن كان ذَكَرُه لا ينتشر، فالعلامة أن لا يوجد منه ميل إلى النساء إطلاقًا لا عند قيام ذكره ولا عند عدم قيامه، الكلام على أنه لا يشتهي النساء ولا يميل إليهن.

هذا كالمرأة، لمشقة التحرز منه أباح الله تعالى للنساء أن يبدين زينتهن له.

وخلاصة القول: التابع هو الذي يتبع أهل البيت لتلقي فضول طعامهم، إما لكونه خادمًا فيهم أو غير خادم، لكن اشترط الله سبحانه وتعالى في التابع أن لا يكون له إربة في النساء.

وما معنى إربة؟ يعني: حاجة وهل العلامة ما ذكره المؤلف؟ لا ليس ما ذكره المؤلف هو العلامة بل العلامة أن يُعلم أنه لا يميل إلى النساء ولا يرغب بهن، والغالب أنه لا يقوم ذكره لكنه ليس بلازم، قد يكون الإنسان ممن يميل إلى النساء ويحبهم لكن لا يقوم ذكره لذلك الصحيح في هذه المسألة: أننا نعلم عدم حاجته وبعدم ميله إلى النساء .

ولهذا كان في بيوت آل النبي ﷺ رجل مخنث يعني: من غير أولي الإربة، ما كانوا يعلمون به، حتى إنه في يوم من الأيام قال لرجل من محارم إحدى زوجات النبي عليه الصلاة والسلام: (إِذَا فَتَحْتُمُ الطَّائِفَ فَعَلَيْكُمْ بِابْنَةِ غَيْلَانَ؛ فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ)[2]، هذا الذي يصف المرأة هذا الوصف يدل على أنه يميل إلى النساء، فمنعه النبي ﷺ من الدخول على أهل بيته؛ لأنه تبين أنه

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٤٠)، والترمذي (٢٧٩٢)، وأبو داود (٢١٥٠س).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٣٥)، ومسلم (٢١٨٠).

يميل إلى النساء، فإذا وُجِد أن هذا التابع يصف النساء ويصف جمالهن وما أشبه ذلك، عُلم أنه صاحب حاجة وأما مسألة قيام الذكر هذا ما هو العلامة.

[قال: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ بمعنى: الأطفال ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ أي: يطلعوا ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ للجماع، فيجوز أن يُبدين لهم ما عدا ما بين السرة والركبة].

قوله: ﴿ٱلطِّفْلِ﴾ يقول المؤلف: بمعنى: الأطفال فهي اسم جنس بمعنى: الأطفال الدليل على أنها بمعنى: الأطفال قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حيث وصفها بالجمع ولا يوصف المفرد بالجمع، لكن فيه دليل على أن اسم الجنس إذا حُلي بأل يكون للعموم ولو كان مفردًا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ يظهروا بمعنى: يَطّلعوا على ﴿عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ للجماع، والمعنى: أنهم لا يعرفون ما يتعلق بالعورات، فقوله: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ أي: لم يطلعوا بحيث لا يدرون ماذا يُفعل بالعورات، هذا هو المراد، ليس المراد الاطلاع بالعين؛ لأن الاطلاع بالعين هذا يكون من الأطفال وغيرهم، لكن المراد بالاطلاع: أنهم لا يدرون ماذا يُصنع بالعورات، ولا يرد لهم على بال، هؤلاء الأطفال يجوز أن تبدي لهم الزينة.

وقول المؤلف: [يُظهر لهم ما عدا ما بين السرة والركبة] بناءً على أن المراد بالزينة هنا: ما زَيَّن الله به المرأة لا أنها اللباس.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾.

صارت الأصناف الآن اثني عشر صنفًا: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ هؤلاء هم الذين تبدي لهم الزينة الخفية، ومن عداهم لا تبدي لهم، هذا هو ظاهر الآية؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾ والاستثناء هذا مفرَّغ يقتضي أن من سوى هؤلاء لا يجوز إبداء الزينة لهم.

لكن بعض العلماء ألحق بهم بقية المحارم من مصاهرة أو نسب أو رضاع؛ لأن مِن المحارم من النسب مَن لم يُذكروا مثل: الأعمام والأخوال، وأيضًا من المصاهرة مَن لم يُذكر؛ لأنه قال: ﴿ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ معناه: أنها تكون زوجة ابنه ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ تكون زوجة أب، يعني: أن زوجة الأب تبدي لأبناء زوجها الزينة، وزوجة الابن تبدي لأباء زوجها الزينة.

زوج البنت لم يُذكَر، وهو من المصاهرة، فبعض العلماء يقول: إنه يُلحق بِمَن ذكر، وعندنا أيضًا الرضاع كله بجميع أقسامه لم يُذكَر، ألحقه بعض العلماء مدَّعين أن ذكر البعض يدل على

البقية، وأن العرب في كلامهم أحيانًا يقتصرون على ذكر البعض تنبيهًا على البقية، لكن هذا ليس بجيد وجه ذلك:

أن ذِكر البعض الذي يُراد به إلحاق البقية يكتفى منه بذكر واحد، ويكون هذا الواحد على سبيل التمثيل، أما أن يذكر عدد من جنس ويُحذف الباقي وبطريق الحصر فهذا غير مُسَلَّم.

لكن يبقى عندنا النظر في مسألة إبداء الزينة التي زينها الله بها يعني: الوجه واليدين وما أشبه ذلك فهذا له دليل غير هذه الآية، فنقول: هذه الآية في زينة اللباس وشبهه، ويجب إبقائها على ما ذكر الله سبحانه وتعالى.

وأما مسألة إبداء الوجه والكفين والساق والرقبة وما أشبه ذلك فهذا يؤخذ من أدلة أخرى.

المسألة الأولى: هؤلاء الاثنى عشر هل هم على حد سواء فيما يُبدى من الزينة، أو ليسوا على حد سواء؟

الجواب: ليسوا على حد سواء بلا شك، ولهذا بدأ الله بالزوج؛ لأنه أعلى من تُبدى له الزينة بمطلقها، والباقين ممكن أن يُقال: على الترتيب، ويمكن ألا يقال: على الترتيب بل يُنظر إلى ما جرت به العادة؛ لأن حقيقة الأمر أنه مثلًا الأخ إذا كان عند أخته دائمًا في البيت ليست مثل ما إذا لم يكن لا يأتيها إلا نادرًا أيُّ الحالين أشد تحشمًا بالنسبة لها؟ إذا كان ما يأتي إلا نادرًا، بقيت تستحي منه وتحتشم أكثر مما إذا كان دائمًا عندها، فينبغي لمثل هذه الأشياء يقال بترتيبهم أما الزوج، فهو على كل حال في القمة وأما البقية فعلى حسب ما يدعو إليه العرف والعادة بالنسبة لإبداء الزينة كاملة أو متوسطة أو أدنى ما يقال: إنه زينة.

المسألة الثانية: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ هل يجب على المرأة أن تحتجب عن الرجل، يعني: هل يَحْرُم عليها أن تنظر إلى الرجل أو لا يحرم؟ يعني إذا قلنا: إن المراد بالزينة هنا ما زين الله به المرأة أو ما زين الله به الرجل فهل يجب عليها أن تغض الطرف عن الرجل أولا يجب؟

هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم منهم من قال: إنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل كما لا يجوز للرجل أن ينظر إلى المرأة؛ لأن الآية واحدة ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾، وأيدوا قولهم هذا بحديث أُمِّ سَلَمَة والمرأة الأخرى لما دخل ابن أم مكتوم قال النبي ﷺ: «احْتَجِبَا مِنْهُ» قالتا: يا رسول الله! إنه رجل أعمى، قال: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟»[1]، فلما أوردا عليه أنه أعمى قال: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟» وأمرهما بالاحتجاب.

لكن هذا الحديث لا يصح عند أهل العلم؛ لأنه من رواية نبهان مولى أبي سلمة وهو مجهول؛ ولذلك ضعفه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ، ثم إنه لا يمكن هذا الحديث، ولذلك الصحيح أنه يجوز

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٩٦)، أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨)، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٨٠٦).

للمرأة أن تنظر إلى الرجل إذا لم يكن هناك فتنة أو شهوة، ويدل على ذلك أحاديث صحيحة صريحة منها: حديث عائشة رضي الله عنها حينما كانت تَطَّلع إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد والنبي ﷺ يسترها وهي تنظر إليهم، حتى إنها هي التي تركت هذا الشيء، وهذا دليل واضح على جواز نظر المرأة إلى الرجل.

كذلك أيضًا قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: «اعْتَدِّي فِي بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ عِنْدَهُ»[1] هذا أيضًا صريح واضح في أن المرأة يجوز أن تنظر إلى الرجل.

وأيضًا قال فقهاؤنا رحمهم الله: لو كان يحرم على المرأة أن تنظر إلى الرجل لوجب على الرجال أن يحتجبوا مثلما أن المرأة تحتجب عن الرجل لئلا ينظر إليها، فنقول أيضًا: الرجل يحتجب عن المرأة لئلا تنظر إليه؛ لأنه لن يتم الواجب إلا بهذا! لأنه لو كان الرجل مكشوف فإن المرأة ستراه إلا إذا احتجب كما هي احتجبت، ولم يقُل أحدٌ من أهل العلم: إنه يجب على الرجل أن يحتجب عن المرأة.

ولهذا الصحيح في هذه المسألة مذهب الإمام أحمد: أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل، ولكن كل هذه المسائل هذه وغيرها كل ما قلنا يجوز: بشرط أَمْنِ الفتنة، أما إذا كان هناك فتنة فإنه لا يجوز أن تنظر ولا إلى صورة الرجل، حتى صورة الرجل التي تكون في بطاقة، أو تكون مثلًا تظهر في التليفزيون لا يجوز أن تنظر إليها إذا كان يخشى من الفتنة، وكذلك بالنسبة للرجل أيضًا.

مسألة: هل يجوز للرجل أن ينظر إلى صورة المرأة الأجنبية منه أم لا يجوز؟

الجواب: نقول: النظر إلى الصورة لا يساوي النظر إلى الحقيقة، وليس هو الذي ورد به النهي، ولكن متى تضمن ذلك فتنة بكونه يتعلق بها أو يقتنيها؛ فإن ذلك يكون حرامًا وإلا فلا شيء فيه.

مسألة: بالنسبة للنظر إليها في التليفزيون؟

الجواب: الحقيقة أن الفرق بينهما: أنها هنا تتحرك والثاني في الغالب إذا صارت ملونة يحكى حالها أكثر، وكذلك الصوت، وكذلك التغني إذا تغنت، والتمايل والرقص وما أشبه ذلك، لكن إذا قدرنا أنها امرأة عادية طبيعية تذيع مثلًا هل يحرم النظر إليها أو لا يحرم؟

أنا عندي أن النفس ما تتعلق بها لو رأتها في التليفزيون مثل لو رأتها حقيقة، أنا عندي فرق بين أن ينظر إلى امرأة في التليفزيون أو ينظر إلى امرأة في الحقيقة، أنا في ظني أن بينهما فرقًا، وهي في الحقيقة أن بعض الناس يقول: أن الصورة في التليفزيون أشد من الصورة التي في البطاقة؛ لأنها تحكي الحركة والصوت فتكون الفتنة بها أعظم، ولكن عندي أيضًا أن هذه تمتاز عن الصورة التي بالبطاقة مثل ما قال، تمتاز بأنها تتحرك، ولها صوت، وهذا أدعى للفتنة، لكنها تختلف عنها بأنها لا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٨٠)، والترمذي (١١٣٥)، والنسائي (٣٢٢٢).

تثبت، والصورة التي في البطاقة تثبت، والإنسان ممكن يجعل عنده صورة بالبطاقة كلما اشتهى أن يتمتع بالنظر إليها ذهب إليها ونظر، لكن هذه ما يتمكن.

ربما يحتجُّ أحدهم بالحديث الذي أوردته وهو نهي النبي ﷺ للمرأة أن تنعت المرأة لزوجها كأنه يشاهدها[1]، فإذا كان الرسول نهى أن تُنعت المرأة للرجل فهذا مثله، الصورة يمكن أشد، هذا هو الذي يمكن أن يقال: إن الصورة تدخل فيه؛ لأن النعت في الحقيقة يعني: ذكر الأوصاف لا يحكي المرأة كما تحكيه الصورة إذا كان النبي ﷺ نهى أن المرأة تباشر المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها، فهذا مثله، ولكن ليس ظاهر لي؛ لأنه في الحقيقة حكاية الوصف بالنسبة للإغراء أشد، لاسيما إذا كان الرسول يقول: «**تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا**» إن كان هذه الكلمة لزوجها قيد ليس لبيان الغالب؛ لأن كونها تنعت لزوجها هذا يُفضي إلى مفسدة.

أولًا: قد يظن الزوج أن زوجته تكرهه وتنعت له هذه المرأة لأجل أن يتزوجها.

ثانيًا: أنه ربما إذا نعتتها لزوجها أن زوجها يتعلق قلبه بهذه المرأة المنعوته، ويكون ذلك سببًا لفراق هذه الزوجة، يعني: قد يقال: إن هذا ليس لبيان الواقع وإن الغالب أن المرأة لا تصف النساء إلا لزوجها قد يقال: ليس لبيان الغالب لكن لما يترتب عليه من المفاسد حيث يظن الزوج أن هذه المرأة لا تريده ولذلك تصف له النساء لعله يتعلق بهن هذه من جهة، ومن جهة أخرى: أنه ربما أن الزوج نفسه إذا وصفت له زوجته هذه المرأة يتعلق قلبه بها ويرغب عن زوجته التي معه ويتحول إلى الجديدة.

على كل حال أنا ما أستطيع أن أجزم بتحريم النظر إلى المرأة في التليفزيون أو في الصورة إذا لم يكن في ذلك محظور، فإن كان في ذلك محظور فلا شك أنه لا يجوز.

مسألة: فإن قال قائل: لكن الصور قد لا يتعلَّق بها الإنسان ؟

الجواب: هذا صحيح؛ لأن هذا يختلف باعتبار إثارة الفتنة أنه بعيد المنال قد لا تتعلق به نفس الإنسان لاسيما الإنسان العاقل؛ لأنه كيف يطمع الإنسان بما لا يمكن أن ينال بخلاف الأشياء التي يمكن للإنسان ولهذا - والله أعلم - أُبيح للمحارم أن يكشفن وجوههن للمحرم؛ لأنه نفسه لا يمكن أن تتعلق بهن، وأما الرجال الأجانب فلا.

هذه من الحكمة أنه لا يمكن لإنسان أن تتعلق نفسه بأحد من محارمه، ولهذا أُبيح لهن الكشف، المدار على خوف الفتنة، على الفتنة أو خوفها، وأما إذا كان الإنسان طبيعي ولا يهتز قلبه ولا مشاعره لهذا الذي يشاهد فالتحريم وتأثيم الناس به أمر فيه إشكال.

وتعرفون الآن الصور انتشرت فبعض الأقمشة أظن فيها صور نساء، وكذلك أيضًا بعض

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٤٠)، والترمذي (٢٧٩٢)، وأبو داود (٢١٥٠).

الصحف، هذه المشكلة يعني: تأثيم الناس في شيء ما يتحققه الإنسان أمر صعب.

أولًا: أنه لا يجوز للإنسان أن يُؤثِّم الناس إلا لشيء قد يغلب على ظنه أو يقطع به، فأما شيء يشك فيه فلا ينبغي أن يؤثِّم الناس به، ولا شك أن التحرز من هذا أولى، ولكن المسألة ليست مسألة التحرز أو الأولوية مسألة التحريم أن تقول: حرام عليك أن تنظر أو ليس حرامًا، أما إذا كان الإنسان يجوز أن ينظر إلى المرأة نفسها فهذا واضح أنه يجوز أن ينظر إلى صورتها، مثل ما قيل في مسألة الخاطب: لو أن رجلًا أراد أن يخطب امرأة وقال: بدلًا من أن يذهب إذا كان يوجد صورة لها أروني صورتها فهذا لا بأس به، وإن كانت الصورة في الحقيقة لا تحكي الواقع تمامًا كما هو مشاهد، الآن تشاهد صور لشخص واحد أحيانًا تجد صورته مشوهة وأحيانًا تجد صورته أحسن من الواقع أيضًا، وأحيانًا تكون الصورة مطابقة للواقع، فالحقيقة أن الصور هذه لا تحكي الواقع تمامًا.

مسألة: فإن قال قائل: هل يجوز النظر للمرأة للضرورة ؟

الجواب: كل شيء حُرِّم تحريم الوسائل فإنه تبيحه المصلحة لا بالضرورة؛ لأن المحرم لذاته لا تبيحه إلا بالضرورة، والمحرم تحريم الوسائل تبيحه المصلحة، فمثلًا عندنا تحريم (ربا الفضل) محرَّم تحريم وسائل، وتبيحه الحاجة كمسألة العرايا، هذه المسألة ـ مسألة النظر ـ محرم تحريم وسائل ـ كما قاله أهل العلم ـ ولذلك تبيحه المصلحة، والحاجة مثل: نظر الطبيب للمريضة، ونظر الخاطب للمخطوبة، ونظر الشاهد للمشهود عليها، ونظر المعامل حتى المعامل يجوز أن ينظر لمن تعامله، يعني: امرأة جرت العادة أن تبيع وتشتري من الدكان يجوز أن تكشف الوجه يمكن تكون غيرها يعني: إذا شك يجوز يرى وجهها مرة ثانية يجوز هذا نص أهل العلم على جواز هذه المسألة؛ لأن هذا ليس من باب التحريم الذاتي محرم تحريم الوسائل، ويدلك على أن هذا محرم تحريم الوسائل بالنسبة للمحارم لماذا جاز للمرأة ان تكشف وجهها لمحرمها؟ لأن هذه الذريعة شبه منعدمة ولذاك لو قُدِّر أن فيه محرم ـ والعياذ بالله ـ مقلوب وأنه ينظر إلى محارمه نظر الأجنبيات وجب منعه.

الحاصل أننا نقول: إن تحريم النظر أصله ليس تحريمًا لذاته؛ لأن المُحرَّم الزنا والفاحشة، لكن النهي عن قربان الزنا لأجل أن لا يكون لنا وسيلة إليه، فتحريم النظر من أجل هذا من باب تحريم الوسائل.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ﴾ الضمير يعود على المؤمنات، ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ ضرب برجله معروف يعني: حرَّكها على الأرض بقوة ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [من خِلْخَالٍ يَتَقَعْقَع] يعني: يُصوِّت، فالقعقعة الصوت؛ لأن المرأة إذا صار عليها خلخال وقد ستره السراويل فهو لا يبين للناس ولكن بعض النساء للفتنة ـ والعياذ بالله ـ

تضرب برجلها حتى يُسمع الخلخال أي: ليُعرَف أن عليها خلخالًا، فنهى الله سبحانه وتعالى المؤمنات أن يفعلن ذلك أن ﴿يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

واللام في قوله: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ هل هي للتعليل أو للعاقبة؟

يختلف المعنى: إذا قلت: إنها للتعليل صار النهي مُنصَبًّا على ما إذا قَصَدَت ذلك، أي: ضربت برجلها لأجل أن يُعلم؛ وعليه فلو ضربت برجلها على حشرة مثلًا على عقرب أو ما أشبه ذلك، وسُمع الخلخال فإنه لا حرج عليها في ذلك؛ لأنها لم تقصد أن يُعلم ما تخفي من زينتها.

وإذا جعلنا اللام للعاقبة يعني: لا تضرب برجلها؛ فإن عاقبة هذا الضرب أن يُعلم ما تخفي من زينتها، صار النهي عن الضرب بالرجل مطلقًا، سواء أرادت ذلك أم لم ترده.

لا شك أننا إذا نظرنا إلى المحظور من هذا الضرب ـ وهو علم ما أخفي من الزينة ـ فإن هذا المحظور لا فرق بين أن تكون المرأة قاصدة له، أم غير قاصدة هذا المحظور سيحصل إذا ضربت حتى صوت الخلخال سواء كانت قاصدة لهذا الأمر أم لم تقصد، وعلى هذا فيرجح أن تكون اللام للعاقبة ذلك لأن المحظور سيقع.

وإذا نظرنا إلى أن المرأة إذا لم ترد هذا الشيء فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1]، وهي ضربت برجلها لا لهذا الغرض فلا تكون آثمة به، رجَّحنا أن تكون اللام للتعليل، ولكن الأول أولى أن يقال: إنه لا يجوز الضرب بالرجل ولو لغير هذا القصد؛ وذلك لأنه ينتج أن يُعلم ما تُخْفِي من زينتها.

واللام للتعليل وردت كثيرًا في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١]، وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] هم ما التقطوه لذلك، إنما التقطوه ليكون قرة عين لهم، لكن العاقبة صارت هكذا.

فعلى كل حال الذي يظهر أن ترجيح كون اللام للعاقبة أولى؛ وذلك لأن المفسدة والفتنة حاصلة سواء أرادت أم لم ترد.

إذا كان لا يجوز لها أن تضرب بالرجل خوفًا من ظهور صوت الخلخال، فما بالك بمن تُظهر الخلخال نفسه، وتظهر الأسورة في اليدين، وتُظهر القلادة على العنق، يكون هذا أشد وأولى بالنهي والتحريم، ولذلك عمل النساء الآن لا شك أنه محرم؛ وأننا في الحقيقة نحن وهن معرضون لذلك، كيف نرى هذه النساء تنتهك ما نهى الله عنه سبحانه وتعالى علنًا ولا نجد أحد ينهاها ويقول: هذا حرام.

هي في ظني أنها تتقصد إظهار اليد ليُرى ما عليها من الحلي، ولذلك تجدها أحيانًا لا تُظهر إلا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

اليد التي بها الحُلي وهذا أيضًا من العمل المشين الذي استعملته النساء، كونها تُملئ إحدى اليدين بالحلي وتجعل اليد الأخرى خالية، هذا أيضًا من الخطأ؛ لأن الظاهر أنه من جنس الذي يمشي بنعل واحدة، وقد نهى النبي ﷺ: «أَنْ يَمْشِيَ الرَّجُلُ بِنَعْلٍ وَاحِدَةٍ»[1] لما في ذلك من عدم العدل بين الرجلين، والعدل مأمور به، فنقول: الأولى أن تلبس الحلي على حد سواء في اليدين اللهم إلا إذا كانت إحدى اليدين فيها ساعة وأرادت أن تنقص من الأسورة بقدر ما تأخذه الساعة من المساحة فهذا ربما يُقال إنه عدل وليس فيه شيء، لكن كونها تملئ هذه اليد من الحلي والثانية بيضاء، أو ليس بها إلا ساعة ففي النفس من هذا الشيء.

على كل حال، نحن إذا كان الله سبحانه وتعالى نهى أن تضرب المرأة برجلها؛ خوفًا من أن يُعلم ما تُخفي من الخلخال بظهور صوته، فما ذكرناه مما عليه النساء اليوم أشد وأعظم، ولهذا لا يجوز للنساء أن تفعل ذلك.

حتى عند القائلين بأن الوجه والكف ليس بعورة يرون أن الذراع عورة، وأنه لا يجوز للمرأة أن تبدي ذراعها المحلى بالأسورة.

قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]

[﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾أي: مما وقع من النظر الممنوع منه ومن غيره ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تنجون بذلك بقبول التوبة منه]

قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا أمر من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين موجه لكل الناس أي: توبوا أيها المؤمنون، وإنما وجه الخطاب للجميع؛ لأن هذه المنكرات إذا أظهرت عمَّ بلاؤها الجميع فلهذا وجَّه الله الخطاب للجميع.

ثم تأمل تأكيد هذا الأمر بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿أَيُّهَ﴾ النداء، هذه مُغرِيات لإغراء الإنسان على التوبة أن تكون التوبة جماعية، ما يكفي أن يتوب واحد، والباقي يعلن فسقه ومخالفته.

ثانيًا: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ النداء يدل على أهميته ولهذا وجَّه الخطاب بالنداء لبيان الاعتناء به، وأيضًا وصف ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ دليل على أن الإيمان يقضي بتوبة المؤمن، وأن لا يغفل عن الذنوب، وأن عدم التوبة نقص في الإيمان.

والتوبة هي: الرجوع من المعصية إلى الطاعة وهي نوعان:

الأولى: توبة مطلقة: يستحق التائب بها أن يوصف بأنه من التَّوَّابين الذين يحبهم الله، وهي التوبة من جميع المعاصي، بحيث يقلع الإنسان عن كل معصية يعملها قولية كانت أو عملية أو

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٨٥٥)، ومسلم (٢٠٩٧).

فعلية أو عقيدة، هذه قلنا فيها: التوبة المطلقة التي يستحق فاعلها الثناء وأن يكون من التوابين الذين يحبهم الله عز وجل.

الثانية: توبة مقيدة: من ذَنْبٍ مُعيَّن، فهذه توبة لصاحبها من الثناء ما يستحقه، والصحيح أن التوبة هذه توبة مقبولة، فإذا تاب الإنسان من ذنب، وهو مُصِرٌّ على غيره فتوبته منه - على القول الراجح - صحيحة ومقبولة؛ لأن الإيمان يتبعض، والأعمال تتبعض، والله سبحانه وتعالى حكم عدل، لا يظلم ولا يهضم، فهذا الرجل الذي تاب من ذنب وهو مُصر على غيره الصحيح أنه تقبل توبته، وأنه لا مانع من ذلك، لكن لا يستحق ما سبق من كونه تائبًا على وجه الإطلاق، ومن التوابين الذين يستحقون الثناء المطلق، فله من الثناء بحسب ما حصل له من التوبة.

هذا الأمر ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يتوجه إلى أي القسمين؟

يتوجه إلى القسم العام يعني: توبة مطلقة عامة من جميع الذنوب، لأجل أن يحصل الفَلَاحُ، ولعل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ للتعليل أي: أن التوبة سبب للفلاح، والفلاح في الحقيقة ليست كلمة هينة، الفلاح مثل الفوز، هو عبارة عن النجاة من المرهوب وحصول المطلوب، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥]، وزحزح عن النار هذه النجاة من المرهوب، وأُدخل الجنة حصول المطلوب.

والفلاح أيضًا هنا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ما قيده الله في الدنيا ولا في الآخرة، دل ذلك على أن الفلاح بالتوبة يكون في الدنيا وفي الآخرة وهو كذلك؛ لأن التائب يحصل له الفلاح في الدنيا وفي الآخرة.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الجملة:** وجوب التوبة لقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولا حاجة بنا إلى ذكر شروط التوبة؛ لأنها سبقت عدة مرات وأنها خمسة شروط، ففيه دليل على وجوب التوبة، ودليل أيضًا على محبة الله لها؛ لأنه أمر بها بهذه العناية ﴿جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ»[1] وذكر أن عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَأَنَّهُ أَضَلَّهَا فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَطَلَبَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا فَنَامَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا بِخِطَامِ نَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا بِالشَّجَرَةِ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، هذا الفرح في الحقيقة نحن الآن نقوله لكن هل نحن نتصوره؟ لا نتصوره يعني: مهما بلغت مخيلتنا من القوة وإدراك الأمور الغائبة ما يمكن نتصور حقيقته، الآن نتخيل أنه فرح عظيم؛ لأنه عبارة عن فرح بالحياة بعد الموت لكن عندما يقع للإنسان هذا الشيء

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

يجد أنه لا نظير له ولا يمكن يوجد له نظير، والله سبحانه وتعالى مع كمال غناه عنا وكمال حاجتنا وافتقارنا إليه يفرح بتوبة عبده المؤمن أشد من فرح هذا الرجل براحلته، ولهذا أمر الله تعالى بالتوبة مع العناية بها بهذه الوجوه الثلاثة.

وجوه التوبة: محبة الله لها، كرم الله تعالى وفضله، من أين يؤخذ الكرم والفضل؟ من محبته للتوبة، يعني: كونه يحب أن يتوب الناس حتى لا يعاقبهم يدل على كرمه وفضله؛ وأن رحمته سبقت غضبه بخلاف من لا رحمة عنده.

مثلًا: مدرس أو ملك أمر بشيء أو نهى عن شيء، قد يكون بعض الآمرين والناهين يحب من الناس المخالفة لأجل أن يعاقبهم فيُظْهِر بذلك سيطرته عليهم، فهو يحب أن يخالفوه لأجل أن يعرفوا أن له الأمر أو النهي أو السلطة أو السيطرة، والله جل وعلا مع كمال هذا الأمر له ـ كمال السلطان ـ، مع ذلك يحب من عباده أن يتوبوا حتى لا يعاقبهم، وبهذا نستدل على كمال رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده وفضله وإحسانه.

وفيه دليل على: أن التوبة من مقتضيات الإيمان من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الإيمان لابد أن يحمل صاحبه على التوبة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[1].

متى ينتفي عنه الإيمان؟ حين يزني، لا يمكن إنسان مؤمن حقيقة إلا ويترك ما حرم الله عليه، ويفعل ما أوجب الله عليه.

واعلم أنه إذا وقعت منك معصية فإن ذلك ـ ضروري ـ من لازم نقص إيمانك، ما يمكن أن يقع منك معصية إلا ملازم لنقص الإيمان، ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة رحمهم الله: أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هذا مذهب أهل السنة والجماعة ونحن منهم إن شاء الله.

على كل حال أقول: إن التوبة من مقتضيات الإيمان، وأن من فرط بها فهو دليل على نقص إيمانه، وإذا كان المفرط بالتوبة يُسْتَدَل بعمله هذا على نقص الإيمان، فالفاعل للمعصية يباشر المعصية من باب أولى، ولهذا أشرنا إلى الحديث الذي قال فيه النبي ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[2]، والمقصود نفي تمام الإيمان، وإلا كان كافرًا.

وفيه دليل على: أن من لم يتب فهو ناقص الإيمان، وعلى حسب معصيته يكون نقص إيمانه.

٢ - **ومن فوائدها:** أن التوبة سبب في الفلاح لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والفلاح هو: النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات الأسباب، حيث جعل الله التوبة سببًا للفلاح، ففيه ردٌّ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، مسلم (٥٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، مسلم (٥٧).

على أن من أنكروا الأسباب وقالوا: إن الأسباب مجرد علامات لا موجبات، وهذا مذهب الأشعرية، يرون: أن الأسباب علامات لا موجبات، حتى إنهم يقولون: إن الرجل إذا كسر الزجاجة ما انكسرت بكسره وإنما انكسرت عند كسرها، والنار ما أحرقت إذا أحرقت ما تحرق، ما احترق بسببها، وإنما احترق عندها لا بها، الإنسان إذنْ أكل حتى شبع، ما شبع بالأكل شبع عند الأكل لا به، على كل حال هذا قول باطل ما له أصلًا محل من الصحة حتى العقل ينكره، لكن أقول: هذه الآية وكثير من الآيات يثبت الأسباب ويدل على أن الأسباب مؤثرة بمُسَبَّباتها.

ألا يقول قائل: إذا جعلتم الأسباب مؤثرة في مسبباتها ألستم أثبتم مع الله خالقًا ومُوجِدًا مثلًا؟

لا، ما أثبتنا موجدًا؛ لأننا لا نقول: إن الأسباب تستقل بتأثيرها بل الأسباب إنما كانت أسبابًا بإرادة الله سبحانه وتعالى ولهذا أحيانًا يوجد السبب تامًّا ولا يؤثر، لوجود مانع معلوم أو غير معلوم، ولا يمكن أن يقول قائل: إنكم إذا أثبتم الأسباب أثبتم مع الله شريكًا في الإيجاد، نقول: لا الذي جعل هذا السبب سببًا مقتضيًا لمسببه هو الله عز وجل، ولهذا نرى كثيرًا ما تتخلف المسببات مع وجود الأسباب التامة مما يدل على أن قدرة الله عز وجل فوق كل شيء، وأن هذه الأسباب ليست مستقلة لكن لا يمكن أن ننكر أمرًا أثبته الشرع، وأثبته الواقع من أن الأسباب تؤثر في المُسَبَّبات.

٥ - **ومن هذه الفوائد:** من قول المؤلف: [وفي الآية تغليب الذكور على الإناث].

مسألة: لماذا أتى المؤلف بهذه الجملة مع أن هذا كثير في القرآن؟

الجواب: لأن في هذه الآية كلها الخطاب موجه للنساء، ولو كان في الأصل موجه للـذكور مـا احتيج إلى هذه الجملة الذي ذكرها المؤلف.

ثم فيه أيضًا إشارة ـ توجيه الخطاب هنا للذكور، كما أنه يشمل الإناث بلا شك ـ إلى رعاية الرجل للمرأة والله أعلم، وأنه لابد من أن هو نفسه يتوب ويُعَدِّل أهله، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

فنقول في هذا ـ توجيه الخطاب إلى الذكور مع أن الآية كلها خطاب للنساء ـ فيه إشارة إلى رعاية الرجل للمرأة؛ وأن المرأة لا تستقيم إلا باستقامة الرجل، والواقع شاهد لذلك، الآن تفريط هؤلاء النساء عندنا السبب المباشر عدم رعاية الرجال لهن، هذا هو الذي أوجب لهن هذا التوسع الذي لا يقره الشرع، لذلك لو كان كل واحد من الناس قد جند نفسه لحماية امرأته ما حصل هذا الشيء، والعجيب أن الإنسان منا تجده يجند نفسه لحماية ماله الذي يجعل له مفاتيح، والمفاتيح معه دائمًا، وإذا صار عنده واحد في الألف خوف على هذا المال أودعه البنوك حماية له، والأهل الذين هم في الحقيقة حياة الإنسان ما يهمه، أولاده السائحين وبناته السائحات ولا ينظر، لو أننا اعتنينا

بأهلنا نصف ما نعتني بأموالنا لحصل خير كثير، مع العلم بأننا نعتني بأموالنا لغيرنا؛ لأن هذا مال المُكَدَّس لا ينفعنا إذ يرجع من حيث أتى، لكن أهلك إذا أصلحهم الله على يدك صرت في الحقيقة تصلحهم لنفسك، فإن النبي ﷺ يقول: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ» وذكر منها: «وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[1].



❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، ﴿وَأَنكِحُوا﴾ لو قُرِئ (وانْكحوا) يعني: من غير إظهار الهمزة وفتحها يختلف المعنى اختلافًا عظيمًا جدًّا، ولهذا لو أخطأ أحد في هذه الآية وقال: (وانْكحوا) وجب الرد عليه؛ لأن هذا لحنٌ يُحيل المعنى ﴿وَأَنكِحُوا﴾ بمعنى: زوِّجوا لكن (انْكحوا) بمعنى: تزوجوا فرق عظيم بينهما.

وقوله: ﴿الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ الخطاب للأحرار بدليل قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾.

[يقول المؤلف: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ جمع أيم: وهي من ليس لها زوج بكرًا كانت أو ثيبًا، ومن ليس له زوج، وهذا في الأحرار والحرائر].

قوله: ﴿الْأَيَامَىٰ﴾: جمع أيم، وهي من ليس لها زوج، سواء كانت ثيبًا مات عنها زوجها، أو طلقها، أو كانت بكرًا؛ فإنها تسمى (أيِّمًا) وقد أمر الله تعالى بإنكاحهن وهو دليل على أن المرأة لا تُزَوِّج نفسها، لأن (أنكحوا) بمعنى: زَوِّجوا، فلو كانت المرأة تزوج نفسها ما احتاج أن يقال لغيرها: زوِّجها؛ لأنها هي نفسها تزوج، وهذا أحد الأدلة ومنها قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢].

على كل حال ليس هذا موضع البسط في مسألة الولي وعدم الولي إنما في هذا خطاب، وفي هذا الخطاب توجيه لأولياء الأمور للنساء أن يزوجوهن، ولم يبين الله سبحانه وتعالى مَنْ يُنْكَح يعني: مَنْ الذي نُزوِّجه، يعني: هم مأمورون بالتزويج لكن مَنْ نُزوِّج؟ بيَّنت ذلك السنة: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ»[2] فنحن نُزوِّجُ صاحب الدين والخلق، صحيح أن المقصود شرعًا يعني

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (١٠٨٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦٦٨).

مقصود حسًّا واقعًا، وقد بين النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن المرأة تنكح لمالها والرجل كذلك ينكح لماله، لكن الأصل هو الدين والخلق.

وقوله: ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ يعني: النساء غير المتزوجات، لكن الرجال الغير متزوجين كيف ننكحهم؟ هل معناه إذا خطب مني أزوِّجه أو معناه أعينه على الزواج أو الأمرين جميعًا؟

الجواب: الأمرين جميعًا؛ لأن الأيامى تطلق على الرجال والنساء الذين لم يتزوجوا، بالنسبة للإناث واضح أننا مأمورون بتزويجهن، لكن كذلك أيضًا الرجال نحن مأمورون بتزويجهم بمعنى: إذا خطب منا الأيم نزوجه، أما الذي له زوجة نزوجه أيضًا لكن هذا أشد عناية، يعني: لو خطب مني رجلان أحدهما معه زوجة والآخر لا زوجة معه، وكلاهما في الدين والخلق سواء نقدم من لا زوجة له؛ لأنه أحوج إلى أن يحصن فرجه أما هذا فقد حصن فرجه من قبل، إذنْ الأيامى منكم بالنسبة للرجال الذين ليس معهم زوجات، لو كان معهم زوجات مأمورين بالنكاح لكن إنما نص على الأيم؛ لأنه أحوج.

كذلك يدخل في ذلك مساعدة الأيامى على الزواج أن يساعدهم الإنسان؛ فإن هذا من الأعمال التي يؤجر الإنسان عليها؛ لأن الزواج مقصود شرعًا وطبعًا، فإذا تزوج الإنسان فقد فعل ما أمر الله به وأدرك ما تطلبه نفسه أيضًا، ومع ذلك إذا ساعدناهم على هذا الأمر فنحن ممتثلون لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾؛ لأنَّا في الحقيقة زوَّجناه، فمُساعدتنا له بالزواج هذا تزويج.

[قال: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ يعني: وأنكحوا الصالحين أي المؤمنين ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وعباد من جموع عبد].

هذا بالنسبة للمملوكين يعني: هذا خطابٌ للأسياد، يعني: وأنكحوا الصالحين، زوجوا الصالحين ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

وقول المؤلف: الصالحين المؤمنين حَمَل المؤلف الصلاح هنا على صلاح الدين، وصلاح الدين بالإيمان والعمل الصالح، لكن يحتمل أن يكون شاملًا لصلاح الدين والدنيا، يعني: أننا إذا كان للإنسان رقيق صالح في دينه صالح في دنياه، بمعنى: أنه صالح لأن يُزَوَّج لكونه بلغ سن الزواج، ولكونه عارفًا لأمور الزواج، ولكونه عاقلًا لا يحصل من تزويجه مفسدة وتعطيل لحق امرأته. المهم أنه ينبغي أن يُفسَّر الصالحين بصلاح الدين وصلاح الدنيا، يعني: صالحًا؛ لأن يتزوج ولأن يُزَوَّج، أما أن يكون واحد عنده عبد مجنون، هذا لا نؤمر بتزويجه على الإطلاق، بل إننا ننظر إن لزم من عدم تزويجه مفسدة زوجناه وإلا فلا؛ لأن هذا جناية على غيره.

الحاصل أن الصالح من العباد يزوج مطلقًا، وغير الصالح إن دعت الحاجة إلى تزويجه لكونه يلزم من عدم تزويجه مفسدة أُمرنا لا من هذه الآية، ولكن من درء المفاسد للقاعدة العامة في الشريعة وهي: درء المفاسد.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ عباد جمع عبد، والمراد: الأرقاء لنا وسماهم الله عبادًا؛ لأنهم ذليلون لنا ونحن أسيادهم، ذليلون قَدَرًا وشَرْعًا، أما شرعًا فواضح؛ لأنه عبدي أبيعه وأشتريه وآمره وأنهاه، وقَدَرًا ـ كما هو معلوم ـ أن العباد الأرقاء يرون أنفسهم في قُصُورٍ عن أسيادهم وهذا؛ لأن الله أذلهم لأسيادهم، وإلا لو أنه تمرَّد على سيده صار كالجمل إذا هاج.

على كل حال: الله تعالى قد أذل العبيد شرعًا، وأذلهم قدرًا لذلك سماهم الله عبادًا لنا.

﴿وَإِمَآئِكُمْ﴾ جمع أمَة وهي: الرقيقة المملوكة، وفي هذا إشارة إلى أن العبد لا يزوج نفسه لقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ زَوِّجوا هذا إذا كان الخطاب موجهًا للأسياد، أما إذا كان الخطاب موجهًا لعموم الناس بمعنى: أن الإنسان لا يترفع عن تزويج العبد والأمَة، لكن هذا بعيد والظاهر أن الخطاب هنا للأسياد يعني: زوِّجُوا الصالحين للزواج في دينهم ودنياهم، زوجوهم من إماء وعبيد.

في هذه الآية إشكال من جهتين:

الجهة الأولى: في عباد.

والجهة الثانية: في إماء.

فإن الرسول ﷺ يقول: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي**»[1] وهنا قال: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وقال ﷺ: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ**»[2] فهل بين الحديث وهذه الآية تعارض أو لا؟

الجواب: في الحقيقة ظَاهرهما التعَارض، لكن التوفيق بينهما واضح، الخطاب هنا في: ﴿عِبَادِكُمْ﴾ من الله للإنسان سماه عبدًا له، أي: سمى رقيقه عبدًا له كما أنه يصح أن يقال: عبد فلان أنا أضيفه إلى فلان فأقول: هذا عبد فلان وهذه أمَته وما أشبه ذلك.

لكن المحظور الذي وقع النهي عنه: أن الإنسان يضيف عبودية هؤلاء إلى نفسه هذا هو المنهي عنه، يعني: إضافة السيد العبودية والإمائية إلى نفسه هذا هو المحظور؛ لأنه يتضمن الغرور بنفسه والتكبر على عبده والترفع عليه، عندما يقول: يا عبدي تعال، يا أمتي تعالي لا شك أنه هو يشعر بعظمة وعلو، وذاك يشعر أمامه بذل وخضوع، ولا ينبغي أن يكون الأمر هكذا ولهذا جاء النهي عنه، أما إذا كان الأمر بالعكس جاءت الإضافة من غير السيد، فهذا لا بأس به .

كما أن أيضًا العبد منهي أن يقول: ربي لسيده وليقل: مولاي، لكن لو أنك قلت: يا عبد كلم ربك، هذا يجوز، نفس الشيء إذا خاطب العبد سيده بالربوبية نقول: هذا منهي عنه؛ لأن ذاك يتعاظم وهذا يتواضع، ولهذا جاء في حديث جبريل: قال: «أخبرني عن أمارتها ـ عن أمارات

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢).

الساعة -» قال: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا»[١] هكذا ثبت بهذا اللفظ، والمعروف: «رَبَّتَهَا» لكن في رواية أخرى: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا».

الحاصل: أنه يجب أن نعرف الفرق بين الإضافة إلى ضمير المتكلم والإضافة إلى غيره؛ فالإضافة إلى ضمير المتكلم منهي عنها، بالنسبة للسيد لا يقول عبدي وأمتي، وأما الإضافة إلى غير المتكلم فهذه جائزة، والفرق بينهما من حيث المعنى واضح.

قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله: [﴿إِن يَكُونُوا﴾ أي: الأحرار ﴿فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ بالتزوج ﴿مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لخلقه ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم].

﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ﴾ أي: المتزوجين وقول المؤلف: [أي: الأحرار] لماذا خصها بالأحرار مع أن الآية تقول: ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، ثم قال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ﴾؟ لأن الإماء ما يتصور منهنَّ الغنى والفقر؛ لأنهم لا يملكون والدليل على أنه لا يملك قول النبي ﷺ: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ، إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ مُبْتَاعُهُ»[٢] فالعبد لا يملك، إذنْ هو فقير لا يمكن أن يصير غنيًّا لكن قد يقال: إن الغنى يكون لسيده.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٣٣]

❁ التفسير ❁

أمر من كان فقيرًا بأن يستعفف حتى يغنيه الله من فضله، يعني: لا يطلق لنفسه العنان بالنظر المحرم، والمباشرات المحرمة، وتتبع النساء، وما أشبه ذلك، بل يجب عليه أن يستعفف عن الزنا وأسبابه ومقدماته.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ لأنه إذا أغناهم الله من فضله تزوجوا، إذ لم يمنعهم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠)، وأبو داود (٤٦٩٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣).

من الزواج إلا ذلك.

وقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ المؤلف فسرها بقوله: [ما ينكحون به]، والصواب أن الآية أعم من ذلك، ولهذا قال: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ فيشمل ما ذكره المؤلف، ويشمل ما إذا لم يجد امرأةً يتزوجها، قد يكون إنسانًا غنيًّا وعنده مهر وعنده نفقة، ولكن يَخطب ولا يُقبل، فنقول: هذا لم يجد نكاحًا، فتخصيص عدم النكاح بما ذكره المؤلف فيه نظر، فالآية أعم ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يجدون نفقة له، ولا يجدون امرأة يتزوجونها أيضًا؛ لأنه داخل في عموم الآية.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هكذا أرشد الله سبحانه وتعالى إلى العفة لمن لا يجد النكاح، فهل هذا يعارض قول الرسول ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[1] هل بين الآية والحديث تعارض؟

لا، الآية أمر الله فيها بالعفة والنبي ﷺ بيَّن الطريق إلى العفة؛ بأن الإنسان يصوم، فإن ذلك يقطع شهوة النكاح، وإذا انقطعت شهوة النكاح فهذا من أكبر أسباب العفة، إذ إن الإنسان لا يحدوه إلى عدم العفة إلا الشهوة، فإذا انقطعت زالت أسباب وجود عدم العفة، وبهذا نعرف أن الحديث لا ينافي الآية.

ثم إن الذي لا يجد النكاح قد يكون ذا شهوة قوية، ربما تغريه بانتهاك المحرم، فدواء ذلك بالصوم، أما الإنسان الذي شهوته عادية، وبعيد أن تغريه فهذا وإن لم يصم؛ لأن قول النبي ﷺ قال: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ» لو أخذناه بظاهره لقلنا: كل إنسان فقير لا يجد نكاحًا وله شهوة فإنه يصوم، ولكن الأمر ليس كذلك، لكن إذا لم يجد الإنسان طريقًا إلى العفة سوى الصوم فليصم، أما إذا كان الإنسان معتدلًا طبيعيًّا ولا يخشى على نفسه فإنه لا حاجة إلى الصوم، ولهذا قال: «فعليه» و(على) هذه للإغراء دل ذلك على أنه في حالة يحتاج إلى ما يدله على كبح جماح الشهوة وذلك بالصوم.

وفي هذا أيضًا قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إشارة إلى أن العفة سبب للغنى كما أن الزواج أيضًا سبب للغنى، فكذلك العفة إذا صبر الإنسان وأعف نفسه، وأبعدَ عما حرم الله عليه كان ذلك سببًا للغنى، وقد قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هل المراد غنى المال أو غنى النكاح؟

الجواب: غنى النكاح؛ لأنه قال: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾؛ لأنه قد يكون الإنسان غنيًا لكن ما يجد نكاحًا ما يُزَوَّج، نحن نقول: لا يجدون حتى يغنيهم الله بالنكاح ليس بالمال، لكن بالنكاح الذي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

كانوا لا يجدونه فيشمل ذلك الغني بالمال والغني بالزوجة، وكم من إنسان كثير المال ولا يجد زوجة، إذنْ هو مثل الفقير فالأولى أن نقول في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: بالنكاح؛ لأجل أن يشمل الأمرين، إن كان عدم وجود النكاح له من أجل الفقر فبالمال، وإن كان من أجل المنع فبالطاعة أن ييسر له من يطيعه ويزوجه.

ولما ذكر الله جل وعلا أحكام النكاح وما يتعلق بها انتقل إلى أمر آخر مهم وهو ما يتعلق بالمماليك؛ لأنه قال: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فأشار إلى المماليك، ثم انتقل إلى مسألة مهمة جدًّا وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [بمعنى: المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: أمانة وقدرة على الكسب لأداء مال الكتابة].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: يطلبون، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: المُكاتبة، والمكاتبة هي: بيع السيد عبده على نفسه، وسُميت مكاتبةً؛ لأنها في الغالب تجري بكتاب، يكتب السيد بينه وبين عبده كتابًا بهذا العقد، فإذا طلب العبد من سيده أن يُكاتبه فقد قال الله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾.

إذنْ نقول: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بمعنى: يطلبون، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المكاتبة وهي: بيع السيد نفس العبد على العبد.

وقوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ الفاء رابطة للخبر بالمبتدأ. وربط الخبر بالمبتدأ هل هو محتاج إليه أم لا؟ لا يحتاج إليه، نقول: زيد قائم، الكتاب جميل، السماء رفيعة، لكن إذا كان المبتدأ يشبه الشرط في العموم فإنه يُربط خبره بالفاء، وذكرنا لكم سابقًا أن النحويين يمثلون بقولهم: (الذي يأتيني فله درهم)، وأن هذا في القرآن كثير منه هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هذه (من) بيان للموصول ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ لأن الموصول حتى وإن وجدت صلته فهو مبهم - في الواقع - (فمن) بيانية لبيان المبهم في الموصول وقوله: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ في هذا إثبات المُلك للبشر.

فإذا قال قائل: أليس الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٩]. فحصر المُلك لنفسِهِ فكيف يتفق هذا مع إثبات الملك للبشر؟

فالجواب: أن المُلك المُطلق لله، وأن مُلك البشر لما يملك ليس مطلقًا، ولذلك هو مُقيَّد بنوع الملك، ومقيد بنوع التصرف، ومقيد بكل شيء، عندما يكون لي مال هل لي مطلق التصرف فيه؟ لا، أتصرف فيه بنوع معين وعلى حدود معينة، لذلك ليس ملكًا تامًّا من كل وجه، فلهذا نقول: الملك المطلق لله وحده، وملكي أنا يضاف إليَّ لكنه ملك مقيد محدد، فإن مَلَكْتَ العين والمنفعة صرت مالكًا، وإن ملكت المنفعة دون العين سميت مستأجرًا، وهكذا كل نوع من الملك له اسم خاص.

وقوله: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الأيمان جمع يمين، وهي مقابل الشمال، هل معنى ذلك أن الإنسان يملك عبده بيده اليمنى فقط واليسرى ما ملكت؟

لا، هذا تغليبٌ مثل: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] فلما كان الغالب على الإنسان في الأخذ والإعطاء والبيع والشراء باليد اليمنى قال: ﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وإلا فالحقيقة ليس اليمين فقط لكن لما كان هذا الغالب في مسألة البيع والشراء والأخذ والإعطاء أضاف الله سبحانه وتعالى الملك إلى اليمين.

قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ قلنا: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ وأنها ربطت الخبر بالمبتدأ؛ لأن المبتدأ اسم موصول يشبه الشرط في العموم.

وقوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ هذا أمر، وهل الأمر هنا للوجوب أو الاستحباب؟

اختلف فيه أهل العلم، فالجمهور على أن الأمر للاستحباب وحجتهم في ذلك أن العبد مملوك لك ولا يجب عليك إخراج ملكك إلا برضىً منك، فكما أن الإنسان لا يُجبر على بيع بيته، وعلى بيع دابته، لا يجبر كذلك على بيع عبده؛ فإن طلب مني المكاتبة فأنا حر لأنه مالي، ولهذا سماه الله تعالى ملكي.

إذنْ: الجمهور يرون أن الأمر للاستحباب، حجتهم في ذلك أن العبد ملك لك، والإنسان لا يجبر على إخراج ملكه من ملكه: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طِيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ»(١) وإذا كان كذلك فإن الأمر هنا للاستحباب.

وذهب بعض أهل العلم، ومنهم أهل الظاهر، إلى أن الأمر للوجوب، وأن العبد إذا طلب المكاتبة فإنه يجب على السيد إجابته؛ وذلك لأن الأصل في الأمر الوجوب وقولهم: إن المالك لا يجبر على إخراج ملكه من ملكه هذا ليس على إطلاقه، فإن المالك يُجبر على إخراج ملكه من ملكه في الأمور التي أوجب الله، أليس يجب على الإنسان أن يخرج الزكاة وهو إخراج شيء من ملكه، أليس يجب عليه الكفارة، أليس يجب عليه الإنفاق على غيره من أقارب وزوجات وغيرهم.

فإذنْ: العبارة (لا يجب على الإنسان أن يخرج ملكًا من ملكه) ليست على إطلاقها، وما أكثر المسائل التي يُجبر فيها الإنسان على إخراج ملكٍ من ملكه، أليس الإنسان إذا تعلق بماله حق الغُرماء وصار دينه أكثر من ماله يُحجر عليه ويجبر على أن يبيع ماله ويصرف إلى الغرماء.

فعلى كل حال مثل هذه المسألة ليست على إطلاقها، وكم من مسائل صارت واجبة وهي متضمنة لإخراج الإنسان ملكه من ملكه.

ثم إنه يُقوِّي أن الأمر للوجوب ـ يعني: هذا في الحقيقة دفع لما احتج به الجمهور ـ أما تقوية

---

(١) صحيح: والحديث قد ورد عن جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة ذكرها الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٤٥٩) فراجعه إن شئت.

الأمر للوجوب فقالوا: إن الشارع متطلع للعتق، والرِّقُّ وارد في الحقيقة على البشر وليس أصيلًا فيهم، فإذا أراد البشر أن يتخلص من هذا الرق ويعيد نفسه إلى الأصل، فإن الشارع يتطلع لذلك، ولهذا تجد أن الشارع رَغَّبَ في العتق كثيرًا، حتى إنه أخبر «**أَنَّ مَنْ أَعْتَقَ عَبْدًا أَعْتَقَ اللهُ مِنْهُ بِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ جُزْءًا مِنَ النَّارِ حَتَّى الفَرْجَ بِالفَرْجِ**»(١) وهذا ترغيب عظيم.

كذلك أيضًا أوجب الله ـ سبحانه وتعالى في كفارات متعددة ـ أوجب فيها عتق الرقبة مثل: كفارة الظهار، وكفارة اليمين، وكفارة القتل، كل هذا دليل على أن الشارع له تشوُّف لتحرير العبيد، فكيف لا نجعل هذا الأمر للوجوب لاسيما مع طلب العبد؛ لأن العبد هو الذي طلب الآن ويعرف من نفسه أنه سيستغني عن سيده ويريد أن يخلِّص نفسه فكيف نمنعه، فإذا قال السيد: هذا عبدي وأنا لا أستطيع أن أتخلص منه قلنا له: أنت إذا اتقيت الله سبحانه وتعالى جعل لك من أمرك يسرًا ربما تحرره، وإذا حررته تستأجره إذا كنت محتاجًا إليه وعارفًا به أو ييسر الله لك سواه. على كل حال ما دام أن الله أمر به، والأصل في أوامر الله ورسوله الأصل فيها الوجوب.

قال: ﴿**إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**﴾ هذا شرط في الأمر ﴿**فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**﴾ فجعل الله ذلك مشروطًا بعلم الخير فيه، فما هو الخير؟

يقول المؤلف: [أي أمانة وقدرة على الكسب بأداء مال الكتابة].

فسره بعض السلف بقوله: صلاحًا في دينهم وكسبًا، ويمكن أن يكون قوله: (أمانة) يشير إلى ذلك، لكن إذا قلنا: صلاحًا في دينهم صار أعم من كلمة أمانة؛ لأن الأمانة من الصلاح في الدين ولهذا نقول المراد بالخير: الصلاح في الدين والكسب.

الصلاح في الدين: بأن نعرف أنه مقيم الصلاة، مقيم للصوم، تارك للمحرمات مستقيم، ومن الصلاح في الدين: الأمانة أيضًا، نعرف أنه ما يسرق من الناس أنه أمين.

والكسب: هذا صلاح الدنيا، أننا نعرف أن هذا العبد إذا أُعتق صار قادرًا على الكسب، وليس كلًّا على غيره؛ لأنه لو صار غير قادر على الكسب وأعتقه سيده ما أدراك من أين يأكل؟ إذنْ يصير كلًّا على الناس، وربما يصير عنده قوة فيسرق وينهب، لهذا لابد من هذا الشرط (الصلاح والكسب).

وأما قول المؤلف: [بأداء مال الكتابة] فهذا فيه نظر، فلا يكفي أن يكون عنده كسب لأداء مال الكتابة، بل لأداء مال الكتابة وللإنفاق على نفسه في المستقبل.

إذنْ الوجوب أو الأمر مشروط بأن نعلم فيهم الخير، أما إذا لم نعلم فيه خيرًا هل تجب مكاتبته إذا طلب؟ لا يجب.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥١٧)، ومسلم (١٥٠٩).

هل يجوز؟ لا يجوز، وكيف يجوز وأنا أعلم أنه ما فيه خير، أعرف أني إذا أعتقته ربما يفسد، إما يلحق بالكفار إذا كان أصله كافرًا، وإما يُفسد في الأرض بالمعاصي، وهو عندي محفوظ لكن إذا صار حرًّا!! فالصحيح أن نقول: إذا لم نعلم فيه خيرًا لم نؤمر بمكاتبته، هذا مفهوم الآية.

ثم إن لم نؤمر هل يجوز لنا أن نكاتب إن علمنا فيه شرًّا ومفسدة في إجابته صارت إجابته حرامًا، وإن لم نعلم فيه شرًّا أو مفسدة فإجابته جائزة فصار المفهوم فيه تفصيل.

فإذا قال السيد: أنا لا أعلم فيه خيرًا فلا يجب عليَّ مكاتبته ماذا نقول؟

نقول: أنت وأمانتك، الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسبك، وقد وَكَلَ الأمر إليك، فإذا قلت: أنا لا أعلم فيه خيرًا بالنسبة لنا نوافق ولا نجبرك على الكتابة، لكن بالنسبة لله، أينفعك إذا كنت تعلم فيه خيرًا وادَّعَيْتَ أنك لا تعلم فيه خيرًا؟ بالنسبة لله لا ينفعك فعلى كل حال الأمر موكول إلى السيد في علم الخير وعدمه، بالنسبة لنا أحكام الدنيا على الظاهر إذا قال: أنا لا أعلم بهذا العبد خيرًا وأنا أعرف أني إذا أخليته يذهب يَفْسَد ويُفْسِد نقول: بالنسبة لنا لا نجبرك لكن إذا كان الله يعلم أنك تعلم أنه فيه خيرٌ فإن دعواك هذه مردودة ولا تقبل.

ويقول المؤلف: [وصيغتها مثلًا: كاتبتك على ألفين في شهرين كل شهر ألف فإذا أديتهما فأنت حر، فيقول قبلت ذلك].

المؤلف يقول: [صيغتها مثلًا] يعني: ما هذه الصيغة الوحيدة بل ما دل على ذلك أجزأ لكن لاحظوا قوله: [على ألفين في شهرين] هل المراد: الألفين يحلا في نجم واحد في الشهرين، أو كل ألف في شهر؟ يقول العلماء: إنه من باب التيسير على العبد أن يكون المال الذي يكاتب عليه مُنجَّمًا بأجلين فأكثر، يعني: ما يقول كاتبتك مثلًا على عشرة آلاف يحلُّون بعد سنة لا؛ لأن هذا فيه صعوبة على العبد فليجعله مُنجَّمًا بأجلين فأكثر مثل عشرة آلاف إما أن يقول كل شهرين ألف ريال، أو كل شهر ألف ريال، أو في ستة أشهر خمسة آلاف، وفي ستة أشهر خمسة آلاف، المهم أن يكون مُنجَّمًا بأجلين فأكثر؛ مراعاة لحال العبد ورفقًا به.

وظاهر كلام أهل العلم في هذه المسألة حتى لو فُرض أن العبد عنده قدرة على أن يسلمها بأجل واحد؛ لأنه لابد من الأجلين، يعني: لو فرضنا أن العبد أتى به إنسان وقال له: اشترِ نفسك من سيدك وأنا أنجز لك الدراهم حالًا، فإنه لا يصح، ولكن في هذه المسألة نظر، وقضية عائشة مع بريرة حيث كاتبت أهلها على تسع أواق، فقالت عائشة ﵂: (إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَنْ أُعِدَّهَا لَهُمْ وَيَكُونُ وَلَاؤُكِ لِي فَعَلْتُ) يدل على الجواز، وإن كانت عائشة تبتغي تشتريها شراءً لكن يدل على أنه إذا أراد أحد أن يعجل ما كاتب عليه العبد لسيده واتفقا على ذلك فإنه يصح، لكن في هذه الحال يلزم أن العبد يحتاط لنفسه؛ لأنه قد يأتيه هذا الرجل ويقول له ذلك، ثم يتراجع، مع أنه لو تراجع ما يضر العبد شيئًا، وآخر أمره أنه إذا عجز عاد إلى سيده رقيقًا، وهذا في الحقيقة لا يضره،

والمال الذي كسبه لسيده.

يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ﴿وَءَاتُوهُم﴾ [أمر للسادة ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ما يستعينون به في أداء ما التزموه لكم، وفي معنى الإيتاء حط شيء مما التزموه].

يقول المؤلف: [الأمر للسادة] ويجوز أن يكون الأمر لغير السادة، أو للسادة وغيرهم، يجوز أن يكون الأمر للمسلمين كلهم.

إذا كان الأمر موجهًا للسادة ففي كيفية الإتيان صورتان:

الصورة الأولى: إذا كاتبه أعطاه مالًا لأجل أن يكون أساسًا لكسبه.

الكيفية الثانية: إذا أدى ما عليه يحط عنه، ولكن هل يحط عنه بالنجم الأول أم بالنجم الأخير؟ بعض السلف اختار أن يضع عنه من النجم الأول؛ لأن ذلك أيسر له، وبعض السلف اختار أن يضع عنه في النجم الأخير، وقال: إنني إذا وضعت عنه من النجم الأول أو أعطيته من النجم الأول ثم عجز وعاد إليَّ صارت صدقتي عادت إليَّ، بخلاف ما إذا أعطيته من النجم الأخير؛ لأنه إذا أدى من النجم الأخير يَعْتُق، فإذا أعطيته من النجم الأخير ما عاد إلي شيء من صدقتي، وهذا هو الأرجح أن يعطيه من النجم الأخير.

ولكننا نقول: الصحيح أنه أمر للسادة بالكيفية المذكورة، وأمر لغير السادة أيضًا أن يُعينوا المكاتَب في مكاتبته، ولذلك جُعِل له سهمٌ من الزكاة، فيجوز للإنسان أن يصرف من زكاته شيئًا للمكاتبين، وهذا هو الصحيح.

فالصحيح أن الأمر في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ شامل للأسياد ولغيرهم.

وقوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ما قال من مالكم، إشارة إلى أنكم وإن آتيتموهم فالمنة لله سبحانه وتعالى؛ لأن المال مال الله سواء قلنا: إنه مال شرعي لله ـ وهو الزكاة ـ إذا قلنا بأن الأمر موجه لغير الأسياد أيضًا، أو أن المال الذي هو مال الله غير شرعي: مال لله قدرًا، وهو مال الإنسان الذي يتصرف فيه تصرف المالك في ملكه؛ فإنه في الحقيقة مال الله، وكأن في الآية إشارة إلى أنه لا فضل لكم، واحمدوا الله سبحانه وتعالى أن الله أعطاكم مالًا، فاعطوا هؤلاء المكاتبين ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

خلاصة الكلام: أن في هذه الآية مشروعية المكاتبة إذا طلبها العبد، والأمر في هذا للوجوب على القول الصحيح، ولكنه مشروط بِعِلْمِ الخير، والخير هو الصلاح في الدين والكسب.

وفي الآية أيضًا دليل على وجوب إتيان المكاتَب من المال، سواء كان الخطاب موجهًا إلى السيد، أو موجهًا لعموم الناس، أما لعموم الناس فإنهم يعطونه من الزكاة، وأما بالنسبة للسيد فيعطيه من المال الذي بيده؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي مَنَّ به عليه.

قد يقول قائل: لماذا تمنعون أن يعطي السيد من زكاته مُكاتَبَه مع أنكم تجيزون أن يعطى

غريمه؟

الجواب: الغريم إذا أعطيته ربما يُفيد وربما لا يُفيد فله أن يتصرَّف فيها كما يريد، لكن المكاتَب سيفيد مهما كان إما يفيد أو يعود رقيقًا ويعود المال إليه هذا هو الفرق بينهما.

وإذا صار العبد مكاتبًا لا تلزم نفقته على سيده، ويملك كسبه وكل شيء، والعتق يبدأ من بداية الكتابة، لكنه لا يتم إلا بأداء ما اتفقا عليه.

[قال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ أي: إماءكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أي: الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي: تعففًا عنه، وهذه الإرادة محل الإكراه فلا مفهوم للشرط].

الفتيات كما قال المؤلف: [الإماء] وليس المراد بالفتيات هنا الصغيرات من النساء، يعني: حتى الحرائر لا؛ لأن هذا غير وارد، إنما المراد: الفتيات الإماء، والبغاء [الزنا] سمي بغاء؛ لأنه يُطلب يعني: مطلوب، والبغاء بمعنى: الطلب والابتغاء بمعنى: الطلب، والزناة - والعياذ بالله - والزانيات يطلبون هذا الأمر.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ التحصن عن الزنا أي: تعففًا عنه وامتناعًا منه.

[وهذه الإرادة محل الإكراه فلا مفهوم للشرط] الآية الكريمة إذا قرأناها ففيها أن الله تعالى نهى أن نكره الفتيات على البغاء شرط إذا أردن التحصن، يعني: فإن لم يردن التحصن فظاهر الآية لنا الإكراه، لكن المؤلف يقول: إن محل النهي هو الشرط أنه لا يتصور الإكراه إلا إذا أردن التحصن وعلى هذا فلا مفهوم للشرط، هذا ما ذهب إليه المؤلف وفيه نظر ظاهر.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [وهذه الإرادة محل الإكراه]، يعني: الإكراه لا يتصور إلا مع وجود هذه الإرادة، فلا مفهوم للشرط، إذا صار الإكراه لا يتصور إلا مع هذه الإرادة، فالشرط لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع الذي هو واقع الإكراه، هذا ما ذهب إليه المؤلف، لكن فيه نظر ظاهر؛ لأنه قد يُكرهها على البغاء وهي لا تريد التحصن، إنما تكره الذي أكرهها عليه، مثل أن يقول مثلًا: تزنين بهذا الرجل، لكن ما تريد الرجل، وتريد رجلًا آخر فإذا أكرهها على أن تزني بهذا الرجل حصل الإكراه مع أنها لا تريد التحصن، ففي الحقيقة أن الإكراه ممكن أن يرد وإن لم تُرد التحصن، وأما قوله: إن الإرادة هي محل النهي؛ لأنه لا إكراه بدون إرادة التحصن فيقال: لا، ممكن أن يكون الإكراه بدون إرادة التحصن، مثل إما أن تكون هي في ذلك الوقت ليس بها رغبة للجماع، أو في مكان لا ترغب أن تجامع فيه، أو في زمان لا ترغب أن تجامع فيه، أو لا تريد من أكرهت عليه، أو ما أشبه ذلك، فليس الإكراه خاصًا بالزنا حتى نقول إن هذا الشرط لبيان الواقع فلا مفهوم له.

إذنْ ما هو الرأي في هذه المسألة يعني: ما هو القول الراجح؟

ذكر العلماء ثلاثة أوجه غير ما ذكره المؤلف منها:

أن هذا بناءً على الأغلب، أنهم يكرهونهن وهن يردن التحصن، ومعلوم: أن القيد إذا كان

لبيان الغالب لا مفهوم له، يعني أن الله ينهاهم عن أمر قد وقعوا فيه، وهو أنهم يكرهون فتياتهم على الزنا وهن يردن التعفف عنه، فيكون هذا بناء على الغالب فلا مفهوم له، وهذا ما ذهب إليه ابن كثير على أن القيد ـ هذا الشرط ـ لبيان الغالب لا لبيان الواقع.

وقال بعض العلماء: إن الشرط هذا بمعنى إذ؛ أي: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إذ أردن تحصنًا)، أي: لأنهن يُردن التحصن، وهذا القول ـ في الواقع ـ قد يكون راجعًا إلى القول الذي قبله.

وقال بعض العلماء: أن الله نهي عن حالة معينة كان الناس يفعلونها في الجاهلية، ولهذا لا يجوز حتى تمكينها من الزنا.

ورأي آخر: أن في ذلك مبالغة في تبكيت هؤلاء الأسياد، الذين يكرهون الفتيات على البغاء مع أن المفروض أنهن لو أردن البغاء لكنتم تريدون التحصن والتعفف.

وفي قوله تعالى: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارة إلى انتقاص رتبة من أراد ذلك، من أراد عرض الدنيا، وهذا صحيح.

اللام في قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾ هل هي للتعليل أو للعاقبة؟ الظاهر أنها للتعليل وأن الذين يكرهون فتياتهم على ذلك إنما يريدون ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: متاعها، وسُمي متاع الدنيا عَرَضًا؛ لأنه يزول، وهذا أمر واقع، فإن متاع الدنيا كما وصفه الله عز وجل: قليل، فيزول عنك أو تزول عنه.

إذنْ فهو عَرَض يعني: أمرٌ عارض يزول.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارة إلى أن هناك حياةً أخرى، وهي حياة الآخرة، والدنيا: هل هي من الدنو المعنوي، أو الدنو الزمني، أو منهما جميعًا؟

منهما جميعًا، فهي من الدنو الزمني؛ لأنها سابقة على الآخرة، ومن الدنو المعنوي؛ لأنها أقل بكثير من الآخرة، قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦ـ١٧] وأخبر النبي ﷺ: «أَنَّ مَوْضِعَ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١) موضع السوط ـ يعني: حوالي متر ـ خير من الدنيا وما فيها، أي دنيا؟ هل هي دنياك التي تعيشها أنت أو كل الدنيا؟ كل الدنيا من أولها إلى آخرها مهما طال آخرها فموضع سوط أحدنا خيرٌ منها وما فيها؛ إذنْ فهي دَنِيَّة بالنسبة للمرتبة.

إذنْ الدنيا زمنًا ومعنى وإن شئت قلت: مرتبة وهو المعنى.

فهذه الدنيا كيف يريد الإنسان هذا العَرَض الزائل من هذه الحياة الدنيا على حساب الحياة الآخرة؟! لا شك أن هذا نقص في العقل أو نقص في الإيمان، أما الرجل المؤمن لا يمكن أن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، و مسلم (١٨٨١).

يفضل الدنيا على الآخرة إطلاقًا، ولهذا خطب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ ذات يوم ووعظ الناس وقال: أيها الناس إن كنتم تقرون بذلك - يعني مع المخالفة - فأنتم حمقى، وإن كنتم لا تقرون به فأنتم هلكى.

هذا صحيح، يعني: المخالف لشريعة الله بين أمرين: إما رجل لا يؤمن بالآخرة فهذا هالك، وإما رجل يؤمن بالآخرة وخالف فهو أحمق لا يعرف التصرف ولا يُحسن.

فعلى كل حال لا يليق بالإنسان أن يختار عَرَض الدنيا على حساب الآخرة.

قال المؤلف: [نزلت في عبد الله بن أُبي، كان يُكره جواريه على الكسب بالزنا ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهنَّ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن].

يمكن هذا في عبد الله بن أُبي أو غيره، لكن ما ذكر المؤلف له سندًا، وذكرها المفسرون أنها نزلت في عبد الله بن أُبَي، ولكن ينبغي أن نعرف أن: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، لكن يجب أيضًا - الفائدة الثانية التي أشار إليها بعض العلماء -: أن العبرة بعموم اللفظ على الحالة التي نزلت أو التي ورد من أجلها العموم، ما هو عموم في كل الأحوال، بل عموم اللفظ بالنسبة لتقييدها بالشخص، لكن على الحالة الذي ورد من أجلها هذا النص، فلا يختص بالشخص الذي نزلت من أجله، بل يعمه وغيره على الحال الذي وردت.

مثال ذلك: قول النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِيَامُ فِيْ السَّفَرِ»(١) لو أخذنا على عمومه بالأشخاص والأحوال، لكان الإنسان لا يصوم في السفر مطلقًا وليس من البر أن يصوم، ولكننا لا نأخذه على عموم الإطلاق، بل على عموم الأشخاص في مثل هذه الحال التي ورد من أجلها، وقد ورد الحديث حينما رأى النبي ﷺ ازدحامًا، ورأى رجلًا قد ظُلِّلَ عليه، فقال: «ما هذا؟» قالوا صائم. قال: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» فإذا وصلت الحال بالصائم في سفره إلى مثل هذا الرجل قلنا له: ليس من البر، وما عدا ذلك فلا نقول إنه ليس من البر؛ لأن النبي ﷺ كان يصوم في السفر ولا يصنع شيئًا ليس بالبر، وكان أيضًا يقر أصحابه أن يصوموا في السفر إذا لم يصلوا إلى حال هذا الرجل.

فالعبرة بعموم اللفظ سواء عبد الله بن أُبي أو في غيره.

وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ مَنْ هذه شرطية، والشرط للعموم ، فأسماء الشرط من صيغ العموم، كما أن الأسماء الموصولة من صيغ العموم كذلك أسماء الشرط يعني: أي إنسان يكره فتاته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ إشارة إلى أنه لابد من تحقق الإكراه، يعني: من بعد التحقق من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٤٦)، و مسلم (١١١٥).

الإكراه؛ وأن لا يكون في قلبها أي ميل إلى ما أكرهها عليه، فإن الله من بعد هذا الإكراه ﴿غَفُورٌ﴾ لمن؟ للمُكْرَهَة لا للمُكْرِه؛ لأنه عاصٍ ليس أهلًا للمغفرة، ولهذا نقول: إن جملة الشرط هنا لم تعد إلى ما يعود إليه فعل الشرط؛ لأن فعل الشرط يعود على المُكْرِه، لكن جواب الشرط لم يعد على المُكْرِه بل على المُكْرَهَة، وذلك للتلازم بين المُكْرِه والمُكْرَهَة إذ لا مكرهة إلا بمكره فلذلك صح أن جواب الشرط ليس عائدًا إلى ما يعود عليه فعل الشرط، إنما هو عائد إلى شيء مُلابس له ومُلازم له وهو المُكْرَهَة.

القاعدة العامة: (أن جواب الشرط يعود على ما يعود عليه فعل الشرط، لكن ليس ذلك بلازم، بل قد يعود على ملازمه ومُلابسه كما في هذه الآية، ولهذا نقول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهن لا غفور لهم، أي: للمُكْرَهَات ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن.

وفي قوله: ﴿غَفُورٌ﴾ إشارة إلى أن هذا الذنب لا عقوبة فيه، وفي قوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله سيجعل لهن فَرَجًا؛ لأن الرحمة بها حصول المطلوب وزوال المرهوب، لذلك نقول: إن في هذه الآية إشارة إلى الفَرَج لمن أُكْرِه على فعل المحرم، وأن الله سيجعل له فَرَجًا، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»(١).

فإذا قال قائل: كثيرًا ما نسمع أن من الناس مَن أكره على أمرٍ محرم ولم يحصل له الفَرَج بسرعة.

فنقول: إن هذا لا ينافي الآية إذ قد يكون من جملة الفَرَج أنَّ الله يهون الأمر عليه في قلبه، ويكون التخلص الحسي من هذا الإكراه بعد ذلك لسبب من الأسباب فوق ما نعلمه.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية:** أن المُكره على فعل شيء لا يلحقه إثمه، ويكون في هذا رَدٌّ على من فَرَّق من أهل العلم على الإكراه على القول والإكراه على الفعل، فإن من العلماء من فرق بين الإكراه على الفعل، والإكراه على القول وقال: إن الإكراه على القول لا يترتب عليه مقتضاه والإكراه على الفعل يترتب عليه مقتضاه.

ولكن الصحيح أنه لا فرق وأن كل من أكره على قول أو فعل؛ فإنه لا حكم لفعله ولا لقوله، يدل على ذلك قوله تعالى مع هذه الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦].

في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر بالقول أو الكفر بالفعل أو بهما جميعًا؟ بهما جميعًا، ولم تخصص الآية القول.

---

(١) صحيح: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٢٨٧)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

كذلك أيضًا هذه التي معنا في هذه السورة إكراه البغاء وهو فعل.

فإن قال قائل: فماذا تصنعون فيما يُذكر من حديث صاحب الذباب الذي مرَّ على صنم هو وصاحب له، وقال أصحاب الصنم لأحدهما: قَرِّب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل؛ فقتلوه، وقالوا للثاني: قرِّب ولو ذبابة، فقرب ذبابة فلم يقتلوه.

نقول: إن هذه القصة لا تصح، ثم لو فرض أنها صحيحة عن بني إسرائيل فإن ديننا ولله الحمد قد وضع الله فيه من الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل ما أوجب أن يكون دين السهولة واليسر، ولهذا كان من صفات الرسول ﷺ: أنه يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم. فكثير من الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة رُفِعَت عن هذه الأمة.

على كل حال الآن نقول: في هذه الآية دلالة ظاهرة على أن الإكراه على الفعل لا حكم له، يجعل الفعل لا حكم له، وأن المُكْرَه لا إثم عليه، وفيه ردٌّ صريح بين من يفرقون بين الإكراه على القول وعلى الفعل، لأننا لو سلمنا جدلًا أن قوله تعالى في سورة النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ أن هذا خاص بالإكراه على القول، فإن هذه الآية لا يمكن فيها التأويل ولا التخصيص؛ لأن القضية في فعل.

لو أُكرِهَت المرأة وهي صائمة على الجماع، أي: زوجها جامعها وهي صائمة غصب عليها فما الحكم؟

لا شيء عليها، لا تفطر، ولا تأثم، وكذلك لو أكرهها على الجماع وهي محرمة فكذلك أيضًا ليس عليها شيء لا بالنسبة للنسك ولا بالنسبة للفدية، وهذه قاعدة عامة قاعدة مقررة في الدين الإسلامي.

لكن قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ فيه إشارة إلى تحقق الإكراه؛ وأنه لو كان في المُكْرَه أدنى ميل فقد يختلف جواب الشرط، فقد تتخلف المغفرة والرحمة إذا كان بعد ما أُكْرِهَ مَالَ إلى الشيء، فهذا يدخل في تخلف الشرط، ومن ثَم زعم الفقهاء رحمهم الله أن الرجل لا يمكن أن يُكْرَه على الزنا وقالوا: إن الرجل إذا أكره على الزنا وجب عليه إقامة الحد، وإذا أكره على إفطار رمضان وجب عليه الكفارة والقضاء، وكذلك في النسك، والسبب أنهم قالوا: الإكراه في الجماع لا يمكن، لأنه لا يفعل إلا بعد انتشار ذكره، ولا ينتشر ذكره إلا إذا مال، وعلى هذا فلا يتحقق الإكراه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾.

وعلى كل حال، فالإنسان فإذا كان شابًا وأُكرِه أن يزني بامرأة جميلة شابة ربما مثلًا: يُلْصَق بها إلصاقًا، هذا ربما يقع منه ويجامع، وفي الحقيقة أن الإنسان مع الكراهة الشديد للشيء ما يمكن أنه يميل.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

[﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بفتح الياء وكسرها في هذه السورة، بُيِّنَ فيها ما ذكر أو بَيَّنَتْهُ].

﴿مُبَيَّنات﴾ أي: بُيِّن فيها ما ذُكِر، أو ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: بَيَّنته.

اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام واقعة في جواب القسم وهي للتوكيد، و(قد) كذلك للتوكيد، وعليه فهذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، وقد.

وإنما أكد الله هذا بهذه الأمور الثلاث للأهمية؛ لأننا إذا علمنا أن هذه آيات مبينة فإن ذلك يستلزم منا الاعتناء بهذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ ما المقصود بالآيات هنا الشرعية أم الكونية؟

الظاهر أنها الشرعية، وأن السياق يتفق معها أكثر مما يتفق مع الكونية. وهي: الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ

وفي قوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ بالوحي إشارة إلى أنه ينزل حقيقة من العلو إلى السُّفل؛ لأنه ينزل من الله على قلب النبي ﷺ، فهو نزول حقيقي، وقد حرفه بعضهم إلى أن المراد بإنزال الوحي قال: أنزلنا يعني: أوحينا، وقال: إن النزول لا يكون إلا من أعلى، ولا يكون إلا في جُرم، فيقال نزل الإنسان من السطح إلى الأرض، والقرآن ليس كذلك، هذا لا شك أن الذي يقول هذا الكلام يُنكر علو الله، ولهذا أهل السنة والجماعة من جملة ما استدلوا به على علو الله: أن الله أنزل القرآن على النبي ﷺ وقالوا: يلزم من الإنزال أن يكون المُنزِل عاليًا، لكن يفسروه بالوحي بحجة أن الشيء النازل هو ذو جرم والقرآن ليس ذا جرم، وإنما هو قولٌ ينزل فهذا لا شك أنه قول مُحرِّف لكلام الله عز وجل.

ونحن نقول: إن القرآن ينزل كما قال الله؛ وأن كلمة ينزل غير كلمة يُوحِي أو يُوحَى بل لها معنى آخر خاص، قلنا: إنه ما المانع من أن يكون النزول في الأمور المعنوية، كلمة نزول إذا أضيفت إلى الأمور الحسية فهي في ذات الأجرام، والأمور المعنوية فلها معنى آخر، أليس الله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٤] و﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ أمر معنوي.

إذنْ نقول الإنزال في الأمور المعنوية، ثم ما المانع أن يكون القرآن أيضًا له جرم ولكننا لا نعرف هذا الجرم؛ لأن الله يقول للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] وقد سبق أنه ﷺ نزل عليه الوحي ورأسه على رجل حذيفة حتى كاد يرضها، وأنه نزل عليه الوحي وهو على الراحلة فتبرك به، فما المانع أن يكون جرمًا ولكنه ليس كالأجرام المعروفة - الله أعلم - والله سبحانه وتعالى يجعل الأمور المعنوية أمورًا حسية، ألم تروا إلى الموت يوم القيامة يمثل بكبش يشاهده الناس من أهل النار ومن أهل الجنة ويُذبح أمامهم، كما أن الأعمال تُوضع في الموازين يوم القيامة، والأعمال أصلها معنوي، فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير وقدرته تعالى فوق إحاطة المخلوقين.

فعلى كل حال: الآية هذه فيها دليل صريح على أن الله تعالى أنزل القرآن من عنده؛ وأنه نزول ليس بمعنى الوحي فقط، بل هو معنى خاص أخص من الوحي.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ جمعها حقيقة الأمر أنها كذلك، القرآن ليس حكمًا واحدًا ولا خبرًا واحدًا بل أخبارًا كثيرةً وأحكامًا كثيرةً فهي ﴿ءَايَٰتٍ﴾ بمعنى: علامات، علامات على عظمة مَن أنزلها، وعلى صدق من جاء بها عليه الصلاة والسلام، ووجه ذلك - أي وجه كونها آيات - أنك إذا تأملت الأحكام التي جاءت بها هذه الآيات وجدتها مطابقة تمامًا للمصلحة، يعني: المصلحة في المأمورات ودفع المضرة في المنهيات، ووجدت أيضًا أن أخبارها في غاية ما يكون من المصلحة والمنفعة، ووجدت لها تأثيرًا بالغًا من جملة تأثيرها وآثارها، هؤلاء الأمم الذين كانوا يعادون الإسلام فدخلوا في دين الله أفواجًا، بمجرد أنهم سمعوا القرآن ورأوا آدابه وأخلاقه.

ثم إن هذا التأثير لمن ألقى السمع، أو كان له قلب، تأثير لا يوجد له نظير - في الحقيقة - إذا صفى الذهن وأقبل الإنسان بقلبه على القرآن مهما كان - حتى لو غير مسلم - لابد أن يتأثر، جبير بن مطعم الأسرى في المدينة فسمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥ - ٣٦] يقول رضي الله عنه: «كاد قلبي أن يطير» ومن ذاك الوقت قذف الله الإيمان في قلبه، ثم أسلم.

فهذا دليل على أن القرآن آيات عظيمة تدل على عظمة من أنزلها، وعلى صدق من جاء بها، وذلك لما تضمنته من الأحكام العادلة التي تضع العقوبة ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها، ومن الأخبار الصادقة النافعة وأخبار ممتعة للنفس ومريحة لها ونافعة للقلب أيضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وقوله تعالى: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: تُبيِّن الحق من الباطل وتفصل بينهما وتميز بينهما، ثم أيضًا تبين الأحكام بنفسها، لكن منها ما يحتاج إلى بيان من غيره، ومنها ما هو بيِّن في نفسه، وفي هذا إشارة إلى أنه لا يوجد في الشرع أمر مُشكِل بحسب الواقع، لكن الإشكال بحسب الفهم، أما الإشكال

الذي يقع في المسائل الشرعية ليس لقصور في النصوص، ولكن لقصور في الفهم أو قصور في العلم، قد يكون الإنسان قاصر علم لا يحيط بالنصوص كلها، وقد يكون قاصر فهم ومن ثَمَّ يحصل الإشكال، أما العلم والفهم التام فإنه لا يمكن أن يوجد إشكال في الشريعة، ولذلك تجد أحيانًا تعرض لي المسألة ومن خلال النصوص حكمها عندي واضح مثل الشمس، ثم في زمن آخر تأتي نفس المسألة وتجد فيها إشكالًا لماذا؟

لأن صفاء الذهن وأحوال الإنسان لها تأثير بالغ في فهم النصوص، ولهذا أنا أرى أنه ينبغي لطالب العلم في المسائل التي تعرض له ـ المسائل النادرة التي يخشى أن ينساها ـ أنه يجب أن يُقيدها لا يعتمد على نفسه يقول: هذه بينة لا تحتاج إلى تقييد ولا شيء؛ لأنه ممكن يأتي يوم من الأيام يكون ما فتح الله به عليك بالأمس غير موجود الآن. إما لتخلف السبب أو لوجود مانع، والإنسان بشر تتقلب به الأحوال.

على كل حال: فالقرآن ـ ولله الحمد ـ مُبيِّن ومُبيَّن أيضًا، ولكن في الخفاء الذي يحصل للإنسان إنما هو من نفسه، لا من حيث الأدلة وذلك لأحد أمرين: القصور في العلم، أو القصور في الفهم فمن أجل أحد هذين الأمرين يحصل الخفاء في الأحكام الشرعية، أما الآيات التي أنزلها الله فهي آيات مُبيَّنة مُبيِّنة لا يحصل فيها إشكال.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عبارة في «العقيدة الواسطية» قال: (من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق) هذه في الحقيقة عبارة تكتب بماء الذهب ـ وإن كان الذهب لا يجوز استعماله مدادًا ـ لكن القصد أن هذه عبارة ممتازة.

فالآيات مبينات: والآية عندنا ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مُبيَّنات ومُبيِّنات قراءتان سبعيتان.

[﴿وَمَثَلًا﴾ خبرًا عجيبًا، وهو خبر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من جنس أمثالهم أي أخبارهم العجيبة كخبر يوسف ومريم].

يعني: أنزل الله أيضًا مثلًا من الذين خلوا من قبلكم، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بالمثل هنا وهو أعم من الواحد يعني: أمثالًا من الذين خلوا، وليس هذا خاصًا بخبر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومريم ويوسف؛ بل هو أعم من ذلك، لكن المؤلف قصره – كعادته رَحِمَهُ اللَّهُ – أنه يقصر الآيات العامة على المعنى حسب السياق وهذا نقص في الحقيقة، صحيح أن السياق قد يقيد المطلق وقد يخصص العام لكن بدليل، أما إن لم يكن دليل على أن هذا خاص فالأولى العموم.

فقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هذا في الحقيقة قد يكون أعم مما ذكره المؤلف، وفي القرآن إذنْ أحكام شرعية عبَّر عنها بـ: ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ وأخبار صادقة فيها العبرة، عُبِّر عنها بقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ .

فالله سبحانه وتعالى ضرب لنا أمثالًا ممن خلا من قبلنا، لا فيما يتعلق بالعفة والصيانة، ولا فيما

يتعلق بالدين والإيمان والقدوة، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد:١٠] ولما ذكر الله تعالى قصة لوط قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣] الإنسان العاقل يقيس؛ لأن سنة الله واحدة، والله جل وعلا البشرُ بالنسبة إليه سواء إلا بالتقوى، فإذا أهلك الله أمة من الأمم السابقة بمخالفته فهل يمتنع أن يهلك هذه الأمة أيضًا؟! لا يمتنع، وإن كان يمتنع شيء وهو وجد في السابقين وهو الإهلاك العام، بل قال بعض العلماء: إنه لم يوجد من بعد إغراق فرعون واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ [القصص:٤٣] قالوا: بعد ما نزلت التوراة على موسى عليه السلام ما عاد إهلاك كما في الأمم السابقين يعني: هلاك عام - هذا واقع في الحقيقة - سواء دلت عليه الآية أو لم تدل.

وقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ مثل قصة يوسف عليه الصلاة والسلام رمى بما رمى به وأنجاه الله، من الذي رماه بالفاحشة؟ امرأة العزيز، والغريب أن امرأة العزيز هي التي راودته عن نفسه وغلَّقت الأبواب وهيأت كل شيء، ولكنه عليه الصلاة والسلام ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤] بعد أن همَّ، مع توفر الأسباب وانتفاء الموانع ووجود الطلب - وهو الهمة - بعد ذلك نهى نفسه، وهذا أعلى ما يكون في العفة، خلافًا لمن ذهب يحاول يؤوِّل كلمة همَّ يقول: همت به بالزنا، وهمَّ بها ليبطش بها هذا تناقض، لكن يقال: كمال العفة أن تحصل مع وجود الطلب، همَّ بها.

ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام في الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»(١).

فهو عليه الصلاة والسلام بعد أن همت به وهمَّ بها رأى برهان ربه، فتح الله عليه، أخيرًا تبين أن القائل امرأة العزيز، ظهر ذلك علنًا حتى من أن يوسف عليه الصلاة من قوة صبره ومن حكمته لَّما دُعِي أن يخرج من السجن قال: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ ما خرج حتى بان أمره، وهذا من الصبر العظيم، حتى يكون بريئًا تمامًا.

وبالنسبة لمريم عليها السلام نفس الشيء، اليهود اتهموها عرضوا تعريضًا، قالوا: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًّا﴾ فمن أين جاءك البغا؟

ولهذا اختلف العلماء: هل يُحدُّ بالقذف إذا عرَّض أو لا يُحد؟ والصحيح أنه إذا كان التعريض واضحًا أنه يحد، بل إنه أعظم، حيث قال بعض العلماء: إن التعريض بالزنا أعظم من التصريح به، لأنه يتضمن قذفًا ولومًا.

ثم قال المؤلف: [﴿وموعظة للمتقين﴾ في قوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، و مسلم (١٠٣١).

﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون﴾ إلخ ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم﴾ إلخ ﴿يعظم الله أن تعودوا﴾ إلخ، وتخصيصها بالمتقين لأنهم المتفعون بها].

المؤلف رَحِمَهُ الله ذكر هذه الآيات بناء على عادة وهو تخصيص العام بالسياق، وكانت عادة كما سبق أنه يخصص العموم بالسياق، والصحيح أن العموم لا يُخصص بالسياق، وأنه يشمل ما تضمنه السياق وغيره، وعلى هذا فهو موعظة للمتقين في هذه الآيات التي عدها وفي غيره.



قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥]

التَفْسِير

يقول المؤلف: [﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي منورهما بالشمس والقمر ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي صفته في قلب المؤمن ...إلخ]

هذه الآية تضمنت عدة أشياء: أولًا قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فما هذه الجملة؟ هل هي جملة على ظاهرها وحقيقتها أم هي تحتاج إلى تأويل؟

اختلف فيها أهل السنة وغيرهم كالعادة في بقية آيات الصفات، فذهب أهل التأويل إلى أن الآية لها تأويل، وجعلوا التأويل: إما أن نور بمعنى منوِّر، كما ذهب إليه المؤلف، أو أن نور بمعنى: ذو نور، كما تقول: رجل عدل، أي: ذو عدل، فمعنى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ذو نور السموات والأرض، أي صاحب نورهما، أي: الخالق للنور فيهما، وعليه فيعود هذا المعنى إلى المعنى الأول، لكن الاختلاف في التقدير، وهذا مذهب أهل التحريف الذين يُسَمَّون : أهل التأويل. والأصح في تسميتهم: أهل التحريف. لأن التأويل في الحقيقة منه صحيح، ومنه غير صحيح، والأليق بالتأويل غير الصحيح أن يُسمى تحريفًا، لأنه صرف للفظ عن مدلوله بدون دليل، وهذا هو التحريف حقيقة.

أما أهل السنة والجماعة فقالوا: إن الآية على حقيقتها، وأن الله سبحانه وتعالى نور السموات والأرض، لكن النور نوعان: نور هو ذات الله جل وعلا وصفاته وآياته وأحكامه ، وهذا غير مخلوق، ونور آخر حسيّ مخلوق منفصل بائن عن الله، فالنور الذي نراه في الشمس وفي القمر وفي

النجوم، وفي السُّرج، هذه من النوع الثاني، من النور الحسي المخلوق.

ثم النور المخلوق منه أيضًا حسي ومعنوي، الحسي هذا الذي مثلنا به، والمعنوي الذي ذكره الله في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ...إلخ﴾.

إذن أهل السنة والجماعة يقولون: إن الله تعالى نور السموات والأرض، فهو نور بذاته، وكذلك أيضًا صفاته، وكذلك آياته، سماها الله تعالى نورًا ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] فهو سبحانه وتعالى نور، لكن أهل التحريف لما ظنوا أن النور هو مادة الإضاءة أو الضوء نفسه، قالوا: هذا عَرَض يزول والله سبحانه وتعالى منزه عن العرض، أو هذا جسم قابل للإضاءة والله سبحانه وتعالى منزه عن الجسم، على حد تعبيرهم وقواعدهم.

لكننا نقول: ما الذي يسوِّغ لنا أن نعدل بالآية عن ظاهرها، ولا نقول: الله نور السموات والأرض، وقد قال النبي ﷺ: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات» فأثبت لوجهه نورًا، لكن الطريق السليم أن نقول: نور الله سبحانه وتعالى ليس مخلوقًا، ليس كنور القمر، الذي جعله الله فيه ﴿وجعلنا الشمس والقمر فيهن نورًا﴾ وليس كنور المصباح، وليس كالنور الذي يكون في قلب المؤمن من العلم والهداية، والإيمان.

وليس نوره ـ سبحانه وتعالى ـ كالنور الذي نتخيله، فإن النبي ﷺ يقول: «حِجَابُهُ النُّور، لَو كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سَبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» أي: لأحرقت سبحات وجهه كل شيء، لأن بصره ينتهي إلى كل شيء.

إذن ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني هو نفسه نور فيهما، ولكن هذا النور الذي وصف الله به نفسه وجعله من صفاته وأسمائه لا يشبه الأشياء المخلوقة كسائر الصفات، إذن كلام المؤلف [منورهما] هذا ليس بصحيح، هذا تحريف، وإنما المعنى: نور في السموات والأرض نور بذاته وصفاته وآياته تبارك وتعالى.

ونحن نبطل القول، ونعذر القائل، ونقول لمن أخطأ: أخطأت، ولكن مع ذلك لا نلومه إذا علمنا منه حسن النية، بل نحبه أيضًا، ونحن نعرف علماء أجلة فضلاء ممن سلكوا هذا المسلك ـ مسلك التحريف في أسماء الله وصفاته ـ، ومع ذلك نشهد الله على محبتهم، لأننا نعرف أنهم ما سلكوا ذلك إلا عن اجتهاد وحسن نية، لما هم من قدم الصدق في الإسلام، والنصح في الإسلام، مثل النووي، وابن حجر العسقلاني، وغيرهما كثير. لكن لا مانع أنهم إذا أخطئوا قلنا: أخطئوا ولا يلزم من ذلك أن نلوم هذا الشخص. وذلك مسلك أهل السنة والجماعة، ولذلك لا تجد منهم عداوة ولا بغضاء إذا اختلفت أقوالهم، لأن كل منهم يعرف أن صاحبه معذور، لكن أهل الأهواء ـ والعياذ بالله ـ هم الذين لا يعذرون أحدًا يخالفهم، وإن كانوا هم على باطل، ولذلك تجدهم يكنون العداوة والبغضاء لمن خالفهم.

ثم قال المؤلف: [﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي صفته في قلب المؤمن] هذا في الحقيقة: مثل نوره أي: مثل نور الله، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [في قلب المؤمن]، لماذا لا نجعل ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي هو نور ذاته وصفته؟ يعني: ما الذي أوجب لنا أن نؤول؟ لأن الله لا مثل له، ما يمكن أن نمثل نوره الذي هو صفته بشيء من مخلوقاته، فإن الله سبحانه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] إذن فلا بد من التأويل، وفي الحقيقة: إذا قال قائل: ألستم تنكرون التأويل؟ نقول: لا ننكر التأويل مطلقًا بل ننكر التأويل الذي لا دليل عليه، أما ما يقتضيه العقل فإنه أمر معلوم، لأن عقلك لا يمكن أن يصدق أن نور الله في هذا الحجم ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أبدًا، حتى العقل يمنع هذا، وإذا كان العقل يمنع هذا فالتأويل لا بد منه، يقول الله عز وجل في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ عقلًا ما دمَّرت السموات، ولا دمرت الأرض، وإنما دمرت كل شيء ينتفعون به، بدليل قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وعلى كل حال: نقول: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي مثل نوره الذي يضعه في قلب المؤمن، وبعضهم يقول: مثل نوره الذي يهدي به، ويرى أن هذا من باب تقريب المعنوي بالحسي، فمثلًا القرآن نور، مثل هذا النور كمشكاة ... إلخ، لكن الأسلم ما ذهب إليه المؤلف، أن المراد بالنور هنا النور الذي يضعه الله تعالى في قلب المؤمن. المشكاة: الكوَّة، ويسميها الناس: الروزنة، والمصباح: السراج.

قال المؤلف: [﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ هي القِنديل، والمصباح: السراج، أي الفتيلة الموقودة، والمشكاة: الطاقة غير النافذة، أي الأنبوبة في القنديل... إلخ].

المشكاة - كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: الطاقة غير النافذة، هذه إذا كان فيها مصباح في زجاجة - وسيأتي أيضًا وصف هذه الزجاجة - يكون نوره أقوى لأن النور ينعكس، ولا يتبدد.

يقول: [﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾ والنور فيها ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي: مضيء بكسر الدال وضمها من الدَّرء بمعنى الدَّفع لدفعها الظلام، وبضمها وتشديد الياء منسوب إلى الدُّرّ: اللؤلؤ] (دُرِّيٌّ) هذه القراءة الأخيرة بضمها وتشديد الياء، منسوب إلى الدُّر يعني اللؤلؤ لصفائه، والثاني (دِرِّيءٌ) على وزن سِكِّين مبالغة من الدَّرء، بمعنى الدفع، أو (دُرِّيءٌ) أيضًا من الدَّرء بمعنى الدفع.

والكوكب الدري معناه: العظيم النور والتَّوَقُّد. وذلك لأن وصفه بهذا الدرء يدل على قوة نوره ونفوذه، وكلما كان أشد لمعانًا كان أشد درءًا، ولهذا جاءت المسألة على باب المبالغة، لأن (فِعِّيل، وفُعِّيل) كلاهما من صيغ المبالغة، إذ إن اسم الفاعل في هذه المسألة لو قال: (دارئ) فإذا حوِّل عن اسم الفاعل إلى غيره صار ذلك صيغة مبالغة. يعني لكونه لقوة توقده وقوة ضوئه يكون درِّيئًا، أي يدرأ الظلام بقوة نفوذه، ولا يمكن أن يدرأ الظلام بقوة نفوذه إلا إذا كان عظيم التوقد وعظيم النور.

وعلى قراءة (دُرِّيٌّ) نسبة إلى الدُّرّ، وهو اللؤلؤ لصفائه، يعني ما به قتم يحول بيننا وبين هذا

الكوكب، فهو صافٍ جدًّا مثل الدُّرّ.

وسبق لنا أن القراءتين يكون من فوائدهما أحيانًا سعة المعنى، فيكون المعنى أنها بنفسها صافية - بناءً على (دُرِّيّ) -، وقوية الإضاءة - بناءة على (دِرِّيءٌ) ، فهذه من فوائد اختلاف القراءات، أنه يظهر في كل قراءة معنى غير الذي ظهر في القراءة الأخرى، فيكون ذلك أوسع وأشمل.

قال: [﴿تَوَقَّدَ﴾ المصباح بالماضي؛ وفي قراءة بمضارع (أوقد) مبنيًّا للمفعول بالتحتانية، وفي أخرى (تُوقَد) بالفوقانية، أي الزجاجة] إذن ثلاث قراءات هنا، كأنها كوكب دري تَوَقَّد، هذا على أنها فعل ماض.

وفيها أيضًا ﴿يُوقَدُ﴾ أي: يوضع فيها الوقود، وفيه أيضًا (تُوقَد)، على (تَوقَّد) وعلى (يُوقد)، الضمير يعود على الكوكب؛ لأنه مُذكَّر ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ تَوَقَّد، كوكب دري يُوقَد، لكن على قراءة (تُوقَد) كأنها كوكب دُرِّيٌّ تُوقَد.

يقول المؤلف على هذه القراءة: أي ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾، يعود الضمير على الزجاجة لا على كوكب، وهنا لا يقال: إن الضمير يعود إلى أقرب مذكور؛ لأن القاعدة تقول: إن الضمير يعود على أقرب مذكور ما لم يوجد مانع لفظي أو معنوي، فهنا وُجد مانع لفظي وهو عود الضمير؛ لأن توقد يعود الضمير على مؤنث والكوكب مذكر، هنا وجد مانع لفظي يمنع من عود الضمير إلى أقرب مذكور، وربما وجد مانع معنوي مثل قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ هو أي: الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج:٧٨]. الضمير يعود على الله ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ﴾ أي: الله ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ وطبعًا إبراهيم عليه السلام ما سمانا في هذا، يعني: لو فرض أنه هو سمانا من قبل يمكن يصح أنه يكون إبراهيم، لكن في هذا ما يصح.

فلذلك نقول: هذا مانع معنوي؛ لأنه هو صالح أن يرجع إلى الله، وصالح أن يرجع إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لكن المعنى يمنع منه.

على كل حال نعود إلى قراءتنا، نقول (توقَّد) و (يوقد) كلاهما الضمير يعود على الكوكب، وأما (تُوقَد) فالضمير يعود على الزجاجة التي فيها المصباح.

[﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ بل بينهما فلا يتمكن منها حر ولا برد مضرين].

تنبيه: الضمير يعود على المصباح، ونحن قررنا أنه يعود على الكوكب، ولا يصح تقريرنا؛ لأن الكوكب لا يوقد من هذا الشيء، الذي يوقد هو المصباح.

يقول: [﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٖ﴾] كيف يكون من زيت شجرة؟ لأن الشجرة نفسها ليست هي الوقود وإنما الوقود زيتها.

وقوله: ﴿مُّبَٰرَكَةٖ﴾ أي: ذات بَركة، والبَركة: هي الخير الكثير الثابت، مأخوذ من بِرْكة الماء لكثرة مائها وثبوته.

وقوله: ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾ هل هناك شجرة غير الزيتون يوقد منها؟ نعم، ولكن زيت الزيتون هو أعلاها وأشدها صفاء وأقواها نورًا، وقوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ يقول: [بل بينهما فلا يتمكن منها حر ولا برد مضرين] ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ يقولون: معناها: إنها في ربوة أو جبل؛ لأنها إذا كانت في منخفض لابد أن تكون شرقية أو غربية فإن كانت في المنخفض من جهة الشرق فهي شرقية، وشمس آخر النهار لا تصيبها، وإذا كانت من جهة الغرب فهي غربية شمس أول النهار لا تصيبها، فهي إما في ربوة وذلك أكمل وأبين، وإما في مكان مستوٍ صحراوية.

لكنهم قالوا: إنها في ربوة؛ لأنها إن كانت في ربوة فإنها أبين وأعلى، وأطيب زيتًا لكنها موصوفة بقوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ وفي هذا دليل وإرشاد أنه ينبغي للإنسان إذا وضع الشجر ألا يضعه في مكان يحتجب عن الشمس شرقًا أو غربًا، بل ينبغي أن يوضع الشجر في مكان يبرز للشمس شرقًا وغربًا.

قوله: [﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ وذلك لصفائه].

﴿يَكَادُ﴾ بمعنى: يقرب ﴿زَيۡتُهَا﴾ أي: زيت هذه الشجرة ﴿يُضِيٓءُ﴾ أي: يحدث إضاءة ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ كيف يمكن يضيء ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾؟

يقول المؤلف: [لصفائه] فإذا أصابته النار مع أن أصله صافٍ يكاد يضيء صار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾.

[﴿نُّورٌ﴾ به ﴿عَلَىٰ نُورٖ﴾ بالنار، ونور الله] الذي يوجد للمؤمنين [أي: هداه للمؤمن نور على نور الإيمان].

الآن يمكن أن نعرف كيف هذا التمثيل وهل هذا التمثيل مركب أم مفرد؟

الظاهر أنه مركب يعني: معناه مركب من هذه الأشياء، ولا يتحقق إلا بتصور هذه الأشياء مجتمعة، لو قلنا إنه مفرد كان معناه كل تمثيل لا يتصل بما بعده.

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ أين المشبه؟ نور الله، والمشبه به المشكاة، ثم ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ هل هذا التشبيه مستقل عما قبله أو هو في ضمن ما قبله؟ الذي نرى - وهو أبلغ - أن يكون في ضمن ما قبله لأجل أن يكون التشبيه مركبًا من الصورة كاملة.

إذنْ هذا تشبيه تمثيل بمعنى: أن الله شبَّه النور الذي في قلب المؤمن بهذه القضية كلها ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ أين الذي يقابل المشكاة؟ القلب والنور الذي يقذفه الله في قلبه مع نور الإيمان هو المصباح، لكن هذا المصباح مركب ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ الزجاجة الصافية لامعة ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ ووقود هذا النور ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ زيتها صافٍ وجيد فصار الآن مادة النور جيدة، وكذلك محله جيد وكذلك وقايته جيدة وأن الزجاجة تقي النور وتصفيه، فالنور إن لم يكن

في زجاجة - كما هو معلوم - يكون مضطربًا ويكون غير صافٍ، فتجد أن هذا النوع قد كملت فيه أسباب الصفاء من حيث الوقود والمكان، كذلك أسباب الشمول من حيث القوة ومن حيث كونه في مشكاة.

النور الذي في قلب المؤمن مثل هذا، ولكنه في الحقيقة المؤمن كامل الإيمان، فأما المؤمن ناقص الإيمان فإنه ينقص من نوره بمقدار ما نقص من إيمانه، يعني: لا تظن أن هذا التشبيه لكل قلب مؤمن، بل المراد المؤمن الكامل الإيمان، فإن الله يجعل في قلبه هذا النور العظيم، وذلك أمر معلوم: كلما قوي إيمان العبد، وكلما قوي طلبه للحق، فإن الله تعالى يهديه للنور، وكلما ضعف إيمان العبد أو ضعف طلبه للحق، فإنه يضعف نوره، ولهذا قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ :

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي

وَقَالَ: اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لَا يُؤْتَى لِعَاصِي

فكلما نقص الإيمان أو نقص طلب الحق؛ فإنه ينقص هذا النور وكلما ازداد الإنسان في طلب الحق، وذلك بالتعلُّم وقوي إيمانه، ازداد نوره، ولذلك تجد أن أهل العلم تَقْوَى معرفتهم بالشريعة بحسب ما أُثِر عنهم من الإيمان والتقوى.

قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ما هو النور الذي على النور؟

(النور): نور هذا المصباح، (على نور): ما في الزيت فإن هذا الزيت أصله فيه إنارة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فكيف إذا أصابته النار، كذلك نور الإيمان في القلب مثل نور الزيت، ونور العلم والهداية مثل النار التي تصيب هذا الزيت ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

يقول: [﴿نُّورٌ﴾ به ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ بالنار، ونور الله: أي هداه للمؤمنين نور على نور الإيمان].

إذنْ فالإيمان بمنزلة الزيت، والهداية بمنزلة النار التي جُعل الزيت وقودًا لها.

قوله: [﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أي: دين الإسلام ﴿مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ﴾ أي: يبين ﴿ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لأفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ضرب الأمثال].

قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ هذا النور الذي يهدي الله له هو النور الذي يقذفه في قلب المؤمن أم النور الذي ينزله للناس؟ الذي ينزله للناس، يهدي الله المؤمن إليه، فالذي ينزله الله تعالى إلى الناس من الوحي هو نور بلا شك ويهدي إليه من يشاء، وكلمة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تقدم معنا أن أي أمر عُلِّق بالمشيئة فإنه محكوم بالحكمة، فالله تعالى يهدي من يشاء لكن إذا اقتضت الحكمة هدايته، وقد علمنا أن كل من طلب الحق بنية صادقة فإن الله سبحانه وتعالى يهديه، وكل من زاغ عن الحق وتولى عنه فإن الله تعالى يضله.

قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾

[المائدة:٤٩].

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ نقول: ممن تقتضي الحكمة هدايته، وذلك لكونه مستعدًّا وقابلًا للهداية.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ﴾ الأمثال جمع مَثَل وهو الشَبَه أو مِثل وهو الشِّبه أيضًا، والأمثال كل شيء يشابه غيره فالله تعالى يضرب الأمثال للناس إمَّا أن يضرب حِسِّيًا بحسِّيٍّ أو معنويًّا بمعنويٍّ أو معنويًّا بحِسِّيٍّ، والغالب أن الله يضرب الأمثال إذا كان الأمر معنويًّا يضربه بأمر حسِّي أو إذا كان الأمر الحسِّي أمرًا مستبعدًا أو منكرًا فإنه يضربه بحسيٍّ معلوم، وذلك لتقريب الأمر إلى أذهان الناس، فمثلًا نجد أن الله - تعالى - ضرب مثلًا للذين يعبدون غير الله ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ هذا ضرب أمر معنوي بأمر حسِّي، فهم يلوذون بهذه الأصنام كما أن العنكبوت تلوذ ببيتها لكن هل بيتها يقيها؟ لا، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١]. ونجد أن الله تعالى يضرب مثلًا لما ينكره الكافرون من إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها؛ فإن الأرض تكون ميتة هامدة فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحياها لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

نجد أنه هنا في الأمر المعنوي الذي هو نور الله تعالى في قلب المؤمن ونور الله الذي ينزله فيهتدي به المؤمن، نجد أن الله تعالى ضرب مثلًا في هذا المصباح الذي في المشكاة...إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ مناسبة هذه الآية أنه سبحانه وتعالى أعلم العالمين بما يطابق المثل مضربًا وموردًا؛ لأن المثل له مَضرِب وله مورد لكن الله سبحانه وتعالى هو أعلم العالمين بهذا المضرب والمورد ومطابقة أحدهما للآخر؛ لأنه ربما يأتي إنسان ويشبِّه شيئًا بشيء وعندما تُمحص وتُحقق الأمر تجد أنه لا مشابهة، لكن الله سبحانه وتعالى إذا ضرب مثلًا بشيء فإنه بكل شيء عليم، لا يخفى عليه أوجه المشابهة التي يتضمنها هذا المثل.

وفي هذه الآية إشارة بل تصريح إلى عموم علم الله سبحانه وتعالى؛ وأنه عليم بكل شيء.

والله سبحانه وتعالى حكيم يجعل في وحيه أمرًا متشابهًا ويستدلون بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١] قالوا: حتى للغاية فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم المجاهد والصابر إلا بعد أن يجاهد ويصبر، ولكنه سبق لنا الجواب عن مثل هذا الإشكال. وهو أن نقول: إن المراد العلم الذي يترتب عليه الجزاء، لأن علم الله تعالى بالشيء قبل وقوعه لا يترتب عليه جزاء، يعني: كون الله يعلم هذا مجاهد وهذا لا يجاهد، هذا ما يترتب عليه الجزاء، فيكون المعنى: حتى نعلم العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وذلك لا يكون إلا بعد الامتحان والابتلاء.

وفرقٌ آخر: علم الله بالشيء قبل وقوعه علم بأنه سيقع فلا يتعلق به شيء، وعلم بعد وقوعه علم بأنه وقع، وفرق بين مَدْرَك العلمين:

الأول: علم بأنه سيقع ولا يترتب عليه شيء بالنسبة للمُكلَّف.

والثاني: علم بأنه وقع وهو الذي يترتب عليه ما رتبه الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمكلف.

هذا هو ما أجاب عنه أهل السنة عن مثل هذه الآية.



❁ قال الله تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور:٣٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

[﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾ الآتي] ما معنى متعلق؟

الفعل يتعدى إلى المفعول بنفسه، وأحيانًا يتعدى إلى المفعول بحرف الجر، إذا تعدى إلى المفعول بحرف الجر يقال: هذا متعلق به، وإلا فالحقيقة أن الجار والمجرور المتعلق، وكذلك الظرف هو مفعول، لكنه لا يتعدى إليه الفعل بنفسه.

فـ﴿يُسَبِّحُ﴾ تعلق بها قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ يعني: أن العامل في الجار والمجرور هو قوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾.

قوله: [﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ تُعظَّم، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بتوحيده].

قوله تعالى: ﴿أَذِنَ﴾ المراد هنا: الإذن الشرعي، فمعنى ﴿أَذِنَ﴾ أي: شَرَعَ أَنْ تُعَظَّم، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: أمر النبي ﷺ ببناء المساجد في الدُّور ـ يعني: في الحارات ـ وأن تُطَيَّب(١)، وهذا دليل على أن الإذن هنا بمعنى الشرع، وقد سبق أن قررنا أن الإذن ينقسم إلى قسمين: إذنْ كوني، وإذن شرعي:

فمثال الإذن الكوني: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ومثال الإذن الشرعي: ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

هذه لا تصح أن تكون إذْنٌ كوني قدري لماذا؟ لأن الإذن الكوني القدري لم ينتفِ فإنهم شرعوا وما شرعوا إلا بإذن الله كونًا وقدرًا. فإذَنْ قوله: ﴿مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ أي شرعًا ولابد.

وقد يأتي الإذن بمعنى (الاستماع) كقوله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٥٩٤)، وأبو داود (٤٥٥)، وصحح إسناده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٧٢٤).

بِالقُرْآنِ»(١) معناه: ما أَذِنَ الله لشيء أي: ما استمع لشيء مثل استماعه لهذا النبي الذي يتغنى بالقرآن يجهر به.

إذنْ ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ في الآية التي معنا من أي الإذنين؟ الشرعي.

هل يتعين أن تكون للشرعي؟ نعم، والتعليل لو أَذِنَ بذلك قدرًا لكانت المساجد تعظم ولابد وترفع ولابد؛ لأن الإذن الكوني والقدري لابد فيه من وقوع المأذون.

كل ما يتعلق بالأمور الكونية لابد من وقوعه، فلو كان المراد بالإذن هنا الإذن الكوني، لكان رفع المساجد أمرًا حتميًّا، مع أننا نجد أن المساجد أحيانًا لا ترفع ولا تعظَّم بل تمنع، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤].

قوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ تُعظَّم، وفي الحقيقة أن رفعها أعم من التعظيم فترفع بالتعظيم وبغيره، لكن صحيح أظهر ما يكون في الرفع هو التعظيم.

قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: اسم الله، والمراد أن الله يُذكر بأسمائه؛ لأنه إذا ذُكر الاسم ذُكِر المُسَمَّى.

وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ بأي شيء يذكر؟ بالقراءة والتسبيح ـ كما سيأتي ـ، المهم يذكر فيها اسمه بالثناء والتمجيد، وهذا يشمل الصلاة وغير الصلاة.

ثم قال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ وهذا التنزيه، فيكون في الآية إشارة إلى أمرين:

إلى إثبات الكمال في قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وإلى نفي النقص في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

[وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ﴾ بفتح الموحدة وكسرها: أي يُصَلِّي]

يسبح فيها قراءتان سبعيتان الفتح والكسر ـ وسيأتي إن شاء الله ـ تخريج كل منهما فيما بعد.

وقوله: [أي يُصَلي] هذا فيه نظر إن قصد بذلك حصر التسبيح بالصلاة، وإن قصد بذلك التمثيل فهذا صحيح، فإن قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أعم من كونهم يصلون، بل هم يُسَبِّحون الله بالصلاة وغيرها مما يكون به تنزيه الله سبحانه وتعالى.

[وقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ مصدر بمعنى: الغدوات: أي: البُكَر ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ العَشَايَا من بعد الزوال].

قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ الغدو يقول المؤلف: إنها مصدر غَدَا يَغْدُو غُدُوًّا، لكنها بمعنى الجمع، غُدُوّ مصدر بمعنى الجمع، بمعنى الغُدُوات يعني: أول النهار، وإنما لجأ المؤلف إلى جعل الغدو بمعنى الغدوات لمطابقة قوله: ﴿وَٱلْآصَالِ﴾؛ لأن الآصال جمع أصيل وهو آخر النهار،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم(٧٩٢).

وقوله: هي العَشَايا: جمع عشيٍّ أيضًا ما كان بعد الزوال.

وفي حديث أبي هريرة في قصة ذي اليدين قال: (صَلَّى بِنَا رَسُوْلُ الله ﷺ إِحْدَى صَلَاتَي العَشِيِّ)(١).

أين الصلوات إذا قلنا يسبح بمعنى: يصلي؟ يكون بالغدو صلاة الفجر والعشي الظهر والعصر، يتبقى المغرب والعشاء وهي مما يصلى في المساجد، ولهذا نرى أن الصواب في ذلك أن التسبيح أعم من الصلوات.

ثم إنه يحتمل أن يُقْصَد بالغدو والآصال جميع الوقت كما في قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]، الرزق لأهل الجنة دائم، لكن يقال هكذا والمراد: الدوام، فإما أن تُحْمَل الغدو والآصال على معنى الدوام أي: يسبحون دائمًا، أو على معنى أول النهار وآخره، فيكون في هذا إشارة للتسبيحات التي تذكر في أول النهار وفي آخره ومنها صلاة الفجر وصلاة العصر؛ فإن الصلاتين هاتين أفضل الصلوات كما جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»(٢) وقال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرونَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»(٣) يعني: الفجر والعصر.

على كل حال: الغدو والآصال إن أُريد بهما حقيقتيهما وهو أول النهار وآخره كان في ذلك إشارة إلى ما يقال من التسبيح والتعظيم لله والتهليل في أول النهار وآخره، وكذلك أيضًا صلاة الفجر وصلاة العصر، وإن قلنا: المراد بالغدو والآصال كل الدهر، وأن هذا من باب ذكر الطرفين ليشمل الجميع كما في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]؛ فإنه يشمل كل ما يسبح لله تعالى في المساجد في أول النهار وآخره وفي الليل أوله وآخره ووسطه.



❁ قال الله تعالى:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

[وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباء وعلى فتحها نائب فاعل له و﴿رِجَالٌ﴾

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم(٥٧٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم(٦٣٥).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم(٦٣٣).

فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كأنه قيل: مَنْ يسبحه؟].

توجيه القراءتين السابقتين: (يُسَبِّحُ)، و(يُسَبَّحُ).

إذا كانت (يُسَبِّحُ له فيها بالغدو والآصال) يُسَبِّحُ هذه مبنيٌّ فاعل أم مفعول؟ مبني للفاعل وعليه فيكون قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل (يُسَبِّحُ).

على قراءة: يُسَبَّحُ يكون الفعل مبنيًا للمفعول، يحتاج إلى نائب فاعل ما يصلح أن يكون رجال نائب فاعل؛ لأنه لو كان نائب فاعل كان الذين يسبحون هم الرجال، وهذا شيء غير ممكن إذنْ أين نائب الفاعل؟ نائب الفاعل هو الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، إذا لم يوجد المفعول - يعني في الفعل المبني للمجهول - ناب عنه الظرف والجار والمجرور، مثل ما لو قلت: ضُرِبَ الضَّرْبُ وما أشبه ذلك فإنه ينوب عن المفعول به.

قال ابن مالك:

وَقَابِلٍ مِنْ ظَرْفٍ أَوْ مِنْ مَصْدَرِ أَوْ حَرْفِ جَرٍّ بِنِيَابَةٍ حَلِي

الذي معنا الآن (يُسبَّح له) إذا قلنا (له) هو نائب الفاعل وهو حرف الجر.

يبقى الإشكال في ﴿رِجَالٌ﴾ على قراءة (يُسَبَّحُ). نقول: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل لفعل محذوف هذا الفعل المحذوف أوجبه كلمة (يُسَبَّحُ)؛ لأنه (يُسَبَّحُ له) كأنه قيل: مَنْ يُسبِّحُ له؟ فقيل: رجال.

وعلى هذا فتكون رجال فاعلًا لفعل محذوف دلَّ عليه الفعل المذكور وهو يسبِّح.

إذنْ (يسبح) فيها قراءتان سبعيتان فتح الباء وكسرها، وتبين الآن توجيه كل من القراءتين.

قوله: [﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾ أي: شراء ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ حُذِفَت هاء إقامة تخفيفًا ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ﴾ أي: تضطرب ﴿فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ من الخوف، القلوب بين النجاة والهلاك، والأبصار بين ناحيتي اليمين والشمال: هو يوم القيامة].

يقول الله عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ تدل على المدح والثناء كما يقال: (فلان رجل) أي: إنه اتصف بصفة الرجولة، فكلمة ﴿رِجَالٌ﴾ لا شك أنها تدل على الثناء ولذلك لا تطلق إلا على البالغ العاقل.

وقوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ لم يقل: لا يبيعون ولا يشترون؛ لأن الذي لا يبيع ولا يشتري قد يأتي إلى المسجد ليسد الفراغ، لكن وصفهم بأنهم يبيعون ويشترون لا أنهم بلا تجارة وبلا عمل، وهذا أبلغ في الثناء: كونهم يبيعون ويشترون، لكن هذا البيع والشراء لا يلهيهم عن ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ المؤلف فسر التجارة بالشراء لماذا؟ في مقابلة بيع، ولكنه تفسير ليس بصحيح؛ لأن الشراء مفهوم من بيع، إذ لا يوجد بيع إلا بشراء لكن التجارة أعم من البيع،

قد يُلهو الإنسان بتجارته لتصنيفها وتبويبها وحفظها وصيانتها وما أشبه ذلك، ربما لا يُلهو وهو يشتري لكن يُلهو بطريق آخر بهذه التجارة، لذلك نقول: المراد بالتجارة ما يَتَّجِرُ به الإنسان، ولهوه به ليس بالشراء بل بما هو أعم، أما الشراء فمفهوم من البيع؛ لأنهم إذا شروا فقد باع عليهم غيرهم، وإذا باعوا فقد اشترى منهم غيرهم.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني: التجارة لا تلهيهم عن ذكر الله، يقدمون ذكر الله على تجارتهم لكن الناس في هذا الباب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ـ في مسألة التجارة والذكر ـ:

القسم الأول: فمنهم من يقدم التجارة على الذكر وهذا خاسر لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩] لو رضوا بالأموال والأولاد فهم خاسرون.

القسم الثاني: من لا تلهيه التجارة والأولاد عن ذكر الله لكن يعمل هذا في محله، وهذا في محله، فهذا رابح ما فاته ماله وولده، ولا فاته ذكر الله أتى لهذا بنصيبه ولهذا بنصيبه.

القسم الثالث: من هو أعلى من هذا، من يجعل تجارته وولده من ذكر الله، بحيث يقصد بهذه التجارة الاستعانة على طاعة ربه، وعلى بذل أمواله فيما يرضي ربه، وكذلك بالنسبة للأولاد: يجعل اشتغاله بهم لتربيتهم، والتأمل في نعمة الله عليه بهم، وما أشبه ذلك، هذه هي المرتبة العُلْيا، وعلى هذا يكون هذا الرجل رابحًا من الطرفين في آن واحد. أما القسم الثاني: فرابح في الطرفين لكن على التناوب يربح في هذا ويعطيه ما يستحق، ويربح في هذا ويعطيه ما يستحق. أما الثالث والأخير: فهذا شأنه كثير، ولكن قَلَّ من يوجد بهذه الصفة وهو نادر جدًّا.

وأكثر الناس اليوم من القسم الأول الذي هو في الحقيقة آخرهم في المرتبة، هو أول في الذكر وآخرٌ في المرتبة.

قوله: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إقام بمعنى: إقامة لكن حذفت التاء تخفيفًا، وإقام الصلاة ليس مجرد فعلها بل هو أمر فوق الفعل؛ لأنه معنى أقام الشيء: جعله قيِّمًا مستقيًا، وذلك بفعل شروطها وأركانها وواجباتها، فما كل مصلٍّ مقيًا للصلاة ولهذا تجدون أن الثناء الذي يذكره الله في القرآن، بل والأوامر التي يأمر الله بها في القرآن غالبًا بالإقامة؛ لأن ذلك هو الأصل ليس مجرد فعل الصلاة، ولهذا نجد أنه يصلي رجلان مع الإمام، أفعالهما واحدة، ودخولهما في الصلاة واحد، وخروجهما منها واحد، ولكن بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض؛ لأن أحدهما أقام الصلاة والآخر صلى فعلًا فقط، لكن الأول أقامها خاشعًا مُستحضرًا مُخلصًا يرجو ثواب الله ويخاف عقاب الله.

إقام الصلاة المذكور في القرآن كثيرٌ، بماذا بُيِّن؟

بُيِّن بالسنة، هناك أشياء بيَّنها القرآن لكن غالب ذلك مبيَّن بالسنة، وبهذا نعرف أن السنة

ضرورية في الشرع، وأن من أنكرها فقد هدم جانبًا كبيرًا من الشرع، وقد وُجِد بعض الناس أنكر السنة ـ والعياذ بالله ـ، وسمعنا أن بعض الزعماء من العرب صاروا يصادرون كتب السنة، قيل لي: إنهم يصادرون البخاري ومسلمًا من المكاتب حتى لا تنتشر سنة الرسول ﷺ بين أمته ـ والعياذ بالله ـ، وهذا لا شك أنه كفر، يعني: كيف يبيح لنفسه أن يصادر كتب الحديث التي تلقتها الأمة بالقبول!!

هم لو صادروا كتبًا مضلة ضعيفة موضوعة لكنا نحمدهم على هذا الأمر، لكن يصادرون كتبًا صحيحة تلقتها الأمة بالقبول وعلمها المسلمون واعتبروها سندًا، هؤلاء لا شك أنهم كفار؛ لأنهم كفروا بسنة الرسول ﷺ بل بالقرآن نفسه؛ لأن الله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ويقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، ويقول: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦] على كل حال الآيات في هذا كثيرة، وبينة وواضحة.

فإقامة الصلاة من هذا النوع ما بيَّنَهَا بيانًا كافيًا إلا سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: إعطائها، والزكاة معروفة لنا وهي: الجزء الذي أوجبه الله تعالى في أموالنا، ولم يُبيِّن المُؤتى إليه لكنه مُبيَّنٌ في القرآن في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة:٦٠].

قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ صفة للرجال لا تلهيهم، وهم أيضًا في هذه الأحوال يخافون يومًا، يخافون في حال تسبيحهم بالغدو والآصال، وفي حال إقامتهم للصلاة، وفي إيتاء الزكاة، وفي حال عدم لهوهم بالتجارة والبيع، كل هذه الأعمال مبنية على هذه العقيدة والأساس، يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصال.

خوفهم من هذا اليوم يدل على إيمانهم به، إذ لا يخاف الإنسان من شيء لا يؤمن به، فهو يدل على أن عندهم تمام الإيمان واليقين باليوم الآخر، ولذلك يخافون هذا اليوم، هذا اليوم وصفه الله بقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ أي: تضطرب ﴿فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ التقلب معروف هو: تغير من حال إلى حال، وهذه القلوب تتقلب وتضطرب وتنتقل من حال إلى حال، يقول: [القلوب بين الهلاك والنجاة] لا يدري الإنسان: هل ينجو أو يهلك، فقلبه متقلب مضطرب، أحيانًا يغلب عليه الرجاء، وأحيانًا يغلب عليه الخوف، كذلك الأبصار تتقلب، يقول المؤلف: [بين ناحيتي اليمين والشمال] لأن الناس كثيرون، ما كأنهم عقلاء، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج:٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ

مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

واحد إذا رأيته كأنه مجنون كأنه سكران من شدة الهول، وما ظنك بالقلب حينئذ لا شك أنه في الحقيقة سوف يتقلب ويضطرب ولا يدري المآل هذا الذي يحصل يوم القيامة.



❁ قال الله تعالى:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

[﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ثوابه و(أحسن) بمعنى: حسن]

اللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ هل هي للعاقبة وأن عاقبتهم هذا، أو هي للتعليل؟

يعني: أنهم يسبحون ويخافون لأجل أن يجزيهم الله أحسن ما عملوا، فيكون هنا جمعوا - على قولنا للتعليل - بين الخوف والرجاء، أو نقول: للعاقبة وأنهم يعملون تلك الأشياء خوفًا من الله عز وجل، فتكون عاقبتهم الأمن التام مع الثواب الجزيل؟

هناك احتمالان: إما أن تكون اللام للعاقبة يعني: أنهم يسبحون ويخافون وتكون عاقبتهم تلك، وهو الأمن مما يخافون وحصول الثواب الجزيل.

أو أنها للتعليل يعني: أنهم يفعلون ذلك لانتظار الجزاء ليجزيهم الله أحسن ما عملوا.

ثم هنا نناقش المؤلف، قال المؤلف: [أي ثوابه] لأنهم في الحقيقة لا يجزون لنفس العمل وإنما يجزون بثوابه، الجزاء: الثواب، لذلك احتاج المؤلف أن يقدر العمل بثواب العمل؛ لأنه هو الذي به الجزاء - هذه واحدة -.

الثاني: يقول: أحسن بمعنى: حسن؛ لأنه تَوَهَّم - المؤلف -، أو ربما يتوهم المتوهم أن الجزاء إنما يقع على أحسن ما يعمل الإنسان، والحقيقة أن الجزاء يقع على الأحسن والحسن، عندما يعمل الإنسان حسن فإنما يكون الجزاء على الحسن والأحسن، ولكن هذا التَّوَهُّم لا يرد على تقدير المؤلف وهو أن المراد ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ ثوابه يصير المعنى: ليجزيهم الله أحسن ثواب ما عملوا، وعليه فلا إشكال إطلاقًا ولا نؤول أحسن بمعنى: حسن؛ لأن تأويل أحسن بمعنى حسن تحريف؛ فلذلك نقول: الآية على ظاهرها واسم التفضيل على ذاته، والمعنى: أنهم يجزون أحسن ثواب بعملهم. كيف ذلك؟

الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والإنسان لو عملت له عملًا

وأعطاك أجرك مرتين يصير هذا أحسن ثواب، لكن ثواب الله أحسن وأحسن؛ لأن الله يضاعف لمن يشاء، فالأولى بل الواجب أن تبقى أحسن على ما هي عليه من التفضيل، نقول: أحسن أي: أحسن ثواب لعملهم، ويكون هنا الأحسن ليس للعمل، وإنما للثواب.

بقي علينا على التقدير الأول ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ لماذا عبَّر، جعل الله تعالى الحُسن للعمل نفسه مع أن الحُسن للثواب؟ إشارة إلى أن الجزاء بقدر العمل ولذلك عُبِّر به عنه؛ لأن العمل كما تدين تُدان، فالإنسان الذي لا يصلي - مثلًا - هل له ثواب المصلي؟ لا، والذي لا يزكي لا يثاب ثواب المزكي وهكذا، فالجزاء على العمل، ولذلك عُبِّر به - أي بالعمل - عن جزائه، إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، لكنه جزاء أحسن ما يكون.

[وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقال: فلان يُنفق بغير حساب أي: يُوَسِّع كأنه لا يَحسِبُ ما ينفقه].

قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ هذا زائد على ثواب العمل، وذلك ما يحصل من زيادة الأعمال الصالحة، وزيادة الرزق في الدنيا، وزيادة ما يُدَّخَر لهم عند الله في الجنة، كالنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث الصحيح في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] أن المراد بالزيادة النظر إلى الله.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ المعنى: أنه سبحانه وتعالى يُعطِي بغير تقدير، لكن ما معنى بغير تقدير؟ كيف نقول بغير تقدير مع أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

الجواب: أن هذا كناية عن كثرة العطاء، ولهذا يُقال كما قال المؤلف: فلان ينفق بغير حساب، يعني: يعطي عطاءً كثيرًا لا حدَّ له، وإلا فإن الله قد قدره بعلمه وحكمته، فكل شيء حتى نقطة المطر إذا نزلت في الأرض فإنها بمقدار.

إذنْ يكون معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير مقدار، وهو كناية عن كثرة ما ينفق لا عن كونه ينفق هكذا بدون أن يشعر بما ينفقه، فهو سبحانه وتعالى يعلم ما يرزق، وكيف يرزق، وأين يرزق، ولكنه تعالى لكثرة عطائه كالذي لا يحسب.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** فضيلة المساجد، ونستدل عليه بقوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ فإن إِذْنَ الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه يدل على شرفها؛ لأن المكان يشرف بشرف العمل فيه، كما أن الزمان أيضًا يشرف بشرف العمل فيه.

لماذا كان رمضان شريفًا؟ لمشروعية الصيام فيه، وإنزال القرآن.

ولماذا كانت الكعبة شريفة؟ لأن فيها المناسك، وذكر الله على ما رزق من الأنعام وهكذا.

إذنْ يستفاد من ذلك شرف المساجد؛ لأنها محل ذكر الله عز وجل وتعظيمه.

٢ - **ومن هذه الفوائد:** مشروعية تعظيم المساجد ومن ذلك ـ من تعظيمها ـ أن تُطَيَّب، ومن ذلك أيضًا: أن تُنَظَّف عن الأذى والأقذار، هل نقول: ومن ذلك أن تُزَخْرَف؟ لا، ولهذا جاء في الحديث: «**مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيْدِ المَسَاجِدِ**» وعن ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى.

فالزخرفة هذا شيء لا يليق بالمساجد؛ لأن المساجد ليست بيوت دنيا، وإنما هي بيوت عمل للآخرة، لكن تنظف عن الأذى والأقذار وتُطَيَّب، وفرق بين التنظيف عن الأذى وبين إحداث الزخرفة، فإن التنظيف عن الأذى تنقية، لكن الزخرفة إيجاد أشياء لا تتناسب مع المساجد.

ومن تعظيم المسجد ألا تدخل بالنعلين إلا وقد نظرت فيه وعلمت نظافته، فإذا نظفته ادخل به، والسنة أن تصلي في النعلين؛ لأن النبي ﷺ أمر بذلك وفعله بنفسه أيضًا.

٣ - **ومن فوائدها:** تعظيم شأن المساجد لقوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ فإن هذا دليل على تعظيم شأنها. وبيَّنا أن الإذن ينقسم إلى قسمين: شرعي وكوني، والفرق بينهما: أن الشرعي ما يتعلق فيما شرعه الله وأحبه، والكوني فيما قدره سواء شرعه أو لم يشرعه وذكرنا على ذلك أمثلة.

٤ - **وفيها أيضًا:** فضيلة ذكر الله سبحانه وتعالى في المساجد لقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** فضيلة تنظيف المساجد وحمايتها من الأذى لقوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾؛ فإن هذا من رفعها، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى القَذَاةَ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ المَسْجِدِ**»[1].

٦ - **ومن هذه الفوائد:** أن الذكر الأفضل أن يكون بالقلب واللسان، ويؤخذ من قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾؛ لأنه لا يمكن ذكر الاسم إلا باللسان.

٧ - **من فوائدها:** فضيلة التسبيح لقوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾.

٨ - **ومن هذه الفوائد:** الجمع بين إثبات الكمال لله ونفي النقص عنه، ويؤخذ من قوله: ﴿وَيُذْكَرَ﴾ و ﴿يُسَبِّحُ﴾ يذكر فيها اسمه: هذا إثبات صفة الكمال، ويسبح: نفي صفة النقص، وسبق لنا قاعدة مهمة في باب التوحيد في الأسماء والصفات: أن النفي لا يُراد به مجرد النفي وإنما يراد مع النفي إثبات كمال ضده، فإذا نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه أنه يظلم ليس معنى ذلك مجرد نفي الظلم، ولكن من أجل إثبات كمال العدل؛ لأن نفي الظلم مثلًا قد يكون من العجز عن الظلم، وقد يكون لعدم قابلية هذا المحل لكونه ظالمًا.

قلنا مثلًا: إنه يقال: الجدار لا يظلم؛ لأنه ليس قابلًا للظلم، القابلية معدومة.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩١٦)، وأبو داود (٤٦١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٧٠٠).

وتقول مثلًا: هذا الرجل الضعيف المهين لا يظلم لعجزه فلا يكون مدحًا، لكن عندما تقول لقادر قابلٍ لأن يكون ظالمًا من حيث هو ذاته، فهذا دليل على كمال عدله، ولهذا نفى الله الظلم عن نفسه، ولو كان غير قابل للظلم كما قالت الجبرية ما صح النفي.

٩ - ومن فوائدها: فضيلة التسبيح في الصباح والمساء إذا قلنا إن المراد ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ هذين الوقتين، فإذا قلنا المراد ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ معناه: الاستمرار دائمًا وإنما ذُكِرَ هذان الوقتان لأنهما طرفا النهار لم يكن في هذا دليل على تخصيص هذين الوقتين؛ لكن الظاهر من الأدلة أن لهذين الوقتين مزية؛ لأن الله دائمًا يأمر بالتسبيح بهما يعني: في هذين الوقتين.

١٠ - ومن هذه الفوائد: دليل على أنه كلما قوي الصارف ولم ينصرف الإنسان فهو أكمل ممن لا صارف له، وتؤخذ من أن هؤلاء الرجال لو كانوا لا يعرفون التجارة ولا يستطيعون التجارة قلنا إن لجوءهم إلى بيوت الله من باب الضرورة لكنهم قوم لهم تجارة؛ الصارف عن ذكر الله في المساجد موجود وهو التجارة، لكنهم مع ذلك لا تلهيهم.

١١ - ومن فوائدها: دليل على جواز الاتجار، ووجهه أنه أثبت أنهم يتاجرون في مقام المدح، ولو كان الاتجار حرامًا أو مذمومًا ما صح أن يؤتى به في سياق المدح، فالتجارة لا بأس بها، لا يقال للإنسان لا تتجر لا تعمل، ولكن على كل حال للناس أغراض في تجاراتهم.

أحد الناس يُريد بالتجارة أن تكون وسيلة له إلى الآخرة، وأناس يريدون بالتجارة الدنيا فقط، واختلاف الناس في هذا باب واسع فمن اتجَرَ ليكسب مالًا يعين به محتاجًا ويتقرب به إلى الله ويفعل مشاريع الخير هذا يحمد عليه، ولهذا جعله النبي ﷺ قرينًا للعلم النافع حيث قال: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يُعَلِّمُهَا، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ بِالحَقِّ**»[1] فهذا دليل على فضيلة المال إذا كان عونًا على طاعة الله.

١٢ - ومن هذه الفوائد: دليل على فضيلة إقامة الصلاة، ووجه ذلك: أن الصلاة هنا من ذكر الله، وخصها بالذكر من بين الذكر، والتخصيص بعد التعميم يدل على فضيلة المُخَصَّص ومزيَّته، وذلك كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] الروح: جبريل خصَّه بالذكر مع أنه من الملائكة لشرفه وفضله، وتخصيص الصلاة إقامتها بعد ذكر ما هو أعم دليل على مزيتها، وكذلك أيضًا إيتاء الزكاة، وهاتان العبادتان هما أفضل العبادات بعد التوحيد والرسالة؛ لأن إقام الصلاة هي الركن الثاني وإيتاء الزكاة هي الركن الثالث، ودائمًا يَقْرِنُ الله سبحانه وتعالى بينهما في القرآن.

١٣ - ومن فوائدها: دليل على أن من تَعَبَّد لله خوفًا فهو محمود، وتؤخذ من قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على من تَعَبَّد خوفًا من العذاب فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٠٩)، ومسلم(٨١٦).

كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧] وهنا قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وأثنى الله تعالى على من تعبَّد طلبًا ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩] وفي هذا ردٌّ بيِّن على من ذهب من الصوفية أو غيرهم إلى أن الأفضل في التعبد أن لا يقصد الإنسان حظًّا لنفسه، وإنما يعبد الله لذاته فقط، يعني: عندما تعبد الله لا تقصد أنك تريد فضل الله أو تحذر عقابه، يقول: أعبد الله لله.

فيقال لهم: لستم أكمل حالًا من النبي ﷺ وأصحابه، وقد ذكر الله أنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ولستم أكمل حالًا ممن أثنى الله عليهم من الأبرار ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان:٥] إلى أن قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، ولا شك أن الإنسان الذي يعبد الله سبحانه وتعالى لينال فضله وينجو من عقابه هو يريد الوصول إلى رضوان الله وإلى رؤية الله عز وجل؛ لأن من جملة النعيم في الجنة رؤية الله سبحانه وتعالى.

١٤- ومن هذه الفوائد: دليل على عظم يوم القيامة وأهواله الشديدة لقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ والقلوب هذه ليست خاصة، بل (أل) فيها للعموم، يعني: كل القلوب تتقلب، وكل الأبصار تتقلب، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يخافون ويخشون، ولكن مع ذلك أهل الخير يُؤَمَّنُونَ مع خوفهم، ومعلوم أن الذين يُؤَمَّنُونَ لا شك أنه يهون عليهم هذا اليوم، ولهذا قال الله تعالى في يوم القيامة: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠] وقال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦] فيُفهم منه أن هذا اليوم مع عظمه وأهواله وشدته يكون على المؤمنين يسيرًا، وإلا فهو في ذاته عظيم جدًّا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

١٥- ومن هذه الفوائد: دليل على أن الجزاء من جنس العمل بل هو في الطاعات أحسن من العمل، ويؤخذ من قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ شيئًا فوق ما عملوه.

١٦- ومن فوائدها: دليل على علم الله عز وجل؛ لأنهم إذا كانوا يجازون بأحسن ما عملوا فلا مجازاة إلا بعد علم المجازي، يعلم ما عَمِل ثم يجازيه عليه.

١٧- ومن هذه الفوائد: إثبات القدرة من إثبات الجزاء، فإنه لا يجزي إلا من كان قادرًا، لو أنك صنعت إلى إنسان معروفًا فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ صَنَعَ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[1] فالله سبحانه وتعالى من تمام قدرته لا ينقصه ما أعطى العاملين من ثوابهم وأجرهم.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٦٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦)، والنسائي (١/ ٣٥٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦١٧).

١٨- ومن فوائدها: إثبات المشيئة لله ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، وإثبات المشيئة لله في حقه أي: فيما يتعلق بفعله - أمر متفق عليه فيما أعلم - ما خالف فيه أحد من المبتدعة ولا غيرهم، ومشيئة الله بالنسبة لما يتعلق بأفعال الخلق خالف فيها طائفة تسمى القدرية؛ حيث زعموا: أن العبد مستقل بعمله وأنه لا تعلُّق بمشيئة الله به، حتى أن بعضهم أنكر العلم، وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى لا يعلم بأعمال العبد إلا بعد أن يفعلها، أما قبل ذلك فإنه لا يعلم - سبحانه وتعالى -، وأنكروا النصوص الصحيحة الصريحة في إثبات علم الله سبحانه وتعالى في كل شيء حتى في أعمال الإنسان.

١٩- ومن فوائدها: قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ كثرة رزق الله عز وجل وأنه سبحانه وتعالى يُعطي بغير حساب وليس معنى بغير حساب أي: بغير تقدير لماذا ؟لماذا نقول ذلك؟

لأنه قال: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، حتى القطرة التي تنزل من السماء إلى الأرض هي مقدرة عند الله سبحانه وتعالى ولكن ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: أنه لا يُكافِئُ الإنسان بحساب، بل بكثرة كثيرة.

وهذا معروف يقال: فلان ينفق بلا حساب يعني: ينفق إنفاقًا كثيرًا.



قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور:٣٩]

التفسير

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أعمال هؤلاء الرجال، تلك الأعمال الفاضلة، ذكر أعمال الذين كفروا ما شأنها، وهذه طريقة الله تعالى في كتابه، إذا ذكر وصف المؤمن ذكر بعده وصف الكافر أو بالعكس، وإذا ذكر وصف الجنة ذكر بعده وصف النار أو بالعكس؛ لأن القرآن مثاني تُثَنَّى فيه المعاني ويقابل بعضها ببعض؛ ولأن الإنسان إذا ذُكِرَت له أوصاف أهل الخير وأوصاف الجنة قد يغلب عليه جانب الرجاء فيهلك، وإذا ذكرت صفات أهل النار وصفات أهل الشر يغلب عليه الخوف فيهلك أيضًا، ولهذا اختلف أهل العلم هل الأولى أن يُغَلِّب الإنسان جانب الرجاء، أو جانب الخوف، أو يجعلهما سواء؟

فقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون رجاؤه وخوفه واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلب عليك الخوف وقعت في القنوط من رحمة الله، وإن غلب عليك الرجاء وقعت في الأمن من

مكر الله وكلاهما طريق لا يليق بالمؤمن.

وقال بعض العلماء: ينبغي للمريض أن يغلب جانب الرجاء لقول النبي ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»(١)، وينبغي للصحيح أن يغلب جانب الخوف.

وقال آخرون: ينبغي عند فعل المعصية أن يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يرتدع، لأنه لو غلب جانب الرجاء وقال الله غفور رحيم، وأرجو أن يغفر الله لي، أمن المعصية، وعند فعل الطاعة يغلب جانب الرجاء، أن الله سبحانه وتعالى يقبل منه ويثيبه حتى لا ييأس، ويدل على ذلك مثل قول النبي ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ»(٢)، كذلك اعبد الله وأنت على رجاء أن يتقبل منك.

وعلى كل حال هذا القول ـ في ظني ـ أنه أرجح الأقوال؛ لأنه عندما يكون الإنسان في حال التعبد وفعل العبادة يغلب الرجاء، ليس معناه أن يجزم بالرجاء؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] يعني: خائفة ألا يقبل منها لكن المعنى أنه يُغَلِّب هذا مع الخوف، وأما عند فعل المعصية يُغَلِّب جانب الخوف لأجل أن لا يقدم عليها معتمدًا على الرجاء.

على كل حال، القرآن الكريم يذكر الله تعالى فيه هذا وهذا ليكون سير الإنسان معتدلًا.

[قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ جمع قاع: أي في فلاة وهو شعاع يُرى فيها نصف النهار في شدة الحر يشبه الماء الجاري] هذا تفسير للسراب، والقيعة هي: الفلاة.

السراب بالقيعة في شدة الحر عندما تكون في فلاة من الأرض، قيعة جمع قاع بخلاف الرملية ما يكون بهذا الشيء، لكن القيعان تَرى من بُعْد كأن في ذلك الجانب ماء، فتظنه ماءً فتقصده، هؤلاء الكفار أعمالهم هكذا، مثل السراب بالقيعة يحسبه الظمآن ماءً وليس بماء، كيف ذلك؟ لأنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣].

ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فيظنون أن هذا الشرك ـ الذي يبعدهم عن الله حقيقة ـ يظنونه يقربهم إلى الله عز وجل، يظنون هؤلاء الشفعاء الذين سيتبرئون منهم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة:١٦٦] يظنونهم شفعاء، والنفس إذا تعلقت بالشيء على أنه شفيع، أو أنه مُقرِّبٌ لها إلى الله تتبعه بلا شك؛ هؤلاء أعمالهم مثل السراب بالقيعة.

[﴿يَحْسَبُهُ﴾ يظنه ﴿الظَّمْآنُ﴾ أي: العطشان ﴿مَاءً﴾] هذا تشبيه بليغ يعني: أنه يقصده بشدة ولهف معتقدًا أنه مُنقِذه، فالعطشان محتاج للماء، فإذا رأى ما يشبه ماء قصده بشدة ولهف لأجل أن يدفع ضرورته به، هل يظنه ينفعه أم لا؟ نعم، يظنه ينفعه ولولا أنه يظنه ينفعه ما ذهب إليه، لكن النتيجة: [﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما حسبه كذلك].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥).

إذا جاءه لم يجده شيئًا، فتكون حاله حينئذٍ خيبة أمل عظيمة ـ والعياذ بالله ـ ما يتصورها أحد.

يقول المؤلف: [كذلك الكافر يحسب أن عمله كصدقة تنفعه، حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد عمله، أي: لم ينفعه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عند عمله ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: أنه جازاه عليه في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: المجازاة].

هذا الكافر، يظن أن عمله ينفعه، وتمثيل المؤلف لذلك بالصدقة فيه نظر، إلا إذا قصد بذلك ضرب المثل فهذا صحيح، هذا من جملة الأعمال التي يفعلها الكفار، ويظنون أنها تنفعهم وهي لا تنفعهم، ولكن ينبغي أن يقال هي أعم من ذلك، ليس المراد فقط الصدقة بل حتى عبادة الأصنام يظنونها تنفعهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] ومع ذلك هذا كله لا ينفعهم سوف لا يجدون شيئًا ما يظنونه ويحسبونه.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عند هذا السراب؛ لأنه الآن وصل إلى الموت، فإذا مات فقد لاقى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ هذا ظاهر السياق.

أما على رأي المؤلف فيجعل [﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عند عمله]، تفريعًا على قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، لأن الذين كفروا عام فكأنه قال: (والذين كفروا) أي: الكافر عمله كذا وكذا كسراب بقيعة حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده أي: عند ذلك العمل لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، لكن ظاهر الآية أن الضمير يعود على أقرب مذكور، وهو هذا العطشان الذي وصل إلى الماء فلم يجد شيئًا فسيهلك، فوجد الله عنده ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. ﴿حِسَابَهُۥ﴾ يعني: جزاء عمله.

وقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: المُجازاة، ما المراد بالسرعة هنا؟ هل المراد: القرب لوقت المجازاة فتكون السرعة زمنية، أو المراد: إنجاز الحساب فتكون السرعة عملية، أو كلاهما؟ ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ هل المعنى: أنه سريع في محاسبته، أو معناه: حسابه للعباد قريب؟ يحتمل الاثنين فالحساب قريب، حتى وإن طالت الدنيا بالإنسان فإنها قليل ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧].

وكذلك عندما يحاسب الله الخلائق يوم القيامة يحاسبهم في نصف يوم، كما قال الله عز وجل ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤] استنبط العلماء من ذلك أنهم سيقيلون في منازلهم في نصف ذلك اليوم.

ولكن على كل حال: اليوم الذي أشار الله إليه مقداره خمسين ألف سنة، ومهما يكن من شيء فالله قادر على ما هو أبلغ من ذلك؛ لكن مع هذا، هذه سرعة عظيمة وقدرة بالغة، حتى لو الخمسين ألف سنة منها خمس وعشرون ألف سنة، الخلائق من أولهم إلى آخرهم ما بين آدمي وجني وطير وغيرهم في نصف يوم.

الآن لو حاسب الإنسان شخصًا يعامله لمدة سنة كم يبقى - إذا كان الحساب دقيقًا وكثيرًا -،

يبقى مدة، وقد يكون الحساب مضبوطًا وقد لا يكون مضبوطًا، أما حساب الله عز وجل فهو - مع سرعته - لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، هذا مثل لكافر عَمِلَ للتقرب إلى الله عز وجل أو مثل آخر:



قال الله تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]

التفسير

وقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾، ﴿أَوْ﴾ هنا ليست للشك - بلا ريب -؛ لأن الله تعالى منزَّه عن الشك، فالشك إنما يكون لقصور علم الإنسان أو لقصور علم الشاكِّ، أما الله عز وجل فعلمُه واسع يعني: لا يمكن أن يقول الله: إن الذين كفروا أعمالهم إما مثل هذا أو مثل هذا على سبيل الشك، كما تقول مثلًا: أنا رأيت هذا الشيء وهو يشبه كذا أو كذا، هذا لا يمكن أن يكون في حق الله عز وجل.

إذنْ، فـ﴿أَوْ﴾ للتنويع في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ يعني: ﴿أَوْ﴾ أعمالهم ﴿كَظُلُمَاتٍ﴾.

[﴿أَوْ﴾ الذين كفروا أعمالهم السيئة ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ أي: عميق ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ﴾ أي: الموج ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ﴾ أي: الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ أي: غَيْمٌ هذه ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر، وظلمة الموج الأول، وظلمة الثاني وظلمة السحاب] أربع ظلمات [﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ الناظر ﴿يَدَهُ﴾ في هذه الظلمات ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي: لم يقرب من رؤيتها ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ أي: من لم يهده الله لم يهتد].

هذا قسم ثانٍ من الكفار، الأول: في حال الكافر المجتهد الذي يظن أن عمله ينفعه، وهذا الثاني: في حال المقلد؛ لأنه لا يدري؛ في ظلمة يسير مع هذا العالَم ومع الكفار وهو لا يدري.

قوله: ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ البحر معروف، واللجي أي: العميق وكلما كان البحر أعمق كانت ظلمته أشد، هذا أيضًا ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أي: يغطيه، يغطي هذا الكافر ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أيضًا أمواج عالية.

قوله: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ ما هو حد الموج الثاني من الأول؟ علوه؛ لأنه في الحقيقة سيكون أظلم كلما علا ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ إما أن يقال: بالاتجاه؛ يعني: يتلاقى أحدهما أتى من

هنا والثاني أعلى منه، جاء من جهة ثانية حتى يتبين علو هذا على ذاك، أو أنها أمواج ثلاثة؛ يعني مثلًا موج مقبل ووراءه موج آخر أرفع منه، فإذا لحقه صار موجًا ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾، أما أن يكون موجًا واحدًا ما يمكن أن يكون فوق (أعلى من بعض)، ومن شاهد البحر وجد الأمر كذلك، تجد أمواجًا متلاحقة. أحيانًا إذا انعكس الهواء تتقابل، وأحيانًا تتلاحق لكن هذه المتلاحقة أيضًا - سبحان ربي العظيم - تجدها مثل الدرج يعني: بعضها فوق بعض، هذا هو ما ضربه الله - تعالى - في المثل.

قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ والسحاب في الحقيقة مراتب في الجو، ليس هو على ظننا أنه في طبقة واحدة، لا إنه في طبقات متباعدة جدًّا، وهذا يعرفه الإنسان إذا ركب الطائرة يجد أحيانًا سحابًا بينه وبين الطائرة من أسفل مثل ما بين السحاب والأرض، والسحاب من فوق بينه وبينه مثل ما بين الطائرة والأرض، وهو بينهما، وهذا شيء مُجرَّب وَمُشَاهَد، فالظاهر - والله أعلم - أن قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ مثل قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ بمعنى: أن السحاب يكاد يكون ملاصقًا لهذه الأمواج، ومنه الضباب، فهو لا شك أنه يقرب من سطح البحر.

ويمكن أيضًا أن المراد بالسحاب: ما يشمل الضباب؛ لأن حقيقة الأمر أن الضباب سحاب؛ لأنه ينسحب على الأرض، فإذا تبين ذلك صارت الظلمة كثرتها واضحة جدًّا.

وقوله: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ التهويل في هذا المثل، كان يكفي أن يُقال: من فوقه سحاب، لكن لأجل تهويله في النفس وبيان عظمته قال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ثم ضرب مثلًا فقال: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ من أقرب ما يكون لك: اليد؛ بل هي أقرب شيء لك من الأعضاء المتحركة التي يمكن أن تُرى ويمكن أن تُخرج، إذا أخرج يده ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ وهل معنى أنه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أنه يراها بصعوبة أو لا يراها؟ قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] ذبحوا أم لا؟ ذبحوا.

يقول النحويون: إن (كاد) إثباتها نفي، ونفيها إثبات؛ فإذا قلت: لم أكد أفعل فمعناه: فعلت، لكن بعد جهد، و﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ على هذه القاعدة رآها لكن بَعد بُعد الرؤية وصعوبتها، لكن الظاهر كما قال آخرون من النحويين: أن (كاد) مثل غيرها، نفيها نفي، وإثباتها إثبات، لكن هي بمعنى (قارَبَ) فإذا قلت كدت أفعل أي: قاربت أن أفعل، هل أنت فعلت أم لا؟ ما فعلت، لكن قاربت، هل هي أثبتت أم نفيت الآن؟ أثبتت المقاربة، لكن علمنا انتفاء الفعل من المقاربة.

وقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يقرب أن يراها كما قال المفسر.

إذنْ: إذا لم يقرب يراها فانتفاء الرؤية من باب أولى، وأما قوله - تعالى -: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] هذا لولا قوله ذبحوها ما دلت الآية على أنهم ذبحوها، لكن معنى ذبحوها بعد أن كادوا أي: بعد أن كانوا بعيدون عن الذبح، وما قصدوه وما نَوَوا أن يتمثلوا؛ بل

قالوا لنبيهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] بعد هذا البعد عن الفعل، وبعدما أجيبوا لطلباتهم ذبحوها.

تصير الآية على ما هي عليه، وفي هذا أيضًا كغيرها من الأفعال نفيها نفي، وإثباتها إثبات، لكن لـمَّا كانت تدل على القرب صار الرجل إذا قال: كدت أن أفعل معناه: ما فعل؛ لأن كلمة قاربت الفعل يعني: ولم أفعل، أي: لم أكد أفعل، إذا ما سبق شيء يدل على الفعل، فإنه يقين ما فعل، مثل قول عمر: ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس أن تغرب، يعني: ما قاربت صلاة العصر، إذنْ ما صلَّاها، يعني: ما قاربت صلاة العصر حتى قاربت الشمس الغروب، فلما قاربت الشمس الغروب قاربت صلاة العصر، هو ما صلى إلا بعد الغروب مع النبي - عليه الصلاة والسلام -، لكن كأنه في الأول ما تهيَّأ له أن يقرب من الصلاة فضلًا عن أن يصليها، المعنى: أنه شغلهم الكفار إلى قُرب غروب الشمس، فما قارب أن يصلي - ومقاربة الصلاة بالتهيُّؤ لها - يقول: ما تهيأت للصلاة حتى قربت الشمس أن تغرب، ولهذا صلى مع النبي ﷺ صلاة العصر بعد غروب الشمس.

فالحاصل إذنْ أن الصحيح خلاف ما قاله بعض النحويين: إنَّ (كاد) إثباتها نفي ونفيها إثبات، بل الصواب: أن (كاد) كغيرها: إثباتها إثبات ونفيها نفي، لكنها هي بمعنى المقاربة؛ ولهذا هي عُدَّت عند النحويين من أفعال المقاربة.

فمن نفى أن يقارب الشيء فإنه قطعًا لم يفعله، ومن أثبت أنه مقارب له فهو أيضًا لم يفعله، لأن كلمة قاربت من الفعل أي: لم أفعله - هذا معناه - فإذا قيل: لم أكد أن أفعل كذا ولم يسبق ما يدل على فعله فإنه لم يفعله، فإن سبق ما يدل على فعله مثل قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] دَلَّ ذلك على أنهم كانوا قبل الذبح بعيدين عن الامتثال، ولا كادوا يفعلون إلا بعد الإلحاح، وبعدما قالوا: ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾ [البقرة:٦٨] وبُيِّن كما طلبوا بعد ذلك أُجيبوا.

هذا مَثَلٌ ينبغي للإنسان أن يعتبره بنفسه عندما يؤمر بالأمر، لا يجادل ويورد إيرادات؛ لأن هذا خطير، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] ولهذا يجب على المسلم إذا علم بالشرع أن يستسلم ولا بأس فيما بعد - أي: بعد أن يمتثل - أن يعلم الحكمة؛ لأن معرفة الحكمة لا ينافي الانقياد، لكن المهم أن يستسلم أولًا، ولا يرد إيرادات وشبهات ولم كذا ولم كذا ثم بعد ذلك يفهم إذا شاء.

إذن بيَّن الله تعالى أن أعمال الكفار تنقسم إلى قسمين:

قسم ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾، وقسم آخر: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾.

وهذا التقسيم وهذا التنويع باعتبار حال الكفار الأول - والله أعلم -: لمن عنده فهم واجتهاد، والثاني: لمن عنده جهل وغباء كعوامهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ يعني: الذي لم يجعل الله له نورًا لم يكن له نور ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ أي: [أي: من لم يهده الله لم يهتد] جعل المؤلف هنا النور نورًا معنويًّا أي: من لم يُنوِّر الله قلبه بالعلم والإيمان فلا أحد يُنوِّر قلبه ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

مثل هذه الآيات التي يذكرها الله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ [الإسراء:٩٧] وما أشبهها، هل الغرض منها تقرير مذهب الجبرية كما استدلوا بها أو الغرض شيء آخر؟

الجواب: قطعًا ليس الغرض من ذلك تقرير مذهب الجبرية؛ لأن الجبرية مذهبهم باطل، يبطله الحس الشرعي، والعقل، والفطرة، لكن الغرض من ذلك ألا يعتمد الإنسان على نفسه، وأن يكون دائمًا يلجأ إلى الله عز وجل، في طلب الهداية، وطلب النور، وطلب التوفيق وغير ذلك، وإلا فمن المعلوم أن الله لا يقر أمرًا باطلًا يبطله العقل والحس، فعلى كل حال يقول الله: إذا لم يجعل للإنسان نورًا يهتدي به ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ وأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ وأكد انتفاء النور عنه في ﴿مِن﴾ الزائدة في قوله: ﴿مِن نُّورٍ﴾؛ لأن ﴿مِن﴾: زائدة، و﴿نُّورٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أي: فليس له نورٌ.

فإذنْ نعلم بهذا أن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يتصرف في ملكه كما يشاء، وأنَّ من أعطاه الله النور فهو على نور من ربه، ومن لم يعطه الله نورًا ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، ومن أين يأتيه النور، وقد حجب الله النور عنه؟ ولكن اعلم أيضًا أن حَجْبَ الله النور عن العبد ليس منعًا لفضله تبارك وتعالى، فإنه ذو الفضل العظيم، والعطاء أحبُّ إليه من المنع، والهداية أحب إليه من الإضلال، ولكن لأن المرء نفسه هو الذي منع عن نفسه هذا النور، واتلُ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، واتلُ قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: عن الحق وأعرضوا عنه ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] يتبين لك أن إضلال الله للعبد، وحَجْب النور عنه بسبب نفسه، هو الذي - والعياذ بالله - لم يهتدِ.

فعلى كل حال هذه الآية تدل على أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى الله دائمًا، بأن يسأله أن يُنوِّر قلبه؛ لأن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، هذا منطوق الآية.

مفهوم الآية: مَن جعل الله له نورًا فلا أحد يحجب عنه نور الله عز وجل.



قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١]

التفسير

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام الداخل على النفي، وإذا دخل الاستفهام على النفي أفاد التقرير، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] يعني: قد شرحنا لك صدرك.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني: قد رأيت، فهمزة الاستفهام إذا دخلت على النفي تفيد التقرير أي: إثبات ما ذكر، لا نفيه مثلًا قال الله لنبيه ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ما معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾؟ يعني: قد شرحنا لك صدرك، يقرر الله تعالى أنه شرح صدر النبي ﷺ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠] معناها: قد علمت، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ يعني: قد رأيت.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هل الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه؟ الظاهر العموم ألم تر أيها المخاطب لا أيها النبي؛ لأن ذلك أشمل وأعم.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ هل هذه الرؤية بصرية أو علمية؟

إذا جعلتها بصرية صارت الرؤيا خاصة بما يُفعَل لا بما يقال ولا بما يُعلم بالعقل، وإذا جعلتها علمية، شملت ما يعلم بالقول وبالبصر وبالذهن وحينئذٍ الأولى أن تكون علمية، يعني: ألم تعلم، سواء كان علمك عن طريق المشاهدة بالبصر أو عن طريق السمع بالأذن، أو عن طريق الاستنتاج بالعقل والتفكير، فعليه نقول: المراد بالرؤيا هنا: العلم ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ سواء كان هذا العلم عن الرؤية بالعين أو السمع بالأذن أو الاستنتاج بالعقل والذهن، وهذه الثلاثة هي طرق العلم كما قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

إذنْ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ علمًا ناتجًا عن هذه الأمور الثلاثة أو عن واحد منها ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن التسبيح صلاتهم.

أتى بـ ﴿مَن﴾ التي للعاقل؛ لأن التسبيح أظهر بالعقلاء من غير العقلاء، وهذا التسبيح يشمل التسبيح بالقول وبالحال، بالقول مثل: سبحان الله، وبالحال: أنك إذا تأملت خلقه وما جُبِلَ عليه، علمت بذلك أن الله تعالى مُنزَّه عن العبث وعن النقائص، يسمي هذا التسبيح بالحال.

إذا قلنا: التسبيح بالمقال فمن المعلوم أن الكافر لا يسبح الله بمقاله، يعني: لا يقول: سبحان الله؛ لأنه يصف الله بالعيب، ويزعم مع الله شريكًا، لكنه مسبح لله بحاله، فإن حاله وما جُبل عليه وانصرافه عن الحق مع وضوحه، وما أشبه ذلك، مما يدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى حكمته.

وقوله: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يشمل الملائكة، وتسبيح الملائكة لم نعلمه نحن عن طريق الرؤية، ولكن عن طريق الوحي الذي يكون بالسمع، سمعنا من نبينا ﷺ أن الملائكة تسبح الله وسمعنا قول الله - عز وجل - أن الملائكة تسبح لله.

قال: [﴿وَالطَّيْرُ﴾ جمع: طائر بين السماء والأرض ﴿صَافَّاتٍ﴾ حال باسطات أجنحتهن].

الطير: معطوفة على ﴿مَن﴾ يعني: وتسبح له الطير، ﴿صَافَّاتٍ﴾ حال من الطير، يعني: هي أيضًا تسبح الله ـ سبحانه وتعالى ـ في حال صفوفها أي: بسط أجنحتها أي: بسطها، هذا التسبيح حالي أو مقالي؟ نحن نعلمه حاليًا، ولكن ربما يكون أيضًا مقاليًا، ربما أنها في حالة مد أجنحتها وبسطها تسبح الله؛ لأن الطير لها نطق.

قال الله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، فكل شيء ينطق، حتى الحصى ينطق، وقد سُمع تسبيح الحصى بين يدي الرسول ﷺ، كل شيء يسبح، بل قال الله في آية أخرى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وهنا قال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ ولم يذكر السموات، ولم يعمم في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ لأنه هناك قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وهنا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ﴾ فأثبت علمنا بهذا التسبيح وهو ليس شاملًا كما في الآية الثانية.

قوله: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أما تسبيح الطير تسبيح مقال فهذا ما نعلمه لكن بلسان الحال نعلمه، فإن صفوفها في الهواء بين السماء والأرض وعدم سقوطها، واتجاهها يمينًا وشمالًا، والرياح مع عصوفها لا تحجبها عما تريد، هذا مما يدل على كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ، الرياح التي تقلقل الجبال والسيارات ما تحجب الطائر عن اتجاهه! ويتجه معاكسًا للرياح ـ هذا شيء مُشاهد ـ ولا يبالي، وهذا من تمام قدرة الله ـ عز وجل ـ.

هذا الطير الصغير الضعيف الذي يمكن للريح أن تحمله إذا كان متجهًا لا ترده الرياح، هذا من تمام قدرة الله عز وجل، ومن تمام القدرة أيضًا أنك تجده في أيام الشتاء الباردة القارصة يطير بين السماء والأرض بهذه السرعة، وفوق أيضًا، ولا يتأثر بهذا البرد، كل ذلك دليل على كمال قدرة الله عز وجل، ثم أعظم من ذلك كله قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾.

[﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ الله ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾].

علم فعل ماضٍ فيها ضمير مستتر - على كلام المؤلف - يعود على الله.

والقول الثاني: فاعل عَلِم يعود على ﴿مَن﴾ وما عطف عليها يعني: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ كلٌّ مِن هؤلاء المسبحين ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يعني: أن الله تعالى ألهم هذه الأشياء، حتى عرفت كيف تُسبِّح الله عز وجل وكيف تصلي له.

وأما عِلْمُ الله في ذلك فمفهوم من قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، وعلى رأي المؤلف يكون في الآية شبه تكرار ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هذه الجملة هي الأولى على رأي المؤلف، ولكن الصحيح أن قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ أي: كل من هؤلاء المسبحين قد علم هو نفسه صلاته وتسبيحه.. بأي شيء علم؟

أما بالنسبة للبشر، وكذلك الجن فقد علموا بطريق الرسل، الرسل أرسلهم الله ليُعلِّموا الناس كيف يصلون وكيف يسبحون الله - عز وجل -، وأما البهائم والحيوانات الأخرى فإنها عَلِمَتْ صلاتها وتسبيحها بما ألهمها الله - عز وجل - ولكل منها صلاة وتسبيح خاص، قال الله - سبحانه وتعالى - على لسان موسى ردًّا على فرعون عندما قال: من ربكما يا موسى؟ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]؛ لأن هذه الهداية كما تشمل الهداية في الأمور التي تحفظ أجسادها، كذلك تشمل الهداية للأمور التي ألهمها الله سبحانه وتعالى من التسبيح والصلاة.

إذنْ الصواب أن الفاعل في علم يعود على المُسبِّحِ، وأما علم الله بما فعلت فهذا مفهوم من قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [قال: فيه تغليب العاقل]

لأن يفعلون: الواو للعاقل، ومعلوم أن ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يشمل العاقل وغيره، لكن الآية غُلِّب فيها العاقل لا بالأول ولا بالثاني، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن﴾ هذه للعاقل كذلك: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ للعاقل، ففيها تغليب العاقل، والسبب في ذلك - والله أعلم - أن التسبيح والصلاة في العاقل أظهر منها في غير العاقل ولذلك غُلِّب، وإلا فغير العقلاء في الأرض أكثر من العقلاء.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور:٤٢]

❁ التفسير ❁

قوله: [﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خزائن المطر والرزق والنبات].

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أولًا: قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ﴾ مبتدأ مؤخر، وقد عُلم من القاعدة: (أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر).

الحصر في هذا المُقدَّم، يعني: حصر المؤخر في المقدم، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلا إياك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] لا نستعين إلا إياك.

فإذا قُدِّم ما حقه التأخير، كان ذلك دليلًا على حصر الشيء فيه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بناءً على هذه القاعدة نفهم أن: ملك السموات والأرض لله وحده، من الحصر وقوله: ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا شامل لملك الأعيان والتصريف، فملك السموات والأعيان لله، والتصريف والتدبير أيضًا لله، وتخصيص ذلك بخزائن الرزق والنبات والمطر هذا لا وجه له إطلاقًا، فالله تعالى له ملك السموات والأرض خلقًا وتدبيرًا: الأعيان والتصريف لله وحده، ويدل على ذلك ما فيها من الانتظام، وعدم الاضطراب، وعدم التناقض، ولهذا استدلَّ الله على

وحدانيته بقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ إذنْ لو كان معه إله ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ ما دام إله لزم أن يكون له مملكته وحده، فالنتيجة ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١] فإذا علا بعضهم على بعض فلمن تكون الألوهية؟ للعالي بلا شك.

ونحن نرى بعين اليقين أنه لم يتميز الخلق على بعض، وأن العالم العلوي والسفلي كله كتلة واحدة، مسخر بعضه لبعض، ويتم بعضه ببعض، ولا يتناقض، ولا يتنافر، فلهذا كان العقل والمشاهدة دليلين على وحدانية الله عز وجل.

ثم لا يمكن أبدًا من تعدد الآلهة، لا بد لأحدهما أن يغلب؛ لأنهما إن تمانعا ـ هذا دليل عقلي جدًّا معروف ـ وعجز كل واحد منهما عن الآخر صارا غير مستحقين للألوهية، ما دام كل واحد يعجز، وإن غلب أحدهما الآخر، صار وحده الرب والإله، فإذنْ لابد أن يكون الإله واحدًا؛ لأنه إما أن يغلب فتكون الألوهية له، وإما أن يعجز والثاني يعجز أيضًا فلا يصلح كل منهما أن يكون ربًّا؛ لأن الرب لابد أن يكون قادرًا وهذا من أبين الأدلة وأوضحها.

إذا قال قائل: أليس الله تعالى يقول: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور:٣٣] فأثبت للإنسان ملكًا، وأنتم تقولون: إن ملك السموات والأرض خاص بالله بدليل الحصر فكيف الجمع؟

الجواب: الملك هذا مقيد، ليس ملكًا مطلقًا ومن الذي مَلَّكَك؟ الله تعالى هو الذي ملكك هذا الشيء على قدر محدود أيضًا، أنت إذا كنت تملك هذا المسجل ـ مثلًا ـ تملكه فتبيعه وتشتريه وتنتفع به هذا واضح لكن هل تملك أن تكسره؟ بالنسبة للمخلوقين تملك، لكن بالنسبة لله لا تملك، ولا يجوز لك أن تكسره؛ لأنك ممنوع من قِبَل الله، لكن الله ـ عز وجل ـ هل يملك أن يهلك من على البسيطة أم لا؟ نعم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] فتبين بهذا أن ملكي للشيء من الله، هو الذي ملَّكني ـ هذه واحدة ـ، والشيء الثاني: مُلك محدود مُقَيَّد، وعلى هذا فلا منافاة بين ما أثبته الله تعالى للإنسان، من الملك وما أثبت لنفسه من الاختصاص بالملك.

ولهذا قال بعض أهل العلم: كل شيء أضيف ملكه للإنسان فهو على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة؛ لأن المالك حقيقة هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنا مالك مجازًا؛ لأني لا أتصرف في هذا الشيء إلا كما أذن لي فلا أتصرف تصرفًا مطلقًا.

قوله: [﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع] هذا فيه تنبيه على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ مالك للأول والآخر، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ابتداءً ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ انتهاءً.

وفيه ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أنه إذا كان الملك لله والمرجع إليه، فإنه لا يحل لنا نحن أن نتصرف إلا حسب ما شُرِعَ لنا ما دمنا ملكًا لله، نحن الآن ملك لله ومصيرنا إلى الله، إذنْ ما دمنا ملكه،

ومصيرنا إليه فالواجب ألَّا نتصرف إلا حيث شرع لنا؛ لأنك ما دمت تعلم أنك ملك له، فهو الذي يأمرك افعل كذا ولا تفعل كذا، وما دمت تعلم أيضًا أن مصيرك إليه، فلابد أن تستعد لهذا المصير؛ لأنه سوف يحاسبك عليه.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيها أيضًا ما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مبتدأ مؤخر، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، كل شيء حقه أن يتأخر إذا قدمته، معناه: أنك تريد أن يكون ما بعده محصورًا فيه، فإذنْ المصير إلى الله، مهما طال الإنسان ومهما حلق بالخيال وفي التفكير، ومهما بقي في الدنيا، فإن مصيره إلى الله -عز وجل- كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة:٢٢٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] ملاقاة الله -عز وجل- والمصير إليه أمر لابد منه حتمي، كما أن وجودنا من الله فمصيرنا أيضًا إلى الله -عز وجل-، ويحتمل أن قوله ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ ليس المراد: مصير الناس في الآخرة فقط، بل مصير الأمور كلها، يعني: المرجع إلى الله في كل شيء، كل شيء صائر إلى الله، فهو -سبحانه وتعالى- الذي يدبر ويفعل ما شاء.



❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٣]

❁ التفسير ❁

[قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يسوقه برفق].

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيضًا الخطاب لكل مخاطب، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب، والرؤية هنا بصرية أم علمية؟ إذا قلنا: بصرية الأعمى ما اعتبر بشيء، الأعمى لا يعتبر بهذا السحاب؛ لأنه لا يرى، لماذا لا نقل: علمية؟ لأن العلمية تتضمن البصرية يعني: ألم تعلم سواء كان ذلك عن طريق المشاهدة أو عن طريق السماع.

إذنْ: ﴿تَرَ﴾ أي: تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يسوقه برفق، وبعضهم يقول: يسوقه ولم يقيده برفق، ولعلَّ ذلك أولى أن نفسر الإزجاء بالسَّوْقِ، سواء برفق أو بغير رفق؛ لأننا نشاهد أن السحاب يسير أحيانًا برفق وأحيانًا يسير بسرعة وهو سحاب.

يقول المتنبي:

وَمِـنَ الخَيـرِ بُـطْءُ سَـيْبِكَ عَنِّـي أَسرَعُ السُّحْبِ فِي المَسيرِ الجَهَامُ

أي الذي ليس فيه ماء.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام قبل النفي هو للتقرير، وهكذا كلما دخلت أداة الاستفهام على النفي صارت لتقرير ذلك الشيء، يقول الله تعالى مُقرِّرًا هذا الأمر المرئي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ والرؤية بمعنى: العلم، وتفسيرنا لها بالعلم أعم من تفسيرها بالرؤية البصرية؛ لأجل أن يشمل رؤية الإنسان ببصره؛ لأنها تؤدي إلى العلم ورؤية الإنسان بسمعه بما يُخبَر به؛ لأنها تؤدي أيضًا إلى العلم، ورؤية الإنسان بقراءته عن هذا الأمر؛ لأنه يؤدي إلى العلم، والمهم أنه ما دامت الرؤية محتملة؛ لأنها تكون بمعنى: العلم فتفسيرها بالعلم أولى؛ لأنه أشمل وأعم.

والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هل هو للنبي ﷺ ؟ أو لكل من يصح خطابه؟ الظاهر أنه لكل من يصح خطابه، يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب أن الله ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾ ...إلخ، لأن ذلك أيضًا أشمل.

وقوله: ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾ يقول المؤلف: [يسوقه برفق]، ومن المفسرين من قال: يسوقه، ولم يقل برفق، لأجل أن يشمل السوق برفق وبغير رفق؛ لأن السحاب كما هو مشاهد أحيانًا يكون مشيه رويدًا رويدًا، وأحيانًا يكون مشيه سريعًا.

[﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة].

وهذا أيضًا مُشَاهَدٌ فإن الله سبحانه وتعالى يؤلف بين هذا السحاب، ويجمع بعضه إلى بعض حتى يكون قطعة كبيرة، وأحيانًا لا يؤلف بينه، نفس القطعة الصغيرة تتوسع وتكون قطعة كبيرة، لكن التأليف أبلغ؛ لأن المؤَلَّف أحيانًا يكون من غير جنس المؤَلَّف به، دائمًا تكون سحابة بيضاء أو حمراء وسوداء ثم تجتمع وتكون بلون واحد، وهذا أبلغ، ـ هذا التأليف ـ يقول الله ـ عز وجل ـ: [﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ بعضه فوق بعض].

قوله: ﴿رُكَامًا﴾ يعني: متراكمًا بعضه فوق بعض، وهذا أيضًا مشاهد برؤية العين، فإن السحاب تجد بعضه فوق بعض، أما إذا كنت في الطائرة مرتفعًا، فإنه يبدو لك ذلك ظاهرًا؛ تجد من السحاب ما هو تحتك ومن السحاب ما هو فوقك، وإذا كنت في الأرض يتبين لك أن السحاب بعضه على بعض بكون بعضه يغطي بعضًا، ترى مثلًا قطعة تمر تحت قطعة أخرى وتتجاوزها وتتعداها، مما يدل على أن بعضه فوق بعض، هذا الركام له منظر عجيب إذا كان الإنسان فوق، منظر يبهج ويُسر، ولذلك جعله الله من الآيات الدالة على كمال قدرته.

[﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: مخارجه]

ترى بمعنى: تبصر هنا؛ لأن المطر يُرى بالعين، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من خلال هذا السحاب، لكن هذه الرؤية يدركها كل الناس؟

حقيقة إِنَّهُ لا يدركها إلا إنسان قوي النظر، لكن نحن نعلم أن المطر ينزل من السحاب ويتخلله، قال بعض العلماء: إنه مثل الغربال يعني مثل: الغربال الذي يُغَرْبِلُ به القمح وما أشبه ذلك، ينزل هذا المطر من خلاله.

من أين يأتي المطر إذا كان ينزل من خلاله؟ منه هو نفسه، ينعصر بإذن الله، ثم يتخلل منه كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً﴾ [النبأ:١٤] فإنه بإذن الله ينعصر، وينزل هذا المطر، وعلى كل حال الأسباب الطبيعية ما نعرف عنها شيئًا، لكن هذا ما نعرفه بالرؤية الحسية.

قوله: [﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ في السماء بدل ـ من السماء ـ بإعادة الجار ﴿مِن بَرَدٍ﴾ أي: بعضه ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾... إلخ].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ الغريب أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مرتبك في هذا؛ قال في الأول ﴿مِن جِبَالٍ﴾ قال: ﴿مِن﴾ زائدة، يعني: زائدة إعرابًا فعلى كلامه فيكون التقدير: (وينزل من السماء جبالًا)، ثم قال بدل من السماء بإعادة الجار، وما هو البدل؟ قوله: من جبال في السماء.

إذنْ: إذا كانت بدلًا بإعادة الجار فهل ﴿مِنَ﴾ زائدة في السماء، في قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أم ليست زائدة؟ ليست زائدة لأن الابتداء ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: إلى الأرض، والمعنى هو المعنى الأخير الذي ذكر على أن قوله: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل من السماء كأنه قال: (ينزل من جبال في السماء)، فهي بدل من السماء بإعادة الجار الذي هو ﴿مِن﴾، وعلى هذا فلا تكون ﴿مِن﴾ زائدة بل تكون لابتداء الغاية، يعني: ينزل من السماء إلى الأرض.

قال: [﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ أي: في السماء بدل بإعادة الجار ﴿مِن بَرَدٍ﴾ أي: بعضه]، هذا الذي لو قال أن ﴿مِن﴾ زائدة لكان له وجه، لكن هو جعل ﴿مِن﴾ تبعيضية لأنه قال: [أي: بعضه] يعني: بعض برد، فمعلوم أن ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ ليست زائدة ولا صلة، بل لها معنى، وهو ابتداء الغاية.

قوله: ﴿فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾، ﴿فِيهَا﴾ الضمير يعود على ﴿السَّمَاءِ﴾ يعني: من جبال في السماء، وقوله: ﴿مِن بَرَدٍ﴾ المؤلف يريد أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتبعيض يعني: ينزل بعض برد من هذه الجبال، ويحتمل أن تكون زائدة يعني: ﴿مِن بَرَدٍ﴾ أي: بردًا: ينزل من السماء من جبال بردًا، فتكون ﴿مِنْ﴾ زائدة، ويحتمل أن تكون (من) لبيان الجنس أي: أن الجبال من برد، فتكون الجبال نفسها من البرد، وعلى هذه تصير: وينزل من السماء من جبال من البرد، فيكون مفعول التنزيل المفعول محذوف، يعني: ينزل بردًا، إذا كان يُنزل من السماء من الجبال التي هي البرد، فإنه ينزل بردًا فيكون المفعول محذوفًا تقديره بردًا.

صار على كل حال: يُنَزِّل مفعولها على رأي المؤلف: ﴿مِن بَرَدٍ﴾؛ لأنه قال: [أي بعضه] على أساس أن ﴿مِنْ﴾ للتبعيض فهي بمعنى: بعض، وعليه فيكون هذا هو مفعول يُنَزِّل، وأما المُنَزَّل

منه: الجبال التي في السماء؛ لأننا قلنا ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإعادة الجار فيكون المنزل منه هذه الجبال، والمُنَزَّل البرد.

على الاحتمال الأخير الذي ذكرنا أن ﴿مِنْ﴾ زائدة يكون أيضًا المنزل البرد، لكن ليست ﴿مِنْ﴾ للتبعيض.

وعلى الاحتمال الثالث: قلنا: إن ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، جنس الجبال (جبال من برد)، يعني: يُنَزِّل من جبال من البرد، يُنَزِّل بردًا، فعليه يكون مفعول المنزَّل محذوفًا، تقديره بردًا ودَلَّ عليه السياق.

على كل حال: معنى الآية الكريمة أن في السماء جبالًا من البرد، ينزل الله تعالى منها من هذه الجبال، هذا المُنَزَّل أحيانًا يكون كبيرًا وأحيانًا يكون صغيرًا، لكن من نعمة الله أنه لا يكون كبيرًا بحيث يهدم البناء، هذا شيء نادر جدًّا، إنما يكون كبيرًا بحيث يقتل بعض الزروع، أو بعض الأشجار، حسب حكمة الله عز وجل، أما أن يهدِّم منازل، ويقتل الآدميين فهذا قليل، وإن كان قد يوجد لكنه قليل.

وفي هذا دليل على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن هذه السماء تكون فيها هذه الجبال من البرد، وينزل منها ما ينزل بمشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته على هذه الأرض، ولهذا قال: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ هذه الجملة هل هي لبيان الامتنان أم لبيان العقوبة؟

أو تحتمل لأن يصرف، قد يتبادر للإنسان أن المراد بالإصابة في الأول: إصابة العقوبة كما يقال: صرف الله عنك السوء، وكما جاء في الحديث: «**وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَ الأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ**» فلا يُصرف ولا يُعبَّر بالصرف إلا عن شيء مكروه، وعلى هذا فتكون الجملة مسوقة لبيان العقوبة التي تحدث بهذا البرد.

ويحتمل أن يكون من باب الامتنان؛ لأن البرد قد يكون خيرًا، وقد يحصل به رِي الأرض، ونبات الأشجار وغير ذلك، فيصير هذا من باب سياق الامتنان، يصيب بهذا البرد من يشاء فينتفع به ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيفوته الانتفاع، ولا مانع من أن يستعمل الصرف في صرف الشيء النافع، وإن كان الأكثر في صرف الأشياء أن يكون في صرف الأشياء الضارة؛ لكن قد يستعمل أيضًا في صرف الأشياء التي تنفع.

هذا من بلاغة القرآن أن تكون هذه الجملة صالحة للوجهين: وجه العقوبة ووجه الرحمة، فالإصابة بالبرد أحيانًا تكون عقوبة تهلك بها الزروع وتموت بها المواشي، وأحيانًا تكون بالعكس.

[﴿يَكَادُ﴾ يقرب ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ لمعانه ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ الناظرة له: أي يخطفها].

من قوة هذا البرق يكاد سناه يعني: لمعانه، يذهب بالأبصار، وفي هذا إشارة إلى أن السحابة التي فيها برد يكون برقها أشد لمعانًا من غيره، فهذا البرق يكاد لقوته يذهب بالأبصار، ولا شك

أن هذا البرق عظيم جدًّا، وقد ذكروا أن فيه طاقة كبيرة من الكهرباء، وأنها تساوي كذا وكذا من الكيلوات، وهذا الأمر واضح.

الآن تجد مثلًا الطائرات قد لا تبعد بُعد السحاب، ومع ما فيها من الإضاءة ما تكاد تبصرها، أما هذا فإنه كما هو مُشاهد يكاد يخطف البصر، ويملأ الأرض ضياءً، مما يدل على كثرة الطاقة الكهربائية التي في هذا البرق، مع أنه بإذن الله في لحظة، وهذا هو الظاهر أنه من باب الاحتكاك - كما ذُكِر - يكون سالبًا وموجبًا فيتولد من بينهما البرق، ولا مانع إن صَحَّ الحديث أن يكون أيضًا هذا من أسباب ضرب المَلَك الذي يسوق السحاب، فإذا صَحَّ الحديث، فإنه لا ينافي ما ثبت من العلم الذي يتصل بهذا الأمر من كونه اجتماع سالب وموجب فيحصل به هذا اللمعان، إذ أنَّ اجتماع السالب والموجب قد يكون بأسباب ضرب الملك إذا صَحَّ الحديث بذلك، فهذا لا منافاة بينه وبين ما ورد عن النبي ﷺ - إن صَحَّ -.

إذنْ هذا من آيات الله الدالة على كمال قدرته، سوق هذا السحاب بين السماء والأرض، وكونه جبالًا من البرد، وإصابة الله تعالى به من شاء وصرفه عمن يشاء، كل ذلك من آيات الله، ولهذا جعلها الله تعالى بصيغة الاستفهام الدالة على التقرير.



قال الله تعالى:

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤]

التفسير

[﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: يأتي بكل منهما بدل الآخر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التقليب ﴿لَعِبْرَةً﴾ دلالة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لأصحاب البصائر على قدرة الله تعالى].

قوله: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ التقليب معناه: تغيير الشيء من جهة إلى جهة، وهذا التقليب هل المراد به التقليب الحسي - الذي أشار إليه المؤلف - بمعنى أنه يأتي بهذا بدل هذا؟ أو المراد ما هو أشمل أي: التقليب الحسي والمعنوي؟

الجواب: نعم، المراد ما هو أعم من التقليب الحسي، والتقليب الحسي إن الله يقلب الأرض بدل من أن كانت ليلًا أو نهارًا إلى ليل ثم إلى نهار وهكذا، والتقليب المعنوي: ما يحصل في هذه الأيام من الحوادث والتغيرات والعز والنصر والإذلال والخذلان كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فالصواب بالتقليب هنا: أنه ليس خاصًّا بالتقليب الحسي الذي هو جعل الليل مكان النهار والنهار مكان الليل؛ بل هو أعم من ذلك يشمل الحِسِّي والمعنوي.

ومن التقليب أيضًا تقليب: الفصول حيث يكون الليل والنهار مرة في وقت الشتاء ومرة في وقت الصيف كل هذا من التقليب، المهم أنه يجب أن تعرف أن هذا التقليب عام في كل ما يحصل من تغيير في الليل والنهار، من الأمور الحسية والأمور المعنوية، وهذا هو وجه العبرة [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التقليب ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾]، فصاحب البصيرة.

وقوله: ﴿الْأَبْصَارِ﴾ البصائر ليس المراد: بصر العين فكل ذي بصيرة يعرف من تقليب الليل والنهار ما في قدرة الله ـ عز وجل ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [القصص:٧١].

لو اجتمع الخلق كله على أن تخرج الشمس في نصف الليل ـ مثلًا ـ لا يستطيعون، ولو اجتمعوا كلهم على أن يأتي الليل في نصف النهار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولو أن الله تعالى جعل الوقت دائمًا ليلًا أو نهارًا ما استطاع الخلق كلهم أن يغيروا هذا الوضع، ولهذا بيَّن الله منته على عباده ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر:٦١] .

كذلك ما يحدث في الليل والنهار من الحوادث وتقلبات الأمور، فهذا أيضًا فيه عبرة تجد مثلًا هذا المُلك لهذا الرجل مُلكًا تامًا وافيًا ونعم وافرة، ثم ينقلب هذا الملك إلى ذُلٍّ وأسر، وتجد هؤلاء القوم في عزٍّ ونصر وتمكين، وإذا الأمر بالعكس، كل هذا مما يستدل به الإنسان العاقل ذو البصيرة على ما لله تعالى من قدرة في تقليب الأمور، ومن حكمة في تدبيرها.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ إذا كنت لا تتخذ من ذلك عبرة، فاعلم أنك لست من ذوي البصائر، ولم تجد في نفسك حركة لهذا التقلُّب وهذا التغيُّر، فاعلم أنك لست من ذوي البصائر؛ لأن كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ محكم لا يتغير، وقد أخبر أن في هذا التقليب عبرةً لأولي الأبصار، فإذا لم يكن في ذلك لك عبرة فاعلم أنك لست من ذوي البصائر.

إذنْ لابد أن تعالج نفسك، حتى تتأمل ما في هذا التقليب من العبر وتعتبر به، لا تظن أن هذه مجرد كلمة أطلقت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وفقط، فيقول الإنسان: العاقل ذا البصيرة يعرف ما في ذلك وما لله من القدرة، ولكن يجب أن تعتبر، فإذا لم تعتبر أنت فإنك لست من ذوي البصائر.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥]

التفسير

قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ﴾ بعدما ذكر آيات الله تعالى في العالم العلوي ذكر آياته في العالم السفلي وهو قوله:

[﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ﴾ أي: حيوان ﴿مِن مَاءٍ﴾ أي: نطفة]

خلق بمعنى: أوجد ﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾ الدابة: كل ما يدب على الأرض، وإن كانت قد تطلق على ذوات الأربع عُرفًا، هذا في العادة والعرف؛ ولهذا ما يسمى الإنسان دابة في العرف، لو يقول لك إنسان: يا دابة يمكن تخاصمه، لكنها في اللغة: كل ما دب على الأرض فهو دابة، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

وقوله: ﴿مِن مَاءٍ﴾ هذا أصل خِلقة الدواب من الماء، وقول المؤلف: من نطفة ليس بصحيح؛ لأنه ليس كل دابة من نطفة، بل كل دابة من ماء، نطفة وغير نطفة، فأما ما يتوالد فماؤه نطفة، وأما ما يتولَّد فماؤه رطوبة؛ لأن هذه الأشياء التي تتولَّد، تتولَّد من العفونات والرطوبات، وأما الذي يتوالد، فنعم يتوالد من نطفة له نطفة يخلقه الله منها، فكلمة (من ماء) أعم من كلمة نطفة، والواجب إبقاء الآية على عمومها ليشمل ما يتولد وما يتوالد.

وهذه الآية بعض من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠] فهي أعم؛ لأن كل شيء حي يشمل الدواب وغير الدواب حتى الأشجار.

قوله: ﴿مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الناس يستشهدون بالآية على غير ما أراد الله بها، على أن الماء ضروري لبقاء الحياة، وليس الأمر كذلك بل الآية تدل على أن أصل هذه الأشياء الحية من الماء، ولو كان المراد: ما يستشهد به الناس من أجله لقال: (وجعلنا من الماء كل شيء حيًّا) أي: صيَّرناه حيًّا بالماء.

من جهة ثانية نقول: إذا كان أصلها الماء نقول: فهي مفتقرة إليه؛ وأيضًا النمو لا يكون إلا بالماء.

قوله: [﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحيات والهوام].

﴿فَمِنْهُم﴾ هذا التقسيم يدل على أن الدابة المراد بهم العقلاء، وإلا لقال: فمنها أي: من هذه الدواب، إلا إنَّ العلماء قالوا: إن ذلك تغليبٌ، تغليبٌ للعقلاء، ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من هذه الدواب ﴿مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ والذي يمشي على بطنه هو يمشي أو يزحف؟ يزحف، ولكن هذا مشيه، مشيه زحف، مثل الحيات والهوام.

الحيات معروفة أما الهوام فيظهر لي في كلام المؤلف نظر؛ لأن الهوام منها ما يمشي على بطنه، ومنها ما يمشي على رجلين، ومنها ما يمشي على أربع فالتمثيل بها فيه نظر، أما الحيات فنعم تمشي على بطنها، وكذلك الدود وغيره تمشي أيضًا على بطنها.

قوله: [﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير] الإنسان: يمشي على رجلين ثنتين،

والطير يمشي على رجلين ثنتين، وهل يوجد طيور تمشي على أكثر من رجلين؟ لا نعرف يمكن لا ندري لكن نحن نعرف أن الطيور ليس لها إلا رجلان اثنتان.

قوله: [﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والأنعام] هذا واضح.

هل هذا التقسيم مفيد للحصر أم لا ؟ هل هو من باب الحصر أم من باب القصر؟

من باب القصر يعني: الاقتصار على بعض الأشياء؛ لأن من الدواب ما يمشي على أكثر من أربع، فهناك مخلوقات لها أربعة وأربعين رجلًا، وفي أشياء دون ذلك لها ستة أرجل، وفي أشياء لها أكثر من ذلك، إنما هذا التقسيم ليس للحصر، ولكنه للقصر أي: من باب الاقتصار على بعض الأنواع فقط ويدل على ذلك قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: من هذا الذي ذُكِر ممن يمشي على بطنه، وعلى رجلين، وعلى أربع وعلى ما هو أكثر من ذلك، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا أحد يعجزه فهو خالق لما يشاء، حسب ما تقتضيه حكمته تبارك وتعالى.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ القدرة صفة يتصف بها القادر؛ بحيث يفعل ما يريد بدون عجز، بخلاف القوة فإنها يفعل بها ما يريد بدون ضعف، فالقوة تُقَابَل بالضعف، والقدرة تُقَابَل بالعجز.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] فجعل القدرة في مقابل العجز، فلقدرته لا يعجز سبحانه وتعالى.

على كل حال: القدرة: صفة يتصف بها القادر؛ بحيث يفعل ما يريد بدون عجز، مثلًا: رجل يصلي قائمًا لكن مع تعب ماذا نقول هذا قادر أم قوي؟ قادر، وآخر يصلي قائمًا وهو لا يهمه هذا نسميه قوي، وقادر أيضًا، وإنسان يحمل هذه الصخرة كما يحمل الريشة ما يهمه، وهناك إنسان يحمل هذه الصخرة بصعوبة يحملها؟ الأول قوي، والثاني قادر؛ لأنه يفعله لكن مع التعب والمشقة، وهناك ثالث عندما أتى ليحملها أيس هذا ليس قويًا ولا قادرًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يوجد كلمة بين الناس يقولون: (إنه على ما يشاء قدير) هذه الكلمة لا ينبغي لنا أن نقولها؛ لأنك إذا قيدت القدرة بالمشيئة حصل بذلك قصور، وتصير قدرته على ما يشاء دون الذي لا يشاء، مع أن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، لكن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالذي يقوله بعض الناس (أنه على ما يشاء قدير) يجب أن يُنهى عنه ويقال: قل: (إنه على كل شيء قدير) لا على الذي يشاؤه فقط؛ لاسيما وأنك إذا قلت: إنه على ما يشاء قدير، وقَدَّمت المعمول؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، وأنك حصرت القدرة فيما يشاؤه فقط،

وهذا ليس بصحيح.

فالذي يجب على الإنسان، أن يطلق صفة القدرة لله كما أطلقها الله لنفسه، ويقول: (إنه على كل شيء قدير) كما وصف به نفسه لا يقيدها بما شاء.

فأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] فالمشيئة هنا ليست قيدًا في القدرة، ولكنها قيد في الجمع، يعني: إِنَّهُ إذا شاء هذا الفعل فليس بعاجز عنه، وهذا قاله الله تعالى ردًّا على من أنكروا البعث وقالوا: إنه ما يمكن أن يجمع الناس بعد أن تفرقوا في الأرض، وكانوا رميمًا.

ومثل ذلك أيضًا ما ورد به الحديث في مسلم، والرجل الذي أمره الله تعالى أن يدخل الجنة بعدما سبق عليه، فقال له الله ـ سبحانه وتعالى ـ: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»(١) فإنه هنا يخاطبه لفعل شيء وقع، فكأنه قال: إني على ذلك قادر إذا شئته، ولهذا عبَّر بقادر دون قدير؛ فإن قدير أبلغ في الصفة بخلاف قادر؛ فقد تتعلق بفعل شيء معين.

على كل حال: الذي ينبغي للإنسان؛ بل الذي يجب عليه، أن يُطلق صفة القدرة إذا وصف الله بها فيقول (إنه على كل شيء قدير) فقط ولا يقيدها بالمشيئة.



❁ قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

[﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: بينات هي القرآن ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ أي: طريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: دين الإسلام].

قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ سبق الكلام على مثلها عدة مرات، وقلنا إن هذه الجملة مُؤَكَّدة بثلاث مؤكِّدات (القسم، واللام وقد)؛ لأن ﴿لَقَدْ﴾ أصلها (والله لقد)، فتكون الجملة هنا مؤكَّدة بهذه المؤكدات الثلاثة.

وقوله: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: بينات، لا شك أن هذا التفسير لا يطابق المفسَّر؛ لأنه مبينات أبلغ من بينات؛ لأن المُبَيِّن البائن في نفسه، المُبِينُ لغيره، فهو ظاهر في نفسه مُظهِر لغيره، والبيِّن ظاهر في نفسه فقط، والأول أبلغ؛ لهذا تفسير المؤلف يعتبر قاصرًا، والصواب أن المبينات بمعنى: البيِّنة في نفسها المبينة لغيرها.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧) واللفظ له.

فالآيات هذه التي أنزلها مبينات، تبيِّن كل ما يتعلق بمصالح العباد، تبيِّن الخير من الشر، والحق من الباطل، والمتقي من الفاسق، وصفات الخالق من صفات المخلوق، وكل ما يحتاج الناس إليه ويتعلق بمصالحهم في دينهم ودنياهم، فإن هذه الآيات بيَّنته.

لكن التبيين له طرق؛ تارةً يكون تبيينًا بالتفصيل، وتارةً يكون بالإجمال، أحيانًا يكون بيان القرآن بالتفصيل وأحيانًا بالإجمال، فمثلًا إذا تدبرت آيات الفرائض ـ قسمة المواريث ـ تجد أن الآيات فيها بيِّنة بالتفصيل، وإذا تَدَبَّرت بعض الآيات الأخرى مثل: أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، تجد أنها مجملة، لكن الإنسان يعرفها من أدلة أخرى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩] ما من شيء إلا بيَّنه هذا القرآن، وقد ذُكِرَ عن الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه كان في مطعم في أحد بلاد أوروبا، وكان عنده رجل من النصارى، فقال له: إن القرآن تبيان لكل شيء، فهل بيَّن كيف يصنع هذا الطعام؟ فقال: نعم، هذا القرآن بيَّن لنا كيف نصنع هذا الطعام، فتعجب هذا الكافر وقال: كيف؟! فدعا صاحب المطعم، وقال له: كيف صنعت هذا الطعام؟ فقال: صنعته بكذا وكذا وبيَّن له تراكيبه، فقال: هكذا في القرآن، فإن الله يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فإن القرآن ما بيَّن ذلك تفصيلًا، لكنه أرشدنا كيف نهتدي إلى معرفة الأمور، وهذه الآية طبعًا ما تريد أهل الذكر يعني: الطبخ لكن إما أن نقول: أهل الذكر أهل العلم، وعلم كل شيء بحسبه، وإما أن نقول: أهل العلم بالشرع، ونقيس ما عدا العلوم الشرعية على العلوم الشرعية، ويكون من باب العموم المعنوي في الآية؛ لأن الآية إن لم تشمل هذا بعمومها اللفظي، فهي شاملة له بعمومها المعنوي، والعموم اللفظي هو: الذي دخل في الكلام لفظًا دل عليه الكلام دلالة مطابقة.

والعموم المعنوي هو: الذي دل عليه الكلام بالقياس يعني: ما دخل في اللفظ لكنه يُقاس عليه؛ لأن القياس عبارة عن اشتراك المَقِيس والمَقِيس عليه في العلة التي من أجلها ثبت الحكم، وهذا عموم معنوي، ولذلك تجدون في كلام العلماء يُقال: هذه المسألة يشملها النص بعمومه اللفظي، بمعنى: أنها فرد من أفراد هذا العموم، وأحيانًا يقولون بعمومه المعنوي، بمعنى: أنها تقاس على ما دَلَّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ لما بيَّن حال الآيات وأنها آيات مبينات، لكن هل كل أحد يستفيد من هذه الآيات المبينات؟ لا، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ يعني: على الرغم من كون الآيات مبينات واضحة مبيِّنة فما كل أحد يهتدي بها وإنما الله تعالى ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وهذه الآية كغيرها في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] فعمَّمَ بالدعوة، لكن الهداية ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

فالآيات مبينات موضحة للأمور، لكن ما كل أحد يهتدي بها.

قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تقدم الكلام على أن كل شيء قيده الله بمشيئته فهو مقرون بالحكمة فالله تعالى يهدي من اقتضت الحكمة هدايته.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أن الله تعالى له التصرف المطلق في خلقه.

٢ - **ومنها:** إثبات القدرة وعمومها، وهو من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأشرنا في التفسير إلى أن ما يستعمله بعض الناس من تقييد القدرة بما شاء خطأ، وأن الواجب إطلاق صفة القدرة، وأجبنا عن مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] والحديث الذي فيه: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[(١)] وقلنا: إن هذه المشيئة متعلقة بالفعل لا بالصفة؛ فالصفة مطلقة والفعل هو المُقَيَّد بالمشيئة، إذا شاء فعل وإذا شاء لم يفعل.

٣ - **وفيها:** بيان أن الآيات التي أنزلها الله تعالى مُبَيِّنة مُوَضِّحة لكل شيء؛ الحق من الباطل، وأهل الخير من أهل الشر، والأحكام التي بين الناس، وغير ذلك لكن مع كونها مبينة هل اهتدى بها كل الناس؟ لا، وإنما يهتدي بها من شاء الله هدايته ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ لكن ما كل أحد يهتدي بها، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وبه دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يعتمد على نفسه في الهداية؛ بل يسأل الله دائمًا أن يهديه ثم يثبته، ما دام أن الله هو الذي يهدي فإذْن لا تستقل أنت بهداية نفسك، فاسأل الله دائمًا الهداية ثم الثبات عليها، ولا تغتر بما معك من الإيمان ـ مثلًا ـ فإن ذلك قد يُسلَب منك؛ لاسيما إذا أُعجب الإنسان بعمله؛ فإن إعجاب الإنسان بعمله قد يؤدي إلى حبوطه وبطلانه.

٤ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الشرع كله - الذي هو دين الإسلام - أنه مستقيم ليس فيه اعوجاج لقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، ﴿ٱلسُّبُلَ﴾ اليمين والشمال ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

إذا قلنا: إن الهداية من الله عز وجل وأنها مُعلَّقة بالمشيئة ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فهل لهذه الهداية سبب؟ نعم، وهي: طلب الحق هذا من أسباب الهداية، الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] والدليل ما سيأتي في الآية بعدها، الآيات التي بعدها ترشد إلى ما ذكرنا؛ أن سبب الهداية: هو إرادة الإنسان الحق وطلبه له، فإذا أراده وطلبه، فإن الله تعالى يهديه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧) واللفظ له.

إليه، أما إذا أعرض وتولَّى، فإن الله تعالى لا يهديه إليه.



قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧]

التفسير

[﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المنافقون ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿بِٱللَّهِ﴾ بتوحيده ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ هما فيما حكما به ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عنه ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعرضون ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المعهودين الموافق قلوبهم لألسنتهم].

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هذه حكاية عن جماعة سواء كانوا من المنافقين؛ كما قال المؤلف أم من غيرهم ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ فسر المؤلف الإيمان: بالتصديق وقد سبق أن هذا التفسير قاصر وأن الإيمان هو: التصديق مضافًا إليه القبول والإذعان، أن يقبل الإنسان ما جاء به الرسول ﷺ وأن يذعن له، أما مُجَرَّد التصديق فليس بإيمان، ولهذا نعلم نحن أن أبا طالب كان مُصَدِّقًا للنبي ﷺ وهو بنفسه يقر على نفسه بذلك، يقول: لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل ويقول: ولقد علمت أن دين محمد من خير أديان البرية دينًا، لكنه ليس بمؤمن مع التصديق.. لماذا؟ لأنه لم يذعن، ولم ينقد، ما أذعن للرسول ﷺ، ولا انقاد له.

كذلك أيضًا الكفار الذين حكى الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، هل هم مصدقون بالله أم لا؟ مؤمنون به ومصدقون، لكن لما لم يقبلوا ما جاء به الرسول ولم يذعنوا له لم يكونوا مؤمنين، فتفسير الإيمان شرعًا بمجرد التصديق تفسير ناقص، بل نقول: الإيمان هو التصديق مع القبول والإذعان، ولابد من ذلك.

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ أعاد حرف الجر، ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ لأن الإيمان بالرسول إيمان مستقل، يعني: لابد أن الإنسان يؤمن بالله إيمانًا كاملًا، وبالرسول إيمانًا كاملًا، كما أن الطاعة لله طاعة كاملة، وللرسول كذلك، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] قال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ثم قال: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ عطفها على طاعة الله ورسوله بدون إعادة العامل؛ إشارة إلى أن طاعة ولاة الأمور تَبَعٌ لطاعة الله ورسوله، أما طاعة الرسول فهي مستقلة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وطاعة الله كذلك.

مثل أيضًا الإيمان بالله وبالرسول إذا جاء حرف الجر فمعناه: أن هذا إيمان مستقل كأن هؤلاء

يقولون: آمنا إيمانًا كاملًا بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وآمنا إيمانًا كاملًا بالرسول أنه رسول الله.

وقول المؤلف: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بتوحيده، هذا أيضًا فيه قصور، بل الإيمان بالله يشمل التوحيد وغيره، التوحيد، والتصرف، والتدبير، والتشريع، وغير ذلك، وكذلك بما له من الصفات؛ لأنه لا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بصفاته لابد من ذلك.

وقوله: ﴿وَأَطَعْنَا﴾ هذا الانقياد، يعني: أننا مؤمنون وأيضًا مطيعون، والطاعة قالوا إن معناها: موافقة الأمر، بمعنى: ألَّا تخرج عمن أمرك ولا تخالفه بل توافق أمره، إن كان إيجابيًّا فبالفعل، وإن كان سلبيًّا فبالترك ـ هذه هي الطاعة ـ، ولهذا كلمة طاعة تشمل فعل الأوامر وترك النواهي؛ لأن معناها موافقة الأمر فمعنى (أطعنا) أي: أننا وافقنا أمرًا لله ورسوله لن نخرج عنه، وبعد هذا القول:

﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد إقرارهم بالإيمان بالله ورسوله، يُعرض فريق منهم، يقول الله ـ عز وجل ـ ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: وما أولئك المعرضون بالمؤمنين حقًّا، ولكن هذا النفي هل هو نفي للإيمان أصله، أو نفي للإيمان كماله؟

فيه تفصيل: إذا كان التولي توليًّا مطلقًا فهي نفي للإيمان كله لأصله، وإذا كان التولي غير مطلق؛ بل في بعض الأمور، فإنها تختلف قد يكون في بعض الأمور إذا تركها الإنسان وأعرض عنها كافرًا، وقد يكون مؤمنًا ناقص الإيمان.

المهم: أن توليهم ينافي ما ادعوه من الإيمان، وفي هذا دليل واضح على أن الإنسان إذا قال إنه مؤمن وهو متولٍّ ومعرض، فهو كاذب في دعواه، إما إِنَّهُ ليس بمؤمن أصلًا وإما إِنَّهُ مؤمن لكن ناقص الإيمان.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ﴾ بمعنى: جماعة ﴿مِّنْهُم﴾ أي: من هؤلاء القائلين، وفريق آخر باقون على الإيمان والطاعة لا يُعرضون صادقون، فيما ادعوه من إيمان حقيقة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إعراب هذه الجملة: (ما) نافية، لكنها تعمل عمل ليس عند الحجازيين؛ فترفع الاسم وتنصب الخبر، (أولاء) اسمها ـ لكنه ليس مضمومًا والسبب لأنه مبني، فأسماء الإشارة كلها مبنية.

وقوله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الباء: حرف جر زائد من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى ففيه تأكيد النفي في قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ نفي الإيمان عن هؤلاء الذين قالوا آمنا وأطعنا، ثم تولوا فليسوا بمؤمنين، وعرفتم أن نفي الإيمان هنا إما نفي لأصله، وإما نفي لكماله.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور:٤٨]

التفسير

قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ الضمير يعود على هؤلاء القائلين الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ ثم يتولون فإذا ﴿دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إلى رسول الله ﷺ المُبَلِّغ عنه.

[وقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن المجيء إليه].

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ أي: دعاهم من يخاصمهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أعرضوا.

قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ هل المراد: أن يُدْعَوا إلى الله تعالى ليصلوا إليه فوق عرشه؟ الجواب: لا، إذن أي شيء يكون الدعاء إلى الله؟ إلى كتابه؛ لأن كتاب الله كلام الله عز وجل، فالدعاء إلى الله هو الدعاء إلى كتاب الله.

وقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ هل المراد: أن يصلوا إلى النبي ﷺ في بيته أو في مسجده أو في سوقه؟ نقول: في حياته إليه شخصيًّا في البيت، أو في المسجد، أو في السوق، وبعد وفاته إلى سنته؛ لأن سنته قوله وفعله وإقراره، فكأننا نشاهده عندما ندعوا إلى قوله أو إلى فعله أو إلى إقراره.

وقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام للتعليل، يعني: دعوا لهذا الغرض، الضمير في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يعود على الله أم على رسوله ﷺ؟ لا يصح أن يعود عليهما لو كان عائدًا عليهما للزم أن يكون بصيغة التثنية (إلى الله ورسوله ليحكما بينهم)، لكنها تعود إلى واحد منهما: إلى الرسول؛ لأنه أقرب مذكور، لكن بالنسبة لله سبحانه وتعالى إما أن يُقَدَّر جملة، مثل هذه الجملة يعني: إلى الله ليحكم بينهم، ورسوله ليحكم بينهم، مثلما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] ولم يقل: أن يرضوهما، بل قال يرضوه فقالوا: إن التقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه، وإما أن يقال: إن حكم الرسول ﷺ هو حكم الله، ويشير إلى هذا قول المؤلف: [﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ المبلغ عنه]، فإذا كان النبي ﷺ هو المبلغ عن الله، صار حكمه حكم الله، وفي الحقيقة أن الحاكم المباشر هو الرسول ﷺ، فعند النزاع في حياته نرجع إليه مباشرة، لذلك نقول: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الضمير يعود على الرسول ﷺ؛ لأنه أقرب مذكور.

ثم نقول: إن حكم الرسول ﷺ هو حكم الله؛ لأنه مُبلِّغ عنه لا يحكم إلا بما حكم الله به، هؤلاء إذا ﴿دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾، ﴿إِذَا﴾ هنا يسميها النحويُّون فُجائية يعني: للمفاجأة،؛ لأن عندنا: ﴿إِذَا﴾ الأولى ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ تكون شرطية جوابها: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لكنه صُدِّر بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائية؛ لأنه جملة اسمية، وإذا كان جملة اسمية، فلابد أن يصدر بالفاء أو بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائية، إذنْ ﴿إِذَا﴾ الثانية فجائية، ومعنى فجائية أي: تدل على

المفاجأة، مفاجأة ما بعدها لما قبلها.

هؤلاء ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ هل يفكرون وينظرون: هل يقبلون أو لا يقبلون؟ لا، إنما يردونه مباشرة ـ والعياذ بالله ـ لا يتأنون في الأمر ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ مباشرة بسرعة يعني: بدون تروٍّ فكأنهم من الأصل مستعدون لرد حكم الله ورسوله، ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ وهذا ـ والعياذ بالله ـ أشد في الاستكبار وفي العتو من رجل يقول: أنا أتروى، وإن كان كل واحد في حكمه إذ الواجب قبول ما حكم الله به ورسوله، لكن كون الإنسان يُفَاجِئُ به دليل على أنه مستكبر، ولا يريد أبدًا أن يَخْضَعَ للحق، ولهذا قال: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

في الأول: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ﴾؛ لأن ليس كل من قال: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ ليس كلهم يتولون؛ بل منهم من هو مؤمن حقيقةً، ولا يتولى كذلك ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هل كلهم يتولون؟ لا، منهم من ينقاد لحكم الله ورسوله، ويتخاصم إلى الله ورسوله، ويقبل بحكم الله ورسوله ولهذا يقول: ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾.

وقوله: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: عن المجيء إليه أو عن حكمه، التولي بالجسم والإعراض بالقلب؛ لأن المتولي قد يتولى وفيه أمل أن يرجع، لكن إذا تولى وهو معرض ـ والعياذ بالله ـ، والمعرض كاره لما دُعِي إليه؛ لأنه ما أعرض عنه إلا وهو يكرهه، هذا أشد من التولي، فالتولي بالجسم والإعراض بالقلب يعني: أنهم يتولَّون وليس من نيتهم الرجوع.

وفي الآية دليل على خطر من يتعصب للمذهب، أو لقول واحد من أهل العلم إذا دُعِيَ إلى الله ورسوله وقيل: هذا كتاب الله وهذه سنة الرسول ﷺ، فالواجب التحاكم إليهما والرجوع إليهما.

بعض الناس يقولون: لا، المذهب كذا، وقال العالم الفلاني كذا، وما أشبه ذلك، هذا فيه شَبَهٌ من هؤلاء المنافقين الذين ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾، تجده متوليًا ومعرضًا، وبعض الناس ـ والعياذ بالله ـ ما يتأنى أبدًا ـ بسرعة يغضب، ويقوم ويقول أبدًا، يريد أن يتبع فلان نقول هل فلان هذا هو الرسول؟ لا، فلان بشر يأخذ من قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تارة يخطئ وتارة يصيب فإذا قيل: وأنت أيضًا تخطئ وتصيب، أقول: صحيح أنا أخطئ وأصيب لكن هذا كتاب وسنة تأملها أنت، أنا لا ألزمك أن تأخذ بما فهمتُ أنا من كتاب الله وسنة رسوله، لكني ألزمك أن تنظر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم تنظر في قول من قلدته هل يكون موافقًا أو مخالفًا، أما أن تعرض عن كتاب الله وسنة رسوله، وتقول: أبدًا ما أنظر فيها، وأتبع فلانًا، وفلان هذا لا أوافقك عليه.

فهنا فرق بين أن أدعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله لتنظر فيه وتتبعه، وبين أن أقول هذا كتاب وسنة رسوله لكن الزم ما أفهمه أنا منهما، هذا لا ألزمك به؛ لأني إذا ألزمتك به فقد دعوتك إلى ما نهيتك عنه، دعوتك إلى تقليدي ولكننا ندعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، المهم ألَّا تتحجر

وتقول: أنا لا أتبع إلا فلان.

والبلية كل البلية هو مسألة التقليد المحض إلا إننا - ولله الحمد - نُبشِّركم كما ترون الآن أن هذا بدأ يضعف في الناس أعني: التقليد المحض، الذي يكون حتى مع ظهور الحق وبيانه هذا - والحمد لله - بدأ يضعف في الناس، وصار الناس يتطلبون الأقوال الراجحة، حسب دلالة الكتاب والسنة، بقطع النظر عن كون فلان قلدها أو فلان أخذ بها أو لم يأخذ بها.

وفي الآية هذه دليل على أن الحكم لله ورسوله، والتحاكم إلى الله ورسوله، وقد أقسم الله تعالى قسمًا مُؤَكَّدًا، بأنه لا يمكن أن يؤمن الإنسان حتى يُحَكِّم النبي ﷺ فيما شجر بينهم ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ هذه مرحلة، المرحلة الثانية: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ يعني: ما يكون في نفسك ضِيق أو كراهة لما حكم به الرسول ﷺ، المرحلة الثالثة: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] يعني: ينقادوا انقيادًا تامًّا.

لأن الناس كل منهم التزم مرحلة، فمن الناس من لا يحكم الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وهذا من الأصل ما دخل في المراحل الثلاث، ومن الناس من يحكم الرسول لكن يجد في نفسه حرج من حكم الله ورسوله؛ لأنه يخالف هواه، فتجده متحرج يعني: يمشي بالحكم لكن مع ضيق ومع حرج، هذا أيضًا ليس بمؤمن، من الناس من يحكم الرسول ولا يوجد في صدره حرج من حكمه لكن ما يستسلم، يكون مثلًا فيه تأنٍّ فيه تهاون أو تقصير في بعض التنفيذ، هذا أيضًا ليس بمؤمن لابد من الأمور الثلاثة: التحكيم، وانتفاء الحرج، والثالث: التسليم وتأمل قوله: ﴿تَسْلِيمًا ﴾ إشارة إلى أنه تسليم كامل ولهذا يسمي النحويون هذا المصدر يسمونه مصدرًا مُؤَكِّدًا يعني: أنهم يسلمون تسليمًا كاملًا ما فيه أي التواء أو إعراض، هذه الآية مثلها.



❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور:٤٩]

❁ التفسير ❁

ثم قال: [﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ مسرعين طائعين].

إذا كان لهم الحق في حكم الله ورسوله ما يتولون، وإنما يسرعون وينقادون، فَدَلَّ ذلك على أنهم لا يريدون الحق، وإنما يريدون ما يوافق أهواءهم، إن كان الحق لهم قبلوا وانقادوا، إذا كان الحق عليهم تولوا وأعرضوا، بل إن ظاهر الآية الكريمة أنهم يعرضون في الحالين: إذا كان الحق عليهم وإذا لم يكن عليهم ولا لهم؛ لأنهم ما يذعنون إلا إذا كان الحق لهم، وفي الحقيقة أن طاعتهم هذه وإذعانهم لهوى أنفسهم لا للحق، وهذا أيضًا حال بعض الناس تجده إذا دَلَّ الكتاب والسنة على

ما يهوى ويريد، ينشرح صدره ويذعن ويقبل، وإذا دل الكتاب والسنة على خلاف ما يريد، تجده يكون في نفسه حرج وربما يزيد على ذلك بالإعراض والتولي، هذا في الحقيقة ليس بمؤمن، وإنما يتبع من الحق ما وافق هواه فقط؛ أما المؤمن فله حال أخرى ستأتي إن شاء الله.



❁ قال الله تعالى:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠]

❁ التفسير ❁

[﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ أي: شكُّوا في نبوته ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الحكم أي: فيظلموا فيه؟ لا ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالإعراض عنه].

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّنًا حال هؤلاء الذين يردون ما حكم الله به ورسوله: بأنهم لا يخلون من هذه الأحوال الثلاثة:

١ - ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمرض هو: علة تصيب الصحيح فيخرج عن الاعتدال ـ هذا المرض ـ وهذا التعريف للمرض يشمل المرض الجسمي والمرض القلبي، فالمرض الجسمي في الحقيقة علة تصيبه فيخرج عن الاعتدال، كذلك المرض القلبي علة تصيب القلب فتخرجه عن الاعتدال، حتى ينحرف ولا يقبل الحق.

فما هو المرض المشار إليه هنا؟

المؤلف فَسَّرَهُ بالكفر والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن المراد به: الشهوة والإرادة السيئة بدليل التقسيم سواء كان كُفرًا أو نِفاقًا أو غير ذلك، المهم المرض الإرادة السيئة التي تصرفهم عن قبول الحق.

٢ - ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ هذا الشك وهو مرض الشبهة؛ لأنه مر علينا كثيرًا أن أسباب الانحراف عن الحق إما شبهة وإما شهوة، يعني: إما أن الإنسان يشتهي أمرًا مخالفًا للشرع فيتبعه، وإما أن يكون عنده شبهة في هذا الحق فيمتنع منه، فنقول هنا: ينبغي أن يُفسر المرض بالإرادة السيئة التي هي الشهوة أي: اشتهاء ما يخالف الشرع.

قوله: ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ أي: شكُّوا، هذا مرض الشبهة الذي يعرض للإنسان، حتى لا يتبين له الحق، مثال ذلك: رجل أُمِر بأمر من الأمور، أُمِر بأن يصلي، ولكنه قدَّم أمرًا دنيويًّا على صلاته، ما الذي في قلبه من الأمراض؟ مرض الشهوة، وآخر أُمِر أن يصلي لكنه شك في فائدة الصلاة، أو

شك في وجوبها، أو ما أشبه ذلك، هذا فيه مرض الشبهة.

فالآن: المرض بمعنى الإرادة السيئة. ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ هذا الشك - والعياذ بالله -.

٣ - الأمر الثالث: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني: ما عندهم إرادة سيئة، ولا عندهم شك في حكم الله ورسوله؛ لكن عندهم شك آخر، في عدالة الله ورسوله، ولهذا هم يخافون ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، فيخشون من الميل والجور، وفي الحقيقة أن الميل والجور عندهم هم، ليس في حكم الله ورسوله، بل إن حكم الله ورسوله على الحق والعدل، ولكن الجور في ميزانهم هم؛ لأنهم هم الذين حادوا عمّا يجب أن يكونوا عليه من الامتثال والطاعة.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ هذه: للإضراب ولكن هل هو إضراب إبطال أو إضراب انتقال؟

المؤلف قال: لا، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فمُوجَب أن كلام المؤلف أن الإضراب هنا للإبطال؛ ولذلك قدَّر: (لا) بعد الاحتمالات الثلاثة السابقة، وعندي أن الإضراب هنا ليس للإبطال وإنما هو للانتقال؛ لأن حقيقة الأمر أن الذي لا يقبل حكم الله ورسوله لا يخرج عن هذه الأمور الثلاثة: إما أن عنده إرادة سيئة، أو عنده شك، أو خوف، ما نتصور أمرًا رابعًا يرد على هذه الاحتمالات الثلاثة، ثم إن وصفهم بالظلم لا يخرج عن هذه الاحتمالات الثلاثة أيضًا، فمن في قلبه مرض فهو ظالم، ومن في قلبه شبهة فهو ظالم، ومن خاف أن يحيف الله عليه ورسوله فهو ظالم، إذنْ فالمسألة من باب الإضراب الانتقالي، وليس من باب الإضراب الإبطالي.

قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ ﴿أَمِ﴾ في هذه المواضع هل هي للتسوية التي بمعنى (أو) أو للإضراب الذي بمعنى (بل)؟

مر علينا فيما سبق أن التي بمعنى (أو) هي التي تأتي بعد همزة التسوية مثل: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦] هذه هي التي بمعنى: (أو) ويسمونها متصلة، وأما التي بمعنى (بل) فهي التي تأتي ولا يسبقها همزة التسوية، وتسمى منقطعة فعلى هذا ﴿أَمِ﴾ في قوله ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ﴾ هذه منقطعة بمعنى (بل)، وهي كثيرة وردت في آخر سورة الطور: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور:٢٩ - ٣٠] ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور:٣٢ - ٣٣] كثيرة في آخر سورة الطور، منقطعة بمعنى (بل)، وهمزة الاستفهام فهي هنا منقطعة، وليست متصلة؛ فإن المتصلة: هي التي تأتي بعد همزة التسوية وتكون بمعنى (أو)، وأما المنقطعة فهي التي لا تأتي بعد همزة التسوية، وتكون بمعنى (بل).

قوله: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هنا: سجل عليهم الظلم وأكده بنوعين من التأكيد: الضمير المنفصل، وبكون الجملة اسمية معرفة الطرفين؛ لأن الجملة إذا كانت اسمية معرفة الطرفين فإنها

تفيد الحصر، هنا (أولاء): مبتدأ وهو معرفة؛ لأنه اسم إشارة ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبر وهو معرفة؛ لأنه محلًّى بـ (أل)، وعلى هذا أكد الله ظلمهم بنوعين من التأكيد هما: كون الجملة اسمية معرفة الطرفين والثاني: ضمير الفصل.



❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١]

❁ التفسير ❁

أولًا: في إعراب قوله: ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه منصوب والمعروف: أن كان ترفع الاسم وتنصب الخبر وهنا الذي يليها منصوب، وجوابه: أن هذا هو خبرها مقدمًا ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبرها مقدم، واسمها المصدر المُنْسَبِك من (أنْ) والفعل في قوله: ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني: ما كان قولهم إلا هذا القول ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى كتابه، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ إليه شخصيًا في حياته، وإلى سنته بعد وفاته، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يقال فيه ما سبق في الآية نظيرها: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الضمير يعود على الرسول ﷺ وإنما أسند الحكم إليه؛ لأن حكمه تبليغ عن الله ـ عز وجل ـ، فيكون حكمه منتظمًا لحكم الله أيضًا، إذ هو المبلغ عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يشمل ما تنازعوا فيه من الخصومات، وما اختلفوا فيه من الأحكام، فإن الحاكم هو الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا في الخصومات التي تحدث بين المتشاجرين، ولا في الأحكام التي يختلف فيها الناس، قال الله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٥٩]، فالمؤمنون إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فقولهم: ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعنا بآذاننا، وأطعنا بجوارحنا فهم يسمعون وينقادون، والطاعة ـ كما مرَّ ـ شاملة لفعل الأوامر وترك النواهي، شاملة للأمرين جميعًا، عكس الذين يقولون سمعنا، وهم لا يسمعون أو يقولون سمعنا وعصينا، المؤمنون يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقول المؤلف: [أي: القول اللائق بهم]، يعني: ما كان قولهم اللائق فظاهر كلام المؤلف أن المسألة على سبيل التقدير والفرض؛ أي: ما يفترض إلا أن يقولوا هذا، ولكن الحقيقةُ أن هذا هو الواقع ليس القول اللائق فقط بل هو القول اللائق الواقع فهم ﴿إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾

أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ مثل ما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:٢٨٥] وكون أن يجعل هذا قولًا لائقًا أي: مقدرًا ومفروضًا وهذا هو اللائق بهم خلاف ظاهر القرآن، فإن قول المؤمنين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعًا وطاعةً وعلى الرحب والسعة، فهذا قولهم اللائق الواقع منهم، لا يقولون رأي فلان خلاف ذلك، والناس على خلاف ذلك وما أشبه هذا، يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهكذا الواجب على كل مؤمن، فمن لم يكن هكذا فليس بمؤمن، إما إنَّه قد انتفى عنه الإيمان بالكلية أو هو ناقص الإيمان.

قال الله عز وجل: [﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ حينئذٍ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون].

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل وقد مرت علينا فوائده الثلاثة: (الحصر، والتأكيد، وتمييز الخبر من الصفة).

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قال المؤلف: [أي الناجون]، والأصح أن الفَلاح ليس نجاة فقط؛ بل نجاة من المرهوب وحصول المطلوب، فالمفلح هو الذي نجا مما يكره وأدرك ما يحب هذا هو المفلح.

إذنْ: هؤلاء هم الذين نجوا من المرهوب؛ لانتفاء العصيان منهم، وأدركوا المطلوب لحصول تمام الطاعة منهم، فبالطاعات حصول المطلوب، وباجتناب المعاصي النجاة من المرهوب.

وحَصْرُ الفَلاح في هؤلاء يدل على أن من سواهم غير مفلح؛ لكن إن انتفى عنه الإيمان كله انتفى عنه الفلاح كله، وإن انتفى عنه بعض الإيمان انتفى عنه بعض الفلاح.

إذنْ: وظيفة المؤمن فيما إذا دعي إلى حكم الله ورسوله أو فيما إذا اطَّلع هو بنفسه على حكم الله ورسوله الواجب أن يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ما يلتفت يمينًا أو شمالًا أو يؤوِّلُ أو يحرف، بل يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ انقيادًا تامًّا وسمعًا تامًّا؛ لأن بذلك يتحقق الإيمان.

والإنسان الذي ينقاد لحكم الله سبحانه وتعالى بهذه السهولة وبهذه المطابقة، هو الذي يستريح ولا يحصل عنده قلق؛ لأن من عوَّد نفسه التردد في قبول الأحكام الشرعية ولو في حكم واحد فإن النفس تجبره في أن يتردد في كثير من الأمور الشرعية، يقول الله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فالإنسان إذا عوَّد نفسه قبول الحق من أول وهلة وبدون أي قلق أو تردد في تنفيذه؛ فإنه يسهل عليه بعد ذلك الانقياد لجميع الأوامر، وعدم الالتفات والتردد، ولكنه إذا فعل ولو مرة وتردد في أمر من الأمور من الأحكام الشرعية يعني: بعد أن يثبت عنده ـ دعنا من التردد في الثبوت هذا شيء آخر ـ يعني: له أن يتردد في الثبوت إذا كان الحديث مثلًا ضعيف السند أو ما أشبه ذلك، لكن إذا ثبت عنده الحكم أن هذا حكم الله ورسوله فإن تردده في قبوله ـ لا في ثبوته ـ هذا خطر عليه جدًّا؛ لأنه يؤدي إلى التردد في الأحكام الأخرى المستقبلة.

ونظير ذلك في الحكم القدري أيضًا؛ الإنسان الذي لا يمرن نفسه على الصبر على أحكام الله وعلى قضائه وقدره، يبقى قلقًا دائمًا متعبًا من الأحكام القدرية التي لا تلائمه، فإذا تمشى مع القضاء والقدر، وصار إن أصابه خير اطمأنَّ به وإن أصابه شرٌّ صبر عليه، وهو متمشٍّ مع القضاء والقدر فإنه بذلك يستريح ولا يقلق أبدًا، تجد الإنسان الذي يريد من الله عز وجل أن يكون قضاؤه وقدره فيما يلائمه تجده دائمًا في قلق؛ لأن القضاء والقدر ليس على ما يريد؛ كما أن الشرع أيضًا ليس على ما يريد، فمَنْ تمشَّى مع هذين القسمين، فإنه سوف يجد الفلاح والطمأنينة والحياة الطيبة. ومن قلق منهما أو من أحدهما، فإنه سيبقى في قلق، إن كان الأمر القدري بقي في قلق وحزن والأمور تجري على ما لا ينبغي، وإن كانت الأمور الشرعية - كذلك - أيضًا ينفتح عليه باب التردد في قبول أحكام الله وتنفيذها.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

[قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ يخافه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بسكون الهاء وكسرها بأن يطيعه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالجنة].

هذه الآية من أجمع الآيات وأخصرها، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وسبق أن الطاعة موافقة الأمر نهيًا كان أو أمرًا، يعني: طلب إيجاب أو طلب ترك، فهي موافقة الأمر.

وقوله: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ الطاعة: لله ورسوله، والخشية: عبادة، والتقوى: عبادة لا تكون إلا لله وحده؛ ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ يقول المؤلف: [يخافه]، ولكن هذا التفسير قاصر؛ لأن الخشية أشد من الخوف، والفرق بينهما:

أولًا: الخشية لا تكون إلا من علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فالعالم هو الذي يخشى الله؛ لأنه يخافه عن علم بحقيقة المخوف وحال الخائف؛ فهو يعلم حال المخوف وحال الخائف.

الفرق الثاني: الخشية تكون من عِظَم المخشي، والخوف يكون من ضعف الخائف، والفرق بينهما ظاهر، يعني: أن الخشية إنما تكون لعظم المخشى، وإن كان الخاشي عظيمًا، والخوف يكون من ضعف الخائف.

الفرق الثالث: الخشية خوف بهيبة وتعظيم وإجلال وهي متفرعة عن الفرق الثاني، والخوف لا يكون كذلك، فلا يكون عن هيبة وتعظيم وإجلال، ولذلك يقال: خَافَ من الذئب ولا يقال

خشي منه، إلا على سبيل التوسُّع .

فهذه الفروق الثلاثة توجب ألَّا تكون الخشية بمعنى: الخوف على وجه المطابقة، نعم على وجه التقريب فلا بأس أن يقول الإنسان: إن الخشية بمعنى: الخوف ليقربها إلى أفهام السامعين لا على أن الخوف هو المعنى المطابق للخشية.

وقوله: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ نتكلم الآن عن القراءات فيها:

فيها: (ويتقِهِ)، وفيها: (ويتقهْ)، وفيها قراءة ثالثة لحفص ما قالها المؤلف وهي: (وَيَتَّقْهِ) ـ بسكون القاف وكسر الهاء ـ.

أما قراءة (ويتقِهِ) سواء أشبعنا الهاء أو لم نشبعها ـ هما قراءتان أيضًا ـ هذه القراءة واضحة وليس فيها إشكال؛ لأنها متمشية على ما نعرف من القواعد العربية، (يَتَّقِهِ) مثل (يَرمِهِ) معطوفة على فعل الشرط وهو يطع وهو مجزوم، والمعطوف على المجزوم مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، يعني: حذف الياء والكسرة قبلها دليل عليها، والهاء في (ويتقه) مفعول يتقي وهي ضمير مكسور.

لكن على قراءة (ويتَّقِهْ) سكون الهاء على خلاف الذي نعرف فنقول: سُكِّنَتْ للتخفيف؛ لأنه (ويتقهْ) أخف من (ويتقِهِ) فهي مُسَكَّنةٌ للتخفيف.

وعلى قراءة حفص (ويتقْهِ) كيف سكنت مع أنها مجزومة بحذف حرف العلة؟ نقول: لأن يتقي لا شك أنها فعل ناقص آخره حرف علة فكيف سكنت؟

فالإشكال الآن في تسكين القاف مع أن الفعل معتل آخره ليس حرفًا صحيحًا، والمعتل يجزم بحذف حرف العلة فلماذا سكن؟

نقول: إما أَنَّهُ سُكِّن تخفيفًا، أو سُكِّن على تناسي حرف العلة؛ كأنه نُسِيَ حرف العلة وصار فعلًا صحيحًا والفعل الصحيح يجزم بالسكون.

والتقوى: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه فما الربط بينها وبين الخشية؟

نقول: التقوى نتيجة الخشية؛ لأن من خشي الله اتقاه، والذي يخافه بهيبة وتعظيم وإجلال، لابد أن يتقيه، فالربط بينها وبين الخشية: أنها فرع عنها ونتيجة عنها، فمن خشي الله اتقاه بلا شك.

قد يقول قائل: قلتم: إن التقوى هي: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه أليس ذلك هو الطاعة؟

أقول: في الحقيقة هي الطاعة، ولكن هناك قاعدة وهي: (أن بعض الكلمات تُفَسَّر بمعنى عند الانفراد، وبمعنى آخر عند الاقتران؛ فقد تكون عند الانفراد شاملة لهذا المعنى وقد تكون عند الاجتماع بعضًا منها). وأمثال ذلك كثير، مثلًا: الفقير والمسكين عند الانفراد نجد أن الفقير يشمل

المسكين والمسكين يشمل الفقير، لكن عند الاجتماع يكون الفقير بعضًا من المسكين، والمسكين بعضًا من الفقير بمعنى: أننا نقول: الفقير كذا والمسكين كذا لأجل ألا يحصل الترادف بين الكلمتين فتضيع فائدة العطف.

وكذلك أيضًا هنا الطاعة والتقوى، إذا أفردت الطاعة فهي بمعنى: التقوى، وإذا أفردت التقوى فهي بمعنى: الطاعة، وإذا قرن بينهما جعلت التقوى في ترك النواهي، والطاعة في فعل الأوامر، فتصير إذنْ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره فقط ونقصرها على بعض معناها لاقترانها بالتقوى، والتقوى هنا: اجتناب النواهي فقط، ونقصرها على بعض معناها ولا نقل وفعل الأوامر والسبب اقترانها بالطاعة، ولهذا يقال: (بعض الكلمات إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت)، بمعنى: أنَّها إذا افترقت صارت بمعنى واحد، وإذا اجتمعت اختلف معناها، والذي يوجب لنا أن نُحَوِّل الشيء منها إلى معنى آخر أو إلى بعض المعنى: لئلا يكونا مترادفَيْن، وبذلك - أي بكونهما مترادفَيْن - تضيع فائدة العطف.

على كل حال نقول: الطاعة إذا انفردت صارت: فعل الأوامر وترك النواهي وإذا اجتمعت مع التقوى: حملت على فعل الأوامر، والتقوى على ترك النواهي كما أن التقوى إذا انفردت تكون لفعل الأوامر وترك النواهي.

وهذا المعنى في كلمات كثيرة من اللغة العربية، إذا اجتمعت افترقت وصار كل واحد له معنى لئلا تضيع فائدة العطف، وإذا انفردت اجتمعت وصار معناهما واحدًا.

والترادف المطلق لا يمكن أن يوجد أبدًا؛ لأنه تقارن بلا فائدة لاسيما مع وجود العطف أما مع عدم العطف فربما يكون من باب التأكيد اللفظي.

ولا يجوز وجوده مع وجود العطف؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، فإن المعطوف غير المعطوف عليه.

ويكون الاتفاق في الحكم والتغاير في المعنى؛ لأن الكلمة المعطوفة غير الكلمة المعطوف عليها، لكن الحكم واحد، نقول: قام زيد وعمرو وبكر وخالد، فالحكم على الجميع واحد لكن عمرو وبكر وخالد غير زيد، فتقتضي المغايرة في المعنى، وأصل العطف أن هذا انعطف على ذاك فصار له حكمه، لكن هذا غير هذا، يعني: لا يمكن أن تقول: قام زيد وزيد ويكون زيد الثاني هو الأول، لا يمكن لكن يجوز أن تقول: قام زيد زيد ويكون زيد الثاني هو الأول من باب التأكيد.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأن الجملة اسمية، وإذا كانت الجملة اسمية في جواب الشرط وجب قرنها بالفاء، ولا تسقط الفاء إلا عند الضرورة، مثل قول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا

ولم يقل: فالله يشكرها.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فيها ما سبق في ضمير الفصل (الحصر، والتوكيد، والتمييز بين الخبر والصفة) وهذه في كل ضمير فصل.

[﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالجنة] يعني: والنجاة من النار أيضًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] واقتصار المؤلف على الجنة فقط؛ لأن من دخل الجنة فقد نجا من النار.

هذه الآية من أجمع الايات؛ لأنها جمعت إجمالًا لأسباب الفوز، وهي هذه الأمور الثلاثة: طاعة الله، وخشيته، وتقواه، فمتى حصلت هذه الأمور لشخص؛ فإنه يفوز، والتفصيل معروف بالكتاب والسنة.



قال الله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور:٥٣]

التفسير

[﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ غايتها ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بالجهاد ﴿لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل﴾ لهم ﴿لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ للنبي ﷺ خير من قَسَمِكُمُ الذي لا تصدقون فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾]

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: حلفوا به ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.

هذه الآية استوعبت أركان القَسَم، كل أركان القسم موجودة؛ لأن القسم غالبًا يُحذف منه بعض أركانه لكن هذه الآية استوعبت الأركان كلها:

(المُقْسَم به، وحرف القَسَم، وفعل القَسَم، والمُقْسَم عليه). كل أركان القسم موجودة: فعْلُ القسم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾، وحرف القسم: الباء في ﴿بِٱللَّهِ﴾، والمقسم به: ﴿ٱللَّهِ﴾، والمقسم عليه: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، هذه الجملة هي جواب القسم وهي المقسوم عليه.

أقسم هؤلاء ﴿لَئِنْ﴾ أمرهم النبي ﷺ يعني: بالجهاد، والدليل أنها بالجهاد قوله: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾؛ لأن الخروج إنما هو في الجهاد، فهم أقسموا هذا القسم أن الرسول لو أمرهم لخرجوا، هذا القسم قسم ونذر؛ لأن القسم إذا تضمن التزامًا من الإنسان لله صار جامعًا بين القسم والنذر.

وعلى هذا لو قال قائل: والله لأصلين ركعتين، وقصده بذلك الالتزام، يصير هذا قسم ونذر، يصير لله عليَّ أن أصلي ركعتين بل أبلغ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة:٧٥]، وأما إن قصد الإنسان بالقسم تحقيق الشيء دون التزامه، فإنه ليس بنذر؛ لأن الفرق

بين الإنسان الذي يلتزم ويرى نفسه ملزمة بهذا الشيء، وبين الإنسان الذي يريد تحقيق الشيء، لكن من غير أن يرى نفسه مُلْزَمًا؛ مثل لو قال: والله لأخرجن إلى السوق، لألبسن الثوب وما أشبه ذلك، هو ما قصده أن يُلزم ولكن قصده أن يحقق أن يفعل بغير أن يكون مُلْزِمًا.

فالقسم إن تضمَّن إلزامًا صار قسمًا ونذرًا، أو نذرًا محكمًا عليه.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ لا حاجة لِأَن تُقسموا، وإنما إذا أمرتم فاخرجوا بدون قسم، وليس هناك حاجة للحلف.

وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ المؤلف جعل ـ حسب سياقه ـ: طاعة مبتدأ، ومعروفة: صفة له، وخبرها محذوف والتقدير: خير من قسمكم، ولكن هذا ليس بظاهر بل الظاهر أن طاعة: مبتدأ والخبر محذوف تقديره: عليكم، (عليكم طاعة معروفة)، أو طاعة: خبر والمبتدأ محذوف أي: (طاعتكم طاعة معروفة)، يعني معنى ذلك: أن الإنسان عليه أن يطيع طاعة معروفة.

والطاعة المعروفة من المؤمنين: هي أن يفعل بدون حلف؛ لأن الذي حلف أن يفعل كأنه ما يودُّ يفعل، لكنه يلزم نفسه غصبًا، فالطاعة المعروفة: الانقياد بدون قسم، وهذا أولى من تقدير المؤلف، هو أن نقول: عليكم طاعة معروفة، أو طاعتكم طاعة معروفة، يعني: الطاعة المعروفة للمؤمنين، وهي التزام أحكام الشرع بدون قسم.

وقوله: [﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل].

هذا ليس بصحيح، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بكل ما تعملونه، سواء أقسمتم عليه أم لم تقسموا عليه، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ما: اسم موصول يفيد العموم، أيْ: جميع الأعمال، و﴿خَبِيرٌ﴾ بمعنى: عليم إلا إنَّ الفرق بينه وبين العليم: أن الخبير: هو العليم ببواطن الأمور فيكون أدق من العلم المطلق خبرة بالبواطن.

قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عام لكل ما يعمله الإنسان في قلبه أو لسانه أو جوارحه، ما يخفى على الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك شيء.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآيات الكريمة:** بيان صفة انقياد المؤمنين، أنهم إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ما يتلكئون، ولا يترددون.

٢ - **وفيها أيضًا:** ما يترتب على هذا السمع والطاعة من الفلاح؛ الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

٣ - **وفيها أيضًا:** دليل على فائدة الطاعة والخشية والتقوى، وأن هذه الثلاثة فائدتها الفوز بالجنة والنجاة من النار.

٤ - **وفيها:** دليل على كراهة النذر لقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ وهذا نهي، وقد اختلف أهل العلم

في النذر: هل هو مكروهٌ أو حرام؟ على قولين:

فمن العلماء من يرى: أن النذر مكروه، ومنهم من يرى: أنه محرم، وكان شيخ الإسلام - ابن تيمية - يميل إلى التحريم وهو أقرب.

والقول بالتحريم أقرب من القول بالكراهة؛ لأن الله تعالى نهى عنه في قوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ والأصل في النهي: التحريم، والنبي ﷺ نهى عنه وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيْلِ»[1] والمعنى يقتضيه أيضًا؛ لأن الإنسان في عافية فكونه يلزم نفسه بأمر لم يلزمه الله به، هذا من تكليف نفسه بما لم يكلف به، ثم - أيضًا من المعنى الذي يقتضيه - إن كثيرًا من الناس الناذرين يندمون على نذرهم؛ لاسيما إذا كان النذر فيه نوعٌ من المشقة، مثل: حلف إن شَفَى الله مريضه أن يصوم من كل شهر عشرة أيام، وشفى الله مريضه، وأصبح يلزم نفسه الآن يصوم عشرة أيام من كل شهر، إلا لعذر لقول النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيْعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»[2].

وكثير من الناس الناذرين لا يوفون بنذرهم؛ لأنهم يجدونه مشقة فيقول: الحمد لله حصل لنا المطلوب وشفى الله المريض أو نجحت، فلا يُوفِي لله بما وفى الله به، الله يوفي له بما شرط على ربه، وهو - والعياذ بالله - لا يوفي له ولكن ما النتيجة والعاقبة؟! عظيمة جدًّا ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ ولم يتصدقوا ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ولم يكونوا صالحين، فكانت النتيجة: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

وهذه نتيجة - والعياذ بالله - سيئة، عظيمة جدًّا، أن يجعل الله نفاقًا في قلب هذا الناذر الذي لم يفِ لله تعالى بما عاهد الله عليه؛ لأنه عاهد الله على هذا.

وأما من نذر معصية فلا يجوز الوفاء بها؛ لأنه «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»، فنفسك وإن ألزمتك بفعلها فلا تطعها، كما لا تطع أميرك إذا ألزمك بأمر فيه معصية الله، كذلك أيضًا لا تطع نفسك إذا ألزمتك بأمر فيه معصية الله.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ» ومع ذلك فعلى الناذر كفارة يمين؛ فالناذر ما يخلو في الحقيقة من بلاء يلزم به نفسه، أقله كفارة يمين، حتى لو قال الإنسان مثلًا: لله علي نذر فقط هذه الكلمة، ولم يقل شيئًا وجب عليه كفارة يمين، وبهذا نعرف خطورة النذر.

وأما ما يتوهم بعض الناس من أن النذر يحصل به المطلوب، فإن الرسول ﷺ نفى هذا الوهم بقوله: «فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»، مريضك قد قدر الله أن يُشفى قبل أن تنذر، وليس نذرك سببًا للشفاء

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، والترمذي (١٥٢٦)، والنسائي (٣٨٠٦).

بالتأكيد، فالله ـ عز وجل ـ أكرم الأكرمين ليس يتوقف كرمه على شيء يَشِيع الإنسان أنه اشترط يقول: أنا أنذر لك لكي تشفي مريضي، لا، إذا أنعم الله عليك النعمة فاشكره عليها، بما جاءت به الشريعة وأما أنك تقول: إن الله لا يعطيني ويشفي هذا المريض إلا إذا اشترط، فهذا أنذر له حتى يشفيه، ثم تأتي البلوى فيحصل الأمر عنده لا به، وهذا من الابتلاء.

لذلك يجب عليكم أن تحذروا من النذر، وأن توعوا الناس أنه ليس سببًا للخير، والنبي ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى في هذه الأمور أخبر: «بِأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ» وكم من طالب نَذَرَ إن نجَّحه الله أن يصوم ثلاثة أيام ويُنجِّحه الله ولا يصوم، وهم ثلاثة أيام فقط ليسوا عشرًا؛ لأن النفس الضعيفة الإيمان ما يهمه أن يخالف، يقول: حصل مقصودي ولا يهمه، على كل حال: هذا النذر يُستدل على تحريمه بقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾.

٥ - **وفيها:** وجوب تقييد الطاعة بالمعروف، أن تكون الطاعة بالمعروف، والمعروف هو المعروف من الشرع وليس المعروف بين الناس؛ لأن الناس قد يعرفون شيئًا يظنونه طاعة وليس بطاعة.

٦ - **وفيها:** أَنَّهُ لا تجوز الزيادة على الشرع في الطاعة، ولا النقص لقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ بدون غلوّ ولا تقصير.

٧ - **وفيها أيضًا:** إحاطة علم الله بكل شيء، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بكل ما تعملونه حاضرًا ومستقبلًا.

والفائدة من ذكر علم الله بما نعلم، ليس مجرد أن يخبرنا أنه يعلم، لكن الفائدة من ذلك الترغيب والترهيب إلا إذا اقتضى السياق واحدًا فقط، وإلا فكونك تعلم أن الله يعلم كل ما تعمل يعني: ينشطك على العبادة.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤]

التفسير

قوله: [﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن طاعته بحذف إحدى التاءين خطاب لهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من طاعته ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: التبليغ المبين].

يقول الله تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقد سبق أن الطاعة: هي موافقة الأمر بفعل الأوامر واجتناب النواهي - هذه الطاعة - وقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ بإعادة العامل يدل على أن طاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة، وأن ما جاء به فإنما جاء به عن الله؛ ولهذا قال العلماء: إن ما وجب بسنة رسول الله ﷺ كالذي وجب بالقرآن من أمر أو نهي، وهذا واضح؛ لأنه جعل طاعة النبي ﷺ طاعة مستقلة حيث قال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقوله: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ (أل) للعهد وهو عهد ذهني يعني: الرسول المعهود بينكم وهو محمد ﷺ وهذه ليست كقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٦]؛ لأن هذا عهد ذكري أرسلنا إلى فرعون رسولًا ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، أما هذه فهي للعهد الذهني أي: الرسول المعهود بينكم الذي تعرفونه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل.

[﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن طاعته بحذف إحدى التاءين خطاب لهم].

معنى ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: تُعرِضوا هذا في معنى التولي، لكن من حيث اللفظ أصلها (تتولوا)، فإن تتولوا خطاب للناس، فإن تتولوا أيها الناس ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، لكن حذفت منها إحدى التاءين.

وقد اختلف النحويون هل المحذوف تاء المضارعة أو المحذوف تاء الفعل؟ منهم من قال: تاء الفعل؛ لأن تاء المضارعة جيء بها لمعنى فلا ينبغي حذفها، ومنهم من قال: تاء المضارعة؛ لأن تاء الفعل أصلية، وأما تاء المضارعة فهي زائدة فهي أولى بالحذف من الحرف الأصلي، وعلى كل حال، الخلاف في هذا لفظي ما يترتب عليه أمر معنوي، لكن المراد تتولوا.

نظير ذلك في حذف إحدى التاءين قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] ﴿تَلَظَّىٰ﴾ بمعنى: (تتلظى) وليست تلظى فعل ماضٍ وإلا لقال: تلظَّت، لكنها فعل مضارع حذفت منه إحدى التاءين.

قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الرسول ﷺ ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ والبيان والدعوة، فإنه - عليه الصلاة والسلام - بلَّغ بلاغًا مبينًا، ودعا الناس أيضًا ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]، فالواجب على النبي ﷺ أمران، والمؤلف اقتصر على أحدهما. الواجب عليه: التبليغ، والدعوة، وقد بلَّغ ودعا ﷺ، بلَّغ الناس ودعاهم إلى الله، وقام بما يجب عليه.

وقوله: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ما هو الذي حملناه؟ حملنا طاعته واتباعه، وعلى هذا فإن أخلَّ هو بما عليه صار مستحقًّا لما يترتب على ذلك، وإن أخللتم أنتم بما يجب عليكم صرتم مستحقين لجزاء ذلك، والنبي ﷺ بلَّغ البلاغ المبين فقام بما حُمِّل، لكن الذين أعرضوا لم يقوموا بما حُمِّلوا، وفي

هذا دليل على أن الرسول ﷺ ليس ملزمًا بهدايتهم، وهذه كثير في القرآن: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

فهو ليس ملزمًا؛ بل إن الله نهاه أن يكون في صدره حرج وضيق وحزن فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] وهكذا أيضًا من وَرِثُوا النبي ﷺ وهم العلماء، فإنما عليهم البلاغ والدعوة، أما هداية الخلق فهي إلى خالقهم - تبارك وتعالى - ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢].

قال الله تعالى مرغبًا في طاعته: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ تطيعوا الرسول ﷺ تهتدوا، وفي هذا إشارة إلى ما سبق من أن ما جاءت به السنة فهو حكم مستقل، يجب أن يطاع ويتبع كما جاء في القرآن، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ والهداية مطلوبة، فإذا أمر النبي ﷺ بأمر فلا يجوز لنا أن نقول: هل لهذا أصل في القرآن أو لا؟ إن كان له أصل قبلناه، وإن لم يكن له أصل لم نقبله؛ لأن هذا حرام وهو كفر بالقرآن نفسه؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ فدل هذا على أن كل ما جاء به فهو حق وهداية وليس فيه باطل وضلالة.

ثم قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ قوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ هذا الحصر حقيقي أم إضافي؟

إذا قيل: إنه حصر حقيقي معناه: أن ما سواه مُنتفٍ، فهل يمكن أن نقول هنا: إن الرسول ما عليه إلا أن يبلغ الناس، وأما أن يفعل الطاعات هو بنفسه فليس عليه منها شيء؟! يعتبر هذا الحصر إضافي يعني: بالنسبة لما يجب عليه نحوكم، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ بالنسبة إليكم ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أما أن يهديكم ويرغمكم على الحق فهذا ليس عليه كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وتفسير هذا الحصر بالنسبة لما يجب عليه نحو أمته، فإنه لا يجب عليه إلا البلاغ المبين، لكن الحصر الحقيقي: هو الذي يكون بالنسبة للعموم، ومعنى قولنا: (إضافي): أنه بالإضافة إلى كذا، كما لو قلت مثلًا: لا جواد إلا فلان، وهذا حصر مع أن الأجواد سواه كثيرون، لكن لا جواد إلا فلان يعني: بالنسبة إلى قبيلته مثلًا، أو بالإضافة إلى بلده أو ما أشبه ذلك.

إذنْ الحصر يكون إضافيًا، هو حقيقي من حيث المعنى لكنه بالإضافة إلى كذا، فإذا كان الحصر بمعنى بالإضافة إلى كذا فهو: إضافي، وإذا صار الحصر بالإضافة إلى الكل فهو: حقيقي.

قوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ﴿الْبَلَاغُ﴾ بمعنى: التبليغ وأصل ﴿الْبَلَاغُ﴾: الوصول إلى غاية، يقال: بَلَغَ كذا بمعنى: وصل، فالمبلغ مُوصِلٌ إلى غاية، وهي: الهداية التي أراد الله تعالى من عباده أن يكونوا عليها.

وقول المؤلف: [المبين بمعنى: البيِّن] فيه نظر؛ لأنه سبق أن المبين تصح بمعنى: البيِّن وتصح بمعنى: المُبِينُ لغيره يعني: الموضح لغيره، وهذا على حسب السياق، فهنا ﴿ٱلْبَلَـٰغُ﴾ بمعنى: المبين يعني: الذي أظهر وأوضح ما دعا إليه وبلَّغه، فهنا ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ بمعنى: المُظْهِر وليست بمعنى البيِّن كما قال.

وأيهما أبلغ: المبين بمعنى المظْهِر أو المبين بمعنى البيِّن؟

الجواب: بمعنى المظهر؛ لأن المبين بمعنى المظهر بيِّن بنفسه مبين لغيره، والبيِّن فقط بيِّن بنفسه قد يُبِين غيره وقد لا يبيِّنه.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

❁ التفسير ❁

قوله: [﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلًا عن الكفار ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ بالبناء للفاعل والمفعول ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من بني إسرائيل بدلًا عن الجبابرة ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بأن يظهره على جميع الأديان ويوسع لهم في البلاد فيملكوها ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الكفار ﴿أَمْنًا﴾ وقد أنجز الله ما وعده لهم بما ذكر وأثنى عليهم].

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الوعد معروف، الوعد معناه: أن يُمنِّي شخصًا بما يحب، وأما الوعيد: فأن يُحذِّره مما يكره، ففرق بين الوعد والوعيد، الوعد لما يُرجى من المحبوب، والوعيد لما يُخشى من المكروه، وقد قال الشاعر:

وإِنِّـــي وَإِنْ أَوعَدْتُـــه أَو وَعَدْتُـــه　　　لمُخلِـفُ إِيْعَـادِي وَمُنْجِـزُ موعِـدِي

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ أي: أنه - سبحانه وتعالى - التزم لهم بما يحبونه مما يأتي وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح؛ فالإيمان محله القلب والعمل الصالح محله الجوارح، والإيمان وحده لا يكفي والعمل وحده لا يكفي ولا يكون صالحًا إلا

بالإيمان، لكن ولو كان ظاهره صورة الصلاح إذا لم يكن مبنيًا على إيمان فإنه ليس بصالح، فالذين جمعوا بين الأمرين الإيمان والعمل الصالح لهم هذا الوعد ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هذا وعد.

ومعنى يستخلفنهم أي: يجعلهم خلفاء لغيرهم، يخلفون غيرهم في الأرض، وكلمة الأرض المراد بها: الجنس ليست أرضًا واحدة معينة، بل أرض عامة، كل الأرض، في الأرض كلها وذلك؛ لأن الأرض أرض الله ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ معروف من يشاء من يورثهم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وعلى هذا فمثلًا: أرض العرب ليست للعرب، وأرض الفرس ليست للفرس، وأرض الروم ليست للروم، الأرض لله يورثها من يشاء وهم العباد الصالحون، يورثها للعباد الصالحين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فمن كفر بالله وعَتَى عن طاعته فلا حَقَّ له في الأرض، فالحق لغيره، يورثها الله تعالى من يشاء من العباد الصالحين.

وعلى هذا فإذا قال بنو إسرائيل: أرض الشام لنا؛ لأن موسى - عليه الصلاة والسلام - قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٢١] فالله كتبها لنا، إذا قال بنو إسرائيل هكذا، نقول: نعم إن موسى قال هكذا؛ لأنكم في ذلك الوقت كنتم أهل الصلاح، وكنتم عباد الله الصالحون، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، فهي لكم في ذلك الوقت بلا شك، لكن لما جاء الإسلام وكفرتم به صرتم لستم أهلًا لها، وصار أهلها هم الصالحون وهم المؤمنون بمحمد ﷺ المتبعون له.

قبل ذلك أيضًا احتلها من بعد اليهود النصارى - الروم -؛ لأنهم كانوا هم الصالحون بعد اليهود، ثم احتلها من بعد الروم المسلمون؛ لأنهم هم عباد الله الصالحين، فكانت الأرض - أرض الشام - كتبت للصالحين ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وَرِثَهَا بنو إسرائيل من الجبارين؛ لأنهم كانوا على الحق - يعني: اليهود - ثم ورثها النصارى من اليهود؛ لأنهم أهل الحق، ثم ورثها المسلمون من النصارى؛ لأنهم أهل الحق، وعلى هذا فاليهود الآن لا حقَّ لهم في فلسطين، ولا غيرها من أرض الله، ما لهم حق في الأرض أبدًا لا هم ولا أي كافر؛ لأن الأرض إنما يستحقها عباد الله الصالحون، لكن إن صلح المسلمون ورجعوا إلى دينهم الحقيقي الذي يورثهم الله به أرضهم فإننا نجزم جزمًا، بأنهم سوف يسترجعون الأرض ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

فنحن نجزم أن المسلمين الآن لو رجعوا حقيقة إلى دين الله بالإيمان والعمل الصالح فسوف

يطردون اليهود من الأرض، بل سوف يطردون الأمريكان من أماكنهم، والروس من أماكنهم، نجزم بهذا جزمًا، أما ما داموا على هذا الوصف - أعني المسلمين - فإنه حسب القواعد الشرعية والنصوص لا يستحقون النصر؛ لأنهم ما قاموا بجهاد أنفسهم فضلًا عن أن يقوموا بجهاد غيرهم ليدخلوه في الإسلام.

نقول الآن: أقيموا الإسلام فيما بينكم، أقيموا دين الله فيما بينكم، ثم بعد ذلك سوف ينصر الله دينه إذا قمتم به؛ لأن الله ما ينصر فلانًا؛ لأنه فلان أو ينصر هؤلاء الطائفة لأنهم عرب، أو ينصر هؤلاء الطائفة؛ لأنهم فرس، لا، ينصر من قام بهذا الدين.

صلاح الدين الأيوبي أصله غير عربي ومع ذلك نصره الله على النصارى؛ لأنه قام بدين الله، الدين نفسه هو الذي ينتصر، هو الذي سيشق عن نفسه، إن حُمِل فهو سلاح، وإن لم يُحمل ما بقي للإنسان سلاح يستطيع أن يحكم بالنصر بما في يده من سلاح أبدًا، يبقى إذا لم يكن سلاح الإسلام في يد الإنسان يبقى هناك السلاح المادي، أيُّنا أقوى مادة؟ ومعلوم أن المسلمين أضعف الأمم مادة في الوقت الحاضر؛ لأنهم أمم متفرقة ومتناحرة والعداوات بينهم كثيرة، والبغضاء بينهم كثير، هذا يدعو إلى كذا، وهذا يدعو إلى كذا، وهذا له منهج خاص كلهم متفرقون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩] وهذا الأمر منطبق تمامًا على المسلمين في الوقت الحاضر، فلا اجتماع على الإسلام، ولا دين قَيِّم يقام للمسلمين، قد يوجد في شرذمة قليلة، إلا أنها لا تُمثل المسلمين، يوجد فيها شيء من الصلاح من الإيمان والعمل الصالح لكن على ضعف أيضًا.

فالحاصل أن هذا الوعد الذي وعده الله حق لكن للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهؤلاء هم عباد الله الصالحون الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

فإذا قال الذين يجاهدون اليهود الآن: نحن سنطرد اليهود، ونقيم على هذه البلاد المقدسة التي احتلوها برجسهم، نقيم عليها دولة إسلامية، تقود الناس بدين الله، بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم مثلوا ذلك بأنفسهم قبل أن يفتحوا هذه البلاد، حينئذٍ نتيقن لهم بالنصر وفيما عدا ذلك فالنصر غير مضمون، بل قد يكون بالعكس الهزيمة هي المضمونة؛ لأن من قام بشيء وجاهد به وهو على خلافه، فإن ذلك نوع من خداع الله - عز وجل - ومن يخادع الله يخدعه.

وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قلنا: الأرض المراد بها: الجنس يعني: ليست أرضًا معينة كأرض مكة يستخلف الله فيها المهاجرين بدلًا عن المشركين، بل كل الأرض.

وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ هذا في الحقيقة مثل قوله: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠] يعني: ذُكِرَ من باب التوكيد وطمأنينة الموعود

بما وُعِدَ به، يعني: كأنه قال: انظروا إلى هذا الوعد الذي وعدكم الله فقد تحقق فيمن قبلكم.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل قول المؤلف: [من بني إسرائيل بدلًا عن الجبابرة]. صحيح ومن بني إسرائيل أيضًا بدلًا عن الفراعنة، فإن الله يقول: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩]. يقول أيضًا: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل في ذلك الوقت ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧]. وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان:٢٥] يعني: فرعون ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان:٢٦] هذه الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم الذي هو جنة الدنيا تركوه لمن؟ لبني إسرائيل أورثهم الله تعالى.

كذلك المسلمون: قال الله تعالى في اليهود الذين قُضِيَ عليهم بالقضاء على بني قريظة وبالتالي بفتح خيبر قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب:٢٧] يعني: ما وطأت عليها رجلكم أبدًا أورثكم الله إياها، وهذا وعد حق، وفي التاريخ أن المسلمين حينما كانوا يمثلون الإسلام حقيقة ملكوا مشارق الأرض ومغاربها، ودانت لهم الأمم إدانة كاملة.

وفي الحقيقة أنهم فتحوا تلك البلدان قبل كل شيء بالدين والأخلاق، فإن من سَبَر أحوال المسلمين دخل في الإسلام دون أي قتال، ولكن مع ذلك استعانوا بالسلاح لئلا يقف أحد في وجه دعوتهم، فاستعمال السلاح في الإسلام ما هو إلا مدافعة عن الإسلام فقط، لا إرغامًا للناس أن يدخلوا بالسيف؛ لأن الله يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة:٢٦٥] ويقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: صد عن سبيل الله، وعن الدعوة الإسلامية ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

فعلى كل حال نقول: إن من سَبَر أحوال التاريخ فيما قبل هذه الأمة وفي هذه الأمة عرف تصديق هذا الوعد، وأنه وعد تحقق ونجز، وأنه إنما تخلف فيما تخلف بسبب النقص عندنا إما في الإيمان وإما في العمل الصالح.

فتخلف النصر في أُحد لترك العمل الصالح، وهو الامتثال حيث قال الرسول ﷺ: «**لَا تَبْرَحُوا عَنْ مَكَانِكُمْ سَوَاءٌ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ أَوْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا**»[1] ولكنهم برحوا، وتخلف النصر في غزوة حنين لنقص الإيمان - وهو الاعتماد على الله - عز وجل - بل اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم، وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة فغلبوا من قلة، فهذا دليل على أنه متى تخلف أحد الوصفين: الإيمان أو العمل الصالح فإنه يتخلف من ذلك الوعد بقدر ما تخلف من هذين الوصفين.

والأمر الثاني مما وعد الله به المؤمنين: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهذا هو قرة أعينهم، قرة عين المؤمنين أن الله يمكّن ﴿دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ ويكون الإسلام هو المتمكن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٣٩)، وأبو داود (٢٦٦٢).

وهو الظاهر وهو الغالب هذه قرة عيون المؤمنين، وهي إن لم تكن مثل الأولى فهي أولى منها بالنسبة للمؤمن حقًّا الذي يريد الإيمان والإسلام.

لو سُئِل ماذا يتمنى؟ ما يقول: أتمنى أن يكون لي سيارة فخمة وقصر مشيد وما أشبه ذلك وإنما يقول: أتمنى أن أجد الإسلام هو العالي وهو المتمكن في الأرض، هذه أمنيته، وهذه أمنية عليا لكل مؤمن.

وفي قوله: ﴿دِينَهُمُ﴾ الإضافة إليهم فيها نوع من التخصيص ونوع من الفخر والإعزاز، الدين الذي اختاروه؛ لأنفسهم وصار خاصًّا بهم.

ثم في قوله: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يصير فيه أيضًا ميزة أخرى، بأن هذا الدين الذي اختاروه هو الدين الذي ارتضاه الله لهم - أيضًا - فصار هذا الدين فيه ميزة وغبطة للمؤمنين من ناحيتين:

أولًا: أنه هو الذي اختاروه وسلكوه؛ لأنفسهم.

الثاني: أن الله ارتضاه لهم - أيضًا - ليدينوا الله به.

فيكون فيه مَزِيَّتَانِ: مزية من جهةِ السَّالِكِ ومزية من جهة الشارع، السالك: هم ﴿دِينَهُمُ﴾، والشارع: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فهم رضوا هذا الدين، وربهم رَضِيَهُ لهم، فكان هذا الدين الذي ارتضوه لأنفسهم، ورضيه الله لهم أعز شيء عليهم أن يمكن الله لهم هذا الدين، وهذه نتيجة ثانية للإيمان والعمل الصالح، الأول: الاستخلاف في الأرض، والثاني: أن يمكن الله لهم الدين ويثبتهم ويقويهم ويجعله الأعلى على غيره.

وقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ يقول: فيها [قراءتان التخفيف (يُبْدِلَنَّهم) والتشديد (يُبَدِّلَنَّهم)]، وهما بمعنى واحد أو مع اختلاف يسير.

قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ قال: ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ ولم يقل: (بخوفهم أمنًا) لتحقق الخوف الأول، ثم يأتي من بعده الأمن، وظهور نعمة الأمن وفائدته بعد الخوف أبلغ من ظهور أمن على أمن؛ لأنه لا تُعرف قيمة الأشياء إلا بضدها، فإذا قُدِّر أن هذا الإنسان في خوف، ثم أُبدِل بعد الخوف أمنًا، ظهر لهذا الأمن من الأثر في نفسه ما هو أبلغ مما لو كان أمنًا على أمن.

ولذلك الآن هؤلاء الشباب من بنينا الذين عاشوا في هذا الظل الوارف والنعيم الوافر من الإطعام من الجوع، والأمن من الخوف هل يقدرون نعمة هذا الأمن؟ أبدًا ما يقدرونها وكأنه أمر عادي لا يمكن أن يتبدل، وكذلك لا يقدرون نعمة الشِّبَع، ما كأنه إلا أمر عادي خلقوا عليه ولن يتبدل، لكن من ذاق ألم الجوع ورهبة الخوف ممن سبقونا، ثم أدركوا هذا النعيم، يعرفون قدر هذا النعيم، الذين كانوا يبيتون لياليَ لا يشبعون إلا من ورق الشجر إن تيسَّر لهم، ولا يأكلون اللحم إلا من خفاف الإبل المشوية - إن تيسرت -، هؤلاء هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة التي أصبحت اللحوم تلقى على المزابل من عدم الآكلين لها.

فعلى كل حال قصدي: أن الأمن بعد الخوف أشد ظهورًا منه من الأمن على الأمن، هذا لا يظهر في الحقيقة، استمرار الأمن بين قوم لم يذوقوا رهبة الخوف، هذا قد لا يُشعَر به، لكن حقيقة الأمر أن ظهور نعمة الأمن إنما يكون إذا جاء من بعد الخوف، ولا شك أن الذين خوطبوا بهذه الآية أولًا: أنهم قد ذاقوا رهبة الخوف؛ لأنهم كانوا خائفين من أعدائهم الكفار بما ذاقوه من الأذى الشديد القولي والفعلي، حتى النبي ﷺ ما خرج من مكة إلا خائفًا مُتخفيًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى أظهره الله ـ عز وجل ـ ودخل فاتحًا منصورًا مؤزَّرًا، فإذا تصور الإنسان إبدال الخوف بالأمن يجد أن للخوف أثرًا كبيرًا في نفسه.

ثم قال المؤلف: [﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ وقد أنجز الله وعده] نعم أنجز الله وعده حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام قال ـ وهو على باب الكعبة عام الفتح معلنًا للتوحيد الذي قد كان يُحارَب في مثل ذلك المكان ـ قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»(١) وقد تحقق ـ ولله الحمد ـ فكانت الأصنام في جوف الكعبة، وحول الكعبة، وهذا ينافي تمامًا شهادة أن لا إله إلا الله، وقد كان المسلمون منهم من لا يُمكَّن من الطواف بالبيت أو الصلاة حوله، وإذا صلى حوله سُخِر به وأوذي، حتى إمامهم محمد ﷺ كان ساجدًا وكان حوله أبو جهل ومن معه من شرار قريش فقالوا: ألا رجل ينتدب بسلا جزور بني فلان فيلقيه على محمد ﷺ وهو ساجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به ووضعه على النبي ﷺ وهو ساجد، فجعلوا يضحكون ويهزؤون به حتى إن بعضهم يسقط من الضحك والسخرية، حتى جاءت فاطمة ابنته وكانت صغيرة لا يجرؤون على أن يمنعوها، فأخذت هذا من على ظهر أبيها ﷺ.

فأقول: هذا البيت الذي كان حال المسلمون فيه على هذا الوصف بعد مدة وجيزة ـ ولله الحمد ـ وقف النبي ﷺ على عتبة الباب حَكَمًا في قريش، الذي هم فعلوا به ما فعلوا، وقال لهم: «**مَاذَا تَرَونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ**» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، وفي هذا المقام الذي يستطيع أن ينتقم كما يريد ﷺ قال لهم: «**أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [يوسف:٩٢] اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»(٢).

فأيُّ تمكين أقوى من هذا التمكين! وعزٍّ أعلى من هذا العز! فصدق الله وعده ـ تبارك وتعالى ـ في مدة وجيزة ـ ولله الحمد ـ وإلا فمن ذا الذي يفكر أنه في خلال ثمان سنوات، وخروج النبي ﷺ على الوصف الذي تعرفون، ثم يرجع فاتحًا منصورًا مؤزرًا.

يقول المؤلف: [وقد أنجز الله وعده لهم بما ذكره وأثنى عليهم بقوله: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١-٣٢)، وعنه الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٦٣).

بِى شَيْـًٔا﴾] المؤلف يرى أن هذه الجملة استئنافية للثناء عليهم، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية ليس الغرض منها: الثناء بل الغرض منها: استمرار الصفة من الإيمان والعمل الصالح، يعني: أن هذا التمكين وهذا الاستخلاف وهذا التبديل بالأمن بعد الخوف هذا متى يكون؟ إذا استمروا على عبادة الله - تعالى - من غير إشراك به، فتكون الجملة هذه حالية أو استئنافية، والغرض منها: بيان أن هذا الوصف الحاصل أو هذا الوعد الذي وعد الله به حاصل ما استمروا على عبادة الله وعدم الإشراك به.

خذ هذه الصفة وهي إخلاص التوحيد لله والبقاء عليه الذي هو شرط للتمكين مع قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤٠-٤١] هذه أربع صفات مع هذه الصفة وهي: العبادة بدون إشراك تكون أسباب النصر الذي وعد الله به تكون خمسة، عبادة الله بدون إشراك الذي أعلاه التوحيد، ثم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهذه هي أسباب النصر الحقيقية التي بها ينصر الله عباده، ما عدا ذلك فليس بسبب من أسباب النصر، ويُلاحظ أن إعداد القوة داخل في ضمن هذه الأشياء؛ لأنه من جملة عبادة الله حيث أمر الله به، وكل ما أمر الله به فهو من العبادات.

أما رجل يقول: أنا أتمنى النصر لكن لا يقيم الصلاة من أين يأتيه النصر؟ يقول: يتمنى النصر لكنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، لابد من أمر بمعروف ونهي عن منكر، ثم ثقوا أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر لَزِمَ ولابد التفرق بينهم، أقول: إذا لم يأمر الناس بالمعروف وينهوا عن المنكر فإنه يلزم لزومًا حتميًّا مؤكدًا أن يتفرقوا؛ لأنه هل مشرب الناس واحد وهدفهم واحد؟ لا، هذا أمر بالضرورة فإذا لم يُقَم هذا الذي شَذَّ عن الإسلام، إذا لم نقمه، صار مفارقًا لنا نسلك غير ما نسلك ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥].

فدل هذا على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون التفرق، وهو أمر واضح طبيعي.

قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي فتعم أي شيء مما يُشرَكُ به وليس الشرك خاصًّا بعبادة الوثن بأن يركع الإنسان ويسجد لشجرة أو حجر أو قبر أو شمس أو قمر، وإنما الشرك أعم من ذلك كله، حتى إنه إذا أُطيع الإنسان في معصية الله يكون ذلك شركًا ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١].

قال عَدِيُّ بن حاتم: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم! قال ﷺ: **«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحَلِّلُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ»** قال: نعم، قال: **«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»**[1].

مسألة: الرجل يفضل الدنيا ويقدمها على الآخرة هل هو مشرك أم لا؟

الجواب: نعم، مشرك لقول النبي ﷺ: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»**[2]؛ لأن أصل العبادة مأخوذة من الذل، ومنه قولهم: طريق معبَّد يعني: مذلَّلًا لسالكيه يمشون عليه، فكون الإنسان يذل للدرهم والدينار حتى يُقَدِّمَه على طاعة الله، هذا نوع من الشرك سماه النبي ﷺ عابدًا له.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ليست بالكلمة الهينة إذا كنا نتصور معناها كما جاء بالكتاب والسنة، أما إذا ضيقنا معناها وقلنا: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي: لا يعبدون شجرًا ولا حجرًا صارت ضيقة ولا معنى للعموم فيها، إذنْ عبادة الله حقًّا لا تكون إلا بانتفاء الشرك مطلقًا بحيث لا يُشْرِكُ بالله أحدًا، ليس في نفس العبادة فقط بل في نفس العبادة والإرادة وغير ذلك، فإذا تحقق هذا الأمر فقد تحقق الإخلاص.

وبعض السلف كان يقول: ما جاهدتُ نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص. وهذا حقيقة؛ فالإخلاص وأن لا يشرك الإنسان بالله شيئًا لا في العبادة التي لله وحده، ولا في الإرادة، هذا أمر يصعب جدًّا على الإنسان أن يحققه، ولكن بعون الله سبحانه وتعالى والاستعانة به يحصل المقصود.

ثم قال: [﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ هو مستأنف في حكم التعليل].

الغريب أن المؤلف جعله بالأول ثناءً عليهم، ثم جعله تعليلًا، وفي الحقيقة أنه لا شك أنه تعليل كما قررناه، لكنه متضمن للثناء؛ لأنه من عَبَدَ اللهَ، لا يشرك به شيئًا.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن في هذه الآية حثٌّ وترغيب على الإيمان والعمل الصالح.

٢- **ومن فوائدها:** أن فيها وعد لمن اتصفوا بهذين الوصفين أن يستخلفهم الله تعالى في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، يعني: ويجعلهم خلفاء لأهلها في إرثها من بعدهم.

٣- **وفيها أيضًا:** دليل على حسن التعليل، حيث إن الله سبحانه وتعالى ذكر الشواهد على وعده بالأمور الواقعة، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإن الله أراد بهذا المثال تطمين هؤلاء الموجودين بذكر الأمر واقعًا فيمن قبلهم، فيكون في ذلك زيادة تشجيع لهم.

٤ – **وفيه أيضًا:** دليل على أن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، وهو الذي يستخلف فيها الناس بدل غيرهم، وليس للناس في هذه الأرض ملك، وإنما الملك في الأرض لله يؤتيه من يشاء.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، والترمذي (٢٣٧٥)، وابن ماجه (٤١٣٦).

٥ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الإيمان والعمل الصالح سبب لتمكين الدين في الأرض، وأن المخالفة سبب لنزع الدين من الأرض، لقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، ويؤخذ منه أنهم لو فسقوا ولم يؤمنوا ولم يعملوا صالحًا ما مُكِّن لهم الدين الذي هو لهم، والذي ارتضاه الله لهم.

٦- **وفيها أيضًا:** تحذير بالغ - وهذه الفائدة متفرعة على ما قبلها - من المخالفة والفسوق، وأن ذلك سبب لنزع الدين منهم، وهذا هو المطرد في سنن الله سبحانه وتعالى، فإن النعم إذا لم تُشكر زالت، وأكبر نعمة ينعم الله بها على عباده هي نعمة الدين، فإذا لم تُشكر فإنها تزول كغيرها من النعم.

٧ - **وفيها أيضًا:** دليل على كمال الدين الإسلامي، حيث قال: ﴿الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ فهو الدين الذي ارتضاه لعباده وهو أكمل الأديان على الإطلاق، ولذلك ختمت به الرسالات.

٨ - **من فوائدها:** أن الإيمان والعمل الصالح سبب لاستمرار الأمن - إذا كان هناك أمن سابق فهو يستمر -، ولزوال الخوف - إذا كان هناك خوف فإنه يزول -، لقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ .

٩ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الأمور الهامة ينبغي تأكيدها بأنواع المؤكدات، فإن هذا الوعد من الأمور الهامة لما يترتب عليه من مصالح ومنافع في الدنيا والآخرة، ولهذا أكده الله تعالى بالقسم، واللام، والنون، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾، وأكده أيضًا بمؤكد معنوي - ليس بأداة لفظية - وهو قوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فإن المراد بهذا التشبيه - كما أسلفنا - تأكيد هذا الوعد بذكر شواهده، فيكون ذلك أيضًا تأكيد معنوي على تأكيد لفظي بذكر ما يقوي القلب ويثبته.

١٠ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الإيمان والعمل الصالح هو عبادة الله، لقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، وعليه فيكون تحقيق التوحيد من أسباب هذا الوعد الذي وعد الله به.

١١ - **ومن فوائدها:** التهديد للكافرين لقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فإن هذا تهديد لمن كفر بعد هذا الوعد أو بعد هذا الواقع، سواء وقع له ما ذُكر من الاستخلاف في الأرض، والأمن، أو لم يقع له ولكنه وُعد به، فإن كفره بعد ذلك يجعله فاسقًا.

١٢- **وفيها أيضًا:** دليل على عظم هذا الفسق الذي يحصل بعد هذا الوعد أو بعد هذا الواقع، ووجه عظمه حصر الفسق في هذا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فليس المعنى أنه لا يوجد فاسقون غيرهم، ولكن لعظم فسقهم حصر الفسق فيهم.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: افعلوها قيِّمة، على الوجه الذي شرع الله ورسوله، هذا معنى إقامة الصلاة، وإقامة الشيء يعني: تعديله، وجعله قويًا، وضد ذلك: تعويجه بالإفساد والنقص، فمعنى إذن: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: افعلوها كاملةً.

والصلاة يعم الفرض والنفل؛ ولذلك إذا دخل الإنسان في نفل وجب عليه أن يأتي به كما شرع، فلو أراد الإنسان أن يتنفل بنافلة - صلاة نفل - ويترك مثلًا التسبيح أو يترك التكبير أو يترك التشهد، ويقول مثلًا: إنه نفل نقول له: هو نفل قبل أن تدخل فيه، فإذا دخلت صار الإتيان به على الوجه المشروع أمرًا مفروضًا، فلو قال: أصلي نفلًا وأسجد قبل أن أركع، أو أصلي وأسجد مرة واحدة أليس ذلك نفلًا؟! نقول له: هذا لا يجوز؛ لأنه إذا كان نفلًا فإن إقامته على الوجه المشروع واجبة.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوها، أعطوها لُمستحقِّها وقد بين الله - سبحانه وتعالى - المستحقين للزكاة بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة:٦٠].

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الطاعة: موافقة الأمر فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ هذا من باب عطف العام على الخاص؛ فإن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من طاعة الرسول، لكن هذا من باب التنويه بفضل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقوله: ﴿الرَّسُولَ﴾ (أل): للعهد الذهني، يعني: الرسول الذي هو معروف لديكم، وهو محمد ﷺ.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول: [أي: رجاء الرحمة].

وهذا يدل على أن المؤلف جعل لعل للرجاء، لكن باعتبار الفاعل لا باعتبار المتكلم، يعني: أنكم تفعلون ذلك لأجل أن ترحموا راجين بذلك الرحمة، فيكون هنا لعل للترجي لكن باعتبار الفاعل الذي هو المخاطب، لا باعتبار المتكلم، فإن المتكلم وهو الله - عز وجل - لا يعجزه شيء حتى يترجاه، ويجوز أن نجعل لعل للتعليل، وتكون باعتبار المتكلم، يعني: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول؛ لأن ذلك سبب لرحمتكم، وهذا أقرب، فإن لعل في كلام الله بل في كلام كل مخاطِب تحمل على ما يريد المتكلم لا على ما يريده المخاطَب، وعلى هذا فنقول: لعل للتعليل ويكون فيه دليل على أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول سبب لرحمة الله.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ من قِبَلِ من؟ من قِبَلِ الله ـ عز وجل ـ.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول، ونأخذ الوجوب من الأمر؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

٢ - **وفيها:** فضيلة الزكاة، حيث قُرِنَت بالصلاة، وهي مقرونة بالصلاة في مواضع كثيرة من القرآن، وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أن الزكاة عبادة مالية محضة، والصلاة عبادة بدنية محضة، وكلاهما من جنس، ولذلك حث الله عليهما جميعًا.

٣ - **وفيها:** أن ما ثبت في السن كالذي ثبت في القرآن، لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وهذا شامل لما قاله النبي ﷺ ابتداءً ولما قاله تفسيرًا للقرآن، فيكون فيه دليل على وجوب العمل بالسنة كما يجب العمل بالقرآن.

والأدلة في ذلك كثيرة جدًّا ولكن ينبغي التركيز عليها؛ لأنه ظهر في وقتنا من الزنادقة من يقولون: إنه لا يجب العمل بما في السنة بل من صادروا كتب السنة كصحيح البخاري ومسلم، صادروها وحجبوها عن الأسواق؛ لأنهم يرون أن السنة لا يجب العمل بها، بل على مقتضى عملهم هذا أن السنة ضلال؛ لأنها لا تُصادَر الكتب وتُحجَب عن الناس إلا إذا كانت سببًا لفسادهم وضلالهم.

٤ - **ويستفاد منها:** إثبات الأسباب، وأن الأسباب مُوجِبَة بذاتها، وتؤخذ من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حيث جعل هذه الأشياء الثلاثة: إقامة الصلاة، وأيتاء الزكاة، وطاعة الرسول سببًا للرحمة، والصحيح ـ كما أشرنا إليه سابقًا ـ أن السبب موجب بذاته، لكن بإذن الله، وأما من قال: إن السبب غير موجب وإنما هو أمارة وعلامة فقط، فقوله يرده العقل والواقع.

٥ - **وفيها:** فضيلة هذه الأمور الثلاثة؛ حيث كانت سببًا لرحمة الله وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول.

٦ - **وفيها:** دليل على أن الصلاة أفضل من الزكاة، وذلك لتقديمها عليها في كل موضع، اللهم إلا أن يكون هناك سبب خاص لتقديم الإنفاق فقد يُقَدَّم الإنفاق على الصلاة، لكن عندما تذكر الصلاة والزكاة فإنها تقدم.



قال الله تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور:٥٧]

التفسير

قوله: [﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالفوقانية والتحتانية والفاعل الرسول ـ ﷺ].

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ فهي خطاب ـ على كلام المؤلف ـ للرسول، ولكن هناك احتمال ثانٍ: أن يكون الخطاب لكل من يصح خطابه بمثل ذلك فيكون هذا أعم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أيها المخاطب ـ النبي وغيره ـ وأما على قراءة الياء: (لَا يَحْسَبَنَّ) فيقول المؤلف أيضًا: [أن الضمير يعود على الرسول] يعني: لا يحسبن الرسول الذين كفروا معجزين في الأرض، ولكن عندي فيه احتمال أقرب، وهو أن نجعل يحسبن فاعله ﴿الَّذِينَ﴾ لا يحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض، ويكون المفعول الأول ليحسبن محذوفًا، والتقدير: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض، ويكون في هذا تهديد لهم، أما على ما ذهب إليه المؤلف فيكون المراد بذلك: ليس تهديد هؤلاء الكفار، ولكن المقصود بذلك: تثبيت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتطمينه بأن هؤلاء الكافرين لن يعجزوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولكنه يملي لهم وقد يؤخر عقابهم.

وقوله: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ يقول: [لنا]، المُعْجز من فعَلَ ما يُعْجِزُ غيره ولا يستطيعه، فهل الذين كفروا معجزين لله أي: فاعلين ما يعجز الله عنه؟! الجواب: لا، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

يقول المؤلف: [بأن يفوتونا] هذا تفسير الإعجاز يعني: نعجز عنهم فلا ندركهم فليفوتوننا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أو (لا يحسبن) هذا النهي قلنا: إنه إذا كان الخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يصح خطابه فهو للتثبيت والتطمين والتسلية وما أشبه ذلك، إذا كان الضمير على ما أشرنا إليه إن الفاعل «الذين» يكون المراد بالنهي: التهديد.

قال الله تعالى: [﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مرجعهم النار ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: المرجع هي].

مأواهم أي: مرجعهم الذي يأوون إليه: النار، وإنما قال: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ لأن هذا هو الواقع، إذ إنَّ هذه الحياة الدنيا سوف تنقضي، والمرجع الذي ليس بعده شيء آخر هو ما يَئُول إليه المؤمن والكافر يوم القيامة إما إلى نار وإما إلى جنة، هؤلاء مأواهم النار ـ والعياذ بالله ـ ومرجعهم هي.

وقوله: ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ اللام واقعة في جواب القسم ـ موطئة للقسم ـ يعني: والله لبئس المصير، وبئس كما هو معروف: فعل ذم أو فعل جامد لإنشاء الذم، وبئس ونِعمَ تحتاج إلى فاعل، ومخصوص، الفاعل في هذه الآية: ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هو المصير، والمخصوص محذوف، والتقدير ولبئس المصير لكن ما يصلح أن تقول مستتر؛ لأنه لو قلنا: مستتر صار هو الفاعل بل نقول:

محذوف، إما أن يقال: ولبئس المصير النار، أو لبئس المصير هي.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية:** تمام قدرة الله عز وجل وأن الكافرين مهما بلغوا القدرة فليسوا بمعجزين لله، وكون الله تعالى يملي لهم لا يدل على عجزه عنهم، بل يدل على حكمته في تأخير العذاب عنهم.

٢ - **وفيها:** دليل على أن أهل النار مُخَلَّدُوْنَ فيها لقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ولو لم يخلدوا لكان مأواهم ما بعد النار؛ لأن المأوى معناها: المرجع الأخير، وهذا دليل على أن النار دائمة لهم، وأنهم مخلَّدون فيها، وقد ثبت في القرآن الكريم تأبيد تخليد أهل النار في ثلاث آيات من القرآن، في سورة النساء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩] وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥] وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] فهذه ثلاث آيات صريحة تنصُّ على تأبيد خلودهم.

وبهذا يُعْرَف ضعف قول من قال من أهل العلم: إنه لا تأبيد لأهل النار، واشتبه عليه قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] ولم يشتبه عليه قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: أهل الجنة ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ لم يشتبه عليه؛ لأنه قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وهنا قال في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لكن ليس معنى ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنه سيرفع عنهم هذا العذاب؛ بل لما كان هذا انتقام منهم وعمل ليس من الأمر الذي يختاره الإنسان حتى تُذْكَر منةُ الله عليه باستمراره قال في أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وقال في هؤلاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلا يمنعه شيء أن يفعله فيفعل ما يريد.

أما آية: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣] فهي مُتعلِّقة بما بعدها يعني: أحقابًا لا يذوقوه، وأحقابًا أخرى، أو يقال: أحقابًا مدة طويلة، وهذا لا ينافي التأبيد،؛ لأن التأبيد هل هو ينقص عن الأحقاب؟ ما ينقص.

على كل حال: هذا لا ينافي التأبيد بلا شك، إما أن نقول: إنه متعلق لما بعده وهذا ضعيف عندي، وإما أن يقال: أحقابًا كونها أزمنة بعيدة طويلة لا ينافي التأبيد؛ لأن التأبيد أحقاب.

٣ - **وفيها أيضًا:** دليل على شؤم النار ومرجعها؛ لأن الله تعالى ذمَّها بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ واعلم أن ما ذمَّه الله - عز وجل - أو ما مدحه فإنه أمر عظيم؛ لأن العظيم لا يمدح إلا ما هو عظيم جدًّا، يعني: العظيم لا يرى الشيء عظيمًا إلا وهو عظيم، لكن غير العظيم

قد يرى ما ليس عظيمًا عظيمًا، أما العظيم فإنه لا يعظِّمُ إلا ما يستحق التعظيم، ولا يذم إلا ما هو مذموم، وذمه شديد.



قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨]

التَفْسِيرُ

تقدم فائدة تصدير الحكم بالنداء، وهو التنبيه، وبين أهميته، ثم توجيهه إلى المؤمنين فيه أيضًا ثلاث فوائد: الإغراء والحث يعني: بإيمانك وُجِّه إليك هذا الخطاب، الشيء الثاني: أن تنفيذه من مقتضيات الإيمان، والثالث: أن الإخلال به نقص في الإيمان.

وقوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ اللام للأمر.

قوله: [﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ من الأحرار وعرفوا أمر النساء ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في ثلاثة أوقات].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هو كما قال المؤلف: من العبيد والإماء؛ لأن: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول يشمل الذكور والإناث، وقوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: ملكتم، وعَبَّر باليمين عن النفس؛ لأنها غالبًا أداة الأخذ والإعطاء.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ يعني: لم يبلغوا زمنًا يحتلمون فيه غالبًا، أو ﴿لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ﴾ يعني: العقول، أي: لم يبلغوا أن يكونوا في حد العقلاء، وعلى كل حال فالمراد بهم: مَنْ دون البلوغ.

وقوله: [وعرفوا أمر النساء] كأن المؤلف أخذ هذا القيد من وجوب الاستئذان؛ لأن من لم يعرف أمر النساء لو دخل عليك في هذه الأوقات فلا يهمه، ولكن في هذا القيد نظر؛ لأنه ليس الغرض من ذلك دخولهم على النساء حتى نقول: إذا عرفوا أمر النساء، بل الغرض من هذه التوجيهات خوفًا من أن يدخلوا على الإنسان في حالٍ لا يحب أن يُطَّلَع عليه فيها، فإن هذه الأحوال الثلاثة عورات، فأي إنسان يطلع عليك ـ وإن كان مما لا يعرف أمر النساء ـ لا شك أنك

تشمئز منه وتنفر من هذا الدخول، والصحيح أن هذا القيد الذي ذكره المؤلف ليس بالمراد بل نقول: الذين لم يبلغوا الحلم؛ لأنهم إذا بلغوا الحلم ـ فسيأتينا إن شاء الله الحكم فيها ـ.

يستأذنون ثلاث مرات أي: يعني: في ثلاثة أوقات فصلها بقوله ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ لأن الإنسان قبل صلاة الفجر يكون غير مُتَهَيِّئ لأن يراه أحد ويدخل عليه أحد، قد يكون في ثياب النوم التي يكره أن يكون أحد يراه وهي عليه، وقد يكون ثياب أبلغ من ذلك، كثيابه مع أهله وما أشبه هذا.

والثاني قال: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي: وقت الظهر.

وفي قوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وجه الخطاب لهم ثم قال: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ والحكم لغيرهم إشارة إلى أنهم مسئولون عن تنفيذ هذا الحكم لأولادهم الصغار ومماليكهم، وأن هذا الصغير والمملوك إذا خالف فإنما إثمه على من لم يقم بواجب التربية والتأديب.

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ فصلها بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾.

[﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ بالرفع خبر مبتدأ مُقَدَّر بعدَه، مضافٌ ـ يعني هذا المبتدأ مضاف ـ، وقام المضاف إليه مقامه، أي: هي أوقات].

مر علينا فيما سبق أن قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ يعني: ثلاثة أوقات.

قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ تقدير الكلام هي أي: هذه الثلاث ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

يقول المؤلف: إنها على حذف مضاف أي: هي أوقات ثلاث عورات لكم؛ لأن هذه أوقات ما هي العورات، اللهم إلا على سبيل التجوز بأن نقول: المراد بالعورة: زمنها، ولهذا المؤلف قَدَّرَ قبلها مضافًا هي: أوقات ثلاث عورات؛ لأن الوقت نفسه ليس بعورة، وعلى هذا فلا تكون هذه الأوقات هي العورات وإنما تكون أوقات عورات وليست عورات، ولهذا قال: هي أوقات ثلاث عورات لكم.

والعورة في الأصل ما يستقبح شرعًا أو عرفًا، كل ما يُستقبَح ويُستحْيَا منه شرعًا أو عرفًا فهو عورة، هذه الأوقات الثلاثة أوقات عورة.

كيف كانت أوقات عورات؟

من قبل صلاة الفجر يكون عليه لباس النوم التي قد يكره الإنسان أن يطلع عليها أحد، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ كذلك، الإنسان في وقت القائلة يضع ثوبه وينام عريانًا أو ينام على صفة لا يحب أن يطلع عليها أحد، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ يكون متهيئًا للنوم ولابسًا ثياب النوم، ولا يحب أن يطلع عليه أحد، ولهذا قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ يعني: أوقات ثلاث عورات لكم.

يقول: [وبالنصب بتقدير أوقات منصوبًا بدلًا من محل ما قبله قام المضاف إليه مقامه، وهي لإلقاء الثياب تبدو فيها العورات].

يقول المؤلف: فيها قراءتان بالنصب، (ثلاثَ عورات لكم)، ويقال فيها ما سبق: بأنها على تقدير مضاف أي: إنَّها أوقات ثلاث عورات لكم، وهي منصوبة بدلًا مما قبلها قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾؛ لأن مرات بمعنى: أوقات، أوقات ثلاث عورات لكم، يصير أوقات ثلاث عورات بدلًا منها، وبدل المنصوب يكون منصوبًا.

والخلاصة: أن في قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ قراءتين:

الأولى: بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف.

والثانية: وبالنصب على أنها بدل من قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

ومع ذلك فهي نفسها ليست هي الأصل لا في كونها خبرًا، ولا في كونها بدلًا، بل هي قائمة مقام مضافٍ، والتقدير: أوقات ثلاث عورات، أوقاتَ بالنصب أو أوقاتُ بالرفع.

يقول المؤلف مجيبًا على سؤال مقدر: كيف كانت هذه الأوقات أوقات عورات؟

قال: [وهي لالقاء الثياب تبدو فيها العورات] يعني: سُمِّيَتْ هذه الأوقات عورة؛ لأنها إذا ألقيت الثياب فيها للنوم، إما للتهيؤ له، أو لكونه أثر النوم ـ كما هو قبل صلاة الفجر ـ؛ فإنه تبدو فيها العورة، وكأن عادة الناس في ذاك الوقت، أن الإنسان إذا نام يخلع ثيابه، ويلتحف بلحاف وينام، وعلى هذا فالعورة في ذلك تبدو؛ لأن الإنسان ما عليه إلا لحاف وهو متهيئ للنوم، أما عادة الناس اليوم فهل هي كذلك؟ من الممكن أن يوجد بعض الناس ـ ما ندري ـ لكن الظاهر أن غالب الناس يلبسون ثوبًا قميصًا ساترًا، وكذلك أيضًا كانوا في الزمن السابق البيوت ما فيها حجاب ولا أستار، فإذا فاجأ العبد أو الصغير صاحب المنزل في هذه الأوقات اطَّلَع على عورته، أما الآن فالبيوت مُحَجَّبَة والستور مُكَثَّفَة، ولهذا لو دخل البيت ولم يستئذن، فإن الحكم قد زال؛ لأن الحكم يدور مع علته حيث قال الله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

ولأجل ذلك اختلف أهل العلم في هذه الآية: فزعم بعضهم أنها منسوخة؛ وذلك لأن الناس تركوا العمل بها من قديم، وقال آخرون: بل هي محكمة وباقية.

ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح أن هذه الآية محكمة، لكن في حال دون حال، وأنه لما كانت البيوت فيما سبق غير محجبة، والستور غير موجودة، والناس في حاجة؛ لأن الإنسان ما كان عنده إلا ثوب ما يلبسه في النوم يخلعه ويلتحف باللحاف لأجل أن يوفر على نفسه غسله بعد الاتساخ.

يقول: فأما الآن وقد كانت البيوت محجبة، والستور كثيرة، فإن الحكم قد زال، وعلى هذا فالحكم يدور مع علته.

وعندنا أن الحكم باقٍ حتى ولو كانت البيوت محجبة؛ لأننا نقول: الإنسان عادة إذا أراد أن ينام فإنما ينام في مكان خاص، فإذا أراد أحد من هؤلاء المماليك والصغار أن يستأذن عليه في محل النوم الخاص فإن الحكم باقٍ. وماذا تغني الأبواب إذا أراد أن يدخل عليك إنسان غرفة النوم يفتح الباب مباشرة؟! هذا أشد فالحكم باقٍ في الحقيقة، نعم الاستئذان لدخول البيت عمومًا صحيح أنه قد زال؛ لأن الناس ما صاروا كما في الزمن السابق، كانوا في الزمن السابق الحُجَرة هي حجرة النوم وحجرة الأكل وحجرة الجلوس، وكل شيء، لكن بعد أن وَسَّع الله على المسلمين توسعت المباني، فصار النوم له غرفة خاصة، والجلوس له غرفة خاصة، وما أشبه ذلك.

فنقول: الحكم باقٍ لكنه بالنسبة للغرف المعدَّة للنوم، فإن هؤلاء لا يدخلون حتى يستأذِنوا في هذه الأوقات الثلاثة، أما لو دخل الإنسان الغرفة التي ينام فيها في غير هذه الأوقات الثلاثة فالأصل أنه ما دخل للنوم، فالاستئذان عليه ليس بلازم، إلا إذا عُلِم أن هذه الغرفة أيضًا محلٌّ لخلع الثياب ولبسه، فإنه إذا دخل غرفته فلابد أن يستأذن؛ لأنه يخشى أن يكون قد خلع ثوبه ليلبس الثوب الآخر، فتدخل عليه على وجه تبدو فيه العورة.

فإن هذه الآية تخصيصها بهذه الثلاث فإن الله له حكمة من ذلك، الحكمة في الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة: أنها أوقات عورة تُلقى فيها الثياب غالبًا للنوم، إما للتهيؤ له أو بعده أو من أجل الحر كما في قوله: ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾.

[قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: المماليك والصبيان﴿جُنَاحٌ﴾ في الدخول عليكم بغير استئذان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد الأوقات الثلاثة].

يقول الله - عز وجل -: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ يعني: في الدخول عليكم بدون استئذان.

(الجناح) بمعنى: الإثم، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ واضح في نفي الجناح عن الذين آمنوا؛ لأنهم مكلفون، فهم ممن يوصفون بالإثم وعدمه.

وقوله: ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ بالنسبة للمماليك ظاهر أنهم يأثمون بما يخالفون فيه الشرع.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ منطوق الآية، أن الدخول بدون استئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة ليس فيه إثم لا على الأولياء، ولا على الصغار والمماليك.

مفهوم الآية الكريمة: أن دخولهم في هذه الأوقات بدون استئذان فيه جناح عليكم وعليهم، الجناح على الأولياء والصغار والمماليك إذا دخلوا بغير استئذان في هذه الأوقات الثلاثة.

أما ثبوت الجناح على الأولياء: إذا دخلوا هؤلاء بغير استئذان فالأمر فيه ظاهر، ووجهه: أنهم ما دخلوا بغير استئذان إلا لأن هؤلاء قَصَّروا في واجب التربية والتأديب، ومن قَصَّر في الواجب ترتب عليه ما يترتب على تركه، هذا بالنسبة للأولياء.

وبالنسبة للمماليك: عليهم جناح؛ لأنهم تركوا الواجب وهم مُكَلَّفون بالغون عاقلون.

بالنسبة للصغار: هذا هو المشكل؛ فإن الصغار لا إثم عليهم، فكيف يصح أن ينفي الإثم مع أنه لا إثم عليهم؟ الإشكال في دلالة المفهوم، فإن دلالة المفهوم تدل على أنه يثبت الجناح لهؤلاء الصغار إذا دخلوا في هذه الأوقات بغير استئذان، وهذا وجه الإشكال، كيف يثبت الإثم على من لم يكلفوا؟!

فالجواب على هذا أن يقال: دلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم، وإنما تَصِحُّ وتَصْدُقُ بالدلالة على فرد من أفراده، ولهذا يقولون: (المفهوم لا عموم له)، فصار الجواب الآن أن نقول: دلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم فتصدق بصورة واحدة أو لفرد واحد، وهنا صدقت في صورتين من ثلاث فنقول: دلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم، وإنما تصدق في صورة واحدة من مائة صورة أو من ألف، فكيف وقد صدقت الآن في صورتين من ثلاث، والصورة الثالثة لولا الأدلة على خروجها ما خرجت أيضًا، والأدلة على خروجها عمومات الأدلة على أن الصغير غير مُكَلَّف وأنه لا إثم عليه.

يقول: [﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ للخدمة ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طائف ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾]

﴿طَوَّٰفُونَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هم طوافون، والجملة هذه تعليل لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ لماذا ليس عليهم جناح؟؛ لأنهم طوافون علينا يعني: مترددون، الطواف بمعنى: المتردد ومنه الطائف بالبيت؛ لأنه يتردد عليه، ومن قول النبي ﷺ في الهرة: «إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِيْنَ عَلَيْكُمْ»[1] أي: من المترددين عليكم، ومنه قول الناس للمساكين طوافون؛ لأنهم يترددون على الناس يسألونهم.

فعلى هذا تكون جملة ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ تعليلًا لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ لماذا لم يكن علينا ولا عليهم جناح بعدهن؟؛ لأنهم مترددون، فلو أُلزموا بأن يستأذنوا كُلَّما دخلوا لكان في ذلك مشقة عليهم وعلى أهل البيت أيضًا؛ لأن أهل البيت قد يكونون منشغلين ولا يسمعون المستأذن، وقد يدخل عليهم الرد عليه؛ لأنهم منشغلون، فيكون في ذلك مشقة على المستأذن وصاحب البيت، لو ألزمنا الصبي الذي له ست سنوات أو عشر سنوات كُلَّما خرج من البيت ودخل لا تدخل إلا أن تستأذن، وكذلك المملوك فيه مشقة كبيرة عليه وعلى أهل البيت، لهذا انتفى الحرج لوجود المشقة، وسيأتي ذكر ذلك في الفوائد.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قدره المؤلف بقوله: [طائف على بعض]، وعلى هذا فالجملة الثانية ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تأكيد للجملة الأولى التي هي ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾، فبعضكم

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٠٣)، والترمذي (٩٢)، وأبو داود (٧٥)، والنسائي (٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٧٣).

يطوف على بعض ويتردد على بعض، فكونه يلزم بالاستئذان كُلَّما دخل هذا الصبي أو كلما دخل هذا المملوك مع أنَّه دائم في خدمة أهل البيت يأتي لهم بالفوائد وغير ذلك فيكون فيه مشقة.

[قال: والجملة مُؤكِّدة لما قبلها] وهو قوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾.

[﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بُيِّن ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: الأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمور خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ بما دبره لهم].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقع هذه الجملة أو هذا التركيب يقع في القرآن كثيرًا ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] وما أشبهها.

وإعرابها: أن الكاف اسم بمعنى: مثل، وهي في محل نصب على المفعولية المطلقة، أي: مثل ذلك التبيين يبين الله لكم، كلما جاء هذا التعبير نقول: الكاف اسم بمعنى مثل منصوب على المفعولية المطلقة، وإن شئت قلت: إنَّه مفعول مطلق العامل فيه ما بعده، وتقدير الكلام هنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾.

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ﴾ أي: يُوضح ويُظهر، وقوله: ﴿ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ يقول المؤلف: [أي: الأحكام]، ولو فُسِّرت بما هو أعم لكان أولى؛ لأن الله يبين الآيات الكونية والشرعية، لكن كأن المؤلف خصها بالأحكام؛ لأن السياق في الأحكام هنا وليس في الآيات الكونية، ولكن لو الأخذ بالعموم أَولَى.

وقوله: الأحكام، كيف كانت الأحكام آيات الله؟ لأن هذه الأحكام إذا تأملها الإنسان وجدها في غاية الإتقان، ووجدها في غاية المناسبة للخلق في جلب المصالح لهم، ودفع المضارّ عنهم، لله المثل الأعلى لو أن رجلًا كَتَبَ له نظامًا المادة الأولى، الثانية...الخ، وتدبرنا هذا النظام فإذا هو نظام مُحكم مُتقَنْ موافق للمصالح ومناسب، ماذا نقول عن هذا الكاتب؟ نقول: إنه حكيم ونُعْجَب بحكمته، ويدل ذلك على ذكائه وفطنته، فكيف بأحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي لا يمكن أن تتغير ولا أن تتناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فمن تدبر أحكام الله سبحانه وتعالى في خلقه تبين له أنها من لدن حكيم خبير، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾.

وفي وصف الأحكام بالآيات إرشاد للخلق إلى تأمل هذه الأحكام ليستدلوا بها على مُشَرِّعها، لا تظن أني إذا قلت: الأحكام الشرعية آيات من آيات الله ما لأجل أن تقول ما شاء الله وتؤمن أنها آيات، بل يجب أن تبحث وتتأمل يتبين لك كيف كانت آية من آيات الله ـ عز وجل ـ، لتستدل بها على مُشرِّعِهَا على حكمته، وعلمه، ورحمته.

وهكذا أيضًا في الآيات الكونية، ومن آياته الليل والنهار، ما يكفي أن تقول: الليل من آيات الله، والنهار من آيات الله، والشمس والقمر من آيات الله، ما يكفي هذا؛ إنما يقال لك: إنها من آيات الله؛ ترغيبًا في البحث عن وجه كونها آية من آيات الله، لتستدل بها عن اقتناع على خالقها إن

كانت كونية، وعلى مشرعها إن كانت شرعية.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى أن هذه الأحكام صادرة عن علم وعن حكمة، وإذا صدر الحكم عن علم وحكمة صار مطابقًا للحق؛ لأن مخالفة الحق في الأحكام مرجعها أحد أمرين: إما الجهل، وإما السَّفَه، الجهل منافٍ للعلم، أو السفه المنافي للحكمة، فقد يكون المشرع جاهلًا فلا يشرع أحكامًا مناسبة؛ لأنه جاهل، وقد يكون سفيهًا يعلم الأحكام ويعلم مصلحتها ولكن لا يريدها فيكون سفيهًا، فالله جل وعلا مُتَّصِفٌ بالعلم والحكمة اللتين بهما تكون الأحكام مناسبة للمصالح، وباختلاف واحد منهما يختل من الأحكام بحسبه - والله أعلم -.

الفوائد:

١ - **الفائدة الأولى:** توجيه الخطاب للمؤمنين والحكم لغيرهم يدل على أنهم مسئولون عنهم.

٢- **الفائدة الثانية:** وجوب استئذان هذين الصنفين من الناس (الصغار والمماليك) في ثلاثة أوقات فقط، وهي المذكورة، وأما من سواهم فيجب عليهم الاستئذان دائمًا.

٣ - **الفائدة الثالثة:** فيه دليل على تعليل الأحكام؛ بمعنى أن أحكام الله سبحانه وتعالى كلها مبنية على الحكم، وجه ذلك في الآية أن الله علل الحكم الأول والحكم الثاني، الحكم الأول وجوب الاستئذان في ثلاثة أوقات لأنها عورات، والحكم الثاني عدم الاستئذان في عداها لأنهم طوافون عليكم.

٤ - **الفائدة الرابعة:** تحريم النظر إلى العورات، ووجهه أنه إذا وجب الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة خوفًا من أن نفاجئهم على عورة، فمن تعمد أن يرى هذه العورة فهو أولى، إذن يستفاد منه تحريم النظر إلى العورة سواء كان الناظر صغيرًا أو كبيرًا، وأما تهاون بعض الناس في نظر الصغير إلى العورة فهذا خطأ، لأنه لا بد أن يرتسم في ذهنه هذا المنظر ثم ربما يذكره في يوم من الأيام.

الحاصل أن في هذا تحريم النظر إلى العورة من الصغير والكبير. ولكن المراد بالصغير الذي يميز، لأن قوله ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ دليل على أنه مميز، يؤمر بالاستئذان فيستأذن.

٥ - **الفائدة الخامسة:** رفع الحرج والمشقة عن الناس، نأخذها من رفع الحرج في عدم الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة لأنهم طوافون علينا، مترددون، والاستئذان فيه مشقة.

٦ - **الفائدة السادسة:** أن الولي آثم بما ارتكبه موليه من معصية أو مخالفة إذا كان قد فرَّط في تربيته وتأديبه، لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ .

٧ - **الفائدة السابعة:** طهارة بدن الطفل وإن غلب على الظن أنه نجس، نأخذها من قوله: ﴿طوافين﴾ وذلك ما لم يتيقن النجاسة.

٨ - **الفائدة الثامنة:** منة الله تعالى على العباد ببيان الآيات الكونية والشرعية حتى لا يبقى

للناس على الله حجة بعد هذا البيان ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ .

٩ - **الفائدة التاسعة:** أنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل تشريع الله عز وجل ونظامه، وتؤخذ من كونه جعل ذلك من الآيات، وآيات الله معناها أنها لا تصلح لغيره، إذ لو صلحت لغيره لم تكن آية له.

هذا يدل على أن شرع الله لا يمكن أن يأتي أحد بمثله، وإلا ما صح أن يكون آية.

١٠ - **وفيها أيضًا:** دليل على ثبوت ملك اليمين للآدميين، وأن الإسلام جاء بالرق، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ ولكن كما هو معروف أن الإسلام حمى حقوق هؤلاء المماليك ورغب في تحريرهم وعتقهم وجعل للعتق أسباب متعددة.

١١ - **الفائدة الحادية عشرة:** جواز وضع الثوب عند النوم، ويلتحف الإنسان بلحاف، لقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وقيد الظهيرة وفي الأول ما قيدها، لم يقل: وحين تضعون ثيابكم من الفجر، أو من العشاء، لأنه ليس كل الناس يكون ما عند الظهر عورة له، إنما يكون عورة لمن يضع ثوبه لينام عند الظهيرة، وبعضهم قال: لأن نومة الظهر ليست طويلة فبعض الناس ما يضع ثيابه، ولهذا قيدها بقوله ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بخلاف نوم الليل فإن الناس يخلعون ثيابهم، لأن مدته تطول.

١٢ - **وفيها أيضًا:** دليل على عناية الله سبحانه وتعالى بالخلق، وأنه - وإن رضوا بما يُستقبح - لم يرضَ الله به، فقد يقول قائل: أنا ما يهمني إذا دخل علي طفلي في هذه الأوقات الثلاثة؟ فنقول له: ولكن الله سبحانه وتعالى قد اعتنى بك، ومنع من الدخول عليك في هذه الأوقات الثلاثة.

مسألة: هل هذه الآية محكمة أم منسوخة، أم ترك العمل بها لزوال الحاجة إليها؟

الجواب: الآية محكمة، ويجب أن نعرف أنه ما يجوز أن نقول عن آية أو حديث أنه منسوخ إلا بعد أن يتعذر الجمع بينه وبين ما ادُّعي أنه ناسخه، وأن يُعلم التاريخ بتأُخر الناسخ، وإلا إذا كنت لا تستطيع أن تجمع فكِل إلى الله، لأن ادعاء النسخ إبطال للنص، وإبطال النص صعب، ولذلك يجب على الإنسان أن يتورع عن إطلاق النسخ فيما لم يثبت نسخه، ثم إن ترك العمل بها لا يدل على أنها منسوخة، لأنه كم من أشياء محكمة وترك الناس العمل بها! فترك الناس للعمل بها: إما تهاونًا، وإما لزوال السبب الموجب للاستئذان.

١٣ - **وفي الآية أيضًا:** إثبات العلم والحكمة لله من هذين الاسمين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والحكمة: سبق لنا تعريفها، أنها وضع الأشياء في مواضعها، بل سبق لنا أن الحكيم ليس معناه ذو الحكمة فقط، بل معناه: ذو الحكم والحكمة.

١٤ - **وفيها أيضًا:** أن المشقة تجلب التيسير.

قال: [وآية الاستئذان قيل: منسوخة، وقيل: لا، ولكن تهاوَنَ الناسُ في ترك الاستئذان] هذان

القولان اللذان أشرنا إليهما، والصحيح أن الآية محكمة وباقية وأن ترك الاستئذان إما للتهاون، وإما لزوال السبب الموجب للاستئذان، وأما أن نقول: إن الأحكام الشرعية تُنسخ لترك الناس العمل بها فهذا لا وجه له.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:٥٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف: [﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أيها الأحرار ﴿ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ في جميع الأوقات ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي الأحرار الكبار].

يقول المؤلف [منكم أيها الأحرار] وذلك لأن المماليك - كما سبق - لا يستئذنون إلا في الأوقات الثلاثة سواء كانوا كبارًا أو صغارًا، فلهذا قيدها المؤلف بالأحرار لمفهوم الآية الأولى.

وقوله: ﴿ٱلْحُلُمَ﴾ هو كناية عن البلوغ بالإنزال، والحلُم بمعنى: الاحتلام أو بمعنى: العقل وذلك لكمال عقولهم لكن الأول أولى؛ لأنه لا يشترط في هذا كمال العقل، وكمال العقل يحصل بكمال أربعين سنة.

وقوله: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ لم يذكر الله سبحانه وتعالى سوى بلوغ الحلم، والمعروف أن هناك شيئين آخرين يحصل بهما البلوغ هما: تمام خمسة عشر سنة، وإنبات شعر العانة.

لكن هذان الأمران فيهما خلاف بين العلماء: فمنهم من يرى أنه لا بلوغ إلا بالإنزال، وأن تمام خمسة عشر سنة ليس علامة على البلوغ بل علامة على قدرة الإنسان على الجهاد؛ لأن الذين أخذوا بها إنما أخذوا بحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - حينما عُرِضَ على النبي ﷺ عام أُحد فلم يُجِزْه، وعُرِضَ عليه عام الخندق فأجازه، وكان له عام الخندق خمسة عشر سنة[1]، لكن في رواية للحاكم أنه قال: فلم يُجِزْني ولم يراني بلغت، والثاني: فأجازني ورآني بلغت.

لكن كلمة (بلغت) هل معناها: بلغت سن التكليف، أو بلغت الحال الذي يمكنني بها أن أجاهد؟ فيه احتمال، لكن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي الله عنه كتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمسة عشر سنة ورآهم قد بلغوا، وقال: إذا كان هذا السن حدًّا لصلاحهم للقتال فهو حدٌّ لبلوغهم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٦٤)، ومسلم (١٨٦٨).

ويرى بعض العلماء كأبي حنيفة أن حد البلوغ ثماني عشرة سنة، لا خمسة عشر سنة، وهذا هو الذي مشى عليه نظام العمل والعمال هنا؛ لأن الذي واضعه فيما يظهر إنسان أجنبي، لا يعرف إلا المذهب المعروف الشائع عند عامة المسلمين وهو مذهب أبي حنيفة الذي يقيده بثماني عشرة سنة، إنما المذاهب الثلاثة أن البلوغ يحصل بخمسة عشر سنة.

أما إنبات العانة - فنفس الشيء أيضًا - فيه خلاف، والذين قالوا: إنه ليس علامة على البلوغ قالوا: إن كون الرسول ﷺ يكشف عن مؤتزرة بني قريظة فمن أنبت قتله، ليس ذلك دليل على أنه مكلف، بل هو دليل على أنه من أهل القتال فيقتله النبي ﷺ، لكن المشهور من المذهب - كما هو معروف - أن البلوغ يحصل بواحد من ثلاثة أشياء.

قال: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ وجه الخطاب لهم؛ لأنهم إذا بلغوا الحلم صاروا أهلًا للتكليف وتوجيه الخطاب إليهم.

وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من عامة الناس، الذين يستأذنون في جميع الأوقات.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الأطفال إذا بلغوا ﴿ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: في كل وقت، وأما قبل ذلك فلا يستأذنون إلا في ثلاثة أوقات فقط؛ وذلك لأنهم مترددون علينا والاستئذان في كل مرة يشق، وهذا الدين ما جعل الله تعالى فيه من حرج على هذه الأمة.

أي: مثل ذلك البيان وقد قلنا: إن الكاف اسم بمعنى مثل وهو مفعول مطلق لـ يُبين، وهنا هذه الآية الكريمة مثل الآية التي قبلها إلا الفرق في قوله: ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾ بدلًا من ﴿ٱلْأَيَـٰتِ﴾ ولعل هذا - والله أعلم - من باب التنويع في الأسلوب وإلا فمعناهما سواء.

الفوائد:

من فوائد هذه الآية:

أولًا: توجيه الخطاب للمؤمنين والحكم بغيرهم يدل على أنهم مسئولون عنهم.

ثانيًا: وجوب استئذان هذين الصنفين من الناس الصغار والمماليك في ثلاثة أوقات فقط - وهي المذكورة - وأما مَنْ سواهم فيجب عليه الاستئذان دائمًا.

ثالثًا: تعليل الأحكام بمعنى: أن أحكام الله - سبحانه وتعالى - كلها مبنية على الحكم وجه ذلك من الآية أن الله علل الحكم الأول والحكم الثاني، الحكم الأول: في وجوب الاستئذان في ثلاث مرات بأنها عورة، والحكم الثاني: عدم الاستئذان فيما عداها بأنهم طوافون عليكم.

الفائدة الرابعة: تحريم النظر إلى العورات ووجهه: أنه إذا وجب الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة خوفًا من أن يفاجئهم على عورة فمن تعمد أن يرى العورة فهو أولى، إذنْ فيستفاد منه،

تحريم النظر إلى العورة سواء كان الناظر صغيرًا أو كبيرًا، وأما تهاون بعض الناس في نظر الصغير إلى العورة فهذا خطأ، بعض الناس إذا صار الصغير سنه ست سنين، سبع سنين لا يهمه أن ينظر إلى العورة؛ لأنه لابد أن يرتسم في ذهنه هذا المنظر ثم ربما يذكره في يوم من الأيام، الحاصل أن هذا فيه دليل على تحريم النظر إلى العورة من الصغير إلى الكبير ولكن المراد بالصغير الذي يميز؛ لأن قوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ دليل على أنه يميز يؤمر بالاستئذان فيستأذن، أما الصغير ليس يميز فلا يدري عن شيء.

الفائدة الخامسة: رفع الحرج والمشقة على الناس يؤخذ من رفع الحرج في عدم الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة؛ لأنهم طوافون علينا مترددون والاستئذان فيه مشقة.

الفائدة السادسة: أن الولي آثم بما ارتكبه موليه من معصية أو مخالفة إذا كان قد فرط في تربيته وتأديبه لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ [النور:٥٨].

الفائدة السابعة: طهارة بدن الطفل وإن غلب على الظن أنه نجس يؤخذ من أنها ليست بنجس وعلل ذلك أنها من الطوافين، وهؤلاء من الطوافين، فربما يؤخذ من هذا طهارة بدن الطفل، وأنه طاهر ما لم يتيقن النجاسة، فإذا تيقن النجاسة انتهى الأمر.

الفائدة الثامنة: منة الله تعالى على العباد ببيان الآيات الكونية والشرعية حتى لا يبقى للناس على الله حجة بعد هذا البيان ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [البقرة:٢١٩] .

الفائدة التاسعة: إِنَّهُ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل تشريع الله ـ عز وجل ـ ونظامه وهذا يؤخذ من كونه جعل ذلك من الآيات وآيات الله معناها: أنها لا تصلح لغيره؛ إذ لو صلحت لغيره لم تكن آية له، هذا يدل على أن شرع الله لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله، وإِلَّا ما صَحَّ أن يكون آية صار غير آية.

وفيها أيضًا: ثبوت ملك اليمين للآدميين، وأن الإسلام جاء بالرق لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣]، ولكن ـ كما هو معروف ـ أن الإسلام حمى حقوق هؤلاء المماليك، وَرَغَّبَ في تحريرهم وعتقهم وجعل للعتق أسماء متعددة.

الفائدة الحادية عشر: جواز وضع الثوب عند النوم ويلتحف الإنسان بلحافه لقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ قيَّد الظهيرة في قوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ وفي الأول ما قيَّدها قال: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ وكذلك فيما بعد ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ ولم يقل: وحين تضعون ثيابكم من الفجر أو من العشاء؟ الظاهر أنه مثل قول بعضهم: إن ليس كل الناس يكون ما عند الظهر عورة له إنما يكون عورة لمن يضع ثوبه لينام عند الظهيرة، وبعضهم قال: لأن نومة الظهر ليست طويلة فبعض الناس ما يفصح ثيابه، ولهذا قيَّدها بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بخلاف نوم الليل فإن الناس يخلعون ثيابهم؛ لأن مدته تطول.

الفائدة الثانية عشر: فيه دليل على عناية الله - سبحانه وتعالى - بالخلق وأنهم وإن رضوا بما يُستقبح فلن يرضى الله به، فقد يقول قائل: ما يهمني إذا دخل عليَّ طفل في هذه الأوقات الثلاثة فنقول له: ولكن الله سبحانه وتعالى قد اعتنى بك ومنع الدخول عليك في هذه الأوقات الثلاثة.

الفائدة الثالثة عشر: هل هذه الآية محكمة أو منسوخة أو ترك العمل بها لزوال الحاجة إليها؟

الآية محكمة، ويجب أن نعرف أنه لا يجوز أن نقول عن آية أو حديث: إنه منسوخ، إلا بعد أن يتعذر الجمع بينه وبين ما ادُّعي أنه ناسخ، وأن يُعلم التاريخ بتأخر الناسخ وإلا إن كنت لا تستطيع أن تجمع فكِل العلم إلى الله أما أن تدَّعي النسخ؛ لأن معنى النسخ: إبطال هذا النص وإبطال النص صعب، لذلك يجب على الإنسان أن يتورع عن إطلاق النسخ فيما لم يثبت نسخه ثم إن ترك العمل بها لا يدل على أنها منسوخة في الحقيقة يعني: كم من أشياء محكمة وترك الناس العمل بها، فتَرْكُ الناس للعمل بها إما تهاونًا وإما لزوال السبب الموجب للاستئذان.

الفائدة الرابعة عشر: إثبات العلم والحكمة لله من هذين الاسمين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والحكمة هي: وضع الأشياء في مواضعها؛ والحكيم ليس معناه: ذا الحكمة فقط؛ بل معناه: ذا الحُكْم والحكمة.



قال الله تعالى:

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٦٠]

التفسير

قال المؤلف: [﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: قعدن عن الحيض والولد لكبرهن ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لذلك ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ من الجلباب والرداء والقناع فوق الخمار ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ﴾ مظهرات ﴿بِزِينَةٍ﴾ خفية كقلادة وسوار وخلخال ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بأن لا يضعنها ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبكم].

﴿الْقَوَاعِدُ﴾ جمع قاعدة وقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان للقواعد؛ لأن (ال) في القواعد اسم موصول؛ لأنه إذا دخلت (ال) على اسم مشتق سواء كان اسم مفعول أو اسم فاعل فهي اسم

موصول، فالقواعد بمعنى: اللاتي قعدن وقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لقواعد، لكن قعدن عن أي شيء؟

يقول المؤلف: [عن الحيض والولد] فصار معنى القواعد: اللاتي لا يلدن ولا يحضن لكبرهن، وقيل: القواعد المُلازِمات للبيوت لكبرهن؛ لأنهن لا يخرجن من العجز والضعف فهنَّ قواعد، وقيل: إن القواعد اسم للعجائز مطلقًا مثل ما نقول: عجوز مشتقة من العجز، نقول أيضًا: قاعدة بمعنى عاجزة عن القيام والذهاب والإياب.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾ اللاتي صفة للقواعد؛ لأنك لو قلت: من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا صار في قواعد النساء اللاتي يرجون نكاحًا، وليس الأمر كذلك، فقوله: ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة للقواعد، وقوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾ الواو واو الفعل، والنون نون النسوة، ومعنى ﴿لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يطمعن فيه وذلك لكبرهن؛ لأنهن يرجون أن أحدًا يتزوجهن؛ لأنهن عجائز ما بهن حاجة.

قوله: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ لا شك أن المراد بقوله: ﴿يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ ليس جميع الثياب بمعنى: يبقين عراة، هذا لا يمكن القول به، إذنْ فما المراد بالثياب؟ الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها مثل الجلباب، يقول المؤلف: [الجلباب والرداء والقناع والخمار] الأشياء الظاهرة فيجوز للمرأة العجوز أن تبدي يديها ورأسها ووجهها ورجليها وساقيها لكن بشرط ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ فإن كان من أجل أن تبدي الزينة؛ لأن بعض العجائز ما هن براغبات النكاح يحببن أن يُرين بمنزلة الشواب تجدها مثلًا تلبس سوار وتلبس خلخال، وتجدها تبجح عند الناس، لكن هذا بشرط ألا تكون بهذه الحال، إن كانت بهذه الحال فلا يجوز، لكن إن كانت المسألة طبيعية فيجوز لها أن تضع ثيابها. نعم ولو كانت عند أجنبي؛ لأنها ما تبغي نكاحًا.

يقول: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم ﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ﴾ أي: [مظهرات ﴿بِزِينَةٖ﴾ أي: خفية كقلادة وسوار وخلخال].

التبرج بمعنى: التَّعَلِّي والظهور ومنه البروج التي في السماء لعلوها وارتفاعها، فمعنى متبرجات أي: مُتَعَلِّيات، وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: [مظهرات] هذا من باب التفسير باللازم، وإلا فالتبرج معناه: التعلي، يلزم منه أن يظهرن الزينة.

وقوله: ﴿بِزِينَةٖ﴾ أي: بزينة خفية، يُظهِرْنَها إذا وضعن تلك الثياب.

ثم قال: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ﴾ بأن لا يضعنها ﴿خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾ لما في ذلك من البعد عن مواضع الفتنة، وكما قيل: (لكل ساقطة لاقطة)، قد تكون بنفسها لا ترجو النكاح لكبرها، ولكن ربما يتعلق بها إنسان وهي في هذه الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾.

[وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بما في قلوبكم] ختم الآية بالسمع والعلم؛ لأن المقام قد يقتضي قولًا كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأحزاب:٣٢] وبالعلم؛ لأن قوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ﴾ محَلّه القلب ومتعلقه العلم؛ لأن ما في القلب لا يُسمع ولا يُرى، وإنما يُعلم علمًا، فهو سميع سبحانه وتعالى بما يقال لهن أو يقلنه هؤلاء القواعد، وعليم بما في قلوبهن وقلوب من نظر إليهن من الميل والفتنة.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** الحكم الظاهر منها وهي أن العجائز اللاتي يئسن من النكاح لكبرهن يجوز لهن وضع الثياب الظاهرة مثل الجلباب والرداء والخمار وما أشبه ذلك، يعني: هذه الألبسة الظاهرة يجوز للعجائز أن يضعنها؛ وذلك لأنهن لا يرجون نكاحًا فلا يخفن من الفتنة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن على غير القواعد أن يلبسن لباسًا ظاهرًا ساترًا؛ لما في ذلك من التستر؛ ولأن عدمه يدخل في الحديث الصحيح: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا بَعْدُ: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنَسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»[١]. فإن المرأة إذا كان عليها ثياب لكن تصف مقاطع جسمها، ولا تزول بها الفتنة فهي: كاسية عارية.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** يقاس على القواعد مَنْ لا تُشْتَهى لغاية في قُبْحِها، فإن التي لا تُشْتَهى لغاية في قبحها كالعجائز؛ لأنها لا ترجو النكاح، ولا يطمع أحد فيها، ولهذا ألحق العلماء هذا الصنف من النساء بالقواعد.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن التبرج بالزينة حرام على العجائز، لقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ فهذا الشرط إذا تخلف صار عليهن جناح بذلك، وهنا يدل على التحريم.

٥ - **ومن فوائدها:** تحريم التبرج على الشواب ومن هي محل الفتنة، وهذا القياس قياس أولوية؛ لأنه إذا حرم على القواعد التي لا يرجون نكاحًا فغيرهن ممن يرجو النكاح وتتعلق به الفتنة أبلغ.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا؛ لأن الله إنما أباح وضع الثياب لهؤلاء القواعد؛ لأن الفتنة بعيدة فيهن، فيؤخذ منه: أن المدار كله على خوف الفتنة في مثل هذه الأمور، فالحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

٧ - **ومنه فوائد هذه الآية:** ما نبه عليه كثير من أهل العلم بأنه حتى على القول بجواز كشف الوجه واليدين إذا كان ذلك ذريعة إلى الفتنة كان هذا حرامًا، وعليه فيكون هذا القول لا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٢٨)، وأحمد في «مسنده» (٨٤٥١).

محل له في عصرنا؛ لأنه لا يمكن صد النساء أبدًا، ولهذا تجد المجتمعات التي أخذت بهذا القول أصبحت لا تستطيع أن تتخلص مما وقعت فيه من التبرج السافر الذي لا يرمي إليه هذا القول بأي صلة فلم تقتصر المسألة على الوجه والكفين، بل تدرجت إلى الرأس والرقبة والنحر والذراع بل والعضد أحيانًا، والساق، والقدم، كل هذا بأسباب أن النساء الآن، بل والمجتمعات الإسلامية - مع الأسف - لا يمكن أن تنضبط بالحدود الشرعية؛ لأنها مُدْبِرَة عن الدين إلا من شاء الله.

وعلى هذا فنقول: هذا القول الذي يطنطن به بعض الناس المحبين للسفور لا محل له في هذا العصر؛ لأن من شرطه أن لا تتبرج بزينة وأن لا يُخاف منه الفتنة، وهذا موجود مُحقَّق، فالفتنة موجودة والتبرج موجود، ولهذا القواعد اللاتي رخص الله لهن في وضع الثياب اشترط هذا الشرط ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

ونجد كثيرًا من نساء هؤلاء الناس تتبرج بالزينة ولا شك، تحمر الخدين، والشفتين، وتكحل العينين، وتزجج الحواجب، كل هذا مما يدل على أن الموضوع أصبح الآن ليس ذا محل في هذا الوقت.

٨ - **ومن هذه الفوائد:** دليل على أن الأفضل البعد عن الريبة ومحل الفتنة وإن بعدت، لقوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ فهن يجوز لهن أن يضعن الثياب لبعد الفتنة بهن، ولكن مع ذلك كلما بَعُد الإنسان عن أسباب الفتنة كان خيرًا له، والإنسان قد يشعر بنفسه أنه بعيد عن الفتنة ثم يقع فيها، وقد أمر النبي ﷺ من سمع بالدجال أن ينأى عنه؛ لأنه يأتيه وهو يرى أنه مؤمن فلا يزال يقذف به بالحجج والشبهات حتى يتبعه.

٩ - **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات تفاضل الأعمال؛ لأن قوله: ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ يعني: من عدم الاستعفاف، فدل ذلك على أن الأعمال بعضها أفضل من بعض، ويتفرع على ذلك تفاضل الإيمان؛ لأن الأعمال منه فإذا ثبت تفاضل الأعمال فيما بينها، ثبت تفاضل الإيمان، وأنه يزيد وينقص، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

١٠ - **ومن هذه الفوائد:** إثبات اسمين من أسماء الله ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وما تضمنتاه من الصفات وهي: السمع والعلم، وقد مر علينا أنه لا يراد من أسماء الله وصفاته مجرد معرفة ذلك الاسم وتلك الصفة، بل المراد والغرض التعبد لله بمقتضى ذلك، فإذا علمت أن الله سميع عليم؛ عملت بكل قول يُرضيه، وتجنبت كل قول يُسخطه، عملت بكل قول يُرضيه لأنك تعلم أنه يسمعك ويثيبك عليه، وتجنبت كل قول يُسخطه؛ لأنك تعلم أنه يسمعك فيسخط عليك.

وكذلك بالنسبة للعلم، وكذلك بالنسبة لسائر الصفات والأسماء.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ**

الجَنَّةَ»(١) والمراد بإحصاها ثلاثة أمور: ضبط لفظها، ومعناها، والتعبد لله بمقتضاها، أن الإنسان يعرف اللفظ والمعنى ويتعبد لله بما تقتضيه هذه الثلاثة أمور.



قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]

التفسير

قوله: [﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في مؤاكلة مقابليهم].

(الأعمى) هذه اسم تفضيل أم صفة مشبهة؟ صفة مشبهة؛ لأن ليس المعنى أنه أعمى من فلان مثلًا، فالتفضيل معناه: أن هناك مفضل ومفضل عليه وأما الأعمى والأعرج فهذه صفة مشبهة، ومعنى صفة مشبة أي مشبهة باسم الفاعل.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] فإن ظاهره أن أعمى الثانية اسم تفضيل، يعني: أشد عمىً وأضل سبيلًا، لكن المعروف خصوصًا عند البصريين أن هذه صفة مشبهة؛ وأنه لا يجوز أن يصاغ اسم التفضيل من ذي صفة مشبهة على وزن أفعل، أما الكوفيون فيقولون: إنَّهُ لا بأس ويرون أنه لا بأس أن تقول: فلان أعرج من فلان، وفلان أعمى من فلان، وقولهم أصح، لأن هذا شيء يقبله الذوق ولا مانع منه.

قوله: ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ الأعرج هو: الذي لا يمشي مشيًا مستقيمًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ المريض هو: الذي خرجت صحته عن الاعتدال.

لكن في أي شيء؟ قال المؤلف: [في مؤاكلة مقابليهم].

مقابل الأعمى: البصير، مقابل الأعرج: السليم، مقابل المريض: الصحيح، يعني: إِنَّهُ ليس على الأعمى حرج إذا أكل مع البصير.

لكن يقال: إنهم كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأعمى، يقولون: لأننا إذا أكلنا معه نأكل رغيفين ونبقي له رغيفًا، ومن جهة أخرى الأعمى يتحرج أيضًا من الأكل مع البصير؛ لأنه يخاف أن يأكل أكثر منه، على الرأي الأول: يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ يعني: ليس في الأعمى أي: بمؤاكلته حرج، كذلك المريض، ليس على المريض حرج إذا أكل مع الصحيح، ما يُقال أن فيه الحرج؛ لأن الصحيح يأكل أكثر، وكذلك الأعرج، الأعرج لا بأس أن يأكل مع الصحيح ولا حرج عليه.

هذا ما ذهب إليه بعضهم أن المراد: ليس عليهم حرج في الأكل مع غيرهم، وعلى هذا تكون (على) بمعنى: (في) يعني: ليس في الأعمى حرج أي: في مؤاكلته ولا في المريض حرج ولا في الأعرج حرج.

وقال آخرون: المراد الجهاد ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ يعني: في ترك الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ يعني: في ترك الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني: في ترك الجهاد.

قالوا: والدليل على ذلك أن الله ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢] إلى آخر الآيات.

فإنها في الجهاد وتكون الآيات مقدمة لذكر الجهاد، ولكنها صُدِّرت بها آية الأكل من البيوت المذكورة إما للتمهيد والتوطئة، والتنبيه؛ لأنه إذا جاء كلام في غير محله لابد أن ينتبه ويبحث ما هو السبب، بخلاف إذا جاء الكلام على نسق واحد؛ فإنه قد يسمعه ولا يفهم المعاني.

وقد مرَّ علينا أن من فائدة الالتفات هو تنبيه المخاطب أو السامع، لهذا أيضًا وضعت هذه الجملة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قبل أن تُذكر آيات الجهاد في هذا المحل؛ ليتنبه القارئ؛ حيث خرجت المسألة عما هو متبادر ومتوقع، هذا قول آخر: أن المراد ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ في ترك الجهاد، وقالوا هذا كقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ فإنها في الجهاد بلا ريب.

وقال آخرون: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك أي عبادة تكون فيها هذه الأعذار مانعة، كل عبادة تمنع منها هذه الأعذار، فإنه لا حرج عليهم في تركها، فتكون الآية أعم من الجهاد وغيره، بل كل عبادة سبب تركها والإخلال بها أحد هذه الأوصاف الثلاثة فإنه لا حرج عليهم فيها.

قالوا: وهذا مقتضى الأدلة الشرعية، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

فإذا ترك الإنسان عبادة أو أخلَّ بها لعذر العمى، فلا حرج عليه، ولعذر المرض فلا حرج عليه، وعذر العرج فلا حرج عليه، فتكون الآية عامة في المؤاكلة ـ كما قال المؤلف ـ، وكذلك أيضًا في ترك الجهاد، وكذلك فيما يشترط له المشي وهو أعرج لا يستطيع، أو مريض لا يستطيع، أو أعمى لا يستطيع، كالذي يُشترط له البصر، فكل هذا ليس عليهم فيه حرج.

لكن على هذين الرأيين الأخيرين يبقى أن نعرف: ما مناسبة صدر الآية بآخرها؟

المناسبة أَنَّهُ ـ كما هو معلوم ـ لا حرج على هؤلاء فيما يشترط فيه السلامة من هذه الأمراض، فإنه كذلك لا حرج عليكم فيما يأتي، ويكون الغرض التمهيد لنفي الحرج في الآتي، يعني: كما أنه معلوم أن هذه الأشياء أعذار تمنع من الحرج بدون أي مجادلة، فكذلك أيضًا ليس عليكم حرج في الأكل من بيوتكم... الخ.

ثم قال: [ولا حرج ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: بيوت أولادكم].

قال المؤلف: [من بيوتكم] أي من بيوت أولادكم، لماذا لم يجعل الآية عامة؟ من بيوتكم يعني: من بيوت أنفسكم؛ لأن هذا لا حاجة إلى نفي الحرج فيه.

لكن قد يقول قائل: إن في آخر الآية مما يدل على أنه يراد بيوت الإنسان أيضًا، وهو قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾، ويكون نفي الحرج عن الأكل من البيوت من حيث كونهم جميعًا أو أشتاتًا، لا لمطلق الأكل.

يبقى النظر على قوله: ﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ﴾... إلخ لِمَ لم يذكر بيوت الأولاد؟

نقول: هي داخلة في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ فإن بيت الولد بيت لأبيه لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**»(١)، ولقوله: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**»(٢)، فعليه يكون بيت الولد بيت للوالد، ونحن إذ انتقدنا على المؤلف لم ننتقد إدخاله بيوت الأولاد في بيوت الإنسان، فإن هذا صحيح، وإنما انتقدنا تخصيصه البيوت ببيوت الأولاد، ونحن نقول: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: بيوت أنفسكم وبيوت أولادكم، بالنسبة لبيت الإنسان نفسه فائدتها ما ذكر في آخر الآية، وبالنسبة لبيت ولده أعم من ذلك.

قوله: ﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ﴾، ﴿ءَابَآئِكُمۡ﴾ يشمل الأب الأدنى والأعلى فإن الجد أبٌ، كما قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج:٧٨] فسمَّى الله إبراهيم أبًا لنا مع أنه جدٌّ بعيد، وكذلك ﴿أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ يشمل الأم الدنيا ـ التي ولدت الإنسان ـ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣١)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٤٤٤٩)، وصححه الشيخ الإلباني في «الإرواء» (١٦٢٦).

(٢) صحيح: الحديث ورد عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وذكره الشيخ الألباني بشيء من التفصيل في «الإرواء» (٨٣٨) فراجعه إن شئت.

الأعمات العليا التي هي الجدات.

﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾ الأشقاء أو لأب أو لأم.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ﴾، لكن بشرط ألا تكون ذات زوج، فإن كانت ذات زوج والمال له، ما صار بيتًا لأخته، بل صار بيتًا لزوجها، لكن إذا كانت الأخت لها بيت فإنه لا بأس أن يأكل الإنسان من هذا البيت.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ﴾ وقالوا في: ﴿عَمَّاتِكُمْ﴾ مثل ما قلنا في أخواتكم، يعني: ما لم تكن العمة ذات زوج، ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ بالنسبة للأعمام والعمات والأخوال والخالات يشمل الأدنى من هؤلاء والأعلى.

فالأدنى أخو أبيك بالنسبة للعم، والأعلى أخو جدك وإن علا، وبالنسبة للخال الأدنى أخو أمك، والأعلى أخو جدَّتك وإن علا.

[﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥ﴾ أي: خزنتموه لغيركم] المفاتِح بمعنى: الخزائن؛ يعني: ما ملكتُم خزائنه، وقيل: إنها بمعنى: المفَاتِيح وهي ما يُفتَح به، فالمِفتَاح غير المِفتَح، مِفْتَح: جمعه مفاتِح، ومِفتاح: جمعه مفاتيح، قيل: إنه يطلق المِفتح على المفتاح، والمَفاتح على المفاتيح، وقيل: المراد بالمَفاتِح: الخزائن، والمفاتيح ما يُفْتَح به، ولكن القرآن يؤيد القول الأول كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص:٧٦].

فنقول هنا في الآية الكريمة: مفَاتِحه أي: خزائنه أي: مفاتيح خزائنه، وقوله: ﴿مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥ﴾ أي: جُعِلَت مفاتيحه في أيديكم، فلا جناح على الإنسان أن يأكل منها، لكن بالمعروف.

قوله: [﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وهو من صَدَقَكُم في مودته، المعنى: يجوز الأكل من بيوت من ذُكِر وإن لم يحضروا، أي: إذا عُلِمَ رضاهم به].

يقول المؤلف: [يجوز أن تأكل وإن لم يحضروا] هذا صحيح، وقوله: [أي: إذا عُلِمَ رضاهم به] هذا غير صحيح، وذلك أَنَّهُ إذا عُلِم رضا صاحب البيت بأكلك، فإنه لا فرق أن يكون من هؤلاء أو من غيرهم، لكنه يُؤكَل من بيوت هؤلاء ما لم يُعْلَم عدم رضاهم، فالمراتب الثلاث:

المرتبة الأولى: أن تعلم رضاه، رضا صاحب البيت فتأكل من هذه البيوت ومن غيرها.

المرتبة الثانية: أن تعلم عدم رضاهم فلا تأكل لا من هذه البيوت ولا من غيرها؛ لقول النبي ﷺ: «**لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**»[1].

---

(١) صحيح: والحديث قد ورد عن جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة ذكرها الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٤٥٩) فراجعه إن شئت.

المرتبة الثالثة: ألا تعلم رضاه ولا عدم رضاه فهذه هي التي يفرق فيها بين من ذكر وغيرهم، فتأكل من بيوت هؤلاء؛ لأن الغالب رضاهم لوجود الصلة بينك وبينهم، من القرابة، أو الصداقة، أو الائتمان، لأن حقيقة الأمر أن هذه الأمور ترجع إلى ثلاثة أشياء: إما قرابة أو ائتمان، أو صداقة، فالقرابة من ذُكِروا، أما الائتمان: في قوله ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، وأما الصداقة ففي قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ ففي حالة عدم العلم بالرضا والسخط نقول: يجوز الأكل من هذه البيوت دون غيرها، وأما اشتراط المؤلف علم الرضا في هذه البيوت فلا يصح، لأننا لو اشترطنا ذلك لم يكن بينها وبين البيوت الأخرى فرق.

وفي قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ دليل على أن للصداقة حقًّا، وهي كذلك، والسبب الصلة التي بينك وبينه.

والصهر وَصِلَةُ الرضاع تدخل في الصداقة إن كان صديقًا، وإذا لم يكن صداقة بين الصهر وصهره، أو بين الرضيع ومرضعه، فإنه لا يجوز الأكل من بيته.

قوله: [﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع شتٍّ] مثل سبب وأسباب، إلا أن سبب غير مدغمة، وشتّ مدغمة.

قال: [نزلت فيمن تحرَّج أن يأكل وحده، وإذا لم يجد من يؤاكله يترك الأكل].

هذه كانت عادة لبعض العرب، إذا وجد أحدًا يأكل معه يأكل، فإن لم يجد أحدًا يأكل معه ما أكل شيئًا أبدًا، يموت من الجوع ولا يأكل، إلى حين يلقى أحدًا يأكل معه، وهذا لا شك أنه دليل على الكرم، لكنه كرم فيه إحراج، ولكنك تأكل مع غيرك، وتأكل وحدك، كما قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ وهذا في الجواز، وأما الأفضل فهو الأكل جميعًا، كما أمر النبي ﷺ بذلك، وأخبر أن في ذلك بركة، وقد اشتكى إليه رجل أنه كان يأكل ولا يشبع، فقال له النبي ﷺ: «لعلكم تأكلون متفرقين» فقال: نعم. قال: «اجتمعوا على أكلكم يُبارك لكم فيه»، فاجتماع الناس على الأكل هذا من أسباب البركة.

كما أنه أيضًا من أسباب الإلفة والمودة لأن الناس - في البيت مثلًا - يكونوا في أعمالهم، إذا لم يكن شيءٌ يجمعهم - وهو الأكل - فمتى يجتمعون؟! لكن مع المؤسف أن هذه السنة أصبحت الآن مفقودة عند كثير من الناس، تجد الأب يأكل وحده، والولد الأكبر يأكل وحده، والمتوسط يأكل وحده، ...إلخ، ولكن هذا خلاف السنة.

ثم قال: [﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ لكم لا أهل بها ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ قولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإن الملائكة ترد عليكم، وإن كان بها أهل فسلموا عليهم].

قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ بيوتًا نكرة في سياق الشرط، فتكون عامة لبيوت الإنسان وبيوت غيره، وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إن كان فيها أهل - وهي لغيره - يسلم عليهم، أي على من

فيها، وسُمِّي سلامًا على النفس وهو على الغير؛ لأن المؤمنين نفس واحدة كما قال النبي ﷺ: «مَثَل المؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الأَعْضَاءِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ».

وإن كانت بيوتًا ليس فيها أحد فإن الإنسان يسلم على نفسه، يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ لأن هذا هو السلام الذي علمه النبي ﷺ أمته أن يسلموا على أنفسهم كما في الصلاة.

وقوله: [﴿تَحِيَّةً﴾ مصدر حيًا] يعني: تحيُّون تحية.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافها الله إليه لأنه هو الذي شرعها. أو أنه الغاية بها، إما لأنها تُطلب منه، لأنك تقول: (السلام علينا) أو (السلام عليكم) فهي تطلب منه، فهو غايتها أي: الذي تنتهي إليه هذه التحية ليجيب عليها، ويثيبها.

وقوله: ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ أي ذات بركة، والبركة - كما مر - هي الخير الكثير الثابت.

وقوله: ﴿طَيِّبَةً﴾ قال المؤلف: [يثاب عليها] وهذا نوع من الطِّيِّب، لكن من الطِّيِّب أيضًا أن تكون موافقة لشريعة الله، لأن الأعمال الطيبة هي الموافقة للشرع، بأن تكونه مخلصًا فيها لله، متبعًا فيها رسول الله ﷺ.

وقوله: [﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي يفصِّل لكم معالم دينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا ذلك].

(كذلك يبين) مرَّ علينا أننا نعرب الكاف اسم بمعنى مثل، على أنها مفعول مطلق ليبين، أي: مثل ذلك البيان يبين.

و(الآيات) سبق أن المراد بها الشرعية والكونية، فالشرعية ما جاءت بها الرسل، والكونية: مخلوقات الله التي نشاهد ونسمع.

وقوله: (لعلكم تعقلون): لعل هذه للتعليل، أي: لأجل أن تعقلوا، ومعنى (العقل) هنا: الفهم - على ما مشى عليه المؤلف -، ولكن الأصح أنه أعم من ذلك، أنه الفهم وحسن التصرُّف، لأن العقل - كما مرَّ علينا نوعان:

الأول: عقل الإدراك وهو مناط التكليف، وهو حاصل للمسلم والكافر، والبر والفاجر.

الثاني: عقل التصرف: وهو إحسان التصرف، أن يكون الإنسان يتصرف تصرفًا مبني على عقل، وهذا يخرج منه الكافر والفاجر، لأنهم لم يحسنوا التصرُّف، فهم غير عاقلين؛ ولهذا دائمًا ينفي الله عز وجل العقل عن الكفار مع أنهم من أذكى الناس وأفهمهم، لكن ليس عندهم عقل التصرُّف، عندهم عقل الإدراك فقط.

والذي يُحمد عليه الإنسان هو عقل التصرُّف، أما العقل الأول فإنه لا يحمد عليه، لأنه ليس

من كسبه.

إذن، المراد بالعقل هنا ليس مجرد الفهم، لأننا إذا فسرناه بمجرد الفهم حوَّلناه إلى عقل الإدراك فقط، وعقل الإدراك ليس مناطًا للمدح، وإنما المناط للمدح عقل التصرُّف، الذي يحسن به الإنسان التصرُّف، وهذا هو المراد بهذه الآية، أي: (لعلكم تعقلون): تدركون ذلك وتحسنون التصرُّف بمقتضى هذه الآيات التي بينها الله لكم.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان رحمة الله سبحانه وتعالى في نفي الحرج عمن لا يستحقه، لقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** بيان سهولة هذه الشريعة بنفي الحرج عمن لا يستحق أن يلحقه.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الأحكام تدور مع عللها، فإذا وجدت العلة للحكم ثبت، وإذا انتفت انتفى الحكم، لأن نفي الحرج عن هؤلاء لهذه العلة التي فيهم، فإذا برئ المريض، واستقام مشي الأعرج، ورد الله البصر على الأعمى، انتفى الحكم في حقهم، وثبت في حقهم ما ثبت في حق السالمين.

٤ - **وفيها:** جواز الأكل من بيوت هؤلاء المذكورين، سواء بإذن أو بغير إذن، إلا إذا علمنا عدم رضاهم، فإذا علمنا أنهم لا يرضون فإنه لا يجوز الأكل من بيوتهم.

٥ - **وفيها:** دليل على أن مال ابنِ الإنسان مالٌ له؛ ووجه الدلالة من الآية أنه سبحانه ما ذكر الأولاد في الآية ، فدل على أن المراد بقوله ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتكم وبيوت أولادكم.

٦ - **وفيها:** دليل أيضًا على تحكيم العادة في الأمور، لأنه إنما أُبيح لنا الأكل من هذه البيوت لأن العادة والعرف الرضا بذلك، فمعروف أن الأقارب والصديق ومالك المفاتيح، كلهم مما جرى العرف بأنهم يسامحون في الأكل، ولكن سبق أن الإنسان ما يحمل شيئًا، يأكل ولا يحمل، وهذا لأن الله إنما أجاز الأكل فقط.

٧ - **وفيها أيضًا:** دليل على جواز الأكل مجتمعين ومتفرقين، لقوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، ولكن الأفضل - كما مرّ - الاجتماع.

٨ - **وفيها أيضًا:** دليل على مشروعية السلام عند الدخول إلى البيوت، لقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وكان هذا من هدي النبي ﷺ، إلا أن الإنسان يبدأ بشيء قبل السلام، وهو السواك، إذا دخل بيته يبدأ أولًا بالتسوُّك ثم يسلم على أهله.

وفيه أيضًا: دليل على فضيلة السلام، لكون الله تعالى وصفه بأنه: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ ثلاثة أوصاف، وهذا لا شك دليل على فضله، فيدل على أنه أفضل من قول الإنسان: (أهلًا وسهلًا) وشبهه، وعلى أن الإنسان إذا أجاب السلام بـ (أهلًا وسهلًا) لم يُجْزِه، لأن

(أهلًا وسهلًا) لم توصف بأنها تحية من عند الله مباركة طيبة.

ولهذا تجدون هذا هدي الأنبياء في حديث المعراج، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا سلم على النبي الذي يواجهه في السماء، يرد عليه السلام ويقول: مرحبًا بالابن الصالح، في آدم وإبراهيم، وبالأخ الصالح فيمن عداهم، مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فيرحبون بعد أن يردوا السلام، ولكن مع الأسف أن الناس الآن هجروا هذا، وصار غالب الناس إذا سلمت عليهم قالوا لك: (أهلا ومرحبا) أو (هلا) أو (مرحبا) وهذا لا يجزي، ولا يجوز الاقتصار عليه، وكذلك في الهاتف معظم الناس يبدءون الكلام بقولهم (ألو)، وهذا مخالف للسنة.

١٠ - وفي هذه الآية دليل على: عناية الله بالخلق؛ حيث كان يبين لهم الآيات لأجل أن يتصرفوا تصرف العاقل فيتبعوا شريعته ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ومر علينا أن هذا البيان بالنسبة للآيات الشرعية، ما يعرفها إلا المؤمنون الذين آمنوا بها وعقلوها، وأما الآيات الكونية فقد يؤمن بها حتى الكافر، الكفار يؤمنون أن الله خالق السموات والأرض، وأن بيده ملكوت السماوات والأرض، وأنه منزل الغيث، ... إلخ.

تنبيه: فائدة ذكر المنصوص عليهم في الآية: الحصر؛ فليس للإنسان أن يأكل من بيت ابن خالته، أو ابن عمه.... إلخ، فغير هؤلاء المنصوص عليهم لا يأكل الإنسان من بيتهم إلا إذا أذن.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والحصر يفيد إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عمَّن سواه، وعلى هذا الإيمان ثابت لمن وُصِفُوا بهذه الصفات ومُنتفٍ عمَّن تخلف عنه منها شيء.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والإيمان بالله ورسوله ـ كما أسلفنا ـ لا يكون إيمانًا حتى يتضمن القبول والإذعان، أما مجرد التصديق فليس بإيمان، فلو صدَّق الإنسان بالله وبرسوله ﷺ ولكن ما

قَبِلَ ما جاء به ولا أذعن له فليس بمؤمن، ولهذا أبو طالب كان مصدقًا بالنبي ﷺ ومع ذلك ليس بمؤمن به؛ لأنه لم يقبل ما جاء به ولم يذعن له .

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني: إيمانًا صحيحًا يتضمن القبول والإذعان.

[وقوله:﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ﴾ أي: الرسول ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ كخطبة الجمعة ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ لعروض عذر لهم ﴿حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾].

قوله: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ يعني: على أمر عامٍّ للمسلمين، من الجهاد والمشورة والجمعة وغيرها، كل أمر عام جامع للمسلمين ليس أمرًا خاصًّا بهم إذا اجتمعوا لا يذهبون حتى يستأذنوك؛ لأن ذهابهم بدون استئذان يؤدي إلى الفوضى واختلال النظام، فلو فرض أنه نودي: الصلاة جامعة، واجتمع الناس للتشاور في أمر، ثم قام واحد بعد أن حضر الناس قام وانصرف بدون استئذان، نقول: هذا حرام ولا يجوز؛ لأن هذا يؤدي إلى تفكك هذا الاجتماع وإلى الفوضى وعدم النظام، فإذا اجتمع المسلمون على أمر جامع يعني: عامًّا للمسلمين فإنه لا يجوز لأحد أن ينصرف إلا بعذر وبعد الاستئذان، لما في ذلك من الضعف للباقين لأنه لو رآه أحد يقوم قام الثاني وقام الثالث وهكذا، وكما هو مشاهد الآن أنه إذا قام واحد من المجتمع، فإنه يتبعه أُناس ويكون هذا بمنزلة الجدار الذي انهدم منه ثلمة لا يتماسك فيما بعد.

فالحاصل: أن المؤمنين حقيقة هم الذين إذا كانوا مع الرسول ﷺ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ أي: شامل وعام، كالتجمع للجهاد، والتجمع للمشاورة، والتجمع لأمر هام يتعلق بالمسلمين عمومًا، فإنهم لا يذهبون من مكان الاجتماع حتى يستأذنوا النبي ﷺ.

ثم إن المؤلف قيده بقيد لا بد منه قال: [لعروض عذر لهم] أي: لا يقوموا إلا لعذر، فلابد من العذر، والعذر أمر خفي لا يُعْلَم، ولابد من الاستئذان ليتبين لجميع الحاضرين عذرهم، ولا يكون في ذلك خلل عليهم.

وهذا عام لكل الاجتماعات العامة لمصلحة المسلمين، فلا يجوز لأحد أن ينصرف إلا لعذر، وبعد الاستئذان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور:٦٢] لا شك أن ترتيب الجملة على هذا يدل على الشرف ورفعة المكانة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فإن أولاء: اسم إشارة تدل على تعظيم المشار إليه؛ ولهذا جاءت بصيغة البعيد ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى علوِّ مرتبتهم، ثم جاءت مؤكَّدة بإن، ثم جاءت بالجملة الاسمية ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فحصر الإيمان بالله ورسوله في هؤلاء الذين يستأذنون رسول الله ﷺ إذا كانوا معه ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾، يستأذنونه قبل أن ينصرفوا.

قوله: [﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ أمرهم ﴿فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ بالانصراف

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾].

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فاشترط الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون الاستئذان لشيء من الشئون يعني: لأمر من أمورهم التي يُعذَرُون بها في التخلف عن الجمع.

ثم قال للرسول: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فجعله أيضًا مُخَيَّرًا في الإذن وعدمه، وهذا التخيير هل هو تخيير تشهٍّ وإرادة مطلقة أو تخيير مصلحة؟

الجواب: تخيير مصلحة، فما هو الضابط لتخيير المصلحة وتخيير التشهي والإرادة المطلقة؟

إذا كان التخيير من أجل الرفق بالمكلف فهو: تخيير تشهٍّ، مثلما يوجد في بعض الكفارات ككفارة اليمين، قال تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦].

أي إذا كان الغرض من التخيير مراعاة التسهيل على المكلف فهو من باب التشهي، يعني: ما تشتهي افعله، وإذا كان التخيير من أجل مصلحة عامة أو خاصة فإنه تخيير مصلحة، وذلك فيما إذا كان يتعلق بالغير، فتخيير مثلًا ولي اليتيم في بيع ماله أو حبسه، أو إقراره، أو عدم إقراره، هذا من باب تخيير المصلحة؛ لأنه يتصرَّف بغيره، وكذلك أيضًا تخيير النبي ﷺ هنا ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ﴾ هذا تخيير مصلحة، إذا كان إذنْ الرسول ﷺ لهؤلاء لا يضر بالجمع، وفيه أيضًا مصلحة بَيِّنَة لهم أكثر من مصلحة ببقائهم، فهنا يتعين الإذن، وإذا كان يُخشى إذا أَذِنَ لهم أن يكثر المستأذنون وينهدم هذا الجمع، أو أن بقاءهم في هذا الجمع أصلح لهم من ذهابهم لشأنهم؛ فهنا يتعين ألا يأذن لهم، فتخيير النبي ﷺ هنا يرجع إلى المصلحة، إذا اقتضت المصلحة بالإذن أَذِن، وإلا فلا.

وقوله تعالى: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ عبر بالبعض إشارة إلى أنهم إذا استأذنوا لأمر مهم، وإن لم يكن شئون متعددة، فإنه يكون عذرًا في جواز الاستئذان والإذن لهم.

ثم مع ذلك قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ وهذا الاستغفار لهم؛ لتطييب قلوبهم إذا انصرفوا عن هذا الجمع وفاتهم أجره فاستغفر لهم الرسول ﷺ فإن قلوبهم تطيب بالانصراف، ولا يبقى في قلوبهم حرج وقلق ـ هذه من جهة ـ، ومن جهة أخرى: لأنه قد يكون في استئذانهم هذا أمرًا لا يُعذرون فيه، هم ظنوه عذرًا فاستأذنوا من أجله، وهو ليس بعذر عند الله فيكون استغفارك لهم ماحِيًا لما عسى أن يكون من التقصير، والتفريط في ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا تقدم الكلام عليه مرارًا وقلنا: إن المغفرة في جانب الذنوب، والرحمة في جانب حصول المطلوب، ففي المغفرة النجاة من المرهوب، وفي الرحمة حصول المطلوب.



قال الله تعالى مؤدبًا عباده:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]

التفسير

[قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ بأن تقولوا: يا محمد، بل قولوا: يا نبي الله يا رسول الله، في لين وتواضع وخفض صوت... إلخ].

قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، ﴿دُعَاءَ﴾ - على كلام المؤلف - بمعنى: نداء، ومنه قولهم: دعوت فلانًا أي: ناديته، وعلى هذا فدعاء مضاف إلى مفعوله؛ لأن دعاء مصدر يضاف إلى مفعوله، وفاعله محذوف والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول، فحذف الفاعل، وأضيف المصدر إلى مفعوله، أي: دعاؤكم الرسول.

وقوله: ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ هذا مضاف إلى فاعله، ومفعوله بعضًا يعني: كما إذا دعا بعضكم بعضًا، فإننا عندما يدعو بعضنا بعضًا نقول: يا فلان، لكن النبي ﷺ له من الحق والإكرام ما لا يليق بنا أن ندعوه باسمه، بل نقول: يا نبي الله ويا رسول الله، وقد التزم الصحابة رضي الله عنهم هذا الأدب، فصاروا ينادون النبي ﷺ بوصفه بالنبوة أو بالرسالة، وما ورد على خلاف ذلك من أقوال الصحابة أو دعائهم فإما أن يكون قبل النهي، وإما أن يكون من جاهل، كالذي يحصل من بعض الأعراب.

هذا ما ذهب إليه المؤلف وبعض المفسرين.

وقال آخرون: المراد من دعاء الرسول أي: دعاء الرسول إياكم فيكون المصدر مضافًا إلى فاعله أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إذا دعاكم كدعاء بعضكم بعضًا، إن شئتم أجبتم وإن شئتم تركتم، بل إن النبي ﷺ إجابته فرض، وعليه: فإذا أمرنا بأمر أو دعانا لأمر، فإن إجابته فرض علينا ليس كغيره إن شئنا أجبنا وإن شئنا تركنا، وعلى هذا فيكون في الآية نهيٌ عن معصية الرسول ﷺ وأمرٌ بطاعته.

قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ ويؤيد هذا قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإن سياق الآية يؤيد هذا القول.

لو قيل بأن الآية شاملة للمعنيين يجوز أو لا يجوز؟

الجواب: يجوز أن نجعلها شاملة للمعنيين؛ لأننا أطلقنا قاعدة بهذا؛ وهو أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين بدون تناقض فإنها تُحمل عليهما جميعًا، أما إذا كانت تحتمل المعنيين، لكن معنى كل

آية مخالف للآخر، فإنه حينئذٍ يجب طلب الترجيح الذي يرجِّح أحد المعنيين فيؤخذ به، وأما إذا كانت صالحة لهما، ولا منافاة بينهما، فإن الواجب حملها على المعنيين جميعًا.

فعليه نقول: إن هذا من باب الأدب في مخاطبة الرسول ﷺ، والأدب في إجابته، في مخاطبته، ما نجعل مخاطبته ودعاءنا إياه كدعاء غيره، وفي إجابته لا نجعل دعاءه وطلبه لأمر من الأمور كطلب غيره، ومن ثَمَّ قال أهل العلم: لو دعاه النبي ﷺ وهو يصلي تجب عليه الإجابة.

ولو دعاه والده وهو يصلي: فإن كان في فريضة لم يُجبه، وإن كان في نافلة أجابه إلا أن يعلم رضا والده بذلك بحيث يشعره أنه يصلي، فلا يهمه إذا كان يصلي ألَّا يجيب فهذا لا يجيبه، وأما إذا كان والده من الناس الذين لا يَعْذِرُون وكذلك والدته، فإنه يجيبه في النفل ويقطع صلاته.

[قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: يخرجون من المسجد في الخطبة من غير استئذان خفية مستترين بشيء، و﴿قَدْ﴾ للتحقيق].

قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ التسلل معناه: الخروج بخفية.

وقوله: ﴿لِوَاذًا﴾ أي: لائذين بشيء فهو مصدر في موضع الحال، أي يتسلل ويلوذ بشيء كالسارية مثلًا أو بشخص آخر، وما أشبه ذلك.

وقول المؤلف: في الجمعة، هذا بناءً على أن المراد بالأمر الجامع: خطبة الجمعة، وإذا قلنا: إن المراد به ما هو أعم أصبح يتسللون عن موضع الجمع، سواء في الجمعة أو في غيرها، فالله تعالى عالم بهؤلاء الذين يتسللون لائذين بشيء؛ لأنهم خرجوا عما صار المسلمون وعما يجب عليهم أن يكونوا عليه.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ قال المؤلف: ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، وإنما نَصَّ على ذلك؛ لأن كما هو معروف في علم النحو أن (قد) إن دخلت على ماضٍ فهي للتحقيق، وإن دخلت على مضارع فهي للتقليل مثل قولك: قد يجود البخيل، وقد يفهم البليد، فهذه للتقليل، لكنها أحيانًا تأتي للتحقيق مثل هذه الآية ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب:١٨].

وإنما جاء بالمضارع هنا لأجل أن يتبين أن هذا العلم ليس لما مضى فقط، بل ولما يُستقبَل، فعلم الله بهؤلاء المتسللين ليس علمًا بمن سبق تسلله؛ بل بمن سبق تسلله وبمن يأتي بعد ذلك.

وإخباره بأنه عالم به دليل على أنه سيجازيهم عليه، إذ لا فائدة من الإخبار بالعلم إلا ليكون مجازاة على ذلك.

ثم قال الله تعالى: [﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: الله أو رسوله ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاء ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة].

﴿فَلْيَحْذَرِ﴾: اللام لام الأمر، ولهذا سُكِّنَت بعد الفاء، ومعنى يحذر: يخاف، ولكنه إنما تقال

الحذر في مخوف مُحقَّق، المخوف غير المحقق يقال: فليخف، لكن فليحذر: دليل على أنه واقع هذا الخوف ويجب الحذر منه.

وقوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ المُتبادِر أن يقال: يخالفون أمره؛ لأن المخالفة فعل مُتَعَدٍّ بنفسه، لا بـ(عن) فكيف تُخرج الآية؟

على حسب ما علمنا فيما سبق أنه تخرج على أحد وجهين: إما أن يُجعل التجوُّز في الحرف، وإما أن يجعل التجوز في العامل، فهنا إما أن نقول: ﴿عَنْ﴾ زائدة، وإما أن نقول: إن يخالفون بمعنى: يخرجون عن أمره، وعليه فتكون ﴿عَنْ﴾ أصلية لا زائدة؛ لأننا ضَمَّنا الفعل معنًى يناسب هذا الحرف، فصار هذا الحرف في موضعه، وأن هذا الأخير هو الأصح: (كل ما جاءك حرف لا يتعلق بمثل عامله ظاهرًا فإننا نُؤَوِّل ذلك العامل إلى عامل يناسب ذلك الحرف، ويسمى هذا التضمين، يعني: تضمين الفعل فعلًا مناسبًا للمعمول).

وقوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ على الوجه الثاني بأن يخالفون تضمنت معنى يخرجون، يعني: يخالفون فيخرجون عن أمره، كأن إذ ضُمن الفعل الموجود فعلًا آخر، صار فيه دليل على معنى الفعل الموجود ومعنى الفعل المُضَمَّن، فالمعنى يخالف ويخرج، أي: يخرج مخالفًا لأمره.

وقوله: ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾ يقول المؤلف: [أي: الله أو رسوله].

هذه «أو» ليست للشك، ولكنها للتنويع، يعني: إما أن يكون الضمير عائدًا إلى الله، وإما أن يكون عائدًا إلى الرسول ﷺ، أيهما أرجح؟

إذا نظرنا ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ قلنا: للرسول، وإذا نظرنا إلى قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قلنا: إنها عائدة إلى الله، يكون هذا مُفرَّع على ما يفيده قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ من التهديد، يعني: قد يعلم الذين يتسللون، فليحذر هؤلاء أن يخالفوا أمر الله ـ عز وجل ـ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: عن أمر الله أن تصيبهم.

والمعنيان لا منافاة بينهما؛ لأن أمر الرسول ﷺ من أمر الله ـ تعالى ـ، فمن خالف عن أمر الله، فهو مُهَدَّدٌ بهذا الوعيد، ومن خالف عن أمر الرسول فهو مُهَدَّدٌ بهذا الوعيد، وهذا من بلاغة القرآن، حيث يأتي اللفظ صالحًا لمعنيين، فيشمل هذا وهذا، والسياق يؤيد أنها للرسول- ﷺ- وأقرب مذكور يؤيد أنها لله، ولكن ما أشرنا إليه: أمر الله وأمر رسوله شيء واحد.

وقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فَسَّرَ المؤلف الفتنة بالبلاء، والعذاب الأليم من الآخرة، وفي هذا نظر ظاهر فإن الفتنة ما تطلق على البلاء، إنما تطلق ـ كما سبق ـ على الصد عن دين الله، فمعنى الفتنة كما قال الإمام أحمد: الشرك؛ لأن الإنسان إذا رَدَّ بعض قول الرسول- ﷺ- وخالف أمره فهو لِهَوًى في نفسه، فيكون هذا الهوى معبودًا له، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾

[الجاثية:٢٣] وإذا سَهُل عليه المخالفة أول مرة سهل عليه أن يخالف بعدها؛ لأن المعاصي - في الحقيقة - سياج منيع هائل بين الإنسان وبين ربه، فإذا انتهك أول معصية سهلت عليه المعاصي.

وجرب نفسك حينما تخالف في أمر من الأمور، تجدك أول مرة خائفًا ولا تُقْدِم بسهولة لكن بعد هذه المرة في الثانية والثالثة والرابعة يكون الأمر عليك سهلًا، فالصحيح أن المراد بالفتنة هنا: الشرك كما قاله الإمام أحمد؛ لأنها من الصدِّ عن دين الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١].

وأما ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مؤلم، ولم يقيده الله تعالى في الآخرة، فهذا قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون فيهما جميعًا.

استدل العلماء بهذه الآية على أن الأصل في أمر الله ورسوله الوجوب، ووجه الدلالة: حيث حذَّر من هذين الأمرين فيمن خالف أمر الله أو أمر رسوله ﷺ، والتحذير من العقوبة دليل على أن المخالفة حرام؛ لأنه لا يُحذَّر من العقوبة إلا في أمر محرم، أما الأمر الذي ليس بمحرم فلا عقوبة فيه حتى يحذَّر منه.

وقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَوْ﴾: هذه هل هي مانعة اجتماع؟ أو مانعة خلو؟ يعني: هل المعنى إما هذا أو هذا ولا يجتمعان فتكون مانعة اجتماع مثل: تزوج هندًا أو أختها. هذه مانعة اجتماع؛ لا يمكن أن يجتمعا، فهل نقول إن هذه مانعة اجتماع، أو مانعة خلوّ، بمعنى أنه لا يخلو من أحدهما وربما يجتمعان؟

الجواب: مانعة خلو بمعنى: أنه لا يخلو من أحد هذين الأمرين المتوقعين أو منهما جميعًا؛ لاسيما إذا قلنا بأن الفتنة: الشرك، فإن العذاب الأليم ملازم لها.

الفوائد:

١ - **في الآية دليل على:** أن الإيمان ينقسم إلى ناقصٍ وكامل؛ لأن عدم الاستئذان في الأمر الجامع لا يوجب الكفر، ولكنه معصية تنافي كمال الإيمان، فالإيمان قد يراد به: مطلق الإيمان وقد يراد به: الإيمان المطلق، والفرق أن مطلق الإيمان يصدق ولو بإيمان ناقص، والإيمان المطلق: هو الإيمان الكامل، ففرق بين مطلق الإيمان بأن تضيف مطلق إلى إيمان، وبين أن تصف الإيمان بالمطلق، فالإيمان المطلق أي: الكامل، ومطلق الإيمان أي: أن يكون مع الإنسان أصل الإيمان، وإن لم يكن كاملًا، ففي قوله تعالى في كفارة القتل: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

المراد بالإيمان هنا: مطلق الإيمان؛ لأنه لا يشترط في عتق الرقبة أن يكون المعتَق كامل الإيمان، بل يكفي أن يكون مؤمنًا، ولو أن معه أصل الإيمان فقط.

وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور:٦٢] في هذه الآيـة، وفـي

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢] المراد بالإيمان: الإيمان المطلق، يعني: الإيمان الكامل هو الذي يكون على هذه الأوصاف.

٢ - **وفي الآية دليل على:** أن ولي الأمر يجب عليه التيسير على من تحت يديه؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور:٦٢].

٣ - **وفي الآية دليل على:** أن الاستئذان بدون عذر لا يُغفر؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أما إذا استأذنوا لمجرد أنهم يرون أن يتركوا العمل؛ فإنه لا يؤذن لهم.

٤ - **وفيها أيضًا دليل على:** تفويض الأمر إلى من له ولاية؛ لقوله: ﴿لِّمَن شِئْتَ﴾ ولكن هذا التفويض - كما أشرنا إليه - تفويض للمصلحة، لا لمجرد التشهي والإرادة، بل إذا رأى أن في الإذن لهم مصلحة أَذِنَ لهم، وإذا رأى أن المصلحة في عدم الإذن فلا يجوز أن يأذن لهم.

٥ - **وفيها أيضًا:** عناية الله - سبحانه وتعالى - بعباده المؤمنين؛ حيث أمر النبي ﷺ أن يستغفر لهم ليطمئنوا على هذا الانصراف.

٦ - **وفيه أيضًا:** أن الأولى عدم الاستئذان حتى لو أن الإنسان له شأن؛ لأن الأمر بالاستغفار دليل على أن هناك شيئًا من التفريط الذي أُمِرَ النبي ﷺ بأن يستغفر لهم عليه، وهذا صحيح بلا شك أن الأولى البقاء مع الجماعة، وأن الإذن أو الاستئذان بالانصراف أمر قد يكون فيه ذنب، ولهذا أمر الله نبيه أن يستغفر لهم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

٧ - **وفي الآية دليل أيضًا على:** انتفاع الإنسان بدعاء غيره لقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ والشواهد على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كثيرة، ولكن هل ينتفع الإنسان بعمل غيره - سوى الدعاء - أو لا ينتفع؟

الجواب: إن كان له أثر في ذلك العمل، فإنه ينتفع به بلا شك؛ مثل: أن يكون هو الذي سنَّ هذه السنة، يعني: ابتدأ العمل بها للناس، ودلَّ عليها، فإن النبي ﷺ يقول: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[1] وكذلك إذا كان له أثر في العامل مثل أن يكون والدًا له: «**فَإِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**»[2] فالوالد ينتفع بعمل ابنه إذا تبرع به له.

ولهذا جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي احتُبِسَت نفسها وإنها لو تكلَّمت

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣١)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٤٤٤٩)، وصححه الشيخ الإلباني في «الإرواء» (١٦٢٦).

لتصدَّقَت، أفأتصدق عنها؟ قال: «نَعَمْ»[1]، وكذلك المرأة التي سألت النبي ﷺ: على أمها صوم شهر فهل يُجزِئ أن تصوم عنها فأذن لها النبي ﷺ[2]، وكذلك الحج: حيث سألت امرأة النبي ﷺ فقالت: إن أباها أدركته فريضة الله على عباده بالحج شيخًا لا يستطيع الركوب على الراحلة، أفأحج عنه قال: «نَعَمْ»[3] وذلك في حجة الوداع.

فإذا كان للإنسان أثر في العمل أو في العامل انتفع به، لكن إن لم يكن له أثر فيهما؛ مثل أن يتبرع قريب لقريبه أو صديق لصديقه في عمل صالح، فهل يجزئ ذلك أو لا يجزئ؟

اختلف في ذلك أهل العلم: منهم من يرى أنه يجزئ، وأن الإنسان لو عمل عملًا صالحًا وجعل ثوابه لشخص من المسلمين فإنه ينتفع به، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد، على أن أي قُرْبة وطاعة يتقرب بها العبد إلى الله ويجعل ثوابها لمسلم حي أو ميت فإنه ينتفع بذلك، ودليلهم على هذا قياس غير الأولاد على الأولاد، قالوا: لأنه إذا جاز أن يصل عمل غير الإنسان إليه، فلا فرق بين أن يكون ولدًا أو غير ولد.

والذين قالوا بالمنع قالوا: إن الولد ليس كغيره؛ لأن الولد من أثر الإنسان ومن كسبه وفعله، وليس كالأخ والقريب والصديق ونحوهم.

أما الدعاء للمسلمين، فهذا أمر مجمع عليه، وفيه نص الكتاب والسنة والإجماع، ولا أحد يخالف في ذلك.

فإذا سألنا سائل أيهما أولى: أن أصلي ركعتين وأتصدق بثوابها لشخص من أقاربي غير الأب، أو أن أدعو لهذا الشخص في صلاتي؟

نقول: الأفضل أن تدعو له في صلاتك؛ لأن هذا أمر مُجْمَع على نفعه، وأما أن تتصدق عليه بثواب صلاتك فهذا مختلف فيه، من العلماء من يرى جوازه ومنهم من يرى أنه ليس بجائز، وليس بمشروع، وأن الميت لا ينتفع به.

هذا في غير من استُؤْجِرَ لعمل صالح ليهديه إلى غيره، كاستئجار بعض القرَّاء ليقرءوا قرآنًا للميت فإن هذا لا ينتفع به الميت قطعًا؛ لأن هذا الرجل الذي قرأ لأجل المال إنما قرأ للدنيا، ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فليس له حظ في الآخرة، وعلى هذا فلا ثواب لهذا القارئ وإذا لم يكن له ثواب هل ينتفع الميت بذلك؟ لا؛ لأنه إنما ينتفع بالثواب لا بمجرد القراءة، فإذا قلنا: إن هذا القارئ لا ثواب له لأنه أراد بعمل الآخرة الدنيا، بقي الميت غير مستفيد من هذه القراءة.

٨ - **ويستفاد منها:** وجوب احترام النبي ﷺ وتعظيمه، وأنه لا يجوز للإنسان أن يناديه كما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤).

ينادي غيره من الناس لما له من التعظيم والتوقير.

٩- **وفيه أيضًا ـ على الوجه الثاني في معنى الآية ـ:** أن دعاء النبي ﷺ للأمة ليس كدعاء غيره، فإذا دعاك إلى أمر أو أمرك به، فإنه يجب عليك ألا تجعل هذا الدعاء كدعاء غيره، لما في إجابته من امتثال أمر الله ورسوله.

١٠- **وفيه أيضًا:** تحريم المتسللين في الأمور الجامعة بدون عذر واستئذان؛ لقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

وهذه الجملة التي فيها أن الله يعلم، لا شك أنها تحذير لهؤلاء الذين يتسللون، وأنهم سوف يجازون على هذا العمل المحرم.



قال الله تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٦٤]

التفسير

قوله: [﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا].

﴿أَلَا﴾: أداة استفتاح، ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، ﴿لِلَّهِ﴾: خبر إن مقدمًا، ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ اسمها مؤخرًا، وتقديم الخبر يدل على الحصر، وتصدير الجملة بإن للتوكيد، وبألا للتنبيه والتوكيد أيضًا؛ لأن ألا الاستفتاحية تفيد التوكيد والتنبيه أيضًا، فإذا قلت: (ألا) فهذا قرع للسمع كأنك قرعت سمع المخاطب ثم تؤكد ذلك، ولهذا تجدون غالبًا «ألا» الاستفتاحية ملازمة لأداة توكيد ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ [يونس:٦٢]، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٥]، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:٥٥]؛ لأنها هي تفيد التوكيد، وعلى هذا فالجملة هنا مؤكدة بمؤكدين: بألا الاستفتاحية، والثاني: بإن المؤكدة.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه أُتِيَ بها بعد قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ كالدليل على أن ما حذر الله من الفتنة والعذاب الأليم على أنه أمرٌ لا يُعجِزُ اللهَ؛ لأن الله تعالى له ملك السموات والأرض، ومَنْ له ملك السماوات والأرض، فإنه لا يعجز عن تنفيذ ما هدد به وإيقاعه.

[﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿عَلَيْهِ﴾ من الإيمان والنفاق ﴿وَ﴾ يعلم ﴿يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾... إلخ].

﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ مر علينا أن قد إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها تفيد التقليل، كما في قولهم: قد يجود البخيل، لكنها تدل على التحقيق إذا دلَّت القرينة على ذلك، فهنا ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ لا يمكن أن نجعلها للتقليل؛ لأن علم الله - عز وجل - ثابت مستقر، فتكون «قد» في هذا: للتحقيق، ولم يُعَبِّر بقوله: قد عَلِمَ ما أنتم عليه، إشارة إلى ما سيفعلونه في المستقبل وأنه عليم بما سبق وبما يصدر، فهنا الاستقبال ليس للعلم ولكن للمعلوم، ليس للعلم؛ لأن علم الله - سبحانه وتعالى - سابق أزلي، وإنما هو للمعلوم الذي سيفعله هؤلاء فإن الله تعالى يعلمه باستمرار.

وقوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ يقول: الخطاب للمكلفين ﴿مَآ أَنتُمْ﴾ أيها المكلفون، ولو جعله للناس عمومًا لكان أولى، فيكون: ما أنتم أيها الناس عليه؛ ليشمل المكلَّف وغير المكلَّف؛ لأن غير المكلف أيضًا يثاب على ما يفعل من الأعمال الصالحة، ولا يُكتَب عليه ما يعمل من الأعمال السيئة، وعلى هذا فالله تعالى عليم بما هو عليه حتى غير المكلف.

وقوله: [من الإيمان والنفاق] ينبغي أن يكون هذا من باب التمثيل، وليس من باب الحصر؛ لأن الله يعلم ما نحن عليه ليس من الإيمان والنفاق فقط، بل من الإيمان والنفاق والعمل الصالح والعمل السيئ والرخاء والشدة وغير ذلك، كل ما نحن عليه من الأحوال والأعمال، فإن الله تعالى يعلمه.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ لما ذكر الله ما نحن عليه في الدنيا، ذكر ما نكون إليه يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني: ويعلم يوم يُرجعون إليه، كأنه تعالى بالعمل فيما نحن عليه في الدنيا حال العمل، ويوم نُرجع إليه حال الحساب والجزاء، فهو عالم بالحالين.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فيه التفات عن الخطاب أي: متى يكون].

فهذا لا بأس به قوله: متى يكون. ولكن لنا عليه مناقشة.

قوله: [فيه التفات عن الخطاب]، كيف عن الخطاب؟ يعني: ﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ هذا خطاب، ومقتضى السياق أن يقال: ويوم ترجعون إليه، لكنه التفت عن الخطاب إلى الغيبة، وفائدة الالتفات: تنبيه المُخَاطَب؛ لأن الأسلوب إذا تغير فلابد أن ينتبه المخاطب، بخلاف ما إذا كان الأسلوب على نسق واحد فإن الإنسان ينسجم معه، ولا يجد شيئًا يوجب الانتباه.

وللالتفات أيضًا فوائد أخرى تُفهم من السياق، لكن الشيء المهم الدائم هو التنبيه، لكن قد يكون فيه فوائد أخرى كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢ - ٤] هذا كله غيب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] هذا خطاب.

الفائدة منه: التنبيه، والفائدة الثانية: هو أنه لما وصفت الله بتلك الأوصاف، كأنه صار الآن أمامك فخاطبته مخاطبة الحاضر؛ لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وقوله: [متى يكون] في هذا نظر؛ لأنه ليس المراد أنه - سبحانه وتعالى - يعلم يوم يرجعون إليه متى يكون فقط، بل يعلم حالهم حينما يرجعون إليه، مع علمه أيضًا متى يرجعون إليه، فمتى يرجعون إليه عالم به بلا شك، لكن السياق لا يؤيده، بل يؤيد أنه عالم به: حال عملهم وحال الجزاء على العمل، فيصير المعنى ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ماذا يكونون عليه من الحال، كما أنه يعلم متى يرجعون سواء كان رجوعًا عامًّا كيوم القيامة، أو خاصًّا كموت الإنسان هذا أيضًا مرجعه إلى الله عز وجل.

وقوله: [﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ فيه أي: في هذا اليوم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الخير والشر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمالهم وغيرها ﴿عَلِيمٌ﴾].

﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾أي: يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: من خيرٍ وشر، وفائدة الإنباء هو الاستقرار، يعني: يستقرهم حتى يكون جزاؤهم على وجه العدل الذي أقروا به هم، فلا يقولون: إنما ظُلمنا، فالله يقول: عملتم كذا وعملتم كذا، حتى يقروا بذلك ثم بعد هذا الإقرار يترتب الجزاء، فضلًا أو عدلًا؛ لأن الجزاء إما فضل، وإما عدل، وإما جَوْر، فالثالث الأخير مُنتفٍ عن الله، والأولان ثابتان، فإن جزاءَهُ سبحانه وتعالى بين العدل والفضل، فجزاء الحسنات من قبيل فضل، وجزاء السيئات من قبيل العدل إذا جازى كل سيئة بمثلها، وإن عفا - سبحانه وتعالى - فهو من باب الفضل.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا عام، كل شيء من أعمال بني آدم صغيرها وكبيرها، ومن غيرها أيضًا فإن الله تعالى عليم بها، والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، فالله تعالى مُدْرِكٌ كل شيء إدراكًا جازمًا، فإنه سبحانه وتعالى ليس في علمه شك ولا ظن، بل كل علمه علم يقيني.

الفوائد

في هذه الآية من الفوائد:

١ - **فائدة لفظية وهي:** أنه ينبغي تأكيد الأمور الهامة والتنبيه عليها، وأن تُصَدَّر الأمور الهامة بما يؤكدها، وينبه عليها؛ لقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنَّ عِلمنا بذلك وإقرارنا به واعتقادنا له هذا أمر مهم، ولهذا أُكِّد بألا وإن.

٢ - **وفيها:** عموم ملك الله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٣ - **وفيها:** عموم علمه؛ لقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ وإن علمه - تبارك وتعالى - في الحاضر والمستقبل لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ويعلم يوم يرجعون إليه.

٤ - **وفيها:** إثبات الميعاد والبعث لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

٥ - **وفيها أيضًا:** إثبات الحساب لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾.

ثم هذا الإنباء هل هو مناقشة أم مجرد إخبار؟

الجواب: هنا ليس بمناقشة بل مجرد إخبار؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ نُوْقِشَ الحِسَابَ عُذِّب»[1] أو قال: «هلك»؛ لأن لو نُوقش وقال مثلًا: عملت كذا وكذا من الأعمال الصالحة، وثبت ذلك له ثم قوبلت هذه الأعمال بنعمة من النعم استوعبتها النعمة وخلصتها، وبقي الإنسان مطلوبًا، هذا المناقشة لكنها تعرض الأعمال حتى يُحيطَ بها العبد، ثم بعد ذلك يرتِّب الله الجزاء كما يريد وكما يشاء.

أما بالنسبة للكفار، فإنهم لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، لأنهم ما لهم حسنات، وإنما تعرض عليهم الأعمال على وجه العار والخزي - والعياذ بالله -، حتى يُقِرُّوا بها ويقولوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، ثم يكون بعد ذلك مآلهم النار.

٦ - **وفيها أيضًا:** دليل على عموم علم الله لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفائدة ذكر عموم العلم: التحذير من المخالفة؛ لأن من عَلِمَ بك ممتثلًا أو مخالفًا فسوف يجازيك على ذلك، فإذا كان الأمر هكذا، ففي كل آية فيها إثبات العلم تحذير من مخالفة الله - عز وجل - لئلا يقع الإنسان فيما يُسْخِطُ الله - سبحانه وتعالى - عليه.

٧ - **وفيه فائدة لفظية أيضًا:** وهي التحول: تحويل الخطاب من الغيبة إلى الخطاب، أو من الخطاب إلى الغيبة الذي يسميه أهل البديع الالتفات، وهذا لا يخلو من فائدة وهي: تنبيه المُخَاطَب وله فوائد مضافة إليها حسب ما يقتضيه السياق.



تم - بحمد الله - تفسير سورة النور

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

الفهرس